جامعة الملك عبد العزيز
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة
قسم الدراسات العليا التاريخية

صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر

خلال القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي الحديث

إعداد الطالب
غسان علي محمد الرمال

تحت إشراف
الأستاذ الدكتور محمد عبد اللطيف البحراوي

عام
١٤٠٠هـ - ١٤٠١
١٩٨٠م - ١٩٨١



الفِهْرِسُ

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

... ...

المُقَدِّمَة

البرتغال فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى

أ - الدولة الحديثة فى البرتغال .
ب - الموقع الجغرافى .
ج - الكنيسة البرتغالية .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء وعلى آله وصحبه أجمعين ٠

لعل المدخل المناسب لموضوع البحث هو اشارة بسيطة الى أن الصراع بين العالم الاسلامى والبرتغال فى القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى انما هو فى حقيقة أمره امتداد للحروب الصليبية التى شغلت بهـا من قبل الجبهات الشمالية للعالم الاسلامى فى الشام ومصر ، ومن ثـم سواحل الشمال الافريقى العربى ٠

ولعل ما دفعنى الى خوض غمار هذا البحث هو شعورى بغموض ذلك الجزء من التاريخ الاسلامى الحديث بالنسبة للبحر الأحمر ودول الطـراز وعلاقة ذلك والموضوع كله بتطورات تاريخية أخرى فى أوربا والمحيطين الأطلسى والهندى ، ومن ثم اتصف موضوعى هذا بالاتساع والشمول بالنسبة لغيره من كثير من الموضوعات ٠

كانت البرتغال دولة استعمارية كبرى ، لهذا حظيت باهتمام بالـغ من قبل المؤرخين والكتاب المعاصرين ، ولاحظت بعد فترة وخاصة عقـب زيارتى الأولى للقاهرة ، أن الكتب الأجنبية التى تناولت الدولة البرتغالية تكاد تنحصر فى مجموعتين مجموعة أولى تتركز فى الحديث عن البرتغال كدولـة استعمارية بصفة عامة ، بحيث يشمل الكتاب النشاط البرتغالى امتدادا مـن سواحل المغرب الأقصى على المحيط الأطلسى نهاية بالصين ٠

أما المجموعة الثانية فتشمل الكتب التى تحدثت عن البرتغال فى منطقة معينة ، كأن يكون الكتاب عن الاستعمار البرتغالى فى غرب افريقيـة أو جنوب الجزيرة العربية وغيره ، من هنا وجدت أن الصعوبة لم تكن كامنـة فى كيفية كتابة البحث بقدر ما كانت الصعوبة كامنة فى كيفية ايجاد المصـادر اللازمة لكتابة البحث ٠

كانت البداية تحت إشراف المرحوم طيب الذكر أستاذى الدكتـــــور محمد كمال عبد العليم الدسوقى ، بحيث تم تحديد موضوع البحث خـــلال القرن الخامس عشر الميلادى والنصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى وقد تناولت المقدمة والفصل الأول دراسة مطولة عن أوضاع المسلمين فى شبــه الجزيرة الايبيرية طيلة القرن الخامس عشر الميلادى .

أما الفصلين الثانى والثالث فقد تضمنا الاستعدادات والمحـــاولات البرتغالية ودوافعها للانطلاق نحو الشرق بداية من منتصف القرن الخامـــس عشر الميلادى .

وأخيرا كان الفصل الرابع والأخير والذى شمل نحو أربعين عاما مـــن القرن السادس عشر الميلادى لدراسة الغزو البرتغالى للبحر الأحمر ، أى كنا قد توقفنا عند استشهاد الامام القرين عام ١٥٤٣ م ، بحيث تركنا النصـــف الثانى من القرن السادس عشر الميلادى ، تلك هى مجمل خطة البحث الـتى سرنا عليها فى عهد المرحوم الأستاذ الدكتور محمد كمال الدسوقى .

وكما ذكرنا من قبل كنا نعانى صعوبة فى سبيل الحصول على المراجـــع الأجنبية ، وحدث أن زرت القاهرة للمرة الثانية ، وفى تلك الفترة كنـــت قد علمت بوجود موسوعة Kammerer البحر الأحمر La Mer Rouge باللغة الفرنسية ، والواقع أننى حاولت خلال الزيارة الأولـــى الحصول على تلك المراجع أو محاولة الاهتداء اليها ، ولكنى لم أوفق اليها الا أثناء زيارتى الثانية للقاهرة .

وهنا تجلت الصعوبة فى عدم الماما باللغة الفرنسية الى جانـــــب الصعوبات الأخرى التى كنا نواجهها ، فعلى الرغم من حصولى على النســخ

المطلوبة من تلك الموسوعة وقيامى بترجمة فصول عديدة منها الا اننا لم نحظ بالفائدة المطلوبة والمرجوة. ولم تلبث الأيام أن فجعتنا بوفاة الأستاذ الدكتور محمد كمال الدسوقى ، وعلى أثر ذلك نقل الاشراف على الرسالة الى سعادة الأستاذ الدكتور محمد عبد اللطيف البحراوى الذى لمست منه كل عون صادق أثناء تلك الفترة الحرجة ، وبالتالى انحصر موضوع البحث فى القرن السادس عشر الميلادى أى منذ بداية القرن الى نهايته ، وكانت قد مضت سنتان تقريبا ولم يعد هناك متسع من الوقت خاصة وأنه اتضح أن النصف الثانى من القرن السادس عشر الميلادى يمثل احدى الركائز الهامة فى موضوع البحث بعد أن كان تصورى أن الصراع بين الطرفين ينتهى قبيل منتصف القرن السادس عشر الميلادى ، وكان ذلك يعنى جهودا جديدة فى سبيل البحث عن مصادر ومراجع أجنبية أخرى لتغطية الفترة الجديدة .

ففى السابق كان اعتقادى أو بالأحرى مجمل الدراسة التى وصلت اليها أن الصراع بين المسلمين والبرتغاليين يتوقف مع استشهاد الامام أحمد القرين عام ١٥٤٣ م ، ولكن وضح لى أن الصراع يمتد الى نهاية القرن السادس عشر الميلادى ، خاصة بعد تدخل البابوية مع بداية النصف الثانى من القرن السادس عشر بحيث أصبح البحر الأحمر منطقة صراع دولى بعدما كان اعتقادى أن الصراع ينحصر فى التدخل العثمانى والبرتغالى فى الصراع الناشب بين مسلمى الطراز والحبشة .

من ثم حدث تعديل أساسى فى موضوع البحث كالتالى :

المقدمة ، وهى بعنوان البرتغال فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، وقد شملت ظهور الدولة الحديثة فى البرتغال ومقوماتها ، ومن ثم الموقع الجغرافى الذى كان له دور كبير فى اتجاه البرتغاليين نحو البحر وأخيرا الكنيسة البرتغالية وأثرها فى اثارة النزعة الصليبية بين سكان شبه

الجزيرة الأيبيرية ضد المسلمين ٠

الفصل الأول ، وقد جاء بعنوان دوافع ومقدمات وصول البرتغاليين الى المحيط الهندى والبحر الأحمر ، ويتكون من خمس فقرات ، الفقرة الأولى والثانية خاصة بالدوافع التى قادت البرتغاليين للانطلاق الى الشرق ، فهناك الدوافع الصليبية حيث تعرضنا لموقف البابوية من العالم الاسلامى قبيل نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، ودورها فى سبيل تشجيع حركة الكشوف الجغرافية فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، ومن ثم تهديدها المستمر للعالم الاسلامى عن طريق تلك المناشير والخطب الرنانة ، ومحاولة توحيد القوى الأوربية لارجاع العثمانيين الى آسيا ، يلى ذلك الدوافع الاقتصادية حيث تطرقنا لدور العالم الاسلامى بالنسبة لطرق التجارة العالمية ومدى ما كانت تجنيه دول المنطقة من أرباح مرور تلك التجارة بأراضيهم ، بحيث أصبح ذلك العامل من العوامل المهمة التى سحت البابوية ودول شبه الجزيرة الأيبيرية فى سبيل تحويل مجراها عن أراضى المسلمين ، وتحدثنا كذلك عن أثر الجهاد البحرى (القرصنة) فى الحوض الغربى للبحر الأبيض المتوسط والذى كان بمثابة كابوس لدول أوربا فى تلك المنطقة تسعى لازالته ، وأخيرا منافسة المدن الايطالية فى تجارة أوربا لحرمانها من تلك الأموال الطائلة التى كانت تجنيها تلك المدن نتيجة قيامها بتوزيع سلع الشرق على أوربا ، وما نتج عن احتكارها لعملية التوزيع ، أما الفقرات الثالثة والرابعة والخامسة فكانت خاصة بمقدمات وصول البرتغاليين الى المحيط الهندى ، حيث تعرضنا لبداية تلك المقدمات بنزول البرتغاليين مدينة سبتة واتخاذها نقطة انطلاق لاكتشاف المجهول حول سواحل افريقيا الغربية حتى وصول بارثلميو دياز رأس الرجاء الصالح ، ومن ثم شمل الحديث استخدام البرتغاليين علوم العرب فى البحر والملاحة ومدى الاستفادة التى خرج بها سكان شبه الجزيرة الأيبيرية من كنوز العرب العلمية فى أراضيهم ، وختم الفصل بوصول

البرتغاليين لأول مرة الى المحيط الهندى وتجولهم فى سواحل شرق افريقيـة والسواحل الهندية ، وهول المنظر الذى صادفوه فى موانى السواحل السابقة حيث طرق التجارة العالمية .

أما الفصل الثانى فانه بعنوان الصراع فى البحر الأحمر قبل العصـر العثمانى ، وكانت بدايته الحديث عن العلاقات البرتغالية الحبشية وأصـول بدايتها ، والمحاولات الأوربية بصفة عامة للوصول الى مملكة القديس يوحنـا ، اضافة الى النظرة البرتغالية تجاه دور الحبشة فى مشاريعها الصليبية ضـد الأماكن المقدسة ، ومن ثم مجرى الاتصالات بين الطرفين ، ولما كانـت الأهداف الصليبية تجمع البرتغاليين والأحباش داخل البحر الأحمر ، كـان من الطبيعى أن نتناول تهديد البرتغاليين للأماكن المقدسة الاسلامية عـلى ضوء تلك الاتصالات السابقة والمحاولات التى قام بها البرتغاليون فى سبيـل احتلال جدة ، ومن ثم الانطلاق الى الأماكن المقدسة فى مكة والمدينـة ، ثم تطرقنا بعد ذلك لدور دولة المماليك فى الصراع والجهود التى بذلهـا السلطان الغورى فى سبيل حماية البحر الأحمر ، والحملات التى أرسلت الـى الهند ، بعد أن قدمنا لذلك نبذة قصيرة عن الأحوال السياسية والاقتصادية التى مرت بها مصر مع مطلع القرن السادس عشر الميلادى ، وأخيرا خـتم الفصل بالحديث عن موقف امارات الطراز الاسلامى من الغزو البرتغالى فـى العصر المماليكى ، والأحوال الداخلية لتلك الامارات وموقف الحبشة العدائـى لهـا .

أما الفصل الثالث ، فقد اشتمل على فقرتين ، الأولى تناولنا فيهـا الحديث عن سيطرة البرتغاليين على تجارة المحيط الهندى بداية مـن الحملات البرتغالية التى خرجت مع بداية القرن السادس عشر الميلادى ،والمراكز التجارية والقواعد العسكرية التى أنشئت على امتداد سواحل المحيط الهنـدى

سواء فى شرق افريقية أو الخليج العربى أو سواحل الهند ، والسياسة التى اعتمدها البرتغاليون فى سبيل تنفيذ مخطط السيطرة بالقوة ، أما الفترة الثانية فقد تحدثنا فيها عن خطة البرتغاليين الاقتصادية لاضعاف العالم الاسلامى بعدما نجحوا فى فرض سيطرتهم بالقوة على طرق التجارة العالمية بين الهند ومداخل بحار العرب الجنوبية فى الخليج العربى والبحر الأحمر والأسس التى اعتمدها البرتغاليون فى سبيل ضمان عدم وصول سلع الهند والشرق الأقصى الى بحار العرب الداخلية المغلقة عليهم .

أما الفصل الرابع ، فهو بعنوان الصراع بعد فتح العثمانيين مصر ، وهو فى الواقع تكملة للفصل الثانى حيث اشتمل على فقرتين الأولى فتح العثمانيين عدن واغلاق البحر الأحمر ، بحيث تناولنا موقف الدولة العثمانية من الغزو البرتغالى عقب دخول السلطان سليم القاهرة ، والأسباب التى أعاقت العثمانيين عن اتخاذ خطوات سريعة فى سبيل مواجهة البرتغاليين خارج البحر الأحمر ، ومن ثم التعرض لسياسة الدولة منذ عام ١٥١٧ م حتى فتحهم عدن ١٥٣٨ م ، والنتائج التى يمكن الخروج بها من تلك السياسة ، أما الفقرة الثانية فكانت خاصة بأدوار الصراع بين الدولة العثمانية صاحبة الشأن والبرتغاليين بداية من عام ١٥١٧ م ، والحملات البرتغالية التى كانت تأخذ طريقها باستمرار نحو البحر الأحمر ، اضافة الى الصراع الذى دار على السواحل الغربية للبحر الأحمر بين مسلمى الامارات والحبشة وموقف كل من الدولة العثمانية والبرتغاليين من ذلك الصراع ، اضافة الى تتبع المحاولات التى قامت بها البعثات الكاثوليكية فى سبيل النزول على السواحل الغربية والانضمام الى الأحباش فى هضبتهم . ويعتبر هذا الفصل هو لب الرسالة وأكثر الفصول أهمية ولذلك انفرد بقسط كبير من العمل والوقت .

وأخيرا الخاتمة وتشمل النتائج والتحليل .

أما لماذا كان هذا الصراع فى البحر الأحمر بين المسلمين من ناحية وبين البرتغاليين من ناحية أخرى فى هذه الفترة المحددة لموضوع الرسالة فان بيان ذلك يضطرنا للاشارة الى أنه بانتهاء العصور الوسطى فى أوربا ، كانت الاعتبارات الجغرافية اشتراكا مع وحدة اللغة والجنس والمذهب قد ساعدت على تقسيم العالم الأوربى الى أمم موحدة ، وأمم شبه موحدة وأخرى تأخرت فى تحقيق وحدتها .

ومع نشأة الدولة الوطنية الحديثة فى الأمم الموحدة ، اتجهت هذه الدول نتيجة لشعورها بقوة مركزها وانضواء شعبها تحت راية واحدة الى محاولة التوسع وبسط سيطرتها على غيرها من الأمم والشعوب التى تأخر تكوينها ، وكانت أقل تنظيما سواء فى داخل أوربا أو فى خارجها [1] ولهذا اتجهت الدول الموحدة فى أوربا نحو توسيع أملاكها داخل القارة كما حدث فى ايطاليا عندما نشب الصراع الفرنسى الأسبانى المعروف بالحروب الايطالية بينما اتجهت دول شبه الجزيرة الأيبيرية بحكم موقعها الى التوسع خارج أوربا ، وهو ما يشار اليه أحيانا بالكشوف الجغرافية .

وكان من الطبيعى أن تكون البرتغال [2] من أسبق ممالك شبه الجزيرة

---

(١) د. السيد رجب حراز : عصر النهضة ٣٠٧ . دار النهضة العربية ، القاهرة .

(٢) لم تكتمل للبرتغال شخصيتها المستقلة ، الا بعد صراع طويل انقسمت فصوله الى قسمين ، أما القسم الأول فكان ضد المسلمين . وأما القسم الثانى فكان ضد مملكة قشتالة .

— د. سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا فى العصور الوسطى ج ١ ٥٧٠ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٥ ، القاهرة ، ١٩٧٢م .

الأيبيرية مقاومة للعرب بحكم الظروف التاريخية ،اذ تأخرت أسبانيا عنها بسبب انشغالها في تحقيق الوحدة الوطنية وفي حركة الاسترداد ضد العرب .(١)

وتؤلف البرتغال شريطا طويلا يمتد بحذاء السواحل الغربية المطلة على المحيط الأطلسي من شبه أيبيريا ، وهي تقاسم أسبانيا ذلك الركن الذي يقع في الطرف الجنوبي الغربي من القارة ، ويبلغ طول هذا الشريط نحو ٥٠٠ ميل منها ١٠٠ ميل الى الجنوب ، وقد تميز هذا الشريط بكثرة الموانى العميقة المحمية.(٢)

وتتألف البرتغال من كتل جبلية صخرية وهضاب ، ومناخها جاف شديد ، وسهولها الزراعية نادرة وموجودة في أطراف شبه الجزيرة .

تلك العوامل السابقة هي التي ساعدت البرتغال على الاتجاه للبحر ، فقد كانت بلادهم تتمتع بموقع هام لوجودها على الطرق التجارية بين موانئ البحر الأبيض المتوسط وشمال غرب أوربا ، مما جعلها أقرب الى السواحل الافريقية ، حيث أعطاها ذلك أهمية استراتيجية وتجارية تجلت في عاصمتها لشبونة التي كانت مركزا لتجارة غرب افريقية المستوردة الى غرب أوربا(٣)، وهذا

---

(١) عبدالكريم التواتي : مأساة انهيار الحكم العربي في الأندلس ٤٦٢ . مكتبة الرشاد ، الدار البيضاء .

(٢) د . محمدعبداللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ٤٠ . مكتبة دار التراث ، ط ٥ ، القاهرة ، ١٣٩٩ هـ .

(٣) د . شوقي الجمل : تاريخ كشف افريقية واستعمارها ١٥٤ ، ١٥٥ . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧١م .

بدوره وفر الأموال اللازمة التى ساعدت ملوك لشبونة على توحيد أجزاء البلاد الداخلية ، وجعلتهم يعملون باستمرار من أجل الوصول الى مواطن التوابل لاحتكارها [١] ، وهو الأمر الذى أدى الى عدم اغفال ملوك البرتغال لمدى حاجة بلادهم الى أسطول قوى لتفتح لنفسها طريقا جديدا للثروة والقوة .

وقبيل سقوط غرناطة بفترة طويلة ، نعمت الموانىء البحرية الواقعة على ساحل المحيط الأطلسى بنوع من الازدهار نتيجة النشاطات البحرية التى شهدتها هذه الموانىء ، حيث كانت سواحل كنتبريا مجالا لنشاط عارم [٢] ، تجلى فى أعمال الصيد والمبادلة التجارية التى كانت آخذة فى الازدياد مع سكان أوربا الشمالية الغربية ، هذه النشاطات كانت بمثابة اعداد نفسانى لسكان الموانىء هيأهم للاشتراك فى الرحلات ذات المدى البعيد . [٣]

وحتى قبيل ظهور الأمير هنرى الملاح لم يكن رجال البحر البرتغاليون أكثر من صيادين خالين من كل ثقافة بحرية معتبرة ، الأمر الضرورى للرحلات

---

(١) ذ . عبد الكريم كريم : المغرب فى عهد الدولة السعدية ٥ ، ط ٢ ، الدار البيضاء ، ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨م .

(٢) امتازت سواحل كنتبريا بوجود ميناء لشبونة الذى لا يوازيه أى ميناء فى أوربا من حيث موقعه المناسب لخدمة المشاريع الاستكشافية للبرتغال .
— ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٢٤ . ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢م .

(٣) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ترجمة يوسف أسعد داغر ، فريد محمد داغر ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٦٥م .

الطويلة ، لذلك استقدم الأمير هنرى عددا من راسمى الخرائط الجغرافية والفلكية من ميورقة وصقلية لتمرين رجال البحر وتعليمهم مهن الملاحة على الطرق الحديثة وعلى أساس علمى صحيح (١) ، كذلك استقدم عددا من الصناع الماهرين فى صناعة السفن لتحسين صناعتها فى بلاده وتطويرها حتى تكون صالحة للملاحة فى جميع الأجواء والبحار ، هذا الى جانب قيامه بتحويل كثير من سفن الصيد الى سفن للحرب والنقل (٢) ، وبذلك تكون البرتغال قد يسرت لنفسها أمر ملاحقة المسلمين ومهاجمة سواحل افريقيا الشمالية بعدما أجلت الكثير منهم ، مما جعلها تفقد أى اتصال جغرافى بهم .

وأخيرا يجب أن لا ننسى جبال البرانس كحاجز طبيعى فصلها عن أوربا فكانت هذه الجبال بمثابة حاجز لشبه الجزيرة الأيبيرية عما دار خلف جبال البرانس من حركات دينية وما تابعها من حروب ، حيث تميزت بالارتفاع الشاهق ، وهى التى سماها العرب ابان انتقالهم من أسبانيا الى فرنسا بجبال الحاجز ، وبذلك تمكنت البرتغال من تجنب الحروب الدينية التى بدأت فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى حينما دعا مارتن لوثر أوروبا الى مذهبه البروتستانتية ، الأمر الذى أدى الى اغراق أوربا بالمشاكل الدينية ، حيث شمل الانقسام المجتمع الأوربى الذى توزع بين الكاثوليكية والأرثوذكسية والبروتستانتية .

---

(١) د٠ محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٥٧ .

(٢) د٠ زاهر رياض : كشف القارة الأفريقية ٩٨ .

— د٠ محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٥٧ .

وكان من جراء الحروب المستمرة ضد المسلمين فى شبه الجزيرة الأيبيرية سواء فى أسبانيا أو فى البرتغال أن أسبغت عليهم لونا شديدا من الخشونة والقسوة والتعصب ، ومع نهاية القرن الخامس عشر الميلادى أصبحت البرتغال قلعة المسيحية الكاثوليكية فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، خاصة وأن الاسلام كان بالنسبة للبرتغال كابوسا يرغبون فى ازاحته ، وقد عرف سكان شبه الجزيرة الأيبيرية بتعصبهم الشديد وعدائهم للاسلام والعرب ونزعتهم الصليبية التى جعلتهم لا يستولون على بلد اسلامى الا محوا آثار المسلمين منه محوا ، وهو ما يفسر لنا قلة الآثار المعمارية الاسلامية فى البرتغال عنه فى أسبانيا . (١)

ولا يغيب عن الذهن أن البرتغال برزت على المسرح الصليبى بعد سلسلة طويلة من الحروب الصليبية شنتها على المسلمين فى شبه الجزيرة الأيبيرية مما جعلها تتخذ من شن الحرب عليهم ومعاداتهم محورا لسياستها العامة كما سنرى فيما بعد (٢) ، كذلك يجب أن نلاحظ هنا أن طرد

---

(١) د . حسين مؤنس : رحلة الأندلس أو حديث الفردوس المفقود ٣٩٥ ط ١ ، القاهرة ، ١٩٦٤م .

(٢) فى ربيع الآخر من عام ٨٥٨ هـ — ١٤٥٤ م أرسل أهل لشبونة من المسلمين خطابا الى حاكم مصر السلطان الأشرف اينال يطلبون منه مساعدة نصارى كنيسة القيامة بالقدس فى ترميمها ، وبناء ما هدم من كنائس النصارى حتى لا يحدث لهم على أيدى نصارى لشبونة سوء فتحول مساجدهم الى كنائس ، ويقال بأن ملك البرتغال هو الذى دفع المسلمين الى مكاتبة سلطان مصر بذلك .

— د . عبدالمنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ٢٤١ ، بيروت ، ١٩٦٦م .

— د . أحمد السيد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ٨٣ ، القاهرة ، ١٩٦١م .

البرتغال البقية من مسلمي لشبونة عام ١٤٦٩م (١) ، وافق الوقت الذى خان فيه حكام اسبانيا وعودهم للعرب ، وقاموا بطردهم من غرناطة وان دل ذلك على شئ فانما يدل على مدى عمق النزعة الصليبية وتأصلها فى نفسية ساكن شبه الجزيرة الايبيرية من المسيحيين ، لهذا لم يكن من الغريب أن يعجل البرتغاليون بمطاردة مسلمى افريقية ومحاولة الالتفاف حول افريقية .

ويظهر للعيان مدى قوة التعصب الكنسى ضد المسلمين ، لو أمعن النظر فى محاكم التفتيش التى ظهرت فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، والتى كانت فاتحة لسياسة القمع الهائلة التى وضعت لاستئصال الاسلام من الأندلس (٢) ، تلك المحاكم التى راح ضحيتها الآلاف من المسلمين ، ومن خالف المذهب الكاثوليكى ، وبلغ التعصب الكاثوليكى مداه ضد المسلمين فى قول أحد المؤرخين البرتغاليين " ان الشهاب البرتغالى كان يعتقد أن المسلمين اذا كانوا قد التجأوا من شبه جزيرة الأندلس الى الشمال الافريقى، فان الواجب يحتم على المسيحيين ألا يتركوهم ينعمون بالمقام هناك بل أن يتعقبوهم حيث وصلوا ". (٣)

---

(١) محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ، العصر الرابع ، ٣٢٢ .

(٢) محمد عبد الله عنان : ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى ٢١ .

(٣) د . شوقى الجمل : المغرب العربى الكبير فى العصر الحديث ٤٤، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٧٧م.

لهذا تحركت حملة بحرية عام ١٤١٥ م هاجمت ميناء سبتة ، وتمكنت من الاستيلاء عليه ، وبذلك تمكنت البرتغال من تأسيس أول قاعدة لها على الساحل المغربي ، ويبدوا انها اختارت هذه المدينة حتى تتمكن من شطر المغرب الاسلامي الى قسمين حتى تسهل عملية اجتياحه (١) ، اذ انهم قاموا بعد ذلك بمحاولات أخرى لبسط السيطرة على مدن أخرى على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، غير ان المقاومة المغربية اضافة الى حركة الجهاد البحري في ممر جبل طارق والبحر الأبيض المتوسط كانتا تسبب للبرتغاليين الكثير من المتاعب فوجهوا ابتداء من حكم الملك عمانويل الأول ١٤٩١ م أنظارهم نحو المدن الواقعة على الساحل المغربي الأطلسي ، حيث جد عامل جديد في سبيل انطلاقهم في السنة التالية الا وهو سقوط غرناطة بأيدي الأسبان ١٤٩٢م .

ويسرني أن هذه الرسالة بموضوعها هذا تعتبر جزءا من خطة بحوث الدراسات العليا التاريخية فيما يختص بدراسة التاريخ الاسلامي الحديث لشبه الجزيرة العربية والبحار العربية ، تلك الخطة التي يضطلع بها حاليا قسم التاريخ الاسلامي بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة .

---

(١) د. صلاح العقاد : المغرب العربي ١٤ ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٩م .

— عندما كانت أسبانيا مقسمة ، كان العرب بمثابة حاجز وقف في وجه أوربا في سبيل التقدم نحو الكشوف الجغرافية ، وكانت عملية الاتحاد عاملا مساعدا للتقدم نحو المغرب من قبل البرتغاليين واتخاذه نقطة ارتكاز للانطلاق نحو شرق افريقية .

لذلك فانى أرجو أن أكون قد ساهمت فى تنفيذ تلك الخطة ، وفى اضافة جديد قيم الى المكتبة العربية الاسلامية .

وبهذه المناسبة فانى أقدم شكرى وتقديرى الى كلية الشريعة والدراسات الاسلامية وقسم التاريخ ، وسعادة أستاذى المشرف على الرسالة الدكتور محمد عبد اللطيف البحراوى للمساعدات القيمة والتشجيع المستمر والأخذ بيدى لانجاز الرسالة وخاصة فى ذلك الوقت الحرج الذى تعرض له البحث وأشرت اليه من قبل والذى أدى الى ضرورة منحى فرصا استثنائية مكنتنى فعلا من الوصول الى ما وصلت اليه فى رسالتى هذه .

وآخر ما أختتم به مقدمتى هو الحمد لله رب العالمين .

... ...

الفصل الأول

دوافع ومقدمات وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندى ومدخل البحر الأحمر

أ - الدوافع الصليبية.
١ - دور البابوية.
٢ - تهديد العالم الإسلامى.
ب - الدوافع الاقتصادية.
١ - سيطرة المسلمين على طرق التجارة العالمية.
٢ - أثر الجهاد البحرى (القرصنة) فى الحوض الغربى للبحر المتوسط.
٣ - منافسة المدن الإيطالية فى تجارة أوربا.
ج - دوران البرتغاليين حول افريقية.
د - استخدام البرتغاليين علوم العرب فى البحر والملاحة.
ه - وصول البرتغاليين المحيط الهندى ومدخل البحر الأحمر.

رأت البابوية مع نهاية العصور الوسطى ، ضرورة اتخاذ نهج جديد تجاه مجابهة العالم الاسلامى ، نتيجة فشل مشروعاتها فى العصور السابقة ، وظهور الأتراك العثمانيين ، الذين أصبحوا بمثابة حاجز يحول دون وصول مبشرى أوربا الى آسيا (١) ، اضافة الى خيبة الأمل فى نفوس الكثيرين من رجال الكنيسة الذين كانت لهم السيطرة على المناصب العليا فى حكومات أوربا ، نتيجة ضياع الأماكن المقدسة .

لهذا لم يكن من الغريب أن تنشط البابوية ضد العالم الاسلامى ، عن طريق دعوة ملوك أوربا الى مؤازرتها ، لمواجهة الاسلام وصده عن أوربا ، أولا بالقضاء على وجوده فى أسبانيا ، ومن ثم مهاجمته من الجنوب ، ولم تلبث الأيام أن أكدت للبابوية ، ضرورة الاسراع بمهاجمة العالم الاسلامى من الجنوب ، بسبب ارتباك التجارة ، وانهيار طرقها البرية والبحرية فى آسيا وأوربا عبر البحر الأسود ، والمضايق والأناضول (٢) ، وهنا كان لابد من اتجاه الأنظار الى البحر فهذه البقاع ، وان كانت أبوابها قد أوصدت فى وجه المسيحية ، فماذا يمنعها من اتخاذ البحر سبيلا ، ولم لا تنفذ ملاحتها الى الشرق ، وتهاجم الاسلام من المؤخرة ، وتستولى على أورشليم من الخلف (٣) .

---

(١) أرنست باركر : الحروب الصليبية ١٢٢ ، ترجمة السيد الباز العرينى مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .

(٢) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ٣٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣م

(٣) أرنست باركر : الحروب الصليبية ١٢٢ .

وسط هذه الأجواء المعادية للاسلام ، ظهرت " خطة الهند " من خلال مراسلات البابا نقولا الخامس مع الأمير هنرى الملاح [(١)] ، الذى كان يعد العدة للخروج لمهاجمة العالم الاسلامى من جنوبه ، وترجع خطة الهند فى أساسها الى انتشار قصة خيالية فى أوربا ، نظمت فصولها باتقان ، حينما رفعوا من شأن ملك الحبشة المسيحى ، ومن هنا اتجهت النية الى محاولة الاتصال به ، والاستفادة منه ، والتعاون معه لشن حروب صليبية أخيرة ضد المسلمين ، تقضى عليهم ، وتعيد الأتراك العثمانيين الى داخل آسيا [(٢)] .

هذا وقد وجدت البابوية فى طائفة الرهبان الفرنسسكان الموجودين فى الأراضى المقدسة المسيحية ، خير عون لها لتنفيذ خطة الهند ، خاصة وأنهم كانوا دعاة للحروب الصليبية ، فكانوا بمثابة جواسيس عن طريقهم تم

---

(١) " ان سرورنا لعظيم أن نعلم أن ولدنا هنرى أمير البرتغال ، قد دفع باسم الله الى أقصى البلاد ، وأبعدها عن مجال علمنا ، كما أدخل بين أحضان الكاثوليكية الغادرين من أعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب والكفرة ، وسيستطيع فى الحين نفسه أن يدخل فى الطاعة والخضوع باذن من الملك جميع الوثنيين الذين لم تمسهم حتى الآن يد الاسلام ، ويدخل اسم المسيح فى نطاق علمهم " .
ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٢٧ ، ٢٨ ، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد ، دارالمعارف ، القاهرة ١٩٦٢م .

(٢) هوبرت فيشر : أصول التاريخ الأوربى الحديث ٧٩ ، ترجمة د . زينب عصمت راشد و د . أحمدعبدالرحيم مصطفى ، دار المعارف القاهرة .
— صاموئيل موريسون : كريستوفر كولمبس ٢٤ ، ترجمة فوزى قبلاوى دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٥٩م .

اتصال البابوات وملوك الفرنج بملوك الحبشة عن طريق الزوار الأحباش لبيت المقدس (١).

ومع اندفاع البرتغال فى حركاتها الكشفية فى غرب افريقية فى أواخر عهد الأمير هنرى الملاح ، فاننا نجد أمورا تؤكد مدى الارتباط الوثيق بين البابوية وحركات الكشف الاستعمارية ، ففى الوقت الذى كانت تعيش فيه أوربا فى ستار من الظلام والجهل ، وتهيمن فيه البابوية على أفكارهم وعقولهم ، وتمنع فيه حرية التفكير لدرجة أنها كانت تعمد الى نشر الاشاعات عن المخاطر فى خوض غمار المحيط الأطلسى (بحر الظلمات) ، وما يلاقيه كل بحار فيها اذا حاول أن يجازف ويبحر فيما أبعد من هذا الساحل ، ولكنها وبعد أن اندفع البرتغاليون فى كشوفهم ، ونظرا لخوف كثير من البحارة من خوض تجربة الابحار فى بحر الظلام نجدها تنكر كل ما سبق بل وتغرى البحارة بأنهم اذا ما انضموا الى البحرية البرتغالية فانهم سينالون المغفرة فى اليوم الآخر ، وصاحب ذلك دعم أدبى ومادى عن طريق منح الصكوك بملكية الأراضى المكتشفة والغير مكتشفة ، ووصفت البابوية الاسلام ، بانه الطاعون الذى يجب منع انتشاره بين الشعوب الوثنية فى الأراضى المكتشفة عن طريق تنصيرهم (٢).

---

(١) د ٠ أحمد السيد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ١٢ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٦١م٠

(٢) د ٠ عبدالعزيز محمد الشناوى : أوربا فى مطلع العصور الحديثة ٩٠ دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩م٠

وقد يرى البعض أن القصد من وراء ذلك كله ، هو عامل اقتصادى بحت للوصول الى عالم التوابل ، ولكن التمعن فى تلك المشروعات ، واتصال البابوية الدائم بملوك شبه الجزيرة الآيبيرية ، ترشدنا الى ناحيتين مهمتين هما أولا : اتفاق البرتغاليين والاسبان مع البابا على طرد المسلمين من غرناطة (١) ، فعندما اتحدت قشتالة وأرجون ، بزواج ايزابيل وفرديناند ، كان العزم على مهاجمة غرناطة ، أعلن البابا الحرب المقدسة الصليبية دعما لهم ، وقدم لهما يد العون عن طريق فرض ضريبة على الدول الأوربية سماها ضريبة الصليبية (٢) ، وهذا ما يجعلنا ندرك مدى عمق الفكرة الصليبية فى شبه الجزيرة الآيبيرية وتدخلها الدائم فى توجيه سياستها . (٣)

من هذا كله نستطيع القول بأن عملية طرد المسلمين من أسبانيا لم تكن مرتجلة ، أو جاءت بطبيعتها ، وانما كانت عملية مدروسة ترمى الى الوصول الى نتائج وأهداف محددة ، ما لبث بعضها أن ظهر الى حيز الوجود ، حينما رأى فرديناند ملك اسبانيا ، القيام بحرب صليبية على سواحل شمال افريقية ، ومرة أخرى ظهر خطر البابوية ، عندما أصدر البابا أوامره الى

---

(١) قبل سقوط غرناطة ، قام الأسبان والبرتغاليون بقطع سبل الاتصال بين مسلمى المغرب والأندلس ، باحتلال بعض ثغور الشواطئ المغربية المقابلة للأندلس .

(٢) جان بول رو : الاسلام فى الغرب ٣٥ ، ترجمة نجده هاجر ، سعيد الغز ، المكتب التجارى للطباعة ، بيروت ١٩٦٠م .

— أنور الجندى : الاسلام والغرب ٤٨ ، دار الاعتصام ، القاهرة .

(٣) محمد عبد الله عنان : ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى ٣٣، ٣٤ .

جميع البلاد المسيحية الأوربية ، أن تضع كل امكانياتها البشرية والمالية تحت تصرف ملوك أسبانيا من أجل اخضاع بلاد الشمال الافريقى للحكم والدين المسيحى (١) ، بحيث صبغت الحروب الأسبانية فى افريقية بالصبغة الصليبية الحقيقية ، لدرجة أن الكنيسة الاسبانية أرادت فى كثير من الأحيان اعتبار هذه المعركة معركة خاصة بها (٢) ، ونحن عندما نقول أن تحويل تجارة التوابل كعامل اقتصادى ، لهدم العالم الاسلامى ، فالقصد هنا ان هذا فى حد ذاته عامل دينى ، لأن هدم الاقتصاد الاسلامى معناه هدم لقوة المماليك أصحاب السلطة على الطرق التجارية ، وعنصر حيويتهم ، حتى يتمكنوا فيما بعد من التغلغل الى داخل المشرق العربى ، والحصول على المنتوجات الاستوائية والشرقية دون الحاجة الى وساطة العرب (٣) .

كان التفكير التقليدى لدى الأوربيين ، أن يتم الاختراق للعالم الاسلامى اما عبر أسوار القسطنطينية أو عبر الشمال الافريقى ، لكن هذه المرحلة تختلف بالنسبة لعبور أسوار القسطنطينية ، اذ أنهم فى السابق وجدوا الأمارات السلجوقية مفككة العرى مختلفة فيما بينهم ، أما فى هذه الفترة

---

(١) أنور الجندى : الاسلام والغرب ٤٨ .

(٢) أحمد توفيق المدنى : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ٨١ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع _ قسطنطينة (الجزائر) .

(٣) كانت المنتوجات الشرقية معروفة لدى الأوربيين معرفة جيدة ، وخاصة عقب الحروب الصليبية التى كانت من أهم الأسباب فى كشف الستار عنها ، ولكن الشىء الذى ظل مجهولا هو مصادر هذه التجارة ، وكان ذلك بسبب بعد المسافة والخلاف الدينى ، بالاضافة الى الاختلاف اللغوى وما شاع عن أهل المناطق من تعصب ضد الأجانب .

د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٥٤ . مكتبة دار التراث ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ _ ١٩٧٩م .

فان الأتراك العثمانيين قد أقاموا دولتهم فى آسيا الصغرى ، وفى جزء من جنوب شرق أوروبا ، وأشرفوا على شواطئ شرق البحر الأبيض المتوسط ، فكانوا بمثابة قوة جديدة تختلف عن الأتراك السلاجقة من حيث الاستقرار والنمو ، وجاءت فترة كانت البابوية تصدر خلالها مجموعة من المنشورات والمشاريع ضد الأتراك العثمانيين كلما أحست بضغطهم (١) ، ولعل من أخطر تلك التهديدات ما حدث عقب سقوط القسطنطينية ، حينما تمكنت البابوية من اعداد حملة صليبية ضخمة ضد العثمانيين ، لكن ملك البرتغال (ألفونس الخامس) تمكن من توجيه هذه الحملة من القسطنطينية الى المغرب حتى يتمكن الحلفاء من ارساء قاعدة بحرية فى شمال افريقية ، تنطلق منها الأساطيل والجيوش لغزو العالم الاسلامى مستقبلا ، وقد وقع اختياره على طنجة ، غير أن الفشل كان مصير هذه الحملة . (٢)

كان ذلك فى عصر اندفع فيه الروس المسكوفيين لشن حروبهم ضد العثمانيين والتتار بايعاز من أوربا ، حيث تمكن ايفان الثالث الكبير (٣) من شن حروب صليبية ٨٨٥ هـ — ١٤٨٠ م ضد المسلمين ، فكانوا عندما

---

(١) سنلاحظ فيما بعد أن الأوربيين ، وقد سيطروا على تجارة المحيط الهندى ، ظنوا ان تجارة التوابل هى الأساس الأول فى قوة العثمانيين وسر تقدمهم فى أوربا ، لذلك ازداد نشاطهم فى التركيز على الطريق الجديد للقضاء نهائيا على طريق الخليج العربى والبحر الأحمر اللذين سيطر عليهما العثمانيين .
د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ص ٥٤ .

(٢) د . شوقى عطا الله الجمل : المغرب العربى الكبير فى العصر الحديث ص ٤٨ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٧٧م .

(٣) ولد ١٤٠٠ م وتولى الحكم منذ ١٤٦٢ م ، وهو الذى دمر النفوذ التترى ، توفى ١٥٠٥م .

يستولون على مدينة يذبحون من أهلها ما استطاعوا ذبحه ومن بقى يجلونه عنها . (١)

من هنا نلاحظ أنه فى الوقت الذى اندفع فيه البرتغاليون بأساطيلهم البحرية لكشف ساحل افريقيا الغربى ، للوصول الى جنوب العالم الاسلامى ، اندفع الروس الى البحر الأسود وبحر قزوين وهضبة البامير (٢) ، وكان هدفهم هو الاستيلاء على القسطنطينية والمضائق ، واعادتها مركزا للأرثوذكس عن طريق اثارة شعوبهم واستغلال العاطفة الدينية لديهم (٣) .

وبذلك بدأ الروس يمثلون ضغطا شديدا وثقيلا على الدولة العثمانية ، وبالتالى يؤثرون فى مجهودات العثمانيين على الميادين الأخرى ، وكانت هناك فرصة أخرى للبابوية لاثارة البلبلة فى صفوف الدولة العثمانية ، حينما فر الأمير جم من أخيه السلطان بايزيد الثانى (٤) الى فرسان رودس الذين

---

(١) محمود شاكر : الكشوف الجغرافية ، دوافعها ـ حقيقتها ٢١ المكتب الاسلامى ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٣هـ .

(٢) شاخت وبوزورث : تراث الاسلام ، القسم الأول ٢٩٣ ، ترجمة د . محمد زهير السمهورى . سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ١٣٩٨ هـ

(٣) محمود شاكر : الكشوف الجغرافية ، دوافعها ـ حقيقتها ٢٢ .

(٤) تولى بايزيد الثانى الحكم بعد والده محمد الفاتح ١٤٨١ـ١٥١٢م ، عقب فترة من النزاع على العرش مع أخيه جم ، وكان أخوه الأصغر جم ، قد اقترح عليه تقسيم الامبراطورية العثمانية الى شطرين . شطر أوربى وآخر آسيوى ، ولكن بايزيد الثانى رفض مبدأ التقسيم من أساسه ، وحارب جم واضطره الى الفرار فى ٢٣ يونيو ١٤٨١م . والتجأ جم الى قايتباى ، سلطان المماليك فى مصر ، ثم لجأ الى جزيرة رودس ، محاولا أن يستعين بفرسان القديس يوحنا ، وبالدول الغربية ، ضد شقيقه ، ولكن محاولته فشلت ، ومات فى نابلى بايطاليا فى ٢٥ فبراير ١٤٩٥م .

د . محمد كمال الدسوقى : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ٤٩ دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٦م .

سلموه بدورهم للبابا اسكندر السادس (بورجيا) ، الذى وجد فيه فرصة لتهديد كل من السلطان بايزيد العثمانى ، والسلطان قايتباى[1] سلطان مصر ، خاصة فى ظروف كانت فيها العلاقات سيئة بين مصر والدولة العثمانية ، فوجدها البابا فرصة لارسال قوات صليبية بقيادة جم الى آسيا الصغرى ، للحصول على حقه فى العرش العثمانى فتشتعل بذلك نار الحروب الأهلية ، غير أن وفاة جم الغير طبيعية أزالت ذلك الخطر عن العثمانيين [2].

وبوفاة جم ، كان خطر البابوية عن طريق اشعال نار الحروب الأهلية فى الدولة العثمانية قد زال ليواجه العثمانيون مع بداية العصور الحديثة خطر التحالفات الأوربية ضدهم بزعامة البابوية ، ولعل أهم تلك التحالفات هى التى حدثت عقب دخول العثمانيين القاهرة ١٥١٧م ، عندما استغل البابا فرصة ابتعاد السلطان سليم عن عاصمته فطلب من ملوك النصارى عقد هدنة فيما بينهم لمدة خمس سنوات لمواجهة الدولة العثمانية [3]، وتم له

---

(١) تولى سلطنة مصر فى السادس من رجب ٨٧٢ هـ ـ ١٤٦٧ م ، وقد جلبه الى مصر الخواجه محمود واشتراه منه الملك الأشرف برسباى بخمسين دينار ، ثم راح يتدرج بعد أن أعتق هذا التدرج المألوف الى أن صار أتابكيا ، توفى يوم الاحد سابع عشر من ذى القعدة ٩٠١ هـ ـ ١٤٩٦م .
د . أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر ج ٢ ٧٧٨ ، ٧٧٩ ، مطبوعات دار الشعب ، القاهرة ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢م .

(٢) د . أحمد السيد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ٩٤ ، ٩٥ .
ـ د . عزيز سوريال عطية : العلاقات بين الشرق والغرب ١٤٠ ، ترجمة د . فيليب صابر يوسف ، دار الثقافة المسيحية القاهرة ١٩٧٢م ، الطبعة الأولى .

(٣) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى ، المجلد الثالث ، ٢٣٠ ، ترجمة عجاج نويهض ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م .

ذلك بموافقة الدول الكبرى كفرنسا واسبانيا وانجلترا والبرتغال وبولونيا ، والدانمرك ، والذى صادق عليه البابا بنفسه ، غير أن استيلاء الأتراك على بودابست ومعظم بلاد المجر ، اضافة الى وفاة امبراطور اسبانيا مكسمليان الأول ١٥١٩ م أدى الى انهيار ذلك الخطر (١).

وعلى الرغم من فشل البابوية فى سبيل غزو العالم الاسلامى عن طريق الدولة العثمانية فى الشطر الأوربى ، فانها كانت دائما ، وفى نفس الوقت تلقى بثقلها الى الجبهة الآيبيرية ، نظرا لضعف المسلمين بها وتشتتهم وانقسامهم على أنفسهم ، واشتداد حروب الاسترداد ضدهم ، لهذا كانت تحرص دائما على ألا يتعرض اندفاع دول شبه الجزيرة الآيبيرية نحو غزو العالم الاسلامى أية عقبات فعندما شب النزاع بين الدولتين اسبانيا والبرتغال على اقتسام الأراضى المكتشفة ، وخوفا من أن يؤدى ذلك الى تعطيل المشاريع فى سبيل غزو العالم الاسلامى ، بادر البابا اسكندر الرابع الى فض النزاع بينهما بمعاهدة تورديسيلاس (٢) ١٤٩٤م ، والتى تعطينا دليلا حقيقيا على مدى قوة الدافع الدينى وراء الحركات الاستعمارية المبكرة فى ذلك الوقت وأهم ما يذكر فى تلك المعاهدة هو الاشارة الى ناحيتين مهمتين وهما ، أولا : اقتسام الأسبان والبرتغاليين العالم خارج أوربا فيما بينهما ، فكان من نصيب أسبانيا الأمريكتان عدا البرازيل ، التى اعتبرت من ممتلكات البرتغال ، وعندما تساءلت أوربا بأى حق يقوم البابا بذلك ، جاء الجواب فيما بعد على لسان المؤرخ الرسمى لأعمال البرتغال المدعو جوا دى باروس Joao de Barros (١٤٩٠ ـ ١٥٧٠م) الذى فسر ذلك بأن للبابوات حق

---

(١) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى ، المجلد الثالث ٢٣٠ .

(٢) مدينة تقع بالقرب من فلدوليد (بلد الوليد) على ضفاف نهر دورو بأسبانيا .

تقسيم أراضي غير المسيحيين الحقيقيين بين أتباع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية المخلصين ، وأن أرواح المسلمين والوثنيين مصيرها الى النار ، ولذلك فليس لأجسادهم حق حيازة المناطق التى يعيشون فوقها ، ولأنهم لا ينتمون الى الدين المسيحى فانه من الجائز ، من وجهة النظر المسيحية الانتقام منهم (١) ، أما الناحية الثانية فى المعاهدة فهى تقسيم المغرب العربى الى منطقتين الأولى تقع شرق حجر باديس ويتولى فيها الاسبان مهمة التنصير لمسلميها ، وأما الثانية فتقع غرب المنطقة السابقة وتركت للبرتغال (٢).

من هذا نرى أن الصراع بين الدولتين لم يكن فى صالح البابوية ، حتى تتمكن من بسط نفوذها الروحى على دول شبه الجزيرة الايبيرية ، خاصة وأن الدولتين على مذهب واحد هو الكاثوليكية ، اضافة الى أن تدخلها وتقسيمها العالم بينهما سوف ييسر لكل منهما تنفيذ مخططها التنصيرى ضد العالم الاسلامى ، وحتى عندما انشغلت البابوية بالمد البروتستانتى فى أوربا الأمر الذى منعها من مسح المناطق المكتشفة ، فانها جعلت لملوك شبه الجزيرة الآيبيرية حق تعيين الأساقفة ، وتحصيل الضرائب الدينية ، وهو أمر خاص بها ، مقابل قيام ملوك أسبانيا والبرتغال بارسال البعثات الدينية لتحويل سكان المناطق المكتشفة الى المسيحية (٣).

---

(1) H.V. Liver more: Portugal and Brazil 199, 200. Oxford 1953.

(٢) صلاح العقاد : المغرب العربى ١٥ ، ١٦ ، مكتبة الانجلو ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٩ م .

(3) H.V. Liver more: Portugal and Brazil 200.

ومن بين التهديدات الصليبية ضد العالم الاسلامى كذلك هو اتفاق الأوربيين على القيام بعمليات تخريب ضد الموانىء المصرية والشامية لتعطيل حركة التجارة بها ، بحيث شمل ذلك السلب والنهب والأسر ، وضجت الشواطىء الاسلامية فى مصر والشام ، بغارات قراصنة النصارى ، وفرسان الاستبارية برودس ، ولعل من أخطر تلك الغارات ما نزل بمصر المملوكية سنة ١٥١٠ م ، حينما تعرض فرسان جزيرة رودس لقافلة بحرية مكونة من ثمانى عشرة سفينة متجهة من آسيا الصغرى نحو الاسكندرية ، ومحملة بالسلاح والذخيرة من الدولة العثمانية ، ولم تسلم من هذه القافلة سوى ست سفن فارغة ، فى وقت كان المماليك فيه فى أمس الحاجة لها لمواجهة البرتغاليين فى المياه الجنوبية (١).

ومع بداية الربع الأخير من القرن الخامس عشر ، كان العرب المسلمون قد سيطروا على طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب (٢) ، وأصبحوا بذلك أهم واسطة اتصال تجارى ، ولم تكن تلك السيطرة وليدة الصدفة ، أو هو احتكار مسلح كما فعلت الدول الأوربية فيما بعد ، وانما كانت عوامل عديدة مجتمعة ساعدت على تلك السيطرة ، فقد كان العرب أعرف الناس بمسالك هذه التجارة فى تلك العصور ، نظرا للموقع الجغرافى لبلادهم

---

(١) د. أحمد السيد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ١٤٢ .

(٢) ازدادت حدة هذه السيطرة نتيجة عاملين : أولا — سقوط القسطنطينية بأيدى الأتراك ١٤٥٣ م الأمر الذى أدى الى اغلاق الطرق التجارية البرية بين آسيا وأوربا عبر البحر الأسود ، والأناضول ، ثانيا — اقصاء الكارمية عن التجارة فى البحر الأحمر نتيجة الغاء النظام الاقطاعى ، ومحاولة تعويض النقص الناتج عن هذا الالغاء .

د. نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاطها بين الشرق والغرب ١٩٢ .

الذى تمر عبره هذه التجارة ، وتكوينهم البيئى الذى منحهم نشاطا فى سبيل نقل هذه التجارة بين الشرق والغرب ، مما جعل احتكارهم قائم على أساس من التفوق فى التعامل التجارى ، ولم يغلقوا أبواب تجارة المحيط الهندى فى أى يوم من الأيام ، وانما جعلوه مفتوحا لمن يريد المتاجرة فيه ، وأخيرا يجب أن لا ننسى مدى انتشار الاسلام فى المحيط الهندى وأثره فى تنشيط مشروعات العرب التجارية (١) ، وهذا ما جعلهم يتاجرون بكامل حريتهم فى موانئ المحيط الهندى لدرجة أنهم أصبح لهم جاليات كبرى وبيوتات تجارية تناثرت من موانئ شرق افريقية حتى الصين ، حيث قوبلوا بالترحاب فى أى مكان كانوا ينزلون فيه حاصلين على امتيازات وحقوق من الحكومات المحلية (٢) ، ولم يحدث قط أن تعرض نشاطهم التجارى هناك لأية أحداث سياسية تعرضهم للخطر ، بل كثيرا ما قامت محالفات وثيقة بين الجاليات العربية الكبرى وبين المجتمعات الهندية (٣) ، ففى الهند مثلا كان التجار العرب يتمتعون باحترام وتقدير رجال الجمارك فى الهند ، بعكس

---

(١) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٣٠٦ .
"عرف العرب تجارا وبحارة طريقهم الى الهند وشرق افريقية قبل الاسلام ، ومع ظهور الاسلام كانوا على دراية تامة بالمحيط الهندى ، وكانت لهم رحلاتهم التجارية المنظمة الى الهند وسيلان . وكانوا فى ذلك الوقت سادة أعالى البحار "
د . عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الاسلام حتى سقوط الخلافة العباسية . دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦م .

(2) An Gelo Pesce: Jiddah 66.

(٣) مثل الزامورينات ، وبعض حكام الهندوك رغم العداء التقليدى بين الهندوك والمسلمين .
ك . م بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٣٦ ، ٣٧ .

الهندوس أهل البلاد الذين كانوا تجارا وفلاحين مغمورين (١).

من هنا نرى مدى فضل العرب فى ازدهار الحياة الاقتصادية بين الشرق والغرب بما قاموا به من تشجيع وعناية سهلت تداول هذه السلع أجيالا عديدة ، وكانت تلك السيطرة عبارة عن سلسلة طويلة من الموانئ تمتد من الموانى الهندية مرورا بالخليج العربى وعدن ، وعبورا لبادية الشام والجزيرة العربية ، وسواحل البحر الأحمر ، ثم سواحل الدولة المملوكية فى مصر والشام (٢).

كانت بلاد الشرق الأقصى والهند هى المصدر الأساسى لتصدير المواد التجارية ، وان كانت بضائع الشرق الأقصى تستقر قبل كل شئ فى الهند ، الا أنها سرعان ما تجد نفسها محملة فى سفن العرب (٣) ، فمن الهند كان الفلفل يخرج مصدرا من سواحل الملبار ، والذى كان يحتل شهرة خاصة لدى الأوربيين باعتبار سواحل الملبار المركز الرئيسى لتصديره الى أوربا (٤) ، أما كجرات فقد امتازت بتصدير الأقمشة الرقيقة الغالية حيث كانت تشحن سفن كثيرة تبلغ الخمسين سنويا الى الشرق والغرب (٥) ،

---

(١) د. أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ٤١ ، ٤٢ .
سلسلة أعلام العرب ، العدد ٦٢ ، القاهرة ١٩٦٧م.

(2) Serjeant, R.B.: The portuguese off the South Arabian Coast 3, Lebanon 1974.

(3) Ryan, N.J.: A History of Malaysia and Singapore 41.

(٤) د. محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٠٣ .

(5) Stripling, G.W.: The ottoman Turks and the Arabs 1511 - 1574 26, U.S.A. 1942.

ومن قاليقوط كانت السفن تخرج محملة بحب الهال وتوابل أخرى تصلها من جزر المحيط الهندى اذ مع كل ريح موسمية كانت السفن تبحر الى البحر الأحمر (١)، هذا عدا المتجهة الى الشرق الأقصى وسواحل شرق افريقية والخليج العربى، أما من أندونيسيا فكان القرنفل وجوزة الطيب (٢).

ونشطت لذلك موانئ الخليج العربى، التى لعبت دورا كبيرا فى ايصال هذه السلع الى الشام عبر دجلة والفرات، كذلك القيام بتوزيع منتجات أوربا والشرق الأوسط وسواحل شرق افريقية بين موانئ المحيط الهندى، واشتهر من مدن الخليج سيراف ودولة هرمز، وحظيت الأخيرة على مكانة مرموقة حيث أسطول تجارى قوى يجوب البحار، وكانت هرمز تعتبر مفتاح الخليج العربى فى مجموعة الطرق التجارية الدولية بين الشرق والغرب، ولقرنين من الزمان كان الشريط الساحلى العمانى يتبع ملك هرمز، الذى كان يمتلك موانئ عديدة مثل كلبهات ومسقط التى تعتبر من أهم ممتلكات هرمز، فقد كانت المستودع الرئيسى للخليج العربى. (٣)

وأصبحت هرمز ذات مكانة، لدرجة أنه كان يوجد بها فى وقت واحد ثلثمائة سفينة من بلاد مختلفة، وكانت السلع الهندية تخرج من هرمز نحو البصرة والموصل ومنها توزع على موانئ الشام فى البحر المتوسط، اضافة الى قيامهم بشحن ما يردهم من البضائع من البصرة نحو الهند والصين،

---

(1) Stripling: The ottman Turks 26.

(٢) للهند والشرق الأقصى قوائم عديدة لا تحصى من الصادرات على أننا ذكرنا هنا أهمها.

(3) Serjeant: The portuguese off the South Arabian Coast 11.
- Stripling: The ottoman Turks 24, 25.

وكانت تلك الصادرات عبارة عن منسوجات غالية ومصنوعات معدنية (١) ، وليس أدل على مدى الثراء الذى كان ينعم فيه سكان هرمز أنهم بلغوا فى ذلك الوقت نحو أربعين ألفا ، يعيشون على مستوى عال من الرفاهية ، اذ كانوا يقيمون فى دور مبنية من طوابق من خشب الساج المستورد من الهند (٢) ، وقد جعلت الثروة من هرمز موضع جمال ، واعجاب فى عيون الرحالة الأوربيين عندما كتب رحالة انجليزى يصف مركز هرمز التجارى فقال " لو أن العالم صيغ خاتما لكانت هرمز ماسة وجواهره " (٣) ، ولم تقل عنها أهمية كذلك مدينة سيراف اذ كانت جماركها تبلغ سنويا حوالى ربع مليون دينار (٤).

وابتداء من مداخل البحر الأحمر حتى موانى الدولة المملوكية فى مصر والشام كانت هذه الحلقة تعد من أهم حلقات الوصل بين تجارة الشرق

---

(١) د. جورج فاضلوا حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ٢٠٧ ترجمة د. السيد يعقوب بكر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٨م.

(٢) د. صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ٩ ، ١٠ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٤م ، القاهرة .

— د. جورج فاضلو حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ٢٠٧ .

(٣) سونيا . ى . هاو : فى طلب التوابل ١٥٠ . ترجمة : محمد عزيز رفعت ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٧م.

(٤) كانت سيراف من الموانئ المهمة فى الخليج العربى ، وتقع على الشواطئ الشرقية لمدخل الخليج العربى ، غير أن استيلاء أمير قيس عليها ، وتحويل التجارة عنها أدى بها الى الانهيار الكامل أواخر القرن الخامس عشر الميلادى . وقيس جزيرة بالخليج العربى كانت مركزا للسفن الذاهبة الى الهند .

— د. نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ١٢١ .

— د. أنور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب ٧٨ .

والغرب حيث عمل المماليك على تسهيل مرور هذه التجارة عبر موانيهم وذللوا كافة الصعوبات التى تعترضها ، وقد تميز البحر الأحمر (١) بالأمن فهو بعيد عن ميادين الحروب بآسيا ، كما تواجد فيه أسطول لحماية السفن من القرصنة (٢) ، وبفضل هذه المزايا أصبحت مصر النافذة أو الواجهة التى تعرض من خلالها منتجات افريقية وآسيا ، ولم يكن مسموحا للتجار الأجانب عندما يدخلونه أن يبحروا فى المناطق التى تقع الى الشمال من جدة ، اذ كان عليهم أن ينزلوا بضائعهم فى جدة حيث تتولى سفن صغيرة مهمة توصيلها الى السويس (٣) ، وكانت السفن القادمة من الهند تفرغ حمولتها فى عدن وجدة ، حيث تميزت عدن بأنها ملتقى سفن كثيرة متجهة من والى الهند من البحر الأحمر ، وكانت تنعم بتجارة كبيرة مع ساحل افريقية الشرقى وهرمز ، فكانت تصدر الى الأولى الملابس ، وفى مقابلها يعود التجار الى عدن محملين بالذهب والجياد والأبنوس (٤) ، كذلك كانت تفد اليها السفن من جدة محملة بالبضائع الأوربية والمصرية والسورية ، وبلغ من عظم شهرة عدن أنه كان من الصعب معرفة أنواع هذه البضائع أو تقدير أثمانها ، وهو ما جعل أحد الرحالة الأوربيين (٥) يصفها بقوله بأنها

---

(١) كان نشاط العرب التجارى فى البحر الأحمر أقدم من الاسلام ، وأسبق من قيام الخلافة الاسلامية بقرون كثيرة . ولكن نشاط العرب فى هذا البحر ازداد بعد ظهور الاسلام حتى أصبح هذا البحر بحيرة عربية .
د . عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الاسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ٢٣ .

(٢) شوقى حبيب : العلاقات التجارية بين مصر والدول الأفريقية ١٤٥ ، ١٤٦ رسالة ماجستير (لم تنشر) ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥م .

(3) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 5.

(4) Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 23.

(٥) هو رحالة ايطالى يدعى لودفيكو دى فارتيما قام ١٥٠٥م بزيارة عدن حيث اعتقل بتهمة التجسس ثم أفرج عنه فيما بعد .

" أمتع مدينة رأيتها فى حياتى على وجه البسيطة .... وأنها عاصمة العربية السعيدة ". (١)

أما نقل السلع من عدن فكان يتم عن طريقين برى وبحرى ، أما البرى فكان مخصصا لنقل السلع الخفيفة الى مكة التى كانت مركزا من مراكز تجارة الشرق ، والواردة بطريق البر من عدن والشام ، ومن ثم تحملها القوافل الى جدة والشام ، أما الطريق البحرى فكان مخصصا للسلع الثقيلة التى ما أن تصل الى جدة حتى تنقل عبر قوارب كانت بمثابة واسطة النقل من جدة لموانىء القصير والسويس والطور وهى بوابات مصر التجارية على البحر الأحمر ، ومن القصير والسويس تولت قوافل الجمال حمل بضائع الشرق الى مدينة قوص على النيل فى مصر العليا ، حيث كانت القوارب النهرية تتولى السير بها الى القاهرة والاسكندرية ، أما البضائع التى تصل الى القلزم فكانت تنقل برا الى القاهرة ومن هناك تسير القوافل محازية للنهر حتى الاسكندرية ورشيد ودمياط (٢) ، ومن أيلة كانت القوافل تنطلق الى سواحل الشام ، وما أن تصل بضائع الشرق الى سواحل الدولة المملوكية فى مصر والشام حتى تكتظ مدنها وسواحلها بمختلف الجنسيات من تجار شرقى البحر الأبيض المتوسط وغربيه ، ومن بلاد المغرب العربى ومن بلاد السودان وبلاد أرمينيا ، حاملين معهم ما تحتاجه بلادهم ، وتاركين ما أحضروه من منتجات سواحل البحر الأبيض المتوسط وأوربا بحيث تأخذ بضائعهم نفس الطريق عائدة الى الشرق الأوسط والمحيط الهندى .

---

(١) محمد كامل المحامى : اليمن شماله وجنوبه ١٩٨ — دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٨م.

(٢) د. عزيز سوريال عطيه : العلاقات بين الشرق والغرب ١٦٤ ، ١٦٥ .

— AnGelo Pesce : Jiddah 63.

من خلال هذا الاستعراض نستطيع أن نلمس مدى ما كانت تجنيه مصر المملوكية وأمراء سواحل البحر الأحمر من مرور هذه التجارة فى أراضيهم ذهابا وايابا ، ففى عدن مثلا كان مقدار ما يجمع من ضرائب على التجارة ما مقداره أربع خزائن على لغة ذلك العصر ، وهى خزائن قدوم المراكب ، وكل خزنة من هذه الخزائن يكون مبلغها مائة وخمسين ألف دينار. (١)

أما جدة والتى كانت تعتبر المستودع العظيم لمتاجر الهند فقد كان يصلها سينويا ما يقرب من مائة سفينة ، هذا بخلاف مواكب الجمال التى تصلها من مكة لتفريغ حمولتها بحيث لم يقل مجموع الرسوم سنويا عن ٢٠٠,٠٠٠ دينار (٢) ، وهذا أحدث بدوره تغييرا كبيرا فى مواردها وفى تركيبها الاجتماعى حيث عمرت بجاليات كبيرة من الفرس والحضارم والهنود والبخاريين الذين شكلوا ثلث سكانها تقريبا ، كذلك انتشرت بها المساجد والآبار والمطاهى نتيجة ازدياد مواردها (٣).

أما مكة فلم تقل كذلك أهمية اذ كان يصلها فى موسم الحج ما لا يقل عن ٨٠,٠٠٠ جمل تأخذ طريقها الى جدة كما ذكرنا سابقا ، وتأخذ قوافل

---

(١) أبى مخرمة ، أبى محمد عبد الله : تاريخ ثغر عدن ج ١ ـ ٦٥ ليدن ، ١٩٣٦م.

(٢) توفيق سلطان اليوزبكى : تاريخ تجارة مصر البحرية فى العصر المماليكى ٨٢ مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ، جامعة الموصل ، ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥م.
ـ د. نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٣) على بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك ٢٠٢.
الشركة المتحدة للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

أخرى طريقها الى الشام حيث تعود محملة بسلع الشام والغرب الأوربى الى عدن ، لتأخذ طريقها الى الهند مما أعطاها مركزا مهما فى البحر الأحمر الى جانب أهميتها كمدينة مقدسة تحج اليها جموع الحجيج من العالم الاسلامى .

والى الشمال من جدة اشتهر ميناء ينبع نتيجة مرور بضائع الشرق ولم تقل مكوسه عن ٣٠ ألف دينار ، وهو أمر ساعد على انتشار العمائر والأسواق [١] ، وتبعا لذلك نشطت المدينة المنورة نشاطا ملحوظا حيث اكتظت بالسكان والتجار واشتهرت بما يرد ها من بلاد الهند وفارس وسورية من كميات كبيرة من الجواهر والأفاويه والمنسوجات القطنية والحريرية ، وكانت العطور تباع بالجملة تحت قباب المسجد النبوى ، بينما تباع الجواهر بالقرب من بابه . [٢]

شاركت موانىء الحبشة كذلك العرب فى ذلك الرخاء الاقتصادى فاشتهرت بربرة بكثرة المعادن واللؤلؤ ، ولم يقل عدد المترددين على أسواقها من التجار فى مواسم التجارة عن ١٥ ألف شخص [٣] ، أما زيلع فقد اشتهرت بكونها حلقة اتصال ما بين ساحل البحر الأحمر وداخل الحبشة بسبب

---

(١) توفيق سلطان اليوزبكى : تاريخ تجارة مصر البحرية فى العصر المماليكى ٨٢ .

(٢) جاكلين بيرين : اكتشاف جزيرة العرب ٤٤ .
ترجمة قدرى القلعجى ، دار الكاتب العربى ، بيروت .

(٣) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ١٤٢ .

تميزها بتصدير منتجات البلاد الأفريقية الداخلية [١] .

أما السواحل المملوكية فقد اشتهر من موانيها الاسكندرية ودمشق وحلب والفرما ورشيد ودمياط ، ويجب أن نشير هنا الى أن جميع المكوس التى كان يجمعها المماليك من تلك الموانىء السابقة الذكر لم تكن من صنعهم وانما كان بعضها موروثا من سنين سابقة وبعضها مستحدث فى أيامهم [٢] ، على أنه يؤخذ على المماليك سياسة الاحتكار التى طبقوها على التجار الكارمية [٣] وعلى أنواع من البضائع لم تكن تباع الا فى مخازنهم ومستودعاتهم بالأسعار التى يفرضونها [٤] ، وبمجرد وصول السفن الى موانىء مصر على البحر الأبيض المتوسط كانوا يقومون قبل عمل أى شىء بجباية رسوم مقررة تشمل جزية الرأس ،

---

(١) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ٧٥ ، رسالة ماجستير (لم تنشر) جامعة القاهرة .

(٢) توفيق اليوزبكى : تاريخ تجارة مصر البحرية فى العصر المماليكى ١١٠

(٣) الكارمية فئة من كبار التجار الذين اشتغلوا باحتكار تجارة الهند والشرق الأقصى فى التوابل وما اليها من بهار وغيره من البضاعة ، ويرجع احتكار هذه التجارة بيد جماعات من كبار المشتغلين بهذه التجارة الى سبب رئيسى ، وهو انه بالنسبة للظروف التى كانت قائمة فى ذلك الوقت لم يكن من اليسير حصول التاجر الصغير على بضاعته الا عن يد جماعة لها رأس مال كبير ، واستمروا على ذلك حتى نقلها الى الدولة السلطان الأشرف برسباى .

- الشاطر بصيلى عبد الجليل : الكارمية ٢١٧ ، ٢١٨ .

مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الثالث عشر القاهرة ، ١٩٦٧م .

(٤) ستانلى لينبول : سيرة القاهرة ٢٢١ .

- ترجمة حسن ~~ابراهيك~~ حسن وآخرون . ابراهيم

وهى دوكتان للرأس وخمسة اذا كان من الحجاج ، ثم رسم دخول يساوى ٢٪ من قيمة السلع المحمولة ، اضافة الى ١٠ ٪ للجمرك من قيمة السلع (١)، أما البضائع التى تصل الى السويس من جدة لتصديرها الى أوربا فيدفع المورد عنها فى السويس ٥ ٪ من قيمتها نقدا حتى يصرح له بنقلها الى القاهرة ، وما أن تصل الى الاسكندرية حتى يدفع البائع والمشترى كل منهما ٥ ٪ من ثمنها ضريبة وعلى صاحب السفينة كذلك دفع ٥٪ للتصديق على ابحارها. (٢)

أما فى الشام فقد احتلت دمشق المرتبة الثانية بعد القاهرة فهى فى نفس الوقت مركز نائب السلطنة وهى مركز الشام الاقتصادى ، ومستودع تجارة آسيا الى أوربا ، وكان يتجمع بها سنويا ما يقرب من ١٥٠٠٠ جمل محملة بالسلع الشرقية (٣)، وبلغ من شهرة موانىء بيروت والاسكندرية قبيل الغزو البرتغالى أن أسواقهما كانت تكتظ بالتوابل لدرجة أن سفن البندقية كانت لا تملك من المال ما تبتاع به كل المخزون من التوابل (٤)، ففى عام ١٤٩٧م حملت سفن البندقية من الاسكندرية ما قيمته ٣٠٠٠٠٠ دوكات ، ومن بيروت ما قيمته ٦٠٠٠٠ دوك (٥)، وهذا بدوره أوجد مصادر خيالية

---

(١) د. نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٣١٤ .

(٢) على التاجر : الربان أحمد بن ماجد — دفاع وتقييم ٢٨٣ ، مجلة العرب ، الجزء الثالث . السنة الخامسة . رمضان ١٣٩٠ هـ ، نوفمبر ١٩٧٠م.

(٣) د. نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ١٤٧ ، ١٤٨.

(٤) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ١٥١ . ترجمة د. أحمد عزت عبد الكريم ، د. توفيق اسكندر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٤٧م.

(٥) د. نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ١٩٤ .

للمماليك لثرواتهم ، ففى الاسكندرية مثلا بلغت ضرائبها فى بعض السنين ما يقرب من ٢٥٠٫٠٠٠ أشرفى (١) ، هذا بخلاف الموانىء الممتدة على طول سواحل مصر والشام ، أما القاهرة فالى جانب تلك الثروات الضخمة التى كانت تجمع فقط من وصول بضائع البحر الأحمر اليها اضافة الى بضائع البحر الأبيض المتوسط ، فقد بلغ مقدار ما يجمع من التجار والباعة الصغار سنويا نحو ستة وسبعين ألف دينار يجمعها محتسب القاهرة (٢) ، ولم يقتصر نشاط مصر فقط على امتياز مرور تجارة الشرق والغرب بها ، وانما عملت أيضا على تصدير ما تنتجه أرضها من منتوجات زراعية ، وكافة أنواع الملابس الحريرية والقطنية والبلسان (٣) حتى لقد بلغ مقدار ما يجمع من تصدير تلك الأقمشة عن طريق ميناء دمياط ألف دينار يوميا (٤).

لهذا لم يكن من الغريب أن تزدهر القاهرة ازدهارا لم تشهده من قبل تجلت فى تلك الأيام التى عاشها سلاطين القاهرة فى رفاهية وترف ، جعلتهم يخلدون ذكراهم فى قصور ومساجد وقلاع مازالت تعبر عن قوتهم وعظمتهم الى يومنا هذا .

---

(١) د. نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٣١٢ . (قدر البرتغاليون قيمة دخل الاسكندرية من الضرائب الجمركية بسبعة ملايين ونصف مليون كروسادوس ذهبا أى بحوالى ٩٠٠٫٠٠٠ جنيه .

(٢) توفيق اليوزبكى : تاريخ تجارة مصر البحرية فى العصر المماليكى ١١٠ .

(٣) من العقاقير الطبية الشرقية التى نالت شهرة عظيمة فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب ، وكان ملوك أوربا يحرصون على شرائه من مصر لأنه لا يتم عندهم التنصير الا بعد وضع شىء من دهن البلسان فى ماء المعمودية وينغمسون فيه . واشتهرت حدائق المطرية فى ذلك الوقت بكثرة زراعة أشجاره .
— د. نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٢٠٦ الى ٢٠٩ .

(٤) توفيق اليوزبكى : تاريخ تجارة مصر البحرية فى العصر المماليكى ٧٩، ٨٠ .

ولم يقتصر ذلك الثراء على السلاطين وحدهم به ، فقد اشترك معهم سكان القاهرة (١) ، فالأهالى كانوا ينتفعون من دورهم كوسيط فى المبادلات التجارية ، وعملوا فى نقل البضائع وتقديم خدمات للتجار ، كالفنادق والأطعمة والمشروبات (٢) ، وبلغت القاهرة من شدة الثراء أنها ضمت تجارا أثرياء بلغت ثروتهم ما يقرب من مليونى قطعة ذهبية (٣) ، ومن هنا نفهم سر اندفاع البرتغاليين الى منابع هذه الثروة التى ستحقق لهم دون شك غرضين أثنين لا غنى لهم عنهما وهما الاستيلاء على هذه المنابع الغنية مما يؤدى الى انهيار قوة الدولة المملوكية ، وهذا بالتالى يساعدهم على تحقيق أهدافهم الصليبية وهو ما سوف نشاهده فى الصفحات التالية ، وشهدت سواحل غرب البحر الأبيض المتوسط فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى صراعا صليبيا اسلاميا اتسم بطابع جديد ، حيث انتقلت المواجهة فيه من البر الى البحر ، ونتج عنه قيام الطرفين بشن الغارات البحرية على بعضهما البعض وهو ما يسمى عند الأوربيين بالقرصنة ، والواقع أن ما كان يقوم به المسلمون لا يمكن أن نسميه بالقرصنة وانما بحركة جهاد اسلامى تتطلبه

---

(١) كانت القاهرة فى ذلك الوقت منظمة تنظيما دقيقا لخدمة التجار والتجارة ، حيث توفرت فيها المبانى الخاصة لاقامة التجار (وكالة) وكذلك مبانى خاصة لخزن البضائع .
— جاستون فييت : القاهرة مدينة الفن والتجارة ١٩٦ .
ترجمة د . مصطفى العبادى ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٦٨م .

(٢) توفيق اليوزبكى : تاريخ تجارة مصر البحرية فى العصر المماليكى ١٢٢ .

(٣) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ١٢٩ .

الأوضاع الجديدة هناك (١) ، ونتيجة لاضطراب العلاقات البحرية والتجارية المنظمة بين دول المغرب والدول النصرانية (٢) ، كذلك رغبة الأسبان في تحرير أنفسهم من خوفهم من فتح جديد للأندلس ، ومن هنا فانه لا يمكن تفسير ما قام به المسلمون الا أنه رد فعل لما قام به سكان شبه الجزيرة الآيبيرية من اضطهادهم واجبارهم على قبول التعميد والدخول في المسيحية ، الأمر الذى قوبل بالمقاومة من قبل مسلمى شبه الجزيرة الآيبيرية ، واضطر أعدادا كبيرة منهم الى الهروب بدينهم (٣).

كانت الأوضاع فى غرب البحر الأبيض المتوسط ملائمة لنشاط حركة الجهاد الاسلامى لأن أسبانيا كانت ترى أن أهم ما يربط ممتلكاتها الساحلية هو ضرورة وجود سلسلة من القواعد البحرية الساحلية حتى تتمكن من التحرك والسيطرة ، الأمر الذى أدى الى قيام المجاهدين بمهاجمة موانئ هذه

---

(١) ان كلمة قرصنة دخيلة على العربية لا يوجد لها مرادف فى اللغة وربما استعربت فى القرن التاسع الهجرى ، وهى مشتقة من كورسة بالايطالية وكورس بالفرنسية أو من كلمة Coursaires أى التسابق البحرى والواقع ان اتهام سكان شمال افريقية بالقرصنة كان أمر متأخرا وربما لا يعود الى أبعد من القرن التاسع عشر الميلادى ولكن هذا الوصف امتد الى العصور السابقة عن جهل وسوء قصد .
— عبد الحميد بن أبى زيان بن اشنهو : دخول الأتراك العثمانيين الى الجزائر ١٩ • مطابع الجيش الشعبية ، الجزائر ، ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢م .
— د • زاهر رياض : شمال افريقية فى العصر الحديث ٥٧ • مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

(٢) محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ج ٣ ، ٤٨٤ • مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٣٨٦ هـ — ١٩٦٦م .

(٣) د • جلال يحيى : المغرب الكبير ج ٣ ١٩ • الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦م .

السواحل باستمرار ومحاولة الحاق الضرر بسفنها واقتصادها (١) ، كذلك كان جبل طارق يمثل نقطة التقاء تجارة البحر الأبيض المتوسط وتجارة بحر الشمال بحيث كان ذلك ميدانا هام لتكثيف حركة الجهاد ، وقد تمكن هؤلاء المجاهدين في بعض السنوات من اقفال طريق الملاحة في جبل طارق ، ومنعوا سفن جنوا من الوصول الى الأراضي المنخفضة في شمال أوربا (٢).

وقد تكونت نتيجة ذلك مجموعة من المراكز البحرية من جربة الى مراكش ، شملت تونس ، بنزرت ، بجاية ، الجزائر ، وهران ، سلا ، الرباط ، وجهزت كل مجموعة أسطول خاص بها للتجول في البحر الأبيض المتوسط، حيث وجهوا اهتمامهم نحو تخريب ممتلكات العدو وسبى ما استطاعوا من رجال ونساء ومد يد العون والمساندة للمنكوبين من مسلمي الأندلس . (٣)

وكان تركيز معظم المجاهدين على السفن التي تسير في البحر ، فكانوا يهاجمونها ويقتلون من يقاومهم ، أما الأسرى فكانوا ينقلون الى الموانيء لهدء عملية افتدائهم ، حيث وضعوا لاطلاق سراحهم أسعارا محددة ، وساعدهم على ذلك أن سفنهم كانت صغيرة ، وهذا أعطاهم سهولة في الحركة (٤).

---

(١) د . نور الدين حاطوم : تاريخ عصر النهضة الأوربية جـ ٣ ، ٣٦٠ . دار الفكر الحديث ، بيروت ، ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٨م .

(٢) جورج لوفران : تاريخ التجارة ٤٥ . ترجمة : هاشم الحسيني ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .
— د . جلال يحيى : الاستعمار والاستغلال والتخلف ١٧٨ . الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥م .

(٣) أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ٧٤ .
— د . شوقي الجمل : المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ٧٩ .

(٤) د . زاهر رياض : شمال افريقية في العصر الحديث ٦٩ ، ٧٠ .

اضافة الى ذلك فان شواطىء المغرب كانت بطبيعتها وعرة وكانت الموانىء تحميها الصخور العالية مما منحهم حصونا طبيعية قوية لممارسة حركة الجهاد (١)، بحيث تسود المجاهدين البحر فى جميع أوقات السنة ولم يعبأوا بالسفن المسيحية الضخمة . لهذا لم يكن من الغريب أن تحدث هذه الغارات الذعر والاضطراب فى صفوف الاسبان والبرتغاليين ، ولم يعط هؤلاء أية فرصة لتنظيم أنفسهم للدفاع عن سواحل بلادهم ، خاصة وأن الدولتين كانتا فى ظروف تحتم عليهما تأمين الطرق للاتصال بدول البحر الأبيض المتوسط ، اضافة الى تأمين طرقهم الجديدة للخروج نحو الكشوف ، ولم يقف الاسبان مكتوفى الأيدى ازاء حركة الجهاد ، بل حاولوا منعها عن طريق منع بقايا العرب فى الأندلس من الاقتراب من السواحل الأسبانية ، حتى لا يتصلوا باخوانهم المتجولين على طول السواحل الاسبانية ، وفى الوقت نفسه نشطت سفنهم فى مهاجمة المدن والسفن المغربية فى محاولة لوقف حركة الجهاد ، وعلى الرغم من أن الاسبان كانوا كثيرا ما يضطهدوا العرب لاجبارهم على الخروج ، فان ذلك قد أدى الى نتائج أقوى تأثيرا من بقائهم فى الأندلس ، وتجلى ذلك فى انضمام الكثير منهم لحركة الجهاد واستعانة الزعماء بهم لارشادهم الى نقاط الضعف فى السواحل الاسبانية (٢)، كما ان بعضهم كانوا من العارفين بالملاحة وفنونها والماهرين فى صناعة السفن (٣).

وازاء هذه الهجمات المتكررة رأى الاسبان ضرورة احتلال المواقع الحيوية والحساسة على الشواطىء المغربية لوضع حد لهذه الغارات ، فشيد الاسبان

---

(١) محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ج ٣ ٣٨٤.
(٢) المرجع السابق ، نفس الجزء ص ٣٨٥ .
— د. صلاح العقاد : المغرب العربى ١٦ .
(٣) أحمد توفيق المدنى : حرب الثلاثمائة سنة بين اسبانيا والجزائر ٧٤ .

حصونا سموها بنيـون Pegnon أى الصخرة ، أو طورى Torre أى البرج فى بعض المدن المغربية [١] ، وهذا بالتالى ما نقل الصـراع الى فترة أخرى تميزت بدخول الأتراك العثمانيين كقوة لها اعتبارها ضـد الاسبان .

لعبت المدن الايطالية دورا تجاريا هاما فى أوربا نتيجة قرب موقعهـا من مخارج تجارة الهند فى مصر والشام ، ولأنها تقع فى جنوب أوربا الـتى توجد عندها المنافذ البرية التى تسير فيها التجارة من جنوب أوربا الى وسطها وشمالها ، واضافة الى الموقع فقد تميزت بأنها كانت تحتكر أنواعا مـن السلع يصعب على الأوربيين الحصول عليها لبعد مصدرها ، فالتوابل كانـت فى أوربـا فى المرتبة الأولى نظرا لاعتبارها من الوسائل المفيدة للصحـة والطعام ، وكانت أوربا فى فصلى الخريف والشتاء تلقى صعوبة فى سبيل توفير الأعلاف اللازمة للماشية ، لهذا كان الأوربيين يضطرون الى ذبح الماشيـة للاحتفاظ بلحومها طوال الشتاء ، ولما كانت الثلاجات لم تخترع بعـد ، فقد كانوا يلجأون الى تمليح وتتبيل اللحوم حتى تظل صالحة للأكل أطـول فترة ممكنة [٢] ، أما القرنفل والكافور فقد كانا لهما أهمية عند الصيادلـة لاستخدامه فى الأدوية الطبية والمراهم ، ودرج الكثيرون على كتابة عبارات مثل " وارد من بلاد الهند " أو " وارد من بلاد العرب " على زجاجـات الأدوية [٣] ، ولا نستطيع أن ننسى كذلك البخور ومدى غرام الأوربيين بـه ، وحاجة الكنائس له عند اقامة الصلوات والاحتفالات الدينية .

---

(١) عبد الحميد أشنهو : دخول الأتراك العثمانيين الى الجزائر ٢٠ .
(٢) على التاجر : الربان أحمد بن ماجد — دفاع وتقييم ٢٨٥ . مجلـة العرب . الجزء الثالث . السنة الخامسة . رمضان . ١٣٩٠هـ نوفمبر ١٩٧٠م
— سونيا . ى . هاو : فى طلب التوابل ٤٥ .
(٣) د . عبد العزيز الشناوى : أوربا فى مطلع العصور الحديثة ٨٤ .
— سونيا . ى . هاو : فى طلب التوابل ٢١ .

لهذا لم يكن من الغريب أن تكون للتوابل مكانة تعادل القوة الشرائية فى أى بلد أوربى ، مما جعل فى امكانية أى عبد شراء حريته بحمل من الفلفل كما أقدمت كثير من العائلات على قبول الفلفل كمهر لابنتها فى انجلترا ، أما فى فرنسا فلم تكن الكنيسة تقبل أى عملة محلية من اليهود اذا ما رغبوا فى دفن موتاهم أو افتتاح مدارس لأبنائهم ، ولكن تقديم كميات من التوابل كانت كافية للحصول على موافقة الكنيسة على مطالبهم (١) .

ومجمل القول أن التوابل بلغت مكانة جعلت الأوربى لا يعتبر المأدبة كاملة الا اذا احتوت على أصناف من التوابل (٢) ، ويضاف الى ذلك جميع أنواع المواد الخام التى كانت تحتاجها أوربا فى صناعاتها المحلية مثل الصوف والقطن والأحجار الكريمة والبلسان والعاج وخيوط الحرير وغيرهما .

وكان من الطبيعى أن تلعب مدن جنوب ايطاليا نفس الدور الذى لعبه المماليك كوسطاء للتجارة ، واشتهر من تلك المدن البندقية وجنوا وبيزا وفلورنسا وميلان ، غير أن الأولى والثانية كانتا أقواهم نتيجة لسبق سيطرتهم التجارية ومواقعهم الممتازة ، غير أنه يمكن القول بأنه كان للبندقية فى القرن الخامس عشر الميلادى نفوذ سياسى وتجارى طغى على جارتها جنوا التى شب بينها وبين البنادقة الصراع من أجل احتكار التجارة قبل أن يصل البرتغاليون بفترة طويلة لدرجة أن جنوا حاولت الوصول الى مصادر هذه التجارة ، ولكنها فشلت أمام محاولاتها ، بحيث أفسحت المجال أمام البرتغاليين فيما بعد لتنفيذ هذه المهمة ، وحتى قبيل سقوط القسطنطينية كانت المدن الايطالية تعتمد فى

---

(١) د. نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ١٩٩ .
(٢) توفيق اليوزبكى : تاريخ تجارة مصر البحرية فى العصر المماليكى ٩٣ .

تجارتها على موانىء آسيا الصغرى ، ولكن سقوطها بأيدى الأتراك العثمانيين ١٤٥٣م أدى الى تحويل مسارهم تجاه الموانىء السورية والمصرية (١) ، حيث وجدوا تسهيلات كبيرة بداية من عهد السلطان اينال المملوكى (٢) ، مما دعاهم الى محاولة تنمية مراكزهم التجارية وتدعيمها .(٣)

وقبل أن نتكلم عن دور المدن الايطالية كوسطاء للتجارة ، يجب أن نشير هنا الى أن سكان المدن الايطالية وتسهيلا لعبور تجارتهم ، عمدوا الى احياء الطرق التجارية القديمة الى أوربا عبر جبال الألب ، بالاضافة الى انشاء طرق جديدة مدعمة بالجسور والكبارى فوق الأنهار والترع ، حتى لقد أطلق على الطريق الذى يخترق شمال ايطاليا عابرا جبال الألب اسما يجمع فى معناه طابعا جغرافيا اقتصاديا وهو The Economic Spine Europe أى السلسلة الفقرية الاقتصادية لأوربا (٤).

---

(١) عمد سلاطين الأتراك العثمانيين عقب سقوط القسطنطينية الى قفل كافة مكاتب ومستودعات البنادقة فى المدينة انتقاما للمساعدات التى كان يقدمها البنادقة للمدينة خلال فترة الحصار .
د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٣٨ .

(٢) أحد سلاطين دولة المماليك الثانية بويع بالسلطنة فى القاهرة يوم الاثنين ثامن ربيع الأول ٨٥٧ هـ — ١٤٥٣م ، وتوفى يوم الخامس والعشرون من جمادى الأول ٨٦٥ هـ — ١٤٦٠م ، وكان يبلغ من العمر احدى وثمانين سنة ، حكم منها ثمانى سنوات وشهرين وستة أيام .

(٣) د . نور الدين حاطوم : تاريخ عصر النهضة الأوربية جـ ٣ ١٤٤، ١٤٥ .

(٤) د . سعيد عاشور ، د . محمد أنيس : النهضات الأوربية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة ٣٠٢ ، ٣٠٣ .
مطبعة لجنة البيان العربى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٠م .
— د . السيد رجب حراز : عصر النهضة ٥٥ .
دار النهضة العربية ، القاهرة .

عبر هذا الطريق حمل تجار المدن الايطالية سلع الشرق منحدرين بهـا الى جنوب ألمانيا بعد عبور ممر برنر Brenner سالكين نهر الرايـن ، حتى تصل الى هولندا (١)، ومنهم من يتجه بسلعته مع نهر الرون مـن مرسيليا الى شمال فرنسا ووسطها حيث السوق السنوى الشهير Troye ، هذا غير السفن التى تأخذ طريق البحر الى بر شلونة حيث تتولى القوافل نقلهـا الى اسبانيا (٢).

من هذا نرى أن أهمية أية مدينة ايطالية يمكن أن ترتفع أو تنخفض بمدى قربها أو بعدها من السلسلة الفقرية الاقتصادية لأوربا ، وهناك عامل مهـم رافق تلك الأهمية التجارية لمدن جنوب ايطاليا ، الا وهو ازدهار الصناعـات المحلية نظرا لوصول المواد الخام اليهم من الشرق وشكل جعلهم يتحكمون فـى حجز المواد اللازمة لصناعتهم ومن ثم تصدير الفائض للدول الأوربية ، وتميـزت البندقية وميلان وفلورنسا بصناعة المنسوجات الحريرية والقطنية ، وهذه كانـت بدورها تأخذ طريقها الى الشرق العربى والشرق الأقصى كسلع مشهورة ومطلوبـة دائما ، وهذا أتاح لكثير من الطبقات الفقيرة المجال للمشاركة فى تجـارة بلادهم عن طريق عملهم كغزالين ، ونساجين وصباغين ، الأمر الـذى أدى الى ارتفاع مستوى معيشتهم (٣). وكان من الطبيعى وقد احتلت البندقيـة المركز السياسى والاقتصادى للدول الايطالية ، أن تحتل مكانة طيبة فى مجـال الصناعة والتصدير ، الى جانب المكانة التجارية ، فهى وان كانت تعتمـد

---

(١) د. السيد رجب حراز : عصر النهضة ٥٢ ، ٥٣ .
— سونيا ى. هاو : فى طلب التوابل ٤٤ ، ٤٥ .

(2) AnGelo Pesce: Jiddah 181.
— د. السيد رجب حراز : عصر النهضة ٥٢ ، ٥٣ .

(٣) د. جلال يحيى : الاستعمار والاستغلال والتخلف ١٧٢ .

فى نفوذها السياسى على موقعها التجارى ، الا أنها لم تغض النظر عن مدى حاجة ذلك النفوذ الى تدعيمه بوسائل استمراريته وحيويته فهى تملك أسطولا تجاريا ضخما يجوب موانى البحر الأبيض المتوسط ، وهى فى حاجة مستمرة الى سفن جديدة تواجه بها النهم الأوربى لبضائع الشرق ، لهذا لم يكن من الغريب أن نجد مواطنيها الذين لم تسعفهم أحوالهم للاشتراك فى توزيع هذه المنتجات يعملون فى مصانعها ، تلك المصانع التى اشتهرت بتصدير المصنوعات المعدنية والعاج والزجاج والبللور المشهور ، كما كان هناك ستة عشر ألفا من العمال يعملون فى ورش البحرية ، وكان فى استطاعتهم بناء سفينة كل يوم (١) وهذا بدوره ما جعل للبندقية الزعامة التجارية فى وقت كانت تملك فيه أسطولا من ثلاثة آلاف ومائتى سفينة يعمل عليها ستة وثلاثين ألفا من بحارة البندقية . (٢)

وجرت العادة أن تخرج سفن الجمهوريات الايطالية فى أوقات معينة من السنة تجوب سواحل البحر الأبيض المتوسط ناقلة الرقيق والفضيات والعسل وأحجار الكهرمان والمرجان والأسلحة والبارود والأوعية النحاسية (٣) ، بحيث تمكن المماليك فى مصر والشام من الحصول على كافة مستلزماتهم من أسلحة وغلمان أرقاء لخدمة الجيش والقصر السلطانى ، وفى الوقت نفسه يلتقط الايطاليون ما تكدس فى موانيها وموانى البحر الأبيض المتوسط الأخرى من بضائع عائدون الى بلادهم حيث كان التجار يتجمعون على امتداد الموانىء الايطالية تلهفا للشراء والثراء ، وحلول مواسم الأسواق الكبرى ، والتى كانت تعقد فى عيد الفصح وفى شهر سبتمبر وأعياد الميلاد (٤) ، ولعل من أهم تلك الأسواق

---

(١) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ٣٥ .
ـ د. جلال يحيى : الاستعمار والاستغلال والتخلف ١٧٢.
(٢) جورج لوفران : تاريخ التجارة ٤٤ ، ٤٥ .
(٣) توفيق اليوزبكى: تاريخ تجارة مصر البحرية فى العصر المماليكى ٩٥ .
(٤) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ٣٥ .

سوق ريالتو Rialto وسوق Saint Marc حيث تعقد المزادات العلنية بحضور التجار الألمان والانجليز وغيرهم (١)، أما سكان دول شمال غربى أوربا فكانوا يكتفون بوصول السفن الايطالية اليهم حاملة بضائع الشرق، التى تمر فى طريقها بانجلترا حاملة محاصيلها من القصدير والجلود وعائدة بها الى بلادها (٢)، أما تجار وسط أوربا وشمالها فكانوا يحملون ما يحتاجونه بالجملة ليتم توزيعه فيما بعد على الباعة الصغار والمستهلكين، سالكين ما ذكرناه من قبل عن سلسلة جبال الألب، وقد تحملت البندقية وجنوا العبء الأكبر فى هذه المواسم التجارية، بينما تخصصت جنوا فى علاقاتها التجارية مع عرب شمال افريقية حاملة لهم المصنوعات الزجاجية والأسلحة والأوانى، ومن ثم تعود محملة بالتبر والصوف والجلود والعبيد (٣)، ويمكن القول أن البندقية قد تخصصت فى التوابل، اذ تغادر قوافلها البحرية البلاد مرتين كل عام فى الخريف وفى شهر يناير صوب الثغور المصرية لتحمل منها بضائع تقدر حمولتها بمليون بندقى، وعائدة ببضائع تفوق فى سعرها ما جاءت به (٤)، وحرص الايطاليون بدورهم على ضرورة بقاء هذا المورد الغنى عن طريق ارضاء سلاطين المماليك فى مصر، وعقد الاتفاقيات التى يتم من خلالها تحديد الأسعار بين الطرفين، وخاصة التوابل التى كانت تأخذ فى الارتفاع التدريجى كلما أقبل القرن الخامس عشر الميلادى على نهايته، وكان ذلك أمر مفروغ منه، فأوربا تحتاج التوابل ومصر هى المصدر الأساسى لها، وحتى تسير الأمور بطبيعتها حرصت الجمهوريات الايطالية أن يكون لها ممثلين فى بلاط السلطان المملوكى

---

(١) د. محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٥٣.
— د. عبد العزيز الشناوى : أوربا فى مطلع العصور الحديثة ٨٥.
(٢) د. نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ١١٢.
(٣) د. جلال يحيى : الاستعمار والاستغلال والتخلف ١٧٥.
(٤) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ١٤١، ١٤٢.

لتسهيل أمر حصولهم على ما تحتاجه بلادهم من توابل ، وفى الوقت نفسه رعاية مصالح تجارها المقيمين فى موانى مصر والشام ، والذين قدر عددهم مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادى بنحو ثلاثة آلاف تاجر ، اتخذوا لأنفسهم بيوتات ووكالات تجارية ، فى وقت سهل لهم فيه المماليك سبل الاقامة وحرية التنقل ، فقاموا بعمليات التسويق والشحن وحسابات الجمارك [١] ، وبلغ من تسامح سلاطين المماليك معهم أنهم كانوا أحيانا يسمحون لتجار البندقية بدخول القاهرة للبيع والشراء مجيزين لهم التعامل بعملة بلادهم الذهبية التى كانت تلقى رواجا فى ذلك الوقت فى الشرق [٢] .

مع هذا الحال كان لابد من أن تنعم المدن الايطالية فى جو من الترف والرخاء يصحبه حسد الدول الأوربية لهذه المكانة ، مما جعلها تفسر ذلك على أنه حصر عربى — ايطالى وبالأدق حصر بندقى — عربى يسمح لهم بالتمتع بالثروة دونهم ، ففى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى بلغ مجموع الضرائب التى كانت تجمعها البندقية من خلال نزول السلع بأراضيها ١٨٠٠ ك جرام من الذهب ، يستثنى منها الأرباح العامة والدخل القومى للتجار البنادقة ، لأنها كانت أضعاف نسبة الضرائب السابقة [٣] ، حتى لقد بلغ

---

(١) د ٠ نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ١٩٦ ٠
كان يسمح للقناصل بالاسكندرية بتحصيل ٤ر٤ ٪ من الرسوم المتحصلة لصالح القنصلية و ٢ ٪ على الوارد ومثلها على الصادر للقنصلية أيضا و ٥ر٠ ٪ لصالح القنصل نفسه ٠
— د ٠ نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٣١٨ ٠

(٢) المرجع السابق ٤٦ ٠

(٣) د ٠ جلال يحيى : الاستعمار والاستغلال والتخلف ١٨٢ ، ١٨٣ ٠
بلغت كمية الفضة المسكوكة التى ترسلها أوربا كل عام لمصر حوالى ٣٠٠ر٠٠٠ دوقات سنويا ٠
— د ٠ نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٣٦٠ ٠

عدد الأشراف البنادقة فى ذلك الوقت أكثر من ألف شريف يتراوح دخلهم السنوى بين ٢٠٠٠٠ ، ٥٠٠٠٠٠ ألف فرنك بندقى[١] ، لهذا لم يكن من الغريب أن دول أوربا فى ذلك الوقت كانت تنفق فى سبيل شراء بضائع الشرق أضعاف سعرها ، ففى الوقت الذى لم يكن فيه حمل القرنفل مثلا يزيد فى سعره عن ثلاث دوكات فى موطنه ، نجده قد وصل البندقية وقد وصل ثمنه الى ٢٥ دوكا قبيل نزوله فى الأسواق الكبرى فى ايطاليا ، وبطبيعة الحال فان الحمل من القرنفل لن يبق على سعره حال انزاله فى المزاد ، فالتجار الايطاليون ينتظرون أيضا أرباحهم الخيالية ، هذا بخلاف التجار الذين سيتولون مهمة توصيل هذه الأحمال الى شمال ووسط أوربا ، حيث المستهلك ، ومن هنا نستطيع أن نقول أن نظرة أوربا تجاه هذه القضية قد انحصرت فى نقطتين ، النقطة الأولى أن هناك دولا عانت من هذا الغلاء عناءا شديدا ، وحاولت أن تبحث لها عن مخرج لهذه الأزمة فلم تجده الا مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادى حينما حول البرتغاليون التجارة العالمية الى لشبونة ، أما النقطة الثانية فهى حسد اسبانيا والبرتغال المدن الايطالية على تلك المكانة التجارية وقد وجدت مخرجا بوصولها الى قاليقوط ٩٠٤ هـ ـ ١٤٩٨م وكان من الضرورى أن يشعر البرتغاليون قبل غيرهم بفداحة الأسعار والرسوم خاصة وأنها كانت بعيدة كل البعد عن الأسواق الايطالية ، اضافة الى ذلك فان وصولها قاليقوط كان يعنى بالنسبة لها الانتقام من أشد أعدائها المسلمين بحرمانهم من أرباح هذه التجارة ، بل وتطويقهم من الجنوب ، وكان مطلع القرن السادس عشر الميلادى بمثابة انقلاب هائل فى طرق التجارة العالمية فالبرتغاليون عبروا رأس الرجاء الصالح وتمكنوا من تحويل الطرق التجارية عن طريقه ، وبدأت الأسواق الأوربية تذخر ببضائع الشرق الرخيصة الثمن عن طريق لشبونة فقنطار الفلفل الذى يباع بالاسكندرية بـ ٨٠ دوكا عرضته البرتغال فى أسواقها بـ ٤٠ دوكا ، وبذلك تمكن الأوربى من

---

(١) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ٦٥ .

الحصول على ما يحتاجه بربح الثمن الذى كان يبيع به الايطالى (١).

وأصبحت أسواق مصر كاسدة وعادت سفن البندقية ٩٠٨ هـ - ١٥٠٢م وهى لا تكاد تحمل نصف شحنتها ، وبعد أن كانت السفن الايطالية تـزور مصر سنويا لعدة مرات أصبحت الآن تزورها مرة كل سنتين (٢).

وتبدأ سلسلة المحاولات البرتغالية للدوران حول افريقية باستقرارهم فى مدينة سبتة ٨١٨ هـ - ١٤١٥م ، ويجب أن نشير هنا الى أن هـذا الاستيلاء قد حمل بين جنباته عوامل صليبية صريحة نبعت وسط ذلـك الجو المعادى للاسلام والمسلمين فى شبه الجزيرة الايبيريـة ، فحملـة الأمير هـنرى الملاح التى استولى بها على سبتة كانت حملة صليبية بمعناها الصحيح وان تعددت الأهداف والأغراض ، فهى حملة صليبية لعوامل ثلاث ، أولا لأنها امتداد لحملاتهم الاستردادية بدليل أن الذى تولى قيادتهـا أى الأمير هنرى هو صليبى متعصب ، نشأ وسط أسرة لم تعرف لهـا عدو على وجه الأرض أكثر من الاسلام ، بحيث غدت الأمير هنرى منـذ طفولته بلبان تصوف دينى مسيحى عسكرى يخالطه بغض مرير للاسلام (٣).

أما العامل الثانى فكان الهدف منه شطر المغرب الاسلامى - عقب الاستيلاء على سبته - الى شطرين ، مما يعطيهم الفرصة لاجتياحـه

---

(١) د. ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ٢٩٣. مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٠م.

(٢) د. أحمد السيد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجـرى ١٠٩.
- شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ١٤٦.

(٣) ك. م. بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٢٥.

بعد تأمين قاعدتهم فى سبتة التى تتيح لهم حرية الزحف على امتداد سواحل المغرب الشرقية والغربية (١) ، وفى الوقت نفسه فهى قريبة من البرتغال لتلقى الامدادات .

أما العامل الثالث فيكمن فى أن موقع سبتة سيحقق دون شك للبرتغال فائدة اقتصادية عن طريق الاشتراك فى تجارة غرب افريقية مما يوفر الأموال اللازمة لبناء قوتها ، وبالتالى تجنيد هذه القوة فى حربها ضد المسلمين (٢).

وباستقرار الأمير هنرى فى سبتة طرأت أمور جديدة جعلته يسرع فى اعداد نفسه لمهمة مهاجمة العالم الاسلامى من جنوبه ، بعد أن سمع وشاهد بنفسه سر قوة المسلمين من خلال تجوله فى أسواق سبتة ، واطلاعه على الغنائم التى سلبها جنده من الأسواق ، فبهرته هذه الكنوز التى كانت تحملها القوافل من الشرق الأقصى والهند ، عبر مناطق كانت مجهولة بالنسبة له (٣) وهذا ما أثار الحقد فى نفسه على العرب لتمتعهم بهذا الموقع التجارى ،

---

(١) د . صلاح العقاد : المغرب العربى ١٤ .

كان الأمير هنرى يرى أن الوصول الى مصادر تجارة التوابل التى هى المصدر الرئيسى لقوة المسلمين يحتم عليه الاستيلاء على شمال افريقية وحتى يضعف شمال افريقية قرر أن الاستيلاء على المدن الساحلية والداخلية سوف تؤدى الى استنزاف مصادر قوة البلاد الاسلامية فى شمال افريقية بحيث تعجز عن مقاومته .

- د . شوقى الجمل : المغرب العربى الكبير فى العصر الحديث ٤٣ .

(٢) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٥٦ ، ٥٧ .

(٣) على التاجر : الربان أحمد بن ماجد - دفاع وتقييم ٢٩٤ .

- مجلة العرب ، الجزء الثالث . السنة الخامسة . رمضان ١٣٩٠ هـ ، نوفمبر ١٩٧٠م .

وحياة الرفاهية التى كانوا يعيشونها من خلال الاتجار بسلع الشرق الأقصى والهند وغانة فبيت لذلك أمرا سنراه فيما بعد ٠

وعندما سمع الأمير هنرى من الأسرى المغاربة والأفارقة عن قوافل الصحراء التى تحمل الذهب من بلاد تمبكتو الى سبتة ، ونظرا لعدم تمكنه من غزوها ، بسبب الصحارى الفاصلة بينهما ، والتى لم يتعودها البرتغاليون ، فقد صمم على ضرورة تحويل تجارتها والاشراف على أسواقها (١) ، وبهذا الاحتلال كان البرتغاليون قد زرعوا أول بذرة لسياستهم الاستعمارية حيث صمم الأمير هنرى على ضرورة تنفيذ الخطة الاستراتيجية الكبرى لتطويق العالم الاسلامى ، وحمل العالم المسيحى رأسا الى المحيط الهندى بالاشتراك مع مملكة القديس يوحنا (٢) ، وأصبحت الخطوة التالية لتنفيذ ذلك هو السير بمحاذاة شواطئ افريقية الغربية وكشفها ، وكانت البداية هى محاولة الوصول الى المنطقة التى تقع جنوب جزر كناريا ومن ثم الوصول الى رأس بوجادور Bojador الذى لم تكن أوربا تعلم عنه

---

(١) أ٠ و٠ بوفيل : الممالك الاسلامية فى غرب افريقية وأثرها فى تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى ١٥٢٠
ترجمة د٠ زاهر رياض ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٨م٠

(٢) يذهب الدكتور يسرى الجوهرى فى كتابه " الفكر الجغرافى والكشوف الجغرافية " ص ١٥٨ ، الى أن القديس يوحنا انما هو مبشر مسيحى هرب الى القارة الافريقية وعاش بها ، وان أخذنا بصحة الاشاعة عن القديس يوحنا فهى تخالف الواقع لأن القديس يوحنا وكما ذكرته المراجع انما هو ملك مسيحى قوى يملك المال والعتاد ، فلو كان مبشرا كما ذكر الدكتور يسرى لما طمع فيه ملوك أوربا خاصة وانه لا يملك شيئا ان كان مبشرا اضافة الى أن هروبه يعنى انه لم يستطع أن يوفر المساعدة لنفسه فكيف يوفرها لغيره ، وانما طمعت فيه أوربا لكونه قويا فتضم جهودها الى جهوده لمهاجمة العالم الاسلامى ٠

أى شىء ، ولم تذكره كتبهم حتى ذلك الوقت ، اضافة الى عدم مرور أى ملاح أوروبى فيه من قبل (١) ، اذ أن معلومات أوربا عن غرب افريقية فى ذلك الوقت لم تكن لتزيد عن تلك الخريطة التى كان يظهر عليها ملك زنجى يجلس على عرش من الذهب (٢).

ويمكن تقسيم رحلاتهم الكشفية ابتداء من رأس بوجادور الى فترتين الفترة الأولى وتبدأ من رأس بوجادور وتنتهى عقب وفاة الأمير هنرى بعامين أى فى ٨٦٧ هـ — ١٤٦٢ م ، أما الفترة الثانية فتبدأ من عام ٨٧٥ هـ — ١٤٧٠ م حيث توقفت حركة الكشوف لمدة ثمانى سنوات ، وانتهت بوصول بارثلميوديا ز الى رأس الرجاء الصالح ٨٩٣ هـ — ١٤٨٧ م.

ففى الفترة الأولى حدد الأمير هنرى أهدافه ، وهى الرغبة فى معرفة ما يوجد خلف رأس بوجادور ، لأن عدم المعرفة به كان بالنسبة له حاجزا يحول دون متابعة البحارة والتجار لمسيرتهم الاستكشافية (٣) ، ومن ثم محاولة جمع المعلومات الكافية عن سكان تلك المناطق ، فان كانوا مسلمين يحاول الوقوف على مدى قوتهم ، وان كانوا مسيحيين فهى فرصة تمكنه من الاتجار معهم ، ومن ثم الاستعانة بأمرائهم المسيحيين فى سبيل ابادة

---

(١) د. يسرى الجوهرى : الفكر الجغرافى وحركة الكشوف الجغرافية ١٥٧ . منشأة المعارف ، الاسكندرية .

(٢) د. شوقى الجمل : تاريخ كشف افريقية واستعمارها ٦٠ . مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة ١٩٧١م.

(٣) سونيا . ى . هاو : فى طلب التوابل ١٠٣ .

أعداء المسيحية (١) ، ويجب أن نشير هنا الى أن تقدم البرتغاليين كـــان بطيئا فى البداية ، ففى ٨٢١ هـ - ١٤١٨م تم اكتشاف جزر Madeir ماديرا ، على أنهم لم يتمكنوا من عبور رأس بوجادور Bojador الا فـى ٨٣٨ هـ - ١٤٣٤م بعد محاولات قامت بها أربع عشرة حملة نتيجة لعـدم خبرتهم فى الأمور الملاحية فى ذلك الوقت ، ومعاكسة الرياح التجاريـــة التى تهب من الشمال الغربى بحيث كانت تسبب لهم الكثير من المتاعـــب ، اضافة الى فقر هذا الساحل من الطعام والماء (٢). وبعبورهم لـــــرأس بوجادور أخذت الرحلات البرتغالية طابع السرعة والاندفاع بعد ذلـــك ، والمجال فى هذه الفترة من اكتشافاتهم طويل جدا ، غير أننا نذكر أهم تلـــك الأعمال التى كان لها طابع مميز فى سرعة اندفاعهم نحو اكتشاف المزيد مـــن السواحل الغربية ففى ٨٤٥ هـ - ١٤٤١/١٤٤٢م اكتشف كل مـــــن Antonio Gonsalrez و Nuno Tristam ساحل الذهب Rio d'ouro حيث حملوا فى طريق عودتهم كميات من الذهب والعبيد الى لشبونة (٣) ، فكان هذا بدوره مشجعا لمزيد من الاندفاع نحو

---

(١) سونيا ٠ ى ٠ هاو : فى طلب التوابل ١٠٣ ٠
يحرص الدكتور زاهر رياض كثيرا فى أبحاثه وخاصة كتاب تاريخ غانة الحديث على ابعاد الروح الصليبية وأهدافها عن أعمال البرتغاليين فى غرب افريقية بل انه يتطرف تطرفا واضحا حينما يصف أعمال البرتغاليين بأنهم يسعو ن الى هداية المسلمين الى المسيحية واصفا ذلك بأنه نصر كبير للمسيحية ٠
(٢) د ٠ يسرى الجوهرى : الفكر الجغرافى والكشوف الجغرافية ١٥٨ ، ١٥٩ ٠
- ك ٠ م ٠ بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٢٦ ٠
- Fage, J.D.: A History of West Africa , 51
(٣) عندما حمل الزنوج لأول مرة الى البرتغال كانوا موضع اعتبار مزدوج اذ هم أرقاء وبشر فى وقت واحد (وثنيون يمكن كسبهم وتحويلهم الى المسيحية) أما المسلمون فيجب أن يقهروا ثم يقتلوا ٠
- سونيا ٠ ى ٠ هاو : فى طلب التوابل ١٠٤ ٠

الجنوب ، فى وقت كانت فيه بعثاتهم التبشيرية قد اتخذت مراكزها فى المناطق السابقة (١) ، وفى السنة التالية تمكن كل من Diniz Dias و Nuno Tristao من اكتشاف جزيرة صغيرة سميت أرجيون Arguin تقع الى الشمال من Cape Blanco الرأس الأبيض ، حيث أنشأ بها البرتغاليون قلعة صغيرة تحركت منها حملاتهم نحو السودان الغربى ، طامعين فى الوصول الى منبع الذهب فى تمبكتو - أحد أحلام الأمير هنرى الملاح - والسيطرة عليها ، لأن ذلك سيمكنهم من الانفاق على رحلات كشفية أخرى لايجاد طريق الى تجارة الهند ، ومع فشلهم عمدوا الى الجزيرة السابقة واتخذوها مركزا للقرصنة لاعتراض السفن التى قد تجول هناك دون اذن منهم ، اضافة الى أنهم جعلوا من الجزيرة مركزا لتجميع الرقيق وتصديره (٢).

واستمرت حملاتهم الاستكشافية فيما بعد حتى سيراليون عقب وفاة الأمير هنرى الملاح بعامين أى فى ٨٦٧ هـ - ١٤٦٢ م .

تميزت الفترة الأولى ببدء معرفة أوربا بالرقيق المستجلب من السواحل الغربية الافريقية ، ذلك أن بحارة الأمير هنرى وكوسيلة لتعويض تكاليف الحملات

---

(1) Races, Alien: A History of the Colonization of Africa 78 - 79.

- د. زاهر رياض : تاريخ غانة الحديث ٤٣ .
دار المعرفة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٦١م .

(٢) جيمس دفى : الاستعمار البرتغالى فى افريقية ٣٥ .
ترجمة : الدسوقى حسنين المراكبى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٣م

- Fage: A History of West Africa 51.

التى كانوا يخرجون بها لجأوا الى عملية اصطياد الرقيق وبيعه [١] ، كذلك تميزت هذه الفترة بلجوء بعض قادة الأمير هنرى عند فشلهم فى عبور رأس بوجادور الى شن الغارات على السواحل المغربية للغرض السابق [٢] .

اضافة الى هذا فقد استفاد البرتغاليون من هذه الرحلات ، فقد تعودوا عليها وتمرنوا من خلالها على الحروب البحرية لاسيما ضد الافريقيين ، وأصبحت سفنهم على درجة كبيرة من جودة الصناعة [٣] ، وأخيرا تحطيم بعض الخرافات القديمة والتى كانت سائدة فى أوربا من أن بعض المخلوقات الغريبة المتوحشة تعيق حركة الملاحة اذا عبرت السفن رأس بوجادور [٤] .

أما الفترة الثانية والتى تبدأ ٨٧٥ هـ - ١٤٧٠ م بعد فترة من التوقف دامت لمدة ثمان سنوات [٥] ، فقد بدأت قوية فى وقت اشتدت فيه النزعة الصليبية عقب فترة تأصلت فيها ، كذلك ازدياد معرفتهم بالساحل الغربى الافريقى ، واكتشافهم أن افريقية من الممكن أن تهىء لهم موردا غنيا للرق [٦] ،

---

(١) د . محمود متولى ، د . رأفت الشيخ : افريقيا فى العلاقات الدولية ٤٤ .
كان من المألوف فى ذلك الوقت ، أن تلجأ الكنيسة الى تمويل مشاريعها الدينية عن طريق عوائدها من تجارة الرقيق ولم يكن عملها هذا يواجه استنكارا ما .
- جيمس دفى : الاستعمار البرتغالى فى افريقية ٦٢ .

(٢) سونيا . ى . هاو : فى طلب التوابل ٩٨ .

(٣) د . محمود متولى ، د . رأفت الشيخ : افريقيا فى العلاقات الدولية ٤٤ .
دار الثقافة للطباعة والنشر . القاهرة ١٩٧٥ م .

(٤) أ . و . بوفيل : الممالك الاسلامية فى غرب افريقية ١٤٩ .

(٥) قد يعود هذا التوقف لأحد الأمور التالية أو جميعها وهى أولا : اضطراب أوضاع البرتغال الداخلية حينا ، ثانيا : انشغال الجالس على العرش بأمور أخرى ، ثالثا : فقد البحارة لحماستهم عقب وفاة الأمير هنرى ، رابعا : خشية البرتغاليين من تعقب الأسبان لهم .

(٦) د . سعيد عاشور : تاريخ أوربا العصور الوسطى ج ١ ٥٧٠ . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة . الطبعة الخامسة ١٩٧٢ م .

وقد استهلت هذه الفترة باكتشاف ساحل غانة وعبور خط الاستواء لأول مـــرة ٨٧٦ هـ - ١٤٧١ م[١] ، حيث وصلوا الى رأس كاترين Cape Catherine ٨٨٠ هـ - ١٤٧٥ م وتابع البرتغاليون نشاطهم الكشفى ، ففى عام ٨٨٧ - ١٤٨٢ م قام Dioga Cam دياجو كام برحلة كشف فيها مصب نهـــر الكنغو ، حيث أقام عند المصب صليبا حفر عليه اسم ملك البرتغال يوحنـــا الثانى [٢]، وبنهاية عام ٨٩٠ هـ - ١٤٨٥ م وصل دياجو كام الى Cape Cros كاب كروس حيث تم فى هذه الفترة كشف ما يقرب من ١٤٥٠ ميـــل من الساحل الافريقى الغربى ، وبذلك تكون البرتغال قد قربت من نقطـــة التقاء السواحل الغربية لافريقية بسواحلها الشرقية ، وهى التى قام بارثلميـــو دياز من أجلها برحلته عام ٨٩٣ هـ - ١٤٨٧ م حيث تم له الوصول الى أقصى جنوب افريقية ، بعد معاناة شديدة مع العواصف فى تلك المنطقة مما جعلـه يسميها رأس العواصف ، وكان بامكان بارثلميو دياز اكمال رحلته لولا تمـــرد بحارته عليه [٣]، وفى عام ٨٩٤ هـ - ١٤٨٨ م عاد الى لشبونة بعـــد أن كشف من الساحل الافريقى حوالى ١٢٦٠ ميلا أتمها باكتشاف ما سماه مسلك

---

(١) د · يسرى الجوهرى : الفكر الجغرافى والكشوف الجغرافية ١٦٠ ·

(٢) د · شوقى الجمـل : تاريخ كشف افريقية واستعمارها ١٥٦ ·
- سونيا · ى · هاو : فى طلب التوابل ١٢٦ ·

(٣) أبحر بارثلميو دياز بسفينتين حمولة كل منهما خمسون طنا ومعه ثالثة أصغـر منهما لحمل مؤونة ثلاثة أعوام · واصطحب معه عينات التوابل ليطلع الأهالى عليها فى البلاد التى ينزل بها عليها تكون مما ينبت فى بلاد هم فيتعرفون عليها أو يرشدونه الى مواطنها كما اصطحب معه عددا غير قليل من الزنـوج ذكورا واناثا ليترك فى كل مكان جديد يكتشفه جماعة منهم لينبئوا الأهالـى عن علم وخبرة شخصية بعظمة البرتغال وليستفسروا فى الوقت نفسه عن القـس يوحنا وعن الهند ·
- سونيا · ى · هاو : فى طلب التوابل ١٣١ ·

البرتغالى تيمنا برأس الرجاء الصالح ومهدا بذلك الطريق لكى يتلمح فاسكـودى جاما طريقه نحو الشرق الافريقى (١).

وقد تميزت بداية الفترة الثانية عن السابقة بتوجه البرتغاليين الـــى اكتشاف بعض المناطق الداخلية بالاتفاق مع القبائل الافريقية ، ففى ٨٨٧ هـ — ١٤٨٢ م أنشأ البرتغاليين فى الجزء الغربى من ساحل غانا قاعدة سان جون دى مينا ، وانطلقت الحملات البرتغالية منها متوغلة داخل القـارة ويبدوا أن السبب فى ذلك راجع الى رغبتهم فى الوصول الى المحيط الهندى تجنبا للطرق التجارية التى يسيطر عليها المسلمون ، وفى الوقت نفسه محاولة نشر المسيحية بين القبائل الافريقية (٢).

من هذا نستطيع القول أن السواحل الغربية لافريقية لم تكن تمثل هدفا يسعى البرتغاليون لتحقيقه ، وانما كانت وسيلة يصلون عن طريقها الى الهدف الأكبر وهو تجارة المحيط الهندى ، بدليل أنهم لم يتوغلوا فى الداخـل الا ما ذكرنا ، كذلك اقتصر نشاطهم على اقامة موانىء تصلح لرسو السفـن ، ومزودة بالقلاع والمستعمرات استعدادا للهدف المنشود .

وهنا يجب أن نشير الى ما كان للعرب من فضل على الأوربيين بصفـة عامة والبرتغاليين بصفة خاصة فى مجال البحر والملاحة ، فمن المعلوم أن معلومات

---

(١) د. يسرى الجوهرى : الفكر الجغرافى والكشوف الجغرافية ١٦١ .

(٢) د. زاهر رياض : الاسلام فى أثيوبيا فى العصور الوسطى ٢٤٠ . دار المعرفة . القاهرة . الطبعة الأولى ١٩٦٤م.
— جيمس دفى : الاستعمار البرتغالى فى افريقية ٣٧ .

الأوربيين خلال العصور الوسطى عن العالم تدور أو تكاد تنحصر فى منطقة البحر الأبيض المتوسط بحكم موقعها الجغرافى ، أما المحيط الأطلسى والذى كان مركز ظهور البحرية البرتغالية ونقطة انطلاقها فى حركة الكشوف الجغرافية ، فقد اقتصرت معلوماتهم عنه على الساحل فقط حيث مراكز الصيد الصغيرة ، أما فيما أبعد من الساحل فكانت كتبهم المليئة بالخرافات والخيال كفيلة باعطائنا صورة عن مدى تأخرهم فى الاكتشافات البحرية وأنه لولا وجود العرب بين ظهرانيهم لما وصلوا الى تلك الاكتشافات ، ولم يكن هناك من دليل لمعرفة مدى تأخرهم فى علم الجغرافيا سوى انكارهم كروية الأرض وتمثيلها فى شكل رباعى أو فى شكل قرص تتوسطه الشمس وتحيط به مياه البحار الممتدة الى جدران تحمل السماء فوقها (١).

ولم يكن للبرتغاليين أو بصفة عامة سكان شبه الجزيرة الايبيرية أى خلفيات سابقة بالخروج وارتياد البحار بدون ذلك التراث العلمى الذى تركه العرب فى أراضيهم (٢)، ففى البحر ورواده نجد مدى قيمة اهتمام المسلمين على عهد الدولة الأموية بالموانى الغربية لشواطىء شبه الجزيرة الايبيرية ، وما أنشأوه فيها من دور للصناعات البحرية ، هذا الاهتمام ربما كان قد أدى الى ظهور محاولات من العرب لاختراق ما يقع ضمن نطاق خرافة العقلية الأوربية عن المحيط الأطلسى (بحر الظلمات) فالادريسى مثلا فى كتابه : نزهة المشتاق فى اخترلق الآفاق ، يذكر قصة عن بعض الفتية من لشبونة عرفوا بالمغررين ، ساروا فى بحر الظلمات الى الغرب أحد عشر يوما ، ومن ثم الى الجنوب اثنى عشر يوما حتى وصلوا الى احدى

---

(١) محمد قاسم ، حسين حسنى : تاريخ أوربا الحديثة ٢٩ .

(٢) لم تلبث أسبانيا عقب سقوط غرناطة ٨٩٨ هـ — ١٤٩٢ م أن قضت على مظاهر هذه الحضارة بواسطة محاكم التفتيش بعد أن كانت أسبانيا منار العلم ومرتدى طلابه فى أوربا .

الجزر [١]، أما ابن سعيد (٩٠٦ هـ - ١٥٠٠ م) فى كتابه جغرافية الأقاليم السبعة فيذكر أن " ملاحا عربيا يدعى ابن فاطمة ، دار حول لافريقية من الغرب الى الشرق ووصف سواحل السنغال ومدغشقر ". (٢)

وعلى الرغم من أن ورود هذه القصص فى كتب الرحالة القدامى قد تكون بين الحقيقة والخيال فى المجتمع البرتغالى مع بداية حركاتهم الاستكشافية الا أننا لا ننكر أنها قد دفعتهم لمحاولة التجربة لاجتياز ذلك المجهول ، فتلك القصص العربية التى ورثوها ضمن تراث العرب المسلمى هناك بعيدة كل البعد عما وجدوه هم بأنفسهم فى كتب الكنيسة من تلك الوحوش والمخاطر التى تداهم كل من يحاول اختراق بحر الظلمات ، اذن فلابد والأمر كذلك أن شعر البرتغاليون بمدى الفرق بين روايات الكنيسة وروايات العرب الجغرافية خاصة بعد أن لمسوا علوم العرب الأخرى ولم يجدوا أى تراث آخر يضاهى تراث العرب ، لهذا لا نستبعد القول أنه كان للتراث العربى الجغرافى أثره فى تمهيد الطريق للبرتغاليين فى رحلاتهم وأيضا فى محو ترسبات العصور الوسطى عن مجاهل المحيطات ومخاطرها .

---

(١) د. عبد المنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ٢٥٨ ، مكتبة الجامعة العربية ، بيروت . ١٩٦٦م.

(٢) على التاجر : الربان أحمد بن ماجد - دفاع وتقييم ٢٩٣ ، مجلة العرب ، السنة الخامسة ، رمضان ١٣٩٠هـ نوفمبر ١٩٧٠م .

ولم يكن لدى البرتغاليين قبل عام ٩٤٨ هـ ـ ١٥٤١ م أي خريطة ترجع أصلا لعملهم ولكنهم عرفوا كيف يستفيدون من كتابات الرحالة الجغرافيين العرب أمثال الادريسى وابن بطوطة ، ويذهب بعض المؤرخين الى أن رحلة ابن بطوطة كانت المقدمة للاكتشافات الجغرافية البرتغالية [١] ، وليس أدل على ذلك من أن البحار البرتغالى انفانت انريكو صاحب الفتوحات المتوجة باسمه كانت وراءها الخبرة العربية التى اكتسبها فى شمال افريقية [٢] ، وفى الوقت الذى كانت فيه سواحل المحيط الهندى وجزره مجهولة للبرتغاليين حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، كانت تلك السواحل معروفة للعرب ، حيث ورد كثير من الوصف فى كتب الجغرافيين العرب ، فالمسعودى (ت ٣٤٦هـ) وصف ساحل الزنج (شرق افريقية حتى سفالة) ، أما ابن الوردى المتوفى (٧٥١ هـ ـ ١٣٥٠ م) فقد وصف الساحل بين رأس جراد فوى [٣] وموزمبيق جنوبا [٤] ، هذا فى وقت كان العرب فيه على معرفة تامة بأوربا عدا الأطراف الشمالية . [٥]

---

(١) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٥٦ .

(٢) أحمد بن ماجد : ثلاث أزهار فى معرفة البحار ٢٦٣ . تحقيق ونشر : تيودور شوموفسكى . ترجمة وتعليق : د . محمد منير مرسى .

(٣) يقع هذا الرأس على الساحل الافريقى المقابل لجزيرة سقطرة .

(٤) د . أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ٤١ ، ٤٢ .

(٥) د . محمد محمود الصياد : الجغرافيا ٣١٧ (مقال ضمن كتاب أثر العرب والاسلام فى النهضة الأوربية ، مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع اليونسكو . الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر . القاهرة ١٩٧٠م) .

وعلى الرغم من وصول البرتغاليين الى المحيط الهندى وسواحل العرب ومشرق افريقية ، فان البرتغاليين ظلوا ينهلون من نبع ثقافة العرب الملاحية ، وخير دليل على ذلك تلك الخريطة التى أرسلها فاسكودى جاما عام ٩١٨ هـ - ١٥١٢م ، وهى لملاح من الشرق موضح عليها موقع رأس الرجاء الصالح والبحر الأحمر والخليج العربى والمسالك الملاحية الى الصين وجزر فرموزا (١) ، كذلك يدين هذا القائد فى عملية غلق خليج عمان وضرب الحصار على عدن الى خارطة بحرية من عمل ربان عربى يدعى عمر ، اضافة الى من كان يحمل لديه من الربابنة العرب أثناء جولاته بين الخليج العربى والبحر الأحمر (٢) ، فحتى ذلك الوقت وقبيل وصولهم الى المحيط الهندى ، كانت الخرائط العربية أفضل كثيرا من خرائط أوربا التى سيطر عليها الطابع الدينى الحافل بالأساطير دون مطابقة للواقع (٣) ، والدليل على ذلك أنهم رغم اندفاعهم لكشف الساحل الغربى لافريقية ، لم تكن سفنهم تستطيع محاولة الابتعاد عن الساحل أو النفوذ الى أعماق المحيط الأطلسى بسبب عدم وجود خرائط صحيحة (٤) .

---

(١) أغناطيوس كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، القسم الثانى ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ .
ترجمة صلاح الدين هاشم . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٦٥م .
- د . أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ٣٣ .

(٢) المرجع السابق ، القسم الثانى ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ .
- د . أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ٥٦ ، ٥٧ .

(٣) د . محمد محمود الصياد : الجغرافيا ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

(٤) ا ج . جى . كرامز : الجغرافيا والتجارة ١٥٣ . مقال ضمن كتاب تراث الاسلام ، ترجمة جرجيس فتح الله المحامى ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٢م .

وهنا نقطة يجب أن نشير اليها وهى أن سكان البرتغال قد وجدوا فى اليهود وسيلة لنقل علوم العرب الملاحية اليهم ، فعندما قام الاسبان بطرد اليهود من قشتالة [١] ، لجأ هؤلاء الى البرتغال ، ونقلوا معهم علوم العرب الملاحية والتى اشتملت على الجداول الفلكية وعلم المرشدات الملاحية مما كان له أثر كبير فى تقدم الرحلات البرتغالية [٢].

والى جانب ذلك ، يجب أن لا نغفل أمر الأدوات الملاحية ، والتى كانت تستخدم على ظهر السفن بقصد التوجيه والرصد مثل البوصلة (بيت الأبرة) ، والتى استخدمها الشرق منذ عهده بالتجارة البحرية ، وكانت على شكل سمك مجوفا مصنوع من الحديد الممغنطس ، توضع فى طبق يطفو على وجه الماء ، ويتجه اتجاها جنوبيا أو شماليا [٣] ، ومن الأدوات كذلك الاسطرلاب والتى بدورها كانت ذات أثر فعال فى تقدم فن الملاحة البرتغالية ، ذلك أن أمة العرب فاقت غيرها من الأمم فى صنع الاسطرلاب ، حتى لقد أصبح لهم فى كيفية صناعة هذا الجهاز واستعماله مؤلفات كثيرة [٤] ، وعلى الرغم من انتقال هذه الأدوات الى أوربا خلال

---

(١) كان ذلك فى عام ٨٩٨ هـ — ١٤٩٢ م ، وكان عددهم ١٢٠ ألف شخص فى وقت كانت غرناطة قد سقطت بأيدى الاسبان الذين أضرموا النيران فى كل ما هو تراث عربى ، ولكن لجوء اليهود الى ترجمة هذه العلوم من العربية الى العبرية واحتفاظهم بأسرارها قد يفسر ذلك .

(٢) د . أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ٥٦ ، ٥٧ .

(٣) د . جورج يعقوب : أثر الشرق فى الغرب خاصة فى العصور الوسطى ٢٩ ترجمة د . فؤاد حسنين على .
لجنة البيان العربى ، مطبعة مصر ، القاهرة ١٩٤٦م .

(٤) د . أنور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب ١٧٠ .

الحروب الصليبية (١) ، فان البرتغاليين لم ينجحوا فى طريقة لستعمال الأسطرلاب ، والدليل على ذلك أن فاسكودى جاما حينما خرج برحلته الأولى ١٤٩٧ م صوب الشرق ، وأثناء مروره بسواحل غرب افريقية حال تأرجح السفن دون الاستفادة من الأسطرلاب مما أدى هذا بدوره الى عدم تمكنه من قياس ارتفاع الشمس ، فاضطر الى اللجوء الى البر حتى يتمكن من استخدام الأسطرلاب (٢).

ولم تلبث الأيام أن أثبتت مدى الفرق بين الملاحة العربية والملاحة البرتغالية فى المقابلة التى تمت بين فاسكودى جاما والملاح المسلم الذى قاده الى قاليقوط ، حيث أعجب الملاح البرتغالى بحديث هذا الملاح المسلم ومعلوماته الطريفة ، وخاصة عندما أطلعه على مصور لجميع شواطىء الهند كما يعرفها المسلمون ، مع خطوط العرض والطول (٣) ، ثم أخرج فاسكودى جاما للملاح المسلم اسطرلابا خشبيا كبيرا وأصطرلابات أخرى معدنية لقياس ارتفاع الشمس ، وكم كانت دهشته عندما لم يجد منه أى صيغة تعجب ، حيث أثبت له الملاح المسلم ، أن القدرة التقنية للعرب لا تقل

---

(١) لم تكن الحروب الصليبية الطريق الوحيد الذى انتقلت خلاله فكرة الاسطرلاب فقد شهدت قرطبة فى أسبانيا عالم فلكى شهير يسمى الرزقالى Arzachel ابتكر نوعا من الاسطرلاب ، واشتهر ببراعته فى صناعة الأجهزة الدقيقة ، وخير دليل على ذلك هو احتفاظ متحف مدريد ببعضها .

— جون هامرتن : تاريخ العالم ج ٥ ٧٥٩ . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة . أشرف على ترجمته ادارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم .

(٢) سونيا . ى . هاو : فى طلب التوابل ١٨٥ .

(٣) محمد ياسين الحموى : الملاح العربى أحمد بن ماجد ٩ . دمشق ١٩٤٧م.

بحال عن البرتغال[١] ، وقال له " ان ربابنة العرب فى البحر الأحمر كانـــوا يستعملون آلات من معدن (الشبه) بأشكال مثلثة ومربعة لقياس ارتفـاع الشمس ، وخاصة النجم الذى يستهدون به غالبا فى الملاحة " . وأخبره أنـه وبحارة الهند يبحرون مستعينين ببعض النجوم الشمالية والجنوبية [٢] ، وأراه بعض الآلات التى يستعملها بحارة الهند ، وهى التى شاهدها فاسكـــودى جاما خلال رحلته هذه ، حيث لاحظ أن السفن العربية تحمل البوصلـــة ، وخرائط بحرية وأكد على ذلك بقوله " ويحمل الربابنة بوصلات لتوجيــــه السفن وآلات للرصد وخارطات بحرية ". [٣]

وكان لصناعة السفن وطريقة بنائها دور ملموس أيضا فى تحسن تجهـيز المراكب البرتغالية وتطويرها ، وقد نقل البرتغاليون عن العرب الشرع المثلثة والتى استخدمها كل من بارثلميوديياز وفاسكودى جاما وكولمبس من أسبانيا [٤] ،

---

(١) أحمد بن ماجد : ثلاث أزهار فى معرفة البحار ٨٥ . تحقيق ونشـر : تيودور شوموفسكى . ترجمة وتعليق : د . محمد منير مرسى . عالم الكتب القاهرة ، ١٩٦٩م .
بازل ~~دافدسن~~ دافيدسن : افريقيا تحت أضواء جديدة ٢٦٣ . ترجمة : جمال أحمد ، نشر وتوزيع دار الثقافة . بيروت .
(٢) محمد ياسين الحموى : الملاح العربى أحمد بن ماجد ٩ .
(٣) أغناطيوس كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، القسم الثانى ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ .

(٤) جورج فضلو حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ٢٧٢ .
— ترجع أهمية هذا الشراع الى سهولة تحويل السفينة تجاه الريـــح من كل جانب حتى لا يضغط على الشراع ويحطم الصـارى .

ووصل الأمر بالبرتغاليين الى أنهم أصبحوا يصنعون أنواعا من السفن ذات نظام جيد لشد قلاع السفن والتحكم فيها (١).

وختام الحديث عن فضل العرب على الملاحة البرتغالية ، هو اشارة بسيطة الى الاستعارات البحرية التى أخذ ها البرتغاليون عن العرب ، وهى على سبيل المثال لا الحصر مثل رأس بر Rasbec وهى على الشاطىء الغربى لباب المندب ، وشحر Sacl على الشاطىء الجنوبى للجزيرة العربية ، وجودار Guadel وهى جزر عند شط الحجاز (٢).

وتعتبر الفترة من ١٤٩٧ ــ ١٤٩٨ م فترة حاسمة فى تاريخ شعوب منطقة المحيط الهندى ، وسواحل العرب فى الخليج العربى والبحر الأحمر ، اذ أن أبوابا قد فتحت على سكان تلك المنطقة ، توالت منها غزوات الشعوب الأوربية ، وكما قلنا سابقا فقد كانت لرحلة بارثلميوديا ز ١٤٨٧ م أثرها الفعال فى تمهيد الطريق أمام البرتغاليين للانطلاق نحو الشرق ، خاصة بعدما أبدل الملك يوحنا الثانى ما أطلقه ملاحه على النقطة التى وصل اليها برأس العواصف أو الزوابع ، فسماها تفاءلا برأس الرجاء الصالح (٣).

---

(١) أحمد بن ماجد : ثلاث أزهار فى معرفة البحار ١٠ . تحقيق ونشر : تيودور شوموفسكى ، ترجمة د . محمد مرسى .

(٢) المرجع السابق ١٤٤ .

(٣) تذ هب الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها البحرية فى مصر الاسلامية ١٢٧ الى أن فاسكودى جاما هو الذى أطلق تسمية رأس الرجاء الصالح وذلك عند مروره بالرأس فى رحلته الأولى ٩٠٣ هـ ــ ١٤٩٧م .

رغم مرور عشر سنوات بين رحلتى بارثلميوديا ز وفاسكودى جاما الأولـــــــى ١٤٩٧ م ٠(١)

وقد تألفت الحملة من أربع سفن ثلاث منها تم بناؤها للحملة خصيصا ، وكان معظم بحارتها ممن صحبوا بارثلميوديا ز الى رأس الرجاء الصالح ، وتولـى قيادتها فاسكودى جاما الذى زود بنسخة من ترجمة رحلة ابن بطوطة ، وغيره من الرحالة العرب ، كذلك على نسخة من تقارير الجاسوس البرتغالـــــــى دى كوفلهام (٢) ، وقبل رحيلها بيوم واحد خطب الملك يوحنا الثانـــــى فى قادتها موضحا لهم أهدافهم التى تنحصر فى العمل على نشر المسيحية ، والحصول على ثروات الشرق ضاربا لهم المثل برخاء الجمهوريات الايطاليـــــة نتيجة ثروات الشرق (٣) ، وفى التاسع من يوليو ١٤٩٧ م أقلعت حملـــــة

---

(١) كان السبب فى طول المدة بين رحلتى بارثلميوديا ز ١٤٨٧ م وفاسكـودى جاما ١٤٩٧م عائد الى عوامل عديدة جرت فى البرتغال منها أولا : ارسال السفن الى المغرب ٨٩٦ هـ ــ ١٤٩٠ م ويبدوا بسبـــــب الثورات الأهلية ضدهم ، ثانيا وفاة أحد أبناء ملك البرتغال Afonso ١٤٩١م ، ثالثا : الانشغال بجماعات الجزويت التى خرجت مـــن أسبانيا والقتال الذى دار بينهما فى البرتغال ٨٩٨ هـ ــ ١٤٩٢م ، رابعا : خروج كولمبس فى رحلته الاستكشافية ، وأخيرا انتظار التقاريـــر التى وعد بارسالها دى كوفلهام جاسوس البرتغال الى الشرق
- Baily, W. Diffie, George D. Winius: Foundation of the Portuguese Empire 1415 - 1580 175.

(٢) على التاجر : الربان أحمد بن ماجد ــ دفاع وتقييم ٣٦٩ ، مجلة العرب ، الجزء الرابع ، السنة الخامسة ، شوال ١٣٩٠هـ ديسمبر ١٩٧٠م.

(٣) المرجع السابق ٣٦٩ ، ٣٧٠ .

فاسكودى جاما (١)، وبعد أربعة أشهر ألقت مراسيها فى خليج سانت هيلانة جنوب افريقية بعد أن طافت برأس الرجاء الصالح (٢)، ومن سانت هيلانة اتجه فاسكودى جاما صوب المدن الساحلية لشرق افريقيا ، ولم يخاطر فى اجتياز المحيط الهندى ، وانما بدأ يبحث له عن دليل يقوده الى قاليقوط فزار سوفالا وقضى بها مدة (٣)، ومنها انتقل الى موزمبيق فى الثانى من مارس من نفس السنة ، حيث قابله أهل البلاد بحظا هو السود وأكرموا مثواه هو ومن معه ظنا منهم انهم من المسلمين ، وأنهم قد جاءوا من بلاد المغرب ، وهناك سمع أنباء طيبة بأنه فى مالندى سوف يجد مرشدا يقود سفنه ويعبر بها المحيط الهندى . (٤)

---

(١) يذكر الدكتور حسن أحمد محمود فى كتابه الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ٤٧٥ ان رحلة فاسكودى جاما كانت عام ١٤٨٧م .

(٢) تذكر الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها البحرية فى مصر الاسلامية ١٢٧ ، أمرا غريبا وهو " وبعد أن كابد — أى فاسكودى جاما — مصاعب جمة فى السير حوله — أى رأس الرجاء الصالح — لشدة الرياح الشرقية ، استطاع التغلب عليه بفضل خبرة دليله ابن ماجد ، ليصل الى الساحل الشرقى الأفريقى ". أى أن فاسكودى جاما استعان بالملاح المسلم ليوصله من غرب افريقيا الى ساحل شرق افريقية مع العلم ان المصادر جميعها متفقة على أن الملاح الذى استعان به فاسكودى جاما انما ليوصله الى الهند من شرق افريقية وليس من غربها كما ذكرت .

(3) Sousa, Manuel de Fariay: The Portuguese Asia or the History of the Portuguese Containing Tome 1 38, 39.

(٤) مسيو جيان (ريان) وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق افريقية ٢٠٨ .
نقله الى العربية ملخصا : يوسف كمال ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٤٠ هـ — ١٩٢٧م .

— Diffe, Winius: Foundations of the Portuguese Empire 180.

ومن موزمبيق واصل فاسكودى جاما الى بمبا ، ومنها الى مالندى حيث استعان بربان مسلم ليقوده الى الهند ، وهنا نقطة هامة يجب أن نشير اليها وهى محاولة معرفة الشخصية الاسلامية التى قادت فاسكودى جاما الى الهند ، هل هى شخصية عربية أم هندية أم سواحلية من شرق افريقية ، خاصة بعد ما روج المستشرقون اعتمادا على رواية النهروالى فى كتابه البرق اليمانى فى الفتح العثمانى من أن تلك الشخصية هو أحمد بن ماجد (١) أشهر ربابنة العرب فى ذلك الوقت على الاطلاق ، على انه هناك مجموعة من الدلائل والبحوث التى صدرت مؤخرا (٢) تنفى ذلك عن ابن ماجد ، ويمكننا تلخيص تلك الدلائل فيما يلى : من مراجعة كتاب سارجنت :

The Portuguese of the South Arabian Coast.

" البرتغاليون حول جنوب الجزيرة العربية " ، نلاحظ أن جميع المؤرخين الذين قام سارجنت بتحقيق مؤلفاتهم فى كتابه هذا ، والمعاصرين للغزو البرتغالى

---

(١) هو الشيخ شهاب الدين أحمد بن ماجد بن أبى معلق السعدى بن أبى الركائب النجدى ، وينحدر ابن ماجد نفسه من أسرة ربابنة ، فأبوه كان ربانا يلقب بربان البرين (بر العجم وبر العرب) ولا يعرف على وجه التحقيق تاريخ ميلاد هذا الربان ، ولا تاريخ وفاته ، غير أن الثابت أن نشاطه انحصر فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى (أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجرى) .
— د . أنور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٢) من أهم تلك البحوث هى الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، للدكتور أنور عبد العليم ، الذى أكد فى كتاب سابق له وهو "ابن ماجد الملاح" ، أن ملاح فاسكودى جاما هو ابن ماجد ، الا أنه تراجع عن ذلك فى كتابه المذكور فى البداية ، ومن تلك البحوث أيضا ما نشره الأستاذ على التاجر تحت عنوان الربان أحمد بن ماجد دفاع وتقييم فى مجلة العرب ، ومجموع تلك الأبحاث ستة نشرت فى أعداد متتالية ابتداء من رجب ١٣٩٠ هـ .

سنوات وصوله لم يشر أى منهم أى اشارة تدل الى أن ابن ماجد هو الـذى قاد فاسكودى جاما الى الهند ، هذا الى جانب ابن أياس فى كتابه : "بدائع الزهور فى وقائع الدهور"، لم يشر هو أيضا الى ذلك ، رغم انه كان يسجل أحداث البرتغاليين فى البحر الأحمر ، اذن فكيف تمكن النهروالى من تسجيل ذلك وقد كتب مؤلفه هذا عقب فترة طويلة من رحلة فاسكودى جاما ١٤٩٧ م (١) ، ويؤيد ذلك أيضا أن المراجع البرتغالية لم يرد ما يدل على أنها ذكرت أى شيء عنه أو حتى اسمه ، وان كانت كثير من الكتب تذكر لقب هذا الملاح من حيث مهنته وهو كانا Cana أو كاناكا (٢) ، والكلمة الأخيرة نجد تفسيرا لها ، يخالف معناها كملاح وذلك من واقع مذكرات Duarte Barbosa أحد المرافقين لفاسكودى جاما فى رحلته الأولى ، حينما يفسر طبقة الكاناكا بملبار بأن مهنتهم هى التنجيم ، لأن كثيرا من التجار كانوا يستشيرونهم فى طالع تجاراتهم ورحلاتهم (٣) ، ومما يؤكد ذلك أن البرتغاليين عندما وصلوا الى قاليقوط ١٤٩٧ م تعرفوا على صديق للملاح الذى قادهم ويدعى أبو سعيد ، وسموه مونسيد ، وهو اللفظ الذى يستطيعون نطقه دون تحريف للاسم الأصلى ، فلو كان الأمر كذلك فلماذا لم يكتبوا اسم ابن ماجد ولو بتحريف بسيط كما فعلوا مع أبو سعيد (٤) ،

---

(١) د . أنور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب ١٣٢ .
— على التاجر : الربان أحمد بن ماجد — دفاع وتقييم ٣٧٣ ، ٣٧٤ . مجلة العرب ، الجزء الرابع ، السنة الخامسة ، شوال ١٣٩٠ هـ ، ديسمبر ١٩٧٠ م .

(٢) المرجع السابق ، ١٢٧ .

(٣) أغناطيوس كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، القسم الثانى ، ٥٧٠ .

(٤) محمد ياسين الحموى : الملاح العربى أحمد بن ماجد ١٠ .

واذا كان النهروالى يلقى تهمة السكر الى ابن ماجد(١) ، وأن فاسكودى جاما تعمد ذلك حتى يستدرجه لارشاده الى قاليقوط ، فهل من المعقول أن يعتمد قائد مثل فاسكودى جاما على ملاح سكير ليرشده الى الطريق ، كذلك لم نعرف عن ابن ماجد انه سكر فى يوم من الأيام ولو حدث له ذلك لوجدنا لها وصفا فى أراجيزه التى نشرها تيودور شوموفسكى ، ولكننا نجد عكس ذلك بقوله " وينبغى انك اذا ركبت البحر تلزم الطهارة ، فانك فى السفينة ضيف من ضيوف البارى عز وجل فلا تغفل عن ذكره ". (٢)

وأخيرا لو أننا أخذنا بأن أحمد بن ماجد هو الذى دل البرتغاليين الى الهند لوجدنا نقدا شديدا له فى كتب المؤرخين فى نهاية القرن السادس عشر الميلادى وخاصة الأتراك العثمانيين ، فحادثة مثل هذه قد جرت الخراب على العالم الاسلامى وكلفت الدولة العثمانية كثيرا من الوقت والجهد فى سبيل طرد البرتغاليين ، فما من شك أننا كنا قد نجد لوما شديدا للعرب وخاصة أحمد ابن ماجد ، ولكننا نجد العكس من ذلك ، فالقائد البحرى التركى الشهير سيدى على بن حسين ، وهو من الذين أرسلتهم الدولة العثمانية لقيادة حملاتها الى الهند ٩٦٢ هـ — ١٥٥٤ م نجده فى كتابه المحيط ، لا يوجه أى لوم الى ابن ماجد ، وعندما يتكلم عنه يخصه بالمدح والاطراء بل ويصفه بأنه من أفضل ربابنة الشاطىء الهندى الغربى فى القرنين الخامس عشر

---

(١) لا يكتفى الغربيون بترويج اتهامات النهروالى لابن ماجد ، وانما يلفقون بعض القصص التى لا تمت الى الواقع بصلة ، حتى ولو كان ابن ماجد هو ملاح فاسكودى جاما ، من ذلك ما نجده فى كتاب :

Alan Villiers: The Indian ocean 172.

من أن ابن ماجد قال لفاسكودى جاما بعد أن عرف هدفه — لعلك واجد أن الغزو والفتح ضرورة ستحمل عليها رضيت أو لم ترضى .

(٢) د . أنور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب ١٣٣ .

والسادس عشر الميلاديين ، ويختم كلامه عنه بقوله تغمده الله برحمته [١] ، نقول هذا على الرغم من الفشل الذريع الذى صادف حملته ، لدرجة أنه لم يستطع الوصول الى القسطنطينية ، الا بعد رحلة طويلة برا من الهند الى عاصمة دولته ، فلو كان لابن ماجد أى ضلع فى ذلك لكنا وجدنا اشارة ما ، تدل على سخط سيدى على بن حسين على ابن ماجد أو العرب بصفة عامة ، ولكننا لم نجد الا ما ذكرنا سابقا .

وبوصول فاسكودى جاما الى قاليقوط ١٤٩٨ م تمكنت أوربا من تحقيق أغراضها عن طريق البرتغاليين ، أصحاب السبق الأول فى الوصول ، وعلى الرغم من كونهم على علم بمدى ما يملكه الشرق من خيرات تجلت فى تلك الضرائب الباهظة التى كانوا يدفعونها ، الى جانب ذلك الشعور التقليدى بالسيطرة على خيرات الشرق فان الدهشة لم تلبث أن أخذتهم بما شاهدوه من خلال زيارتهم الأولى للمحيط الهندى .

كان التأثير العربى واضحا أينما حلوا فى وقت كانت فيه الأجزاء الغربية من القارة الافريقية تعم فى بحر من الفوضى والجهل ، الأمر الذى مهد للبرتغاليين طريق عبورهم لرأس الرجاء الصالح كما أوضحنا ، وكان هذا بمثابة الحد الفاصل بين عالم تسوده حضارة ورخاء ، وعالم آخر ليس كذلك ، ولم تلبث تلك الاجابة أن ظهرت عندما وجدوا أمامهم شعوبا تدين بالاسلام وأخرى متأثرة به [٢] ، وأنهم جميعا كانوا يعيشون فى رغد من العيش لم

---

(١) محمد ياسين الحموى : الملاح العربى أحمد بن ماجد ١٢ ، ١٣ .

(٢) د . قيصر أديب مخول : الاسلام فى الشرق الأقصى . تعريب : د . نبيل صبحى ، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع بيروت .

تسعفهم به مفاجأة الجولة من ادراكه ، لأنهم وجدوا على شواطىء المحيط الهندى تجارة حية ونشطة ، ووجدوا على شواطىء افريقية الشرقية مدنا زاهرة وبلدانا تجارية غمرتها سفن تلك المنطقة بوابل من النشاط (١) ، حيث كانت السفن التجارية الهندية تقوم بزيارة جنوب البحر الأحمر وشرق افريقية فى وقت وصلت فيه السفن الصينية حتى شواطىء جنوب الجزيرة العربية ومدن شرق افريقية (٢) ، وقام التجار العرب المسلمون بدورهم فى نقل تجارة التوابل والمنسوجات والأحجار الكريمة ، فى حين قاموا بالمشاركة أيضا بنقل المتاجر بين موانىء ساحل الملبار وبين هومز فى الخليج العربى (٣) وكم كانت دهشة فاسكودى جاما عندما وقف أمام موزمبيق وشاهد الموانىء الصالحة لرسو السفن وشاهد سكان الساحل الافريقى الشرقى يرتدون الملابس الفاخرة ويتقلدون الخناجر بعكس سكان غرب افريقية العراة (٤) ، وشاهد بنفسه التجارة الحية التى كان يقوم بها السكان حيث يصدرون الذهب بكميات كبيرة ويستوردون بها التوابل واللؤلؤ والأحجار الكريمة (٥) ، وفى سفالة أدرك فاسكودى جاما أنه أمام عالم تجارى أوسع من عالمهم ، وأكثر ثراء ، وحتى سفنه التى حضر بها وتفننت الملاحة البرتغالية فى أسلوب صنعها لم تبلغ فى حجمها ضخامة سفن العرب عابرات المحيط الهندى (٦) ، وكم

---

(1) Coupland, R.:East Africa and its Invaders 42.
Oxford 1956.

(٢) أحمد ابن ماجد : ثلاث أزهار فى معرفة البحار ٩ .
تحقيق ونشر : تيودور شوموفسكى ، توجمة محمد مرسى .

(٣) د. محمود متولى ، د. رأفت الشيخ : افريقية فى العلاقات الدولية ٤٧ ، ٤٨ .

(٤) د. السيد رجب حراز : افريقية الشرقية والاستعمار الأوربى ٨ ، ٩ .
دار النهضة العربية. القاهرة ١٩٦٨م.

(٥) سونيا. ى. هاو : فى طلب التوابل ١٩٣ .

(٦) د. جمال زكريا قاسم : استقرار العرب فى ساحل شرق افريقية ٣١٠ .
حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس ، المجلد العاشر ١٩٦٧م.

كانت دهشة مبعوثه الى مالندى ، الذى تملكه العجب من رؤية المقاعد المصنوعة من العاج والذهب والأبسطة الفاخرة والحياة التى يشع منها الترف [١]
أما ممبسا فقد شبهوا مبانيها بالمبانى الاسبانية وتحدثوا عن نظافة بيوتها ، وتناسق طرقاتها ، وملابس رجالها ونسائها [٢] ، كذلك شاهدوا العملة النحاسية التى كان يصكها سلاطين كلوة فى دار خاصة بالصك ، وعلموا بمقدار الضرائب التى يجمعها حكام كلوة نتيجة الموقع التجارى ، ودهشوا كذلك عندما سمعوا بشهرة مالندى وممبسا بمناجمها الغنية بالذهب ، وماكانوا يبعثونه من مقادير ضخمة لمملكة كمباى فى الهند ، بالاضافة الى العاج والشمع [٣] ، وكذلك مقديشيو التى كانت تمتلك مصانع النسيج التى تنتج الملابس المصنوعة من وبر الجمال لتباع فى أسواق القاهرة وغيرها [٤].

وكم كان المنظر مثيرا فى قاليقوط ، وهى تعج بالتجار العرب والهنود الذين كانوا منتشرين فى كل زاوية من بلاط الحكام مستخدمين نفوذهم لابقاء تلك السيطرة بأيديهم [٥] ، ولم يكن ذلك بغريب عليها ، فقد كانت المركز الأساسى لتجارة الأفاوية اضافة الى منتجات أخرى تردها من

---

(١) د • حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ٧٣ ، ٧٤ •
(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 41.
— د • حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ٧٣ ، ٧٤ •
(٣) بلغ من ثراء سلاطين شرق افريقية ان السلطان منهم كان يخجل من اعطاء الذهب كهدية •
— د • صلاح العقاد ، د • جمال زكريا قاسم : زنجبار ٩ • مجموعة الألف كتاب ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة •
(4) Roland, Oliver: A short History of Africa 99-100.
— باذل دافدسن : افريقية تحت أضواء جديدة ٢٣٧ ، ٢٣٨ •
(٥) د • قيصر أديب مخول : الاسلام فى الشرق الأقصى ١٥٥ •

ساحل ملبار وجزر المحيط الهادى ، وتأخذ طريقها من قاليقوط تجاه أوربا [١] ،
ولبث البرتغاليون فترة طويلة فى قاليقوط ، رأوا فى خلالها تجارة غنية
وشاهدوا أسواقها المليئة ببضائع الشرق ، واختلطوا بالجماهير من كل صوب
وحدب من الهنود والصينين والزنوج والملونيين والعرب والفرس [٢]، وتعرفوا
على بضائع الشرق التى كانت تمثل أهم مطالب بلادهم وتعرفوا على أسعارها
وذكر أحد الرحالة الفلورنسيين الذى رافق فاسكودى جاما ، أن مشاهدة
مجموعة من السفن ما بين ستمائة أو سبعمائة سفينة فى وقت واحد لهو أمر عادى
لميناء قاليقوط ، حيث تتجمع بكثرة أندر أنواع التوابل والطيب والأحجار
الكريمة والجواهر [٣].

ولم تقتصر الدهشة والاعجاب على البرتغاليين الذين حضروا الى الشرق
وانما انتقلت بوصول فاسكودى جاما الى البرتغال ٩٠٥ هـ — ١٤٩٩ م ،
عندما عرض فى بلاط الملك عمانويل الهدايا الثمينة التى أحضرها معه ،
وخاصة كتلة العنبر التى أرسلها ملك مالندى الى البلاط البرتغالى والتى لم
يشاهد أى منهم مثلها من قبل . [٤]

---

(١) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٣٦ ، ٣٧ .
(٢) ل . ج . شينى : تاريخ العالم الغربى ١٧٩ .
ترجمة : مجدالدين حفنى ناصف ، دار النهضة العربية ، القاهرة .
(٣) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ١٤٥ .
— سونيا . ى . هاو : فى طلب التوابل ٢٠٢ .
(٤) سونيا . ى . هاو : فى طلب التوابل ٢٠٥ .

وهنا فسر البرتغاليون تلك التحذيرات التى كان يتلقاها حكام شرق افريقية من التجار العرب بعدم التعامل مع هذا الدخيل الغريب ، لقد وصل البرتغاليون الى العصود الفقرى لتلك القوة التى صدتهم وغيرهم أجيالا طويلة ، وكان على العرب والمسلمين حكاما وتجارا أن يسعوا لاستمرار تلك المنابع بأيديهم ، وأن يحموا بقاعهم المقدسة ، وكان لابد من صراع وهو ما سنشاهده خلال الفصول القادمة .

... ...

الفصل الثانى

الصراع فى البحر الاحمر قبل العصر العثمانى

أ - البرتغاليون والحبشة .
ب - تهديد البرتغاليين للأماكن المقدسة .
جـ - دور المماليك فى الصراع .
د - موقف إمارات الطراز الإسلامى .

ان موجز العلاقات الحبشية البرتغالية وبصفة عامة الأوربية ، قد تبلور في الأذهان نتيجة ثلاثة عوامل مهمة وهي أولا ذلك الدير الصغير في بيت المقدس ، والذى كان يحج اليه الأحباش سنويا (١) ، وبدون أى شك نستطيع القول أن الرهبان الأحباش وحجاجهم لابد وأنهم كانوا يلتقون بحجاج الدول الأوربية الأخرى ، مما أعطى للأوربيين فكرة عامة عن وجود دولة مسيحية في جنوب مصر ، وان كانت معلوماتهم لم تكتمل حتى ذلك الوقت عن موقعها بالتحديد (٢) ، ومدى القوة التى تملكها ، وما هو الدور الذى يمكن أن تؤديه .

اذن لابد والأمر كذلك أنهم تساءلوا ، ان كانت الحبشة مسيحية وقوية ، فكيف تسنى للمسلمين أن يلعبوا ذلك الدور الضخم في التجارة الشرقية ، ولم يخطر ببالهم أن الحبشة بمجاورتها لمصر كانت تستمد قوتها الروحية خاصة من الاسكندرية ، حيث الكنيسة الأرثوذكسية (٣) راعية ما كان للمسيحية على امتداد نهر النيل حتى الحبشة ، والتى لم تستطع أن تمد الحبشة

---

(١) د . حسن أحمد محمود : انتشار الاسلام والثقافة العربية في افريقية ٤٤٢
(٢) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ٢٩ .
(٣) د . سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة ، ١١ مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . المجلد الرابع عشر . ١٩٦٨م .
- في عام ٣٣٠م دخلت المسيحية بلاد الحبشة على يد أحد رجال الدين الاسكندريين ويدعى فروفينتوس وذلك على عهد الامبراطور عيزانا الذى يعد أول ملك حبشى اعتنقها كما رجحت بذلك بعض المراجع .
د . عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ٣٦ . دار الفكر العربى . القاهرة .

فى أى يوم من الأيام بما تحتاجه من رهبان لرعاية كنيستها دون اذن من حكام مصر بعد تقديم أجود الهدايا ، وكم من اضطرابات شهدتها الحبشة نتيجة عدم سماح المماليك لأى راهب أرثوذكسى بالسفر الى الحبشة . (١) أما العامل الثانى والذى شارك فى بلورة العلاقات الحبشية البرتغالية فهو قصة القديس يوحنا Prester John ، ذلك الذى ألهب الحماسة الصليبية طيلة القرون التى سبقت مطلع العصور الحديثة ، وأصبح الركيزة الأساسية فى سياسة البابوية تجاه العالم الاسلامى حتى تمكن البرتغاليون فيما بعد من الوصول اليه ، ويجب أن نشير هنا الى أنه مع فشل أوربا فى الوصول اليه عن طريق مصر المملوكية التى وقفت حائلا دون وصولهم اليه عبر أراضيها ، فقد تحقق ذلك على يد البرتغاليين أصحاب السبق الأول فى الوصول اليه ، وذلك بعد انتشار أساطيلهم فى المحيط الهندى ، وهذا بدوره مما ألهب الحماسة الصليبية لدى الأحباش ، وعلى الرغم من أن العالم الأوربى وفى مقدمته البابوية قد أقاموا بعض الاتصالات فيما حاول البعض وفشل (٢) ، الا أننا لا نستطيع أن ننكر مدى الاهتمام البرتغالى بالحبشة ، فالدول الأوربية مثل انجلترا وفرنسا والاسبانية فى رودس كل هؤلاء كان لهم دور فى سبيل محاولة جر الحبشة الى مسرح الحروب الصليبية ، الا أننا لا نستطيع أن نشبه محاولاتهم تلك بالمحاولات البرتغالية المركزة والمبنية على أساس ضرورة ايجاد طريق اليه دون حاجة للمرور فى الأراضى الاسلامية ،

---

(١) كان منصب البطريرك الأكبر لكنيسة الحبشة وقفا على رجال الكنيسة المصرية وكان النجاشى يرسل فى طلب البطريرك من سلطان مصر .
— ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ١٠ .

(٢) د . حسن أحمد محمود : انتشار الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ٤٤٣ .

لهذا لم يكن من الغريب أن يباشر البرتغاليون تلك المهمة فى وقت مبكر ، فبينما اندفعت الدول السابقة تتقدمهم البابوية فى سبيل اثارة والهاب حماس المسيحيين ضد المسلمين عن طريق الخطب الرنانة ، وتوزيع المناشير ووضع الخطط ، كان البرتغاليون يندفعون فى صمت حول السواحل الافريقية ، آملين فى تحقيق حلم زعيمهم الأمير هنرى بمقابلة القديس يوحنا ، كذلك يجب أن نميز هنا أن هذه العلاقات قد اختلفت من حيث مضمون الهدف المزمع تحقيقه فى حال تمكن الأوربيين من الوصول الى الحبشة ، وهو كما قلنا سابقا عائد الى عدم معرفة أوربا بالقدرات الحبشية ، أو بالأحرى بمدى مساهمتها فى مشاريعهم ، فحتى قبيل وصول البرتغاليين الى الشرق كانت الآمال تداعب أوربا بعدما فشلت المحاولات الحربية فى سبيل اسقاط دولة المماليك ، ان تقوم الحبشة بمعاونتهم فى سبيل شن حرب اقتصادية عن طريق تحويل مجرى نهر النيل ، حتى تسقط الدولة المملوكية فريسة المجاعة المؤكد حدوثها كما صورت لهم أحلامهم[١] ، والآن وقد وصل البرتغاليون وتجولوا فى البحر الأحمر تغيرت تلك الأحلام ، واتجهت الى محاولة اثارة الشعور العام للمسلمين عن طريق تهديد أماكنهم المقدسة فى الحجاز ، مع محاولة تحطيم الأساطيل المصرية أو حجزها فى الموانىء الجنوبية لدولة المماليك أو الدولة العثمانية على البحر الأحمر .

وهنا مسألة يجب أن نشير اليها ، وهى أن الكثيرين من الكتاب يركزون على أن أساس الصراع بين المسلمين والبرتغاليين انما هو صراع اقتصادى[٢] ،

---

(١) د . سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة ٤١ . المجلة المصرية للدراسات التاريخية . المجلد الرابع عشر ١٩٦٨م .

(٢) د . زاهر رياض : استعمار افريقية ١٤ ، ١٥ . الدار القومية للطباعة والنشر . القاهرة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٥م .

مستدلين على ذلك بأن المماليك كانوا يحرصون على أن يكتموا عن التجار الأجانب مصدر ثرواتهم الى حد الحكم بالاعدام على من يحاول كشفها ، وعلى الرغم من صحة هذه الحقيقة الا أنه يجب أن نشير الى أن الهدف الأساسى للمماليك من اخفاء معالم هذا الطريق (طريق الهند التجارى ..)، هو خوفهم من أن يصل الى الفرنج خبر هذا المسلك المسيحى ، والطرق الموصلة اليه فيقوم بينهما اتفاق تقع أضراره على مصر الاسلامية ، ولم تلبث الأيام أن أثبتت هذه الحقيقة فى عصر السلطان برسباى (١) عندما قبض جنوده على تاجر فارسى يدعى نور الدين على تبريزى اعترف بأن نجاشى الحبشة أرسله الى ملك الفرنجة يدعوه الى الانضمام اليه لسحق الاسلام ورفع لواء المسيحية بأن يغزو مصر من ناحية البحر ، فى الوقت الذى تغزوها فيه جيوش الحبشة من ناحية البر (٢) ، وعلى الرغم من محاولات مصر منع أى اتصال حبشى أوربى الا أن الفرنج كانوا على علم بمدى التطورات التى تلازم الحبشة سواء فى الداخل أو فى علاقاتها مع جارتها مصر ، وذلك عن طريق الاتصالات التى كانت تتم بين الرهبان الفرنسسكان والرهبان الأحباش فى القدس (٣).

---

(١) هو الملك الأشرف سيف الدين أبى النصر الدقماقى وهو الثامن من ملوك الجراكسة بمصر تولى الحكم فى الثامن عشر من ربيع الثانى ٨٣٥ هـ / ١٤٣١ م وتوفى يوم السابع عشر من ذى الحجة ٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م ، وكان عمره خمسا وسبعين سنة .

(٢) د . سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة ٣٣ ، ٣٤ .

(٣) عانت مصر كثيرا من طائفة الرهبان الفرنسسكان فى بيت المقدس ، وكذلك من تجار الفرنج بمصر والشام والذين كانوا بمثابة عيون للبابوية ينقلون اليها أسرار مصر .
أنظر :
د . أحمد السيد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى .

أما العامل الثالث فتتوزعه تلك المراسلات والزيارات التى قيض لهالأن تبدأ بين الحبشة وأوربا ، وان كانت صفة القديس يوحنا لم تتخذ طابعـــا لها فى الرسائل الأوربية ، ويقال بأن أول من كتب الى القديس يوحنا هـــو ملك انجلترا Henry IV هنرى الخامس ، حيث عنون رسالتــه باسم القديس يوحنا (١) ، ولا يفوتنا أن نذكر هنا انه كان للنعرة الصليبيـــة مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادى دورها الفعال فى سبيل ازدياد نشاط اتصال أوربا بالحبشة قبيل وصول البرتغاليين الى المحيط الهندى ، هـذا فى الوقت الذى صادف فيه ذلك هوى فى نفوس الأحباش .

ويجب أن نميز هنا كذلك أن هذه الاتصالات والتى بدأتها أوربـــا مع الحبشة عن طريق الرهبان ، ودعاة النعرة الصليبية قد اختلفت فـــى طبيعتها بين الدول الأوربية ، اذ نستطيع أن نميز هنا أو نصف محاولات كل من البابوية والبرتغال وأرغونة بأن محاولاتهم تلك للاتصال بالحبشـــة كانت دائما تأخذ سمتين فى آن واحد ، وهى العامل الاقتصادى والعامل الدينى ، بعكس دول أخرى مثل انجلترا كان العامل الاقتصادى فى مقدمـــة اهتمامها بالقديس يوحنا .

وعندما عقد مؤتمر فلورنسا (١٤٣٩ ــ ١٤٤١ م) والذى شارك فيه الأحباش بارسال بعثتين دينيتين من القاهرة والقدس ، ألقى الأحبـــاش هناك الضوء على مزيد من الأمور التى قد تؤدى الى زيادة اهتمام أوربا بهم ، عندما أوضحوا للمجتمعين أن عقيدتهم الأرثوذكسية والعقيدة الكاثوليكيـــة متفقتان كثيرا ما عدا فى بعض النقاط ، والذين ما لبثوا أن أكدوا على ذلــك

---

(1) The Cambridge History of Africa Vol. 3, 179.

بتأسيس دير حبشي في سان ستفانوا في روما على عهد البابا ايو جنيوس الرابع [١]، وبذلك شهد القرن الخامس عشر الميلادى مع نهايته ازديادا ملحوظا فى الاتصالات ، اذ تعود بعض الحجاج الأحباش العروج على روما عقب انتهاء مراسيم حجهم ومقابلة البابا ، ويقال بأن الوثائق البابوية تحوي ما يؤيد تقديم المعونة المالية لهؤلاء الحجاج .[٢]

ومع مطلع القرن السادس عشر الميلادى ، أصبحت الحبشة جبهة مهيأة لأى عمل صليبى ضد العالم الاسلامى ، وليس معنى ذلك أنها قد هيأت عدتها ، وانما كانت على استعداد لأن تشترك فى أى عملية يستهدف منها الحاق الضرر بالمسلمين ، فى وقت كانت فيه دولة المماليك تودع أيامها الأخيرة ، والبرتغاليون على أبواب المسلمين الجنوبية قوة تهدد بالوثوب .

وكان من الطبيعى أن يصل البرتغاليون قبل غيرهم الى الحبشة وأن تأخذ اتصالاتهم مع الأحباش دورا ملموسا فى الأحداث السياسية فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، الذى كان مسرحا لأحداث جسام لم تشهده شواطئه من قبل ، ولم يكن وصولهم وليد الصدفة أو هو من قبيل الحظ ؛ وانما كانت أسسا قامت عليها أهداف تحققت عندما خرج بارثلميو دياز ١٤٨٧م نحو اكتشاف المرحلة ما قبل الأخيرة من عبور رأس العواصف (رأس الرجاء الصالح) ، ففى تلك السنة كانت الرغبة تلح على الملك البرتغالى فى ايجاد الطريق الى الشرق بأى سرعة كانت ، اذ على الرغم من

---

(١) د . زاهر رياض : تاريخ اثيوبيا ٨٠ .
مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة . ١٩٦٦م .
— د . سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة ٣٨ .

(٢) فتحى غيث : الاسلام والحبشة عبر التاريخ ١٤٦ .
مكتبة النهضة المصرية . القاهرة .

أن المحاولات البحرية كانت على أشدها ، الا أنه رغب فى محاولة اختراق العالم الاسلامى عن طريق أشخاص لهم معرفة بأحوال الشرق ، فقبل أن يتحرك بارثلميوديباز نحو غرب افريقية ، كان ملك البرتغال قد أرسل اثنين من أتباعه وهما Frey Antonio و Man of the House of Monterio ، للبحث عن القديس يوحنا ، وعندما وصلوا الى القدس التى أرادوا جعلها نقطة انطلاق ، لم يتمكنا من اكمال الرحلة ، وعادا الى لشبونة مخبرين الملك انه من الصعب تنفيذ هذه المهمة دون معرفة اللغة العربية (١) ، وازاء هذا الوضع لم يجد الملك البرتغالى سوى Pero de Covillham ، وشاركه فى تلك المهمة شخص آخر يدعى Afonso de Payva ،

أما الأهداف فقد تحددت كالتالى (٢) ، أولا : البحث عن مملكة القديس يوحنا ، ثانيا : البحث عن مصادر التوابل وأنواعها ، ثالثا : محاولة معرفة كيفية قيام المسلمين بنقلها وتوصيلها الى فينيسيا ، والطرق التى يسلكونها ، وقد زودهم الملك البرتغالى بخطابات توصية لملوك كافة

---

(1) Diffe, Winius: The Foundations of the Portuguese Empire 163.

(٢) د. محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٥٧ .

الأراضي المسيحية التي يمرون بها لاظهارها اذا ما تعرضوا للمتاعب (١) .

كانت جزيرة رودس نقطة الانطلاق للجاسوسين ، وتفاديا للمراقبة المصرية على الأجانب في الاسكندرية تظاهرا بالتجارة كغيرهم من الألوف الذين تغص بهم موانىء الدولة المملوكية على السواحل المصرية (٢) ، ومن القاهرة انطلق الاثنان مع جماعة من التجار العرب الى الطور ، ومن ثم الى سواكن ، وأخيرا في عدن حيث اتفقا على تقسيم المهمة فيما بينهما ، بحيث يتولى دى بايفا البحث عن القديس يوحنا ، بينما يتولى دى كوفلهام المهمة الاقتصادية ، لهذا انطلق دى بايفا الى الحبشة ودى كوفلهام الى الهند

---

(1) Francisco Alvarez: Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia During the years 1520-1527 266 - 268.

- Translated From the Portuguese And Edited by Lord stanly of Alder ley. New York 1970.

هبط لشبونة بعد رحيل بعثة دى كوفلهام بفترة وجيزة (١٤٨٧م) رسول يدعى Lucas Marcos موفد من قبل النجاشي الى البابا ، فاغتبط الملك البرتغالي جون بهذه الفرصة التي اتيحت له لبحث مشروعاته مع رجل عليم بمجريات الأمور ، كرسول النجاشي ، فراح يفضي اليه برغبته في اكتشاف أقصر الطرق الى الهند مؤكدا له بأنه ليس له مطامع استعمارية ، وانما والذى يطمع فيه حقا ، هو الوصول الى التوابل والذهب والأحجار الكريمة عندئذ كتب MarCos الى النجاشي بكل ما أفضى اليه به الملك Joao II جون الثاني .

- Diffe, Winius: The Foundations of the Portuguese Empire 165.

- سونيا ى. هاو : في طلب التوابل ١٣٩ .

(٢) يذهب الدكتور حسن أحمد محمود في كتابه انتشار الاسلام والثقافة العربية في افريقية ص ٤٤٧ ان بعثة دى كوفلهام انطلقت من المغرب الأقصى برفقة القوافل الى الطور بسيناء ، الا أن مذكرات الفاريز الذى قابل دى كوفلهام في الحبشة تخالف ذلك الرأي .

بعد أن اتفقا على التقابل فى القاهرة لجمع المعلومات ومن ثم ارسالها الى البرتغال [١].

أما دى كوفلهام فقد أبحر على ظهر سفينة عربية الى الهند حيث تجول فى كانانور وقاليقوط وجوا ، ومن ثم الى هرمز بعد أن تيقن من ناحيتين مهمتين وهما أولا عدم وجود أى ذكر للقديس يوحنا فى آسيا ، وبهذا تأكد له أن الحبشة هى الوطن الأصلى لهذا الملك ، أما الناحية الثانية فهى أن الهند مما لاشك فيه سوف تحقق لمليكه كل ما يصبو اليه من مشاريع ، خاصة بعدما شهد بنفسه ما عبرت عنه رسائله الى ملك البرتغال فيما بعد .

ومن هرمز أكمل دى كوفلهام طريقه الى شرق افريقية حسب تعليمات ملك البرتغال ، والتى كانت تعتبر فى نظر البرتغاليين فى ذلك الوقت النقطة الأساسية للانطلاق منها الى الهند ، وبعد أن أنهى زيارته لساحل شرق افريقية عاد الى القاهرة وفقا لموعده مع دى بايفا الذى نعى اليه عقب وصوله [٢] ، وهناك قابل اثنين من البرتغاليين الجزويت وهما : Josef و Rabbi Abraham حيث سلماه تعليمات الملك الجديد المؤكدة بضرورة البحث عن القديس يوحنا واصطحاب Abraham الى مدينة هرمز لكتابة تقارير عنها [٣] ، ومن القاهرة أرسل دى كوفلهام

---

(1) Alvarez: Narrative of the Portuguese Embasy to Abyssinia 268.

(2) Alvarez: Narrative 266.

(3) Alvarez: Narrative 268-269.

مع Josef مجموعة من الرسائل تضم تقارير عن المناطق التى زارهـا ونوعية التوابل التى شاهدها ، ومصادر خروجها ، فكتب كيف اكتشف القرفة التى تستورد من سيلان ، والقرنفل التى تأتى من جزائر ملوك وسومطرة والفلفل فى قاليقوط (١) ، على انه هناك رسالة من الرسائل التى أرسلها دى كوفلهام يحوم الشك حول وصولها وعدم وصولها ، لأنها كانت تحـوى معلومات تعتبر بالنسبة لهم ذات قيمة ، وقد أرسلها خصيصا لبارثلميو ديـاز لأنه كان يعتقد حتى ذلك الوقت أن بارثلميو دياز لايزال مبحرا باتجـاه شرق افريقية ، ويقول فى تلك الرسالة " السفن التى تبحر أسفل سواحـل غينيا لابد لها من أن تصل الى نهاية القارة ، وعندئذ تكون قد أشرفـت على المحيط الهندى ، وفى هذه الحال مر رجالك — أى بحارة بارثلميوديا ز — أن يسألوا عن بلدة سوفالا وعن جزيرة القمر فسوف تجدون فيهـا ربابنة يقودون السفن الى الهند ". (٢)

نقول ان الرسالة مشكوك فيها لأنها أرسلت بعد انتهاء رحلة بارثلميوديا ز وقبيل رحيل فاسكودى جاما ١٤٩٧ م ، والمتتبع لحملة فاسكودى جاما فى شـرق افريقية يلاحظ أنه قضى شهورا طويلة متنقلا بين الموانى الشرقية لافريقيـة باحثا عن دليل يقوده الى الهند كما شرحنا من قبل حتى انتهى به الأمر فـى مالندى ، فلو أن الرسالة وصلت فعلا لما كلف فاسكودى جاما نفسه عناء البحث والتجول بين الموانى الشرقية لافريقية ، ولكان اتجه مباشرة الى سوفالا أو جـزر القمر كما ذكر له فى الرسالة .

---

(1) Alvarez: Narrative of the Portuguese Empasy 269.

— سونيا ى. هاو : فى طلب التوابل ١٤٩ .

(2) Edw. Farley oaten: European Travellers in India 50 New York 1971.

— سونيا ى. هاو: فى طلب التوابل ١٤٩ .

عاد دى كوفلهام مرة أخرى الى هرمز ، ومنها يقال انه ذهب الى جدة ومكة المكرمة والمدينة المنورة ، ومنها الى سيناء ثم الى زيلع ومنها الى شوا حيث قابل الملك الحبشى الكسندر Alexander وسلمه رسائل ملك البرتغال (١).

كان لوصول دى كوفلهام أثره البالغ فى البلاط الحبشى ، اذ تمكن الملك الكسندر بذلك من تحقيق حلمه وحلم أجداده فى رؤية دولة مسيحية تسعى الى تحقيق روابط سياسية معه ، بعد قرون طويلة من العيش بجوار دول اسلامية كبرى تحيط به كالسوار بالمعصم ، وباجتماعه مع دى كوفلهام كانت الفكرة الصليبية قد اختمرت فى أذهانه ، خاصة فى وقت كان فيه الكسندر يواصل اعتداءاته الوحشية ضد مسلمى الطراز بعد أن أخذ يمعن فى تدمير مساجدهم ومنازلهم (٢) ، لهذا قادته تلك النعرة الى فكرة شن حروب صليبية جديدة بالتعاون مع البرتغال ، فأرسل دى كوفلهام الى ملك البرتغال ، ومعه رسائل يناشده فيها العمل على مهاجمة مصر ، الا أن اصطدام دى كوفلهام وجنوده مع سكان بعض المدن فى طريقه جعله يرجع الى مركز الملك فى شوا انتظارا لفرصة أخرى . (٣)

---

(1) Robert L. Playfair: A History of Arabia Felix or Yemen 96.
- Alvarez: Narrative of the Portuguese Empassy 269.

(٢) د . ابراهيم على طرخان : الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة ٦٥ ، ٦٦ — مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . المجلد الثامن ١٩٥٩ م .

(٣) د . محمد مصطفى زيادة : مصر والحروب الصليبية ١٥ ، ١٦ . من رسائل الثقافة الحربية رقم ٣٩ . القاهرة ١٩٤٢ م .

وظل الكسندر فى الحكم حتى قتل عام ٩٠٠ هـ - ١٤٩٤ م ، ودى كوفلهام فى بلاطه لم تتح له الفرصة للسفر الى بلاده ، حيث شغل منصب المستشارية (١) كلما ظهرت فى الأفق فكرة النعرة الصليبية .

من هذا نرى أن بعثة دى كوفلهام ، كانت بمثابة الطلائع الأولى للغزو البرتغالى المرتقب ، اذ علم الرغم من أن وصوله لم يشكل فى ذلك الوقت أى خطر على مصر ودويلات الطراز الاسلامى ، نتيجة للحصار المفروض على الحبشة من قبل مسلمى الطراز ، وبعد المسافة ما بين الحبشة والبرتغال ، فى وقت كان فيه البرتغاليون يحاولون اجتياز رأس الرجاء الصالح ، الا أنه قد هيأ بذلك الأذهان وشحذ الهمم لمد العون الى الزائر الجديد كلما احتاجهم ، وكان من المتوقع مع وصول البرتغاليين الى المحيط الهندى أن يتم التعاون مابين الطرفين خلال السنوات الأولى من القرن السادس عشر الميلادى ، الا أن ذلك لم تتهيأ ظروفه للزائر الجديد ، اذ كان عليه أن يثبت دعائم امبراطوريته ، وليس معنى ذلك انهم غفلوا الحبشة وأمورها ، بل على العكس ازدادت كلما تأصلت قواعدهم فى المحيط الهندى (٢)

---

(١) د. ابراهيم على طرخان : الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة ٦٥ ، ٦٦ .
مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية. المجلد الثامن ١٩٥٩م.

(٢) يقال بأن الفاريز كابرال عندما مر بحملته عام ١٥٠٠ م من مالندى أنزل الى البر رجلين كلفهما بالذهاب الى الحبشة لدراسة عادات أهلها وجمع البيانات والمعلومات عن ملكها .
- د. السيد رجب حراز : افريقية الشرقية والاستعمار الأوربى ١٣ .
- StiGand, C.H.: The Land of Zinj 13.

ومع انتهاء عصر ناوود Na'od (١٤٩٤ — ١٥٠٨ م) الذى خلف الكسندر فى الحكم ، كانت الأوضاع السياسية فى البحر الأحمر والمحيط الهندى وفى الحبشة ذاتها ، قد هيأت الأحباش أنفسهم لمحاولة الخروج من عزلتهم السياسية تلك ، وترجمة نتائج وجود دى كوفلهام فيما بينهم على بساط المحادثات والاتصالات ، بالنسبة للأحباش كان لوفاة ناوود أثر سياسى على البلاط الحبشى ، لأن خليفته لبناد نجل Lebna Dongel (١٥٠٨ — ١٥٤١ م) لم يكن قد تعدى الثانية عشر من عمره مما جعل الوصاية تؤول الى زوجة أبيه هيلانة أو هيلينى (١) ، التى مارست الحكم فى ظروف صعبة نظرا لاشتداد صدامها مع مسلمى الطراز الاسلامى ، والتى رأت فى انتصاراتهم خطورة على مملكة الحبشة بعدما بدت معالم الوحدة تظهر بين مدن الطراز الاسلامى ، فى وقت شمل فيه التنافس والانقسام صفوف قادة الجيش الحبشى (٢).

أما فى البحر الأحمر فقد كان للنشاط البحرى المملوكى فيه ، وارسالهم الأساطيل لقتال البرتغاليين فى المحيط الهندى أثر بالغ فى احياء مسلمى الطراز الاسلامى وشحذ هممهم ضد مسيحى الحبشة الذين أحسوا بخطورة ذلك ، أما فى المحيط الهندى فقد كان لهزيمة الأسطول المملوكى فى موقعة ديو أثر فعال فى نفسية الملكة هيلانة (٣).

---

(١) جرت العادة أن يقوم مسلمى الامارات الساحلية بتقديم احدى بنات أمرائهم سنويا الى ملك الحبشة ليتزوجها دليلا على خضوعهم ، وهيلينى كانت ابنة أحدهم حيث اعتنقت المسيحية وصممت على مقاومة مسلمى الامارات .

(٢) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ٣٠ .

(٣) د. محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٦٤ .

من هنا نرى أن كل تلك العوامل السابقة كان لها أثرها الفعال فى اتجاه هيلانة الى طلب المعونة البرتغالية بعدما وجدت التشجيع الكافى من الأجانب المقيمين بأرضها ، وعلى رأسهم دى كوفلهام الذين رغبوها فى مثل هذا العمل بعدما سمعت كثيرا عن مفاخر البرتغال على ألسنتهم (١)، وقبل هذا كله يجب أن لا ننسى عامل مهم وهو قرب الهند اليها بالنسبة لأوربا ، والتى أصبحت مركزا رئيسيا عقب تعيين نائب للملك البرتغالى فيها ، وتحت هذه الظروف اتجهت نية هيلانة الى تحقيق تحالفها مع البرتغال .

كان من المتوقع اختيار دى كوفلهام لرئاسة البعثة ، ولكن رغبة الأحباش فى الاحتفاظ به بسبب الحاجة الى آرائه وحذرهم (٢) جعلهم يختارون أجنبيا يدعى ماتيو الأرمنى Mathieu نسبة الى موطن مولده ، والغريب أن الكتب صمتت عن أصل ذلك المدعو ماتيو أو عن سوابقه أو الظروف التى جاءت به الى الحبشة .

وفى خلال عام ٩١٥ هـ — ١٥٠٩ م تنكر ماتيو وزميله الحبشى فى زى عربى بعد أن حملوا رسائل الى ملك البرتغال والقادة فى الهند اضافة الى قطعة من الخشب يقال أنها من الصليب المقدس الأصلى ، وفى أثناء الرحلة توفى المرافق الحبشى ، وأتم ماتيو رحلته الى الهند (٣) .

---

(1) Edward Ullendorff: The Ethiopians 71, L9nd9n 1960.

(٢) د. السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٤٩ .

(٣) د. زاهر رياض : الاسلام فى اثيوبيا ٢١٦ ، ٢١٧ .

وبينما تلك الأمور تجرى ، كان البوكرك نائب الملك فى الهند يسعى جاهدا للوصول الى الحبشة ، وفى عام ٩١٦ هـ — ١٥١٠ م توجه الى رأس جاردفوى المقابل لجزيرة سقطرة ، حيث أنزل هناك بعثة دينية برتغالية فى محاولة للوصول الى ملك الحبشة عوضا عن البحر الأحمر الذى لم يكن قد اخترقه من قبل ، وبانزاله تلك البعثة انقطعت أخبارها تماما عن البوكرك (١) ، ومن المرجح أن البعثة كانت فريسة سهلة للقبائل الافريقية فى جنوب الحبشة ، لأننا نلاحظ أن Alvarez عندما نزل الحبشة (١٥٢٠ — ١٥٢٦ م) تكلم كثيرا عن الأجانب الموجودين فى بلاط الامبراطور الحبشى ،الا أنه لم يشر الى هذه البعثة اطلاقا (٢).

ومع نهاية عام ٩١٨ هـ — ١٥١٢ م وصل ماثيو الى جوا Joa بالهند حيث استقبله نائب الملك الفونسو دى أليوكرك، الذى سر كثيرا لرؤية مبعوث من قبل القديس يوحنا ، وكانت مناسبة سعيدة للبوكرك الذى كان شديد اللهفة لمعرفة الطريق الذى سلكه ماثيو للوصول اليه (٣) ، وكذلك

---

(1) Jones, Monroe: A History of Ethiopia 62, Oxford 1978.

يذكر بانيكار فى كتابه آسيا والسيطرة الغربية ٤٤ ، ٤٥ أن ملك البرتغال أرسل بعثة الى ملك الحبشة تتكون من جوا ، وجونيز ، وسانكيز بهداية دليل تونسى يدعى سيدى محمد وقد أنزلت الحملة برا عند مالندى لتشق طريقها الى العاصمة الحبشية ، غير أن تلك الجماعة عادت أدراجها بعد ذلك بسنة واحدة وقدمت نفسها الى البوكرك ، فأعطاها هذا بدوره خطابات بالعربية والبرتغالية الى الامبراطور المسيحى ، ويلاحظ على رواية بانيكار هذه عدم ذكره للسنة التى أرسلت فيها البعثة ، كذلك عدم ذكر اسم القائد الذى أخذ البعثة الى مالندى .

(2) Alvarez: Narrative of the Portuguese Empassy 174-175.

(٣) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٦٥ .

الاطلاع على كافة الأوضاع الخاصة بالحبشة ، وهى التى ساعدته فيما بعد أثناء هجومه على زيلع من خلال حملته على البحر الأحمر عام ٩١٩ هـ ـ ١٥١٣م [١] ، وعندما عزم البوكرك على الرحيل لغزو البحر الأحمر ١٥١٣ م اصطحب معه ماثيو ومن هناك أرسله الى البرتغال على ظهر احدى سفنه والتى وصلها مع نهاية عام ١٥١٣ م ، وهناك قدم ماثيو رسالة من هيلانة الى ملك البرتغال عمانويل ، والتى شكت فيها من أخطار تهددها من ناحية مصر ودويلات الطراز الاسلامى ، وأشارت أيضا الى أن تويستان داكنها وهو أحد ضباط الملك فى الهند قد أرسل اليها رسولين يسألها أن تمده بالطعام والرجال لتساعده فى نضاله ، وأنها فى قضية كهذه لن تتوانى أبدا ، ولهذا فهى ترسل ماثيو الذى أصدرت اليه الأوامر ، بأن يخبر القائد البرتغالى فى الهند بأن لها الرغبة والاستعداد لتهذل له ما يريده من مئون ورجال ، وأضافت هيلانة بأنها عرفت بأن سلطان القاهرة يجمع جيشا كبيرا ليهاجم به البرتغاليين فى الهند [٢] ، لهذا فلديها الرغبة فى ارسال عدد كبير من الجنود ليقدموا المساعدة عند باب المندب ، ويمكن أيضا لجنودها أن يصلوا الى الطور أو جدة [٣] ، وأنها أرسلت اليه الصليب كمقدمة للحلف ، وأشارت الامبراطورة أن الجيوش البرتغالية اذا اتحدت مع الجيوش الحبشية فانهم يكونان قوة كافية لأن قوة الحبشة هى قوة برية " اذا كان

---

(١) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٦٨ .
— د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٦٥ .

(2) Sylvia Pankhurst: Ethiopia Acultural History 314 - 315.

(3) Sylvia Pankhurst: Ethiopia 315.

علينا أن نحشد قواتنا فانها ستملأ الأرض بأسرها ، ولكننا ليس لدينا قوات فى البحر وانكم لديكم قوات ضخمة فى البحر "(١).

وبعرض تلك الرسالة ، كانت الحبشة قد عرضت على الواقع أوضاعها السياسية التى كانت تمر بها ، وشارحة السبل التى يمكن اتباعها لتحقيق الوحدة التى ينشدانها ، وفاسحة المجال أمام البرتغاليين لانتقاء الوسائل التى قد تؤدى الى احكام قبضتهم على بحار العرب الجنوبية وبالتالى تهديد الأماكن المقدسة .

أما فى البرتغال فقد أحدثت تلك الوفادة (ماثيو) صدى عميقا فقد تحقق للبرتغاليين ذلك الحلم القديم برؤية مبعوث خاص من القديس يوحنا ومعرفة أخباره ، وكان أن امتلأ الرأى العام بأملين ، الأول : تحويل الحبشة الى المذهب الكاثوليكى ، والثانى : التعاون مع الأحباش لانجاح أطماعهم الصليبية والاقتصادية فى البحر الأحمر والمحيط الهندى(٢) ، وما لبث الملك عما نويل أن عرض على المجلس الملكى الأعلى مقترحات بعثة ماثيو ، حتى تمكن من الحصول على موافقة المجلس الأعلى على امداد الحبشة بالمعونة العسكرية فى صراعها مع المسلمين (٣).

قضى ماثيو عامين فى البرتغال قبل أن تصدر له الأوامر بالعودة ، وكانت مدة كافية للبرتغاليين الذين لابد وأنهم قد حصلوا منه على معلومات

---

(1) Margery Perham: The Government of Ethiopia 38, London 1969.

(٢) د . محمدعبداللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٦٦ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

كثيرة فيما يخص عقيدة الأحباش (الأرثوذكسية) وأوضاعها الاقتصادية ، والطرق المؤدية اليها ، كان هذا فى وقت قام فيه البرتغاليون بأولى حملاتهم الرسمية داخل البحر الأحمر بقيادة البوكرك مفتتحا بذلك طريقا تعود خلفاؤه فيما بعد على افتتاحه سنويا بغارات اما لتهديد الأماكن المقدسة الاسلامية أو محاولة تحطيم أساطيل الدول المسيطرة على البحر الأحمر من مماليك وعثمانيين .

وفى عام ٩٢١ هـ - ١٥١٥ م سمح لماثيو بالعودة ، حيث شاركه وفد برتغالى برئاسة مبعوث برتغالى يدعى Duarte Galvan دورات جالفان كلف بحمل هدايا ورسالة شخصية الى ملك الحبشة لبنادنجل (١) ، وقد أرسلوا جميعا على متن أسطول أرسل خصيصا الى هناك تحت قيادة لوبو سواريز Lopo Soares الذى استلم منصب نائب ملك الهند عقب وفاة البوكرك (٢) ، وتجلت المهمة الأولى لهذه البعثة فى ابرام نوع من المعاهدة مع الحبشة ، تكون من ناحية ذات طابع تجارى ، ومن ناحية أخرى تنص على تقديم المساعدات للحبشة ضد المسلمين ، ولم تتخذ البعثة طريقها نحو الحبشة مباشرة ، وانما ذهبت الى الهند ، التى تعتبر نقطة الانطلاق والاستعداد لأى عمل عدوانى سواء فى البحر الأحمر أو الخليج العربى ، وفى عام ٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م فشل لوبو سواريز

---

(١) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٦٦ ، ٦٧ .

(2) Playfair: A History of Arabia Felix 99.

نائب الملك فى الهند فى انزال البعثة كما هو مقرر فى دهلاك[١] Dalaca بعد قتل بعض أفرادها [٢].

ويبدو أن ذلك الفشل اما أنه عائد الى تيقظ الدولة العثمانية صاحبة الشأن الجديد ، أو لمعاكسة الرياح للأسطول البرتغالى ، ولم تتمكن البعثة من الوصول الى الحبشة الا فى عام ٩٢٧ هـ — ١٥٢٠ م ، حيث أوصلها نائب الملك الجديد لوبيز Lopez de sequeyra دى سكويرا الذى كون بعثة جديدة بقيادة Rodrigo de Lima عقب وفاة دى جالفان فى جزيرة كمران [٣] ، وكان ضمن البعثة الجديدة أفراد آخرون منهم الرسام وعازف الأرغون والقسيس ، وساد شعور غريب فى بعثة دى ليما يقول بأن الحبشة ستحقق النبوءات وستدمر مكة . [٤]

وكلفت البعثة كذلك اضافة الى المهمة الرسمية لها فى البلاط الحبشى طبقا لتعليمات دى سكويرا بجمع المعلومات عن الحبشة وملكها وجيشها وتجارتها

---

(١) دهلاك أو دهلك اسم يطلق على الجزيرة الرئيسية فى الأرخبيل المعروف بهذا الاسم فى البحر الأحمر ، قبال ثغر مصوع بأريتريا ، ويقدر عدد جزر الأرخبيل حوالى ١٢٥ جزيرة ، أكبرها دهلك الكبير ونورا ونوكرة ودهول ودركة .

د . عبدالرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى شرق افريقيا ١١١ . مطبعة يوسف . القاهرة .

(2) Sousa: The Portuguese Asia I 213.

(3) Alvarez: Narrative of the Portuguese Embassy 3.

(4) Jean Doresse: Ethiopia 126. Translated from the French by Elsa Coult.

ودراسة طرقها ومسالكها وأحوال سكانها وجيرانهم (١) ، وعندما اقتربت البعثة من بلاط ملك الحبشة لبنادنجل توفى ماثيو ، ولم يؤثر ذلك على بقية أفرادها ، حيث واصلوا مسيرتهم ، وفى نوفمبر ١٥٢٠ م تمت المقابلة بين البعثة البرتغالية برئاسة دى ليما ولبنادنجل ، وبعد تسليمه هدايا ورسائل الملك عما نويل بدأت المباحثات بين الطرفين ، وشعر الوفد البرتغالى منذ البداية أن الامبراطور الحبشى لم يكن راضيا عن عدد الأسلحة ونوعيتها التى جاءوا بها (٢) لأنه ما لبث أن سأل السفير عن كيفية حصول الأتراك على الأسلحة النارية ، وهل يستطيع البرتغاليون أن يكونوا ندا للأتراك فى هذا الشأن (٣) ، ويبدو من تلك الأسئلة أن لبنا دنجل قد أحس بالضغط العثمانى على سواحل بلاده ، والواقع أن العثمانيين بتتبعهم لأخبار تلك الاتصالات قد فزعوا منها ، وكاجراء وقائى عمدوا الى مراقبة قوافل الحجاج الأحباش الى بيت المقدس (٤) ، اضافة الى أن دورياتهم فى البحر الأحمر أخذت تشدد المراقبة خوفا من حدوث أمرا ما ، فى وقت كانوا فيه قد بسطوا سيطرتهم على زيلع ، ومن ثم بدأ مسلموا الطراز الاسلامى يجدون فيهم قاعدة يستندون اليها كلما هاجمهم الأحباش ، لهذا لم يكن من

---

(1) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 232.

كان ضمن البعثة Francisco Alvarez الذى أخرج الى أوربا أول كتاب من نوعه عن الحبشة ومدنها وسكانها ، وترجم الى جميع اللغات الأوربية .

(2) Pankhurst: Ethiopia 306.

(3) Pankhurst: Ethiopia 307.

(٤) د. محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٦٧ .

الغريب أن تدور المباحثات البرتغالية الحبشية فى بدايتها حول هذا الغازى الجديد للأراضى الحبشية ، فلبنا دنجل والذى كان معاصرا للمماليك وشاهدا لنشاطهم البحرى ، لم يكن يدور بخلده أن المماليك قد يضطرون فى يوم من الأيام لمهاجمة سواحل بلاده ، لأنه يعلم أن سياسة المماليك فى ذلك الوقت كان جل تركيزها على محاولة ازاحة ذلك العبء الثقيل الذى يسد منافذ رئتيها فى الهند ، ويبدو أن تلك الفكرة قد سيطرت عليه بمجرد وصول العثمانيين الى المشرق العربى ، ولكنه فوجىء باندفاع عثمانى شديد ، ظهرت نتائجه فى بداية مباحثاته مع البرتغاليين كما ذكرنا قبل قليل ، لهذا نظر الطرفان لعلاج هذه القضية من خلال عدة نقاط خطيرة ، كان منها قيام الحبشة بمساعدة البرتغال فى بناء قلعة فى مصوع أو سواكن لمهاجمة السفن الاسلامية فى البحر الأحمر (١) ، وأيضا قيام الأحباش بامداد البرتغال بالرجال والمؤن لغزو القاهرة والقضاء على قوة المسلمين (٢) ، أما بالنسبة للبرتغاليين فانهم تعهدوا بارسال معونة للحبشة لغزو زيلع والقضاء على قوة المسلمين المتمركزين فيها ، وكان لبنا دنجل ينظر الى زيلع تلك النظرة لأنها كانت من المراكز الرئيسية فى البحر الأحمر ، والتى تصلها بعض تجارة المحيط الهندى ، ففكر فى أن الاستيلاء عليها سيقطع الامدادات عن جدة وعدن ومكة (٣) ، وفى نفس الوقت فهى قاعدة ممتازة لتموين الأساطيل البرتغالية ، وأن بناء القلاع بها سوف يهدد العثمانيين فى البحر الأحمر ، وكذلك الأماكن المقدسة الاسلامية فى مكة والمدينة (٤) ، ونتيجة لرغبة لبنادنجل فى الاستيلاء على زيلع ، شرح السفير البرتغالى للامبراطور

---

(1) Pankhurst: Ethiopia 306, 307.

(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 232.

(3) Pankhurst: Ethiopia 307.

(٤) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٦٨ .

أن الاستيلاء عليها أمر لا يجد صعوبة من قبلهم ، لأنه حيث تمتد سلطة ملك البرتغال تكون المدن غير مأهولة ، والسكان لن ينتظروا ليروا السفن البرتغالية [١] ، وأخيرا احتمال احتلال برتغالي لسواحل الحبشة على البحر الأحمر لحمايتها من هجوم عثماني عليها [٢].

على أن هذه النقطة الأخيرة لم تجد لها ميلا عند لبنادنجل ، والواقع أنه رغم تلك الاجتماعات التي عقدوها ، فانهم لم يصلوا الى نتيجة معينة بخصوص المقترحات السابقة ، ولم يحددوا موعدا زمنيا لتنفيذها ، لهذا لا نستطيع أن نصف تلك الاجتماعات الا بأنها اجتماعات تمهيدية لأحداث سياسية كبرى فيما بعد ، لأن الأوضاع السياسية التي كانت تمر بها الحبشة في ذلك الوقت (١٥٢٠ — ١٥٢٦ م) قد اختلفت نوعا ما عن الأوضاع التي خرج من أجلها ماثيو ، ذلك أن لبنادنجل عندما بلغ سن الرشد وتولى الحكم بنفسه ضعف مركز الامبراطورة هيلانة ، ولم يعد لها أي نفوذ ، ويبدو أن ذلك راجع لكونها بنت سياستها على أساس الهجوم على المسلمين عقب وصول المساعدة البرتغالية ، بعكس لبنادنجل الذي اتبع سياسة العنف والشدة ضد مسلمي الامارات دون انتظار لأي مساعدة خارجية ، وتفصيل ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه البرتغاليون يدرسون طلب هيلانة للتدخل ، شن لبنادنجل عام ٩٢٢ هـ — ١٥١٦ م هجوما على زيلع وكان هجوما كاسحا استشهد فيه الكثير من سكان زيلع ، ومن ثم أكمل مذابحه في بقية المدن التابعة لعدل حتى أنهكها [٣] ، من هذا نستطيع القول أن ثقة

---

(1) Pankhurst: Ethiopia 307.

(2) Ullendorff: The Ethiopians 72.

(3) Ullendorff: The Ethiopians 71 - 72.

لبنادنجل بنفسه وانتصاراته المتتالية على مسلمى الامارات الاسلامية ، اضافة الى ما يبدوا أنه كان غير واثقا من البرتغاليين من خلال ما ذكرناه عن بداية المباحثات ، قد جعلاه يرفض فكرة الاحتلال البرتغالى لسواحل بلاده .

وفى الثالث من فبراير ١٥٢١ م ، أذن الامبراطور للبعثة بالعودة الى البرتغال حيث زود الجميع بالهدايا وبخطابات الى كل من ملك البرتغال ونائبه فى الهند والى البابا ، وبينما هم فى الطريق الى الساحل علموا بوفاة الملك عمانويل ملك البرتغال فعادوا مرة أخرى الى البلاط الحبشى (١) ، حيث عزاهم الامبراطور لبنادنجل فى وفاته ، وفى هذه الفترة حدث أمر صغير أدى الى استئناف الطرفين محادثتيهما ، ذلك أن لبنادنجل حصل على خارطة موضح عليها موقع كل من أسبانيا والبرتغال ، ويبدوا أنهما وصلته ضمن ما وصله من خطابات ، أما ذلك الأمر فهو ان الامبراطور كشف لأفراد البعثة مدى صغر حجم البرتغال ، والتى كان يغالى فى قوتها وكبر مساحتها أفراد البعثة ، وأظهر لهم بعض الشك فى مقدرتهم على طرد الأتراك من البحر الأحمر (٢) ، وهو الأمر الذى كان يتخوف منه سابقا كما ذكرنا قبل قليل ، ولعلاج هذا الموقف اقترح الامبراطور أن يحتفظ ملك فرنسا بقوات عسكرية فى سواكن ، وأن يحتل ملك اسبانيا زيلع ، وتتخذ البرتغال من مصوع قاعدة لها ، وهؤلاء جميعا عن طريق قواعدهم فى البحر الأحمر سيتمكنون من حماية البحر الأحمر والاستيلاء على جدة ومكة والقاهرة والأراضى المقدسة (٣) ، الا أن السفير البرتغالى غضب لذلك واندفع فى

---

(1) Pankhurst: Ethiopia 313.

(٢) د. السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٠٩ .

(3) Alvarez: Narrative of the Portuguese Embassy 311.

حماس شديد يدافع عن بنى قومه ، وانهم وحدهم قادرون على اكتساح العالم الاسلامى (١).

وعلى الرغم من عدم تسجيل خطة الامبراطور الجديدة ، ونقلها بالتالى الى ملك البرتغال ، فان الخطاب الذى أرسله لبنادنجل الى الملك البرتغالى يظهر مدى حرص الأحباش على معاداة المسلمين ، وحقده الشديد عليهم ، وعلى التعاون مع البرتغاليين ، وطلب فى الخطاب كذلك أن يقوم الأب الفاريز بنشر المسيحية فى مصوع ودهلك وزيلع ، وطلب تزويده بفنيين مهرة فى صناعة الأسلحة اللازمة لجيشه (٢) ، اما خطابه الى البابا كلمنت السابع (١٥٢٣ — ١٥٣٤ م) فقد وعد فيه لبنادنجل بتبعية الكنيسة الحبشية للكنيسة الغربية . (٣)

وفى عام ١٥٢٦ م عاد الوفد البرتغالى الى بلاده ومعه راهب حبشى يدعى زاجا زابو Zaga Zabo ، بعد أن احتفظ لبنادنجل بأحد أعضاء الوفد ، وهو برمودز Bermodez كرهينة عنده (٤).

وعلى الرغم من أن هذه البعثة قد فشلت فى مهمتها الأصلية وهى التفاوض لعقد معاهدة ذات معونة متبادلة لمواجهة القوة الاسلامية ، ولم تنجح كذلك فى سبيل وضع جدول زمنى لوضع تلك المقترحات السابقة الذكر على مسرح الأحداث ، الا أنها مهدت الطريق أمام البرتغال لارسال مساعداتها الى

---

(١) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٠٩ .
(٢) المرجع السابق ١٠٨ .
(٣) د . زاهر رياض : الاسلام فى أثيوبيا ٢١٨ .
(٤) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٦٩ .
— د . زاهر رياض : الاسلام فى أثيوبيا ٢١٨ .

الحبشة عقب البعثة بأربع عشرة سنة ، فى وقت كانت فيه الحبشة قاب قوسين أو أدنى من الانهيار أمام القوات الاسلامية بقيادة الامام المجاهد أحمد القرين، كذلك فقد عادت الى العالم الغربى بتقارير ودراسات عن المنطقة وصورة حقيقية عن أوضاعها .

وحين نتحدث عن الصراع فى البحر الأحمر قبيل العصر العثمانى وتهديد البرتغاليين للأماكن المقدسة الاسلامية على ضوء ما ذكرناه الآن عن العلاقات البرتغالية الحبشية ، فيجب أن نشير الى أنه لما كانت الأماكن المقدسة الاسلامية تقع على الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر ، فقد ترتب على ذلك أن هذا البحر أصبح هو المجال الحيوى الذى جرت فيه محاولات تهديد الأماكن المقدسة الاسلامية ، كما أن هذا البحر كان غاية القوى المعادية للاسلام فى العصور الحديثة .

ويجب أن نفرق هنا بين محاولات البرتغاليين ومحاولات من سبقوهم فالقوى التى سبقت البرتغاليين كان تهديدها يأتى من الشمال أو من داخل البحر الأحمر (١) ، أما فى هذه الفترة فقد أتى الخطر من الجنوب كما رسم بذلك المسيحيون منذ سنوات طويلة ، مما أشرنا اليه فى فصل سابق وتهديد البرتغاليين للأماكن المقدسة الاسلامية لا نستطيع معه أن نحدد زمنه بوصولهم

---

(١) لم تسلم سواحل الحجاز منذ عهد الدولة الأموية من غارات الأحباش المتكررة اضافة الى محاولات الصليبيين برئاسة أرناط فى زمن الحروب الصليبية فى سبيل الوصول الى المدينة المنورة ، ونبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم .

الى البحر الأحمر ، اذ أن هذا التهديد كان ضمن المشروعات البرتغالية ضد العالم الاسلامى منذ بداية الربع الأخير من القرن الثالث عشر ، ذلك أن الأفكار فى تلك الفترة كانت متجهة نحو البحث عن امبراطورية القديس يوحنا الخرافية والتعاون معه لجعل مصوع قاعدة لشن الحملات على مكة (١) ، واذا صرفنا النظر عما فى هذا المشروع من خرافة ، الا أنه يقودنا نحو نقطتين هامتين وهما مدى الحقد الصليبى الذى كان يبيته البرتغاليون للمسلمين ، اضافة الى نقطة هامة أخرى ، وهى أن الخروج نحو بحار العرب الجنوبية قد اتسم بصفة صليبية أكثر منه صفة تجارية فى بدء انطلاق البرتغاليين .

ومع بداية السيطرة البرتغالية فى المحيط الهندى ومداخل الخليج العربى والبحر الأحمر ، كان الخطر على الأماكن المقدسة الاسلامية قد أصبح واضحا للجميع ، ويظهر ذلك من خلال رسالة الملك عمانويل ملك البرتغال المؤرخة بعام ٩١١ هـ — ١٥٠٥ م للبابا يوليوس الثانى حينما طلب منه البابا ايقاف الحملات الى مياه الهند حتى تتحسن علاقات دول البحر الأبيض المتوسط مع دولة المماليك فكان جواب الملك عمانويل " أنه ليس عازما على المضى فى قتل التجارة المملوكية فقط بل انه سيجاهد فى سبيل المسيحية حتى يجعل من مكة هدفا لمدافعه وجنوده "،(٢) والذى أكد للبابا أيضا ضرورة وحدة الدول الأوربية تحت زعامته وضم جهودهم الى جهوده لاستعادة الأراضى المسيحية المقدسة (٣) .

---

(1) Jean Doresse: Ethiopia 125 - 127.

(٢) د. محمد مصطفى زيادة : مصر والحروب الصليبية ١٦ .

(٣) د. أحمد السيد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ، ١٣٦ .

لم تتح الفرصة للبرتغاليين فى البداية لتنفيذ ذلك بسبب اضطرارهم الى تثبيت قواعد لهم للتمركز فيها ، ولكن ذلك لم يستمر طويلا اذ أن الخطر ما لبث أن ظهر بوصول البوكرك الى المحيط الهندى ، ذلك أن تعيين البوكرك فى منصب نائب الملك فى الهند عام ٩١٥ هـ - ١٥٠٩ م كان يعنى بأن البرتغال قد قذفت بأعتى قادتها تعصبا ضد الاسلام ، ولعل خير دليل على ذلك أن البوكرك يعتبر مؤسس القاعدة الاستعمارية للبرتغال فى المحيط الهندى نتيجة نشاطه ضد القوى الاسلامية فى المحيط الهندى (١) ، والأهم من ذلك كله كان هناك عامل مهم ساعد البوكرك على الانطلاق للبحر الأحمر ، الا وهو وصول مبعوث الحبشة ماثيو كما ذكرنا من قبل ، والذى قدم له رسالة ظهر من خلالها مدى رغبة الأحباش فى التعاون مع البرتغال لتحطيم الأماكن المقدسة . (٢)

وضع البوكرك نصب عينية أن مهاجمة الأماكن المقدسة الاسلامية يستلزم انشاء قاعدة بحرية فى مدخل البحر الأحمر للانطلاق منها ، ويجب أن نشير هنا الى أن الرحالة الايطالى لودفيكو دى فارتيما (٣) كان قد رأى بنفسه قبر الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة (٤) ، وفى مارس ١٥١٣ م هاجم

---

(١) عمل البوكرك منذ كان يافعا على محاربة الاسلام حتى أنه بدأ حياته العسكرية بالاشتراك فى الحملات البرتغالية على سواحل المغرب الأقصى .

- Bailey, Winius: Foundation of the portuguese Empire 248.

- د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٧٩ .

(٢) سونيا . ى . هاو : فى طلب التوابل ٢٢٥ .

(٣) أنظر هامش رقم ٥ ص ١٦ .

(٤) جاكلين بيرين : اكتشاف جزيرة العرب ٤٢ ، ٤٤ - ترجمة : قدرى قلعجى .

البوكرك عدن غير أنه فشل فى الحصول عليها (١) ، فاتجه الى جزيـــرة كمران حيث فكر فى مهاجمة جدة ، وكانت تلك الفكرة بالنسبة للبوكرك حـــلم يود تنفيذه ، فقد عرف عنه انه كان يتمنى انجاز مشروعين من مشاريعـــه قبل موته ، فالمشروع الأول كان يحمل فى طابعه عاملا صليبيا حادا وهـــو احتلال المدينة المنورة لينهب قبر الرسول صلى الله عليه وسلم (٢) ، ويسرق ما فيه ويجعله رهينة حتى يتخلى المسلمون عن الأماكن المقدسة فى فلسطين(٣) ، أما المشروع الثانى فقد حمل سمة اقتصادية حيث كان يحلم بتحويل ميـــاه النيل الى البحر الأحمر ليحرم مصر من ارواء أرضها ، ويخرب شبكة الـــرى التى كانت قائمة فيها آنذاك (٤) ، ولما كان المشروع الثانى يحتاج مهندسين وعمال وصناع يستلزم احضارهم من البرتغال فترة طويلة ، فقد قرر البوكـــرك تنفيذ حلمه الأول وتأجيل الثانى ، وصمم على النزول فى ينبع بأربعمائـــة فارس للهجوم على المدينة المنورة (٥) ، غير أن الرياح حالت دون وصولـــه اليها فعاد مرة أخرى الى كمران ، وعوض ذلك الفشل بشن حملات تخريبية ضد موانىء البحر الأحمر . (٦)

---

(1) Playfair: A History of Arabia Felix 98 - 99.

(٢) نظرا لسكون الفاتيكان كان مليئا بالكنوز والثروات فقد اعتقد البرتغاليـــون أن ضريح الرسول صلى الله عليه وسلم سوف يكون على شاكلته .

(٣) د . قيصر أديب مخول : الاسلام فى الشرق الأقصى ١٣٥ ، ١٣٦ ، تعريب : د . نبيل صبحى .

(4) Stripling: The Ottoman Turks 34.

— د . قيصر أديب مخول : الاسلام فى الشرق الأقصى ١٣٥ ، ١٣٦

(5) Stripling: The Ottoman Turks 34.

(6) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 192-193.

كان لهذا الحادث صداه ، ففى مكة خرج الشريف بركات الثانى[١] مسرعا الى جدة ، ومعه جماعة من المحاربين ، وأقاموا بها خوفا من هجوم مفاجئ على جدة وهو أمر أصبح منتشرا ومعروفا لدى الناس[٢] ، ولم يكن ذلك الفشل من الأمور التى يستسلم لها البوكرك ، اذ سرعان ما نجده قد عزم مرة أخرى على معاودة الكرة مضافا اليها موانئ مصر الجنوبية على البحر الأحمر ، ولم يكن من الغريب أن تجد مشروعات البوكرك الخاصة بتهديد الأماكن المقدسة ميلا شديدا لها فى لشبونة التى أرسلت له خصيصا أسطولين[٣] بحيث تضخمت حملته تلك والتى تكونت من ست وعشرين سفينة وألف وخمسمائة جندى برتغالى وسبعمائة ملابارى ، خرج بها عام ٩٢١ هـ - ١٥١٥ م ، غير أن انشغاله بأحداث هرمز والخليج العربى ووفاته عقب الانتهاء من تلك الأحداث ، قد حالت دون تنفيذ مآربه ، وبذلك نجت الأماكن المقدسة الاسلامية مرة أخرى من الخطر .

ويجب أن نشير هنا الى أن البرتغاليين ، مع فشلهم فى الحاق الضرر بالأماكن المقدسة قد تمكنوا من دراسة أوضاع البحر الأحمر ، وعلى الأخص

---

(١) هو الشريف بركات الثانى بن محمد بن بركات بن حسن ، تولى امارة مكة فى اليوم الذى توفى فيه أبيه محمد بن بركات ١١ محرم ٩٠٣ هـ ، توفى فى ٩٣١ هـ عن عمر يناهز السبعين عاما ، وكانت مدة ولايته استقلالا ومشاركة لابنه وأخوته نحو ٥٣ عاما .

(٢) ابن اياس (محمد بن أحمد) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ ٤ ، ص ٣٠٧ .
تحقيق محمد مصطفى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثانية ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م .

(٣) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٧٨ ، ٧٩ .

شاطئه الغربي الذى يضم الحليف التقليدى للبرتغاليين وهم الأحباش ، فى وقت كانت الاتصالات فيه بين الطرفين تأخذ مجراها الطبيعى كجزء من الحرب الصليبية ضد المسلمين (١) ، كذلك يجب أن نذكر هنا جهود الدولة المملوكية ومسلمى الهند فى سبيل تحصين الأماكن المقدسة ، خاصة بعد أن أدرك الجميع ما يهدف اليه هذا الغازى الجديد ، وعلى الرغم من أن حسين الكردى قائد أول حملة مملوكية الى الهند ١٥٠٥ م قد وضع نصب عينيه أن اقتلاع البرتغاليين من جذورهم فى المحيط الهندى معناه تخفيف حدة خطرهم عن الأماكن المقدسة الاسلامية ، الا أنه عمد الى تحصين جدة تحصينا شاملا خوفا من أن يطرقها طارق من البرتغاليين فى قواعدهم فى افريقية الشرقية أو من دورياتهم المتجولة أمام مدخل البحر الأحمر ، فأنشأ فى أقصر وقت ممكن حائطا أحاط بجدة من جوانبها الثلاث دون البحر ، اذ بلغ طول الحائط المواجه لليمن ٨٠٠ ذراع ، وبلغ الحائط الشرقى ٦٠٠ ذراع ، أما الحائط المواجه للشام فقد تعدى الـ ٨٠٠ ذراع (٢) ، وعزز هذا السور بمجموعة من الأبراج بلغ ارتفاعها عن الأرض ١٥ ذراع ، أما البوابات فقد تم صنعها من الخشب المدرع المصفح (٣) ، اضافة الى خندق أحاط بسور البلد ، وبلغ مجموع ما صرف على بناء التحصينات مائة ألف دينار غورى . (٤)

---

(1) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 193.

(2) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 160 - 167.

(٣) أحمد بن محمد يعقوب الامام : السلاح والعدة فى أخبار بندر جدة ، ورقة ٩ ، ١٠ .
المكتبة المركزية لجامعة الملك عبد العزيز بمكة ، مصور رقم ١١٢٦ .
- Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 160 - 161.

(٤) أحمد بن محمد يعقوب الامام : السلاح والعدة فى أخبار بندر جدة ورقة ٩ ، ١٠ .

أما مسلمو الهند فعندما أوضح لهم حسين الكردى مدى الخطر البرتغالى على جدة ، وما يتبع ذلك من ضرر على مكة ، ومدى حاجته لبناء سور حول جدة ، لم يبخلوا معه ، اذ وصلته من السلطان محمد محمود شاه ملك جوجيرات ، ومن أمراء آخرون معونة عبارة عن ثلاث سفن مليئة بالتوابل والبهار ، كان لها دور فى اكمال التحصينات (١) ، أما ينبع فقد قرر لها بعض الوحدات المملوكية خوفا من نزول البرتغاليين بها . (٢)

ولم تكن تلك التحصينات قد اقتصرت على الكردى فقط ، وانما شارك فيها أيضا قادة آخرون ففى عام ٩١٧ هـ ، ١٥١١ — ١٥١٢م قام والى جدة من قبل حسين الكردى بتحصين الساحل أمام الحصن الذى كان مكشوفا دون حماية ، حيث أنشأ مجموعة من الأبراج وسط البر أمام الساحل ، وأقام برجان بحريان نزل بهما الغواصون فى البحر أثنا عشر ذراعا ، وأوصل الأبراج السالفة الذكر بسور جدة (٣) ، وحتى عندما خرجت حملة الهند الثانية ٩٢١ هـ — ١٥١٥م بقيادة كل من حسين الكردى وسلمان الريس ، نجد أن الكردى ومع الأيام الأخيرة لدولة المماليك لم يألوا جهدا فى سبيل زيادة التحصينات ، اذ دعم تلك الأسوار بمجموعة من الأبراج وأمدها بأسلحة الحرب المكونة من المدافع الثقيلة والأسلحة الصغيرة ، وهى التى أظهرت

---

(١) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٢) د . حسن أحمد محمود : التهديد البرتغالى لسواحل جزيرة العرب ومصادر دراسته ، ٦٠٤ .
مجلة العرب . الجزء السابع والثامن ، محرم وصفر ١٣٩٨هـ — ١٩٧٨م .

(3) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 161.
— أحمد بن محمد بن يعقوب الامام : السلاح والعدة فى أخبار بندر جدة ، ورقة ٩ .
- AnGelo Pesce: Jiddah 83.

فائدة كبرى عندما حاول لوبو سواريز ١٥١٧ م للنزول بجدة كما سنذكر فيما بعد (١).

وبحلول العثمانيين محل المماليك فى ادارة شئون العالم الاسلامى ، عقب دخولهم القاهرة ، لم تتوقف تلك التهديدات على الرغم من علم البرتغاليين بمدى قوة الدولة الجديدة ، فى وقت كان فيه العثمانيون يهددون أوربا بالفتح ، لهذا عاود البرتغاليون مرة أخرى محاولة تهديد الأماكن المقدسة الاسلامية ، وتتميز هذه الفترة الجديدة بأن البرتغاليين أصبحوا أكثر جرأة فى محاولة الوصول الى أقصى شمال البحر الأحمر ، ففى عام ٩٢٣هـ ـ ١٥١٧م دخل لوبو سواريز قائد البحرية البرتغالية البحر الأحمر ، وكان قد مر بعدن أولا ثم الحديدة ، ومنها اتجه رأسا الى جدة التى كان يتولى حمايتها سلمان الريس ، وما أن علم بمقدم الأسطول البرتغالى حتى بدأ فى الاستعداد لمواجهتهم ، وخرج بأسطوله وقابلهم أمام ميناء جدة ، الا أنه اضطر بعد قليل الى العودة اليها ، بعد أن ثبتت خيانة أحد المسيحيين المسئولين عن المدفعية فى سفينته ، عندما قام بافساد بارود مدافعه (٢) ، وتمكنت القلعة من صد الهجوم البرتغالى نتيجة

---

(1) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 161.
كانت القلعة المذكورة سابقا تقع خلف فندق البحر الأحمر حاليا الا أنها أزيلت بسبب عوامل التعرية اضافة الى حركة العمران التى تشهدها جدة حاليا .

(2) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 50 - 51.
ـ يحيى بن الحسين بن على : الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، القسم الثانى ٦٥٨ .
تحقيق وتقديم : د . سعيد عاشور . مراجعة : د . محمد مصطفى زيادة . دار الكاتب العربى للطباعة والنشر . القاهرة . ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨م .

تحصيناتها السابقة [١] ، ولم يلبث أسطول لوبو سواريز أن انسحب من أمام الميناء حيث تعرض لعواصف شديدة دمرت بعضا من قطعه [٢] ، وقام سلمان الريس بارسال مجموعة من سفنه لحقت بهم بالقرب من اللحية [٣] حيث تمكنت من أسر مجموعة منهم ، عادوا بهم الى جدة ومن ثم أرسلوا الى السلطان العثماني في عاصمته . [٤]

وكما قلنا سابقا فان البرتغاليين لم يحاولوا الاستسلام مرة أخرى لهذا الفشل في عام ٩٢٧ هـ — ١٥٢٠ م دخل لوبو دى سكويرا البحر الأحمر لتحقيق غرضين ، وهما مهاجمة جدة ومن ثم انزال أول بعثة برتغالية الى الأراضى الحبشية ، ولم تلبث الحملة للمرة الثالثة أن فشلت أمام جدة نتيجة معاكسة الرياح لها ، وعلم البرتغاليون بالحشود العسكرية الضخمة الموجودة في جدة ، فاتجه الأسطول الى مصوع لتحقيق الهدف الثانى .[٥]

وبفشل حملة لوبو دى سكويرا كان الخطر البرتغالى قد خف تدريجيا عن الأماكن المقدسة الاسلامية بسبب اتجاه البرتغاليين الى تعزيز علاقاتهم مع

---

(١) يذكر أحمد السباعى فى كتابه تاريخ مكة ج ٢ ص ٩ أن السفن البرتغالية قامت بعمليات انزال للجنود فى مكان يدعى بأبى الدوائر بالقرب من جدة .

(2) Playfair: A History of Arabia Felix 100.

(٣) اللحية مدينة تقع فى شمال اليمن على سواحل البحر الأحمر .

(4) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 51.

(5) Bailey, Winius: Foundations of the Portuguese Empire 352 - 353.

— د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٠٥ ، ١٠٦ .

الأحباش فى وقت كانت فيه العلاقات بين الحبشة والسلطنات الاسلامية المجاورة لها آخذة فى التدهور ، ويبدوا أن البرتغاليين مع تطور تلك الأحداث السياسية على الشاطئ الغربى لحوض البحر الأحمر ، قد فضلوا مراقبة تلك التطورات ليتدخلوا فى الوقت المناسب وهو ما سنراه بظهور الامام أحمد بن ابراهيم القرين فيما هو آت .

كان الغزو البرتغالى لشريان دولة المماليك فى الهند ومداخل البحر الأحمر والخليج العربى بمثابة آخر مسمار يدق فى نعش دولتها ، فى وقت كانوا فيه عاجزين عن سد الصدع الذى أصاب دولتهم نتيجة كثرة مشاكلهم الداخلية والخارجية ، لهذا لم يكن من الغريب أن يجد البرتغاليين الطريق أمامهم سهلا ، خاصة وأن نفوذ المماليك كان مقتصرا على هيئات تجارية تعمل بنقل بضائعها عبر أراضيهم ، ولم يحاولوا فى يوم من الأيام تعزيز هذه المكانة التجارية بحاميات عسكرية تحسبا لأية طوارئ ، وكان وصول فاسكودى جاما فى رحلته الأولى الى الهند ١٤٩٨ م قد وصل الى مصر كنبأ سيء قبيل وصوله الى البرتغال كنبأ سار [1] ، وكانت الأمور تقتضى على سلاطين الدولة المملوكية القيام بنشاط عسكرى كبير فى المحيط الهندى منذ اللحظات الأولى لوصول البرتغاليين ، ولكنهم كانوا فى شغل شاغل عنهم وعن مشروعاتهم ، هذا فضلا عن أنهم لم تكن لديهم معلومات سابقة عن نشاط البرتغاليين على سواحل افريقية الغربية ، ولا عن محاولاتهم الوصول الى الشرق عن طريق رأس الرجاء الصالح ، والملفت للنظر هنا انه على الرغم من انتشار التجارة المصرية فى سواحل افريقية الشرقية ، فان أى من المؤسسات

---

(1) Miles, S.B.: The Countries and Tribes of the Persian Gulf 138, London 1966.

التجارية الموجودة هناك لم تكن تعلم لماذا زارهم فاسكودى جاما فى رحلته ١٤٩٧ — ١٤٩٨ م ، وما هو الطريق الذى سلكه (١).

وفى الواقع أن مصر خاصة فى تلك الأثناء ، وبالتحديد ابتداء من السنوات ٩٠٢ هـ — ١٤٩٦ م كانت تمر فى ظروف وأوضاع داخلية لاتحسد عليها ، فالى جانب أن الدولة المملوكية كانت بصفة عامة تقترب من نهايتها المحتومة الا أنه كان على سلاطينها أن يحصدوا نتاج ماقامت عليه دولتهم من أسس لا تمت الى واقع البلاد بصلة .

ولعل أهم ما يميز دولة المماليك فى تلك الفترة والتى كانت تقوم عليها مقومات دولتهم هى الاقتصاد والجيش ، لأننا بألقائنا الضوء على هذه العناصر سوف تعطينا المجال للتعرف على مدى قوة المماليك ومقدرتهم على مجابهة البرتغاليين كقوة جديدة تنبع بالنشاط ، لأن المماليك وعلى الرغم من انحدارهم نحو الشيخوخة لم يتورعوا عن بذل كافة جهودهم فى سبيل وقف هذا الخطر ، اذ من الملاحظ أن تحويل طرق التجارة الدولية لصالح البرتغال لم يكن عاملا مهما فى انهيار النظام المملوكى بقدر ما كانت عوامل الضعف الداخلية هي التى أثرت فى انهيار نظم حكمها ، وكانت دولة المماليك عندما رأت أن الطرق التجارية مربحة انصرفت اليها ، وأهملت الدعامة القديمة للاقتصاد المصرى (الزراعة) (٢) ، ولعل هذا الاهمال راجع الى عوامل منها، كثرة الكوارث الطبيعية ، والتى من أهمها انخفاض منسوب مياه النيل ، وما

---

(١) الشاطر بصيلى عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط ، ٤٥١ .
الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة . ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢م.

(٢) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٣٧٠ ، ٣٧١ .

يؤدى ذلك من مجاعات وأوبئة فظيعة تشل معها حركة مصر ، ومن أفظع تلك الأوبئة الطاعون الذى أصاب مصر فى عصر السلطان قايتباى [١] ، وقضى على آلاف الأشخاص فى يوم واحد بالقاهرة ، وما نتج عنه من نقص فى المؤن وانتشار الأمراض فى الماشية [٢] ، اضافة الى هذا كثرة الحروب الأهلية بين المماليك وما يؤدى ذلك اليه من كوارث [٣] ، وأخيرا عدم اتاحة الوقت ولا التشجيع اللازمين للفلاحين فى سبيل تطوير نشاطهم الزراعى [٤] ، ولو أنها استعانت بأرباح الطرق التجارية فى سبيل تطوير أراضيها الزراعية لأمكنها الاستفادة من اقتصادها حين هاجمها البرتغاليون ، ولكنها فعلت العكس مما أدى الى انهيارها ، ولا يعنى ذلك أنهم كانوا شرا على البلاد، فقد أقاموا مقاييس للنيل وطهروا الترع وأنشأوا الجسور وحسنوا وسائل الرى ، ولكن كثرة حوادث السلب والنهب واغارات البدو ، كانت تعيقهم أحيانا عن الاستمرار فى تطورهم الزراعى [٥] ، أما الجيش المملوكى فلم يكن أداة للمحافظة على سلامة الدولة فقط من أى اعتداء ، وأنما كان كيانا حربيا واقتصاديا فى الوقت نفسه [٦] .

---

(١) تولى الملك الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى الحكم يوم السادس من شهر رجب ٨٧٣ هـ ، وهو السادس عشر من ملوك الجراكسة ، وتوفى فى السابع والعشرين من ذى القعدة ٩٠١ هـ .

(2) Stanley Lane-Pool: A History of Egypt in the Middle Ages 398.

(٣) د . على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ٤٩٧ .

(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٥) المرجع السابق ، ٤٩٥ .

(٦) د . صبحى لبيب : التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى ٤٢ مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . المجلد الرابع . العدد الثانى . ١٩٥٢م .

تألف الجيش المملوكى فى ذلك الوقت من أربع فئات وهى ، أولا : فئات المماليك السلطانية ، وهم طوائف كثيرة أهمهم القرانصة وهم مماليك السلاطين السابقين ، ومن ثم الجلبان وهم المماليك الذين يتم شراؤهم للسلطان الحاكم ثم السيفية وهم مماليك الأمراء الذين ينقلون الى السلطان بسبب وفاة أو عزل أو مصادرة تلحق بأسيادهم السابقين(١) ، ثانيا : مماليك الأمراء وأرباب الدولة والوظائف ويعرفون باسم أجناد الدولة ، أجناد الحلقة ، أما الفئة الرابعة فهى التى تضم أبناء السلاطين والأمراء والمماليك الذين نشأوا وتربوا فى دار الاسلام وحمل معظمهم أسماء عربية(٢) ، ونحن من استعراضنا هذا أردنا أن نوضح عناصر الجيش المملوكى لأنه ومن خلالهم سنرى كيف أن دولة المماليك عانت كثيرا بسبب هذه التقسيمات الطبقية ، خاصة فى وقت كان فيه نظامهم لا يعترف بمبدأ الوراثة ، وهذا بدوره ما نقل الصراع الى الجيش فتعرضت فرقه ووحداته لعوامل الانحلال ، وتفشت بين صفوفها أسباب التفرقة (٣) ، ويضاف الى ذلك تعمد كل سلطان منهم بعد توليه الحكم سياسة الاهتمام بمماليكه دون غيرهم من السابقين مما أضاف عوامل جديدة ساعدت على ضرب وحدة الجيش فى صميمه(٤) ، ولعل خير دليل يؤيد هذا ما حدث خلال معركة مرج دابق من فتن بسبب الجلبان

---

(١) د. السيد الباز العرينى : الفارس المملوكى ٤٧ .
مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . المجلد الخامس ١٩٥٦م .
— د. محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الغورى ٤٤ .
سلسلة أعلام العرب عدد ٥٢ توزيع مكتبة مصر . القاهرة .

(٢) د. السيد الباز العرينى : الفارس المملوكى ٤٧ .

(٣) محمد عبد المنعم السيد الراقد : الغزو العثمانى لمصر ٨١ .
مؤسسة شباب الجامعة للنشر . الاسكندرية .

(٤) المرجع السابق ٨٠ ، ٨١ .

والقرانصة ، والتى فى النهاية أدت الى تسهيل الأمر للعثمانيين فى تلك المعركة (١).

وجملة القول تلك هى الحالة العامة التى وصلت اليها مصر بقيادة المماليك ، ولكن هناك اشارة مهمة يجب أن نشير اليها ، وهى ما الذى حدث فى الفترة من وصول البرتغاليين الى المحيط الهندى عام ٩٠٣ هـ - ١٤٩٧ م الى أن تولى السلطان الغورى السلطنة عام ٩٠٧ هـ - ١٥٠١ م ، اذ على الرغم من أن هذه الفترة قصيرة الزمن ، وهى كغيرها من الفترات التى مرت بها مصر تحت حكم المماليك ، الا أن معناها فى الأحداث السياسية فى المحيط الهندى كان له مغزى كبير ، لقد تمكن البرتغاليون من الوصول الى الهند ومعرفة الطريق اليها ، لهذا كان لابد من التساؤل ماذا حدث فى مصر ، هل غفلت عنهم ، أم أنها أحداث أقوى من ارادتها ، أم أنهم يعلمون وليس لديهم المقدرة على الوصول الى الهند ، ونزع جذور البرتغاليين قبيل تعمقها فى التربة الآسيوية ، لأن الغزو البرتغالى كان يحتاج منذ بدايته الى يد قوية تمنع وتصد ومن ثم تطارد ، ولكن الذى حدث هو أنهم هم الذين قاموا بالمنع والصد ومن ثم طاردوا .

والواقع أننا نستطيع الاجابة على ذلك ، فيما اذا حاولنا تتبع الأحداث السياسية الداخلية فى مصر عقب وفاة السلطان قايتباى (ت ١٤٩٦م) الى أن تولى الغورى السلطنة ١٥٠١ م باعتباره أول السلاطين المماليك جهادا للبرتغاليين ، وأول ما يلاحظ على هذه الفترة أى الخمس سنوات ما بين وفاة قايتباى وتولى الغورى السلطنة انها كانت فترة سياسية مضطربة حكم فيها السيف بكل من تولى السلطنة حتى مجيء الغورى ١٥٠١م .

---

(١) د . أحمد فؤاد متولى : الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته ١٥٩ . دار النهضة العربية . القاهرة .

فعقب وفاة قايتباى تولى العرش ابنه محمد ، والذى لم يكن قد تعدى الرابعة عشر من عمره ، وهذا بدوره ما جعله قنطرة أو مطية للمطامع ، فتنافس على الوصاية عليه مماليك أبيه القايتبابية ، وتمثل الصراع بين شخصيتين هما الأتابك تمراز والأمير قانصوه خمسمائة ، وانتهى ذلك الصراع بفوز الأخير وسجن الأول (١) ، ليبدأ صراع جديد عندما قام قانصوه خمسمائة بعزل محمد بن قايتباى وتولى مكانه يوم الأربعاء ١٨ جمادى الأول ٩٠٢هـ - ١٤٩٧م (٢) ، من هذا نرى انه لم تكد تمر سبعة أشهر من وفاة قايتباى حتى شغر العرش بتنافس المتصارعين عليه ، وكان من الطبيعى ووسط تلك الفوضى السياسية أن تنتقل آثارها الى طبقات المجتمع المصرى ، اذ استغل بعض المماليك تلك الفرصة وأصبحوا يعيشون على ابتزاز أموال الناس باسم الجامكيات ونفقات البيعة والحملات ، هذا بخلاف الفساد الذى استشرى بين صفوف القضاء الذين اتبعوا طريق الرشوة لحل قضايا رعاياهم (٣) . وما لبث الصراع أن نشب على الحكم للمرة الثالثة عندما جمع محمد بن قايتباى أنصاره وعلى رأسهم خاله قانصوه بن قانصوه ، الذى أعاده الى دست الحكم عقب مقتل قانصوه خمسمائة (٤) ، ومرة أخرى يتعرض سكان القاهرة والأقاليم الزراعية لتعسف مماليك محمد بن قايتباى وظلمهم والذين تمادوا هذه المرة ،

---

(١) د. ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ٤٠ . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة . ١٩٦٠م .

(٢) د. أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر جـ ٢ ٧٨٩ . مطبوعات دار الشعب . القاهرة ١٩٧٢م .

(٣) د. حسين مؤنس : سفارة بدرومارتير دأنجلاريا سفير الملكين الكاثوليكيين الى السلطان قنصوه الغورى (ديسمبر ١٥٠١ - فبراير ١٥٠٢) ص ٤٤٧ .
مقال ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة . مارس - ابريل ١٩٦٩م . الجزء الأول - مطبعة دار الكتب . القاهرة ١٩٧٠م .

(٤) د. ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ٤١ .

وقاموا بسلب العامة والاعتداء على المارة (١) ، وكان على سكان القاهرة أن يتحملوا ضربة جديدة تمثلت فى وباء الطاعون الذى أخذ يفتك بالسكان ، وكأنه على موعد مع مماليك محمد بن قايتباى فى زيادة شقاء القاهرة (٢) ، كان ذلك فى وقت وصل فيه البرتغاليون الى ساحل شرق افريقية وقاليقوط — رمضان ٩٠٣ هـ / ابريل ١٤٩٨ م — ولكن الصراع الرابع كان قد جذب اليه طوائف المماليك الأخرى ، عندما أحيكت المؤامرات ضد محمد بن قايتباى والتى انتهت بقتله يوم الأربعاء خامس عشر من ربيع الأول ٩٠٤ هـ وانتخاب خاله قانصوه بن قانصوه سلطانا فى نفس اليوم (٣) .

والحديث بعد ذلك عن الصراع السياسى على عرش السلطنة فى مصر ، وحتى تولى الغورى ١٥٠١ م طويل ، الا أننا قدمنا نموذجا للفترة الباقية ، والتى استمر فيها التنافس على شاكلة ما ذكرناه سابقا من مؤامرات ودسائس ومذابح ، جنى حصادها سكان القاهرة والصعيد من خلال حالة البؤس التى أوصلوهم اياها مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادى .

وكانت السنوات الأولى من القرن السادس عشر الميلادى (العاشر الهجرى) بمثابة الانذار الأول لتدهور موارد مصر الاقتصادية ، ففى تلك الفترة تدافعت الحملات البرتغالية وراء بعضها نحو الهند ، فعندما عاد فاسكو دى جاما الى بلاده ١٤٩٩ ، خرج الفاريز كابرال ٩٠٦ هـ — ١٥٠٠ م فى حملة ضخمة ، كان ذلك فى وقت لم تستقر فيه الأوضاع السياسية فى القاهرة ،

---

(١) د . ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ٤٤ .

(٢) أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر ج ٢ ٧٩٠ .

(٣) د . ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ٤٤ .
— أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر ج ٢ ٧٩٠ .

ولكن فى الأول من شوال ٩٠٦ هـ — ٢٠ أبريل ١٥٠١ م وصل السلطان الغورى الى الحكم ، وكانت الأمور تقتضى عليه أيضا القيام بنشاط وافر للوقوف فى وجه البرتغاليين ، ولكنه أهمل ذلك وانغمر فى دوامة الحكم واتجه اتجاه من سبقه من السلف فى محاولة توطيد النفوذ لنفسه ، بحيث أصبح شغله الشاغل القبض على كافة أنصار السلطان الذى سبقه العادل طومان باى [١] ، وهذا بدوره ما عطل مصالح الدولة ، وعلى الرغم من أن الغورى تمكن من قتل العادل طومان باى ، الا أنه اتبع ذلك بمحاولة التخلص من الشخصيات الخطيرة التى يمكن أن تكون مصدر قلق له ولحكمه ، وذهبت تلك الشخصيات اما ضحية للسجون أو للسياف [٢] ، والغريب أن السلطان الغورى فعل ذلك فى وقت ترسبت فى ظل عرشه مساوىء العصر المملوكى وتخلفت فيه كل عوامل الضعف والانحلال وليس من دليل يدل على ذلك من كونه تولى الحكم وخزائن الدولة خاوية تماما بعدما استنفذت الفتن والحروب بين قادة المماليك والرشوة ما فيها [٣] ، ولم يكن أمامه سوى الشعب الذى كان لايزال يعانى من جراح الماضى ، ليجمع منهم بوسائل القوة ، فأخضع للضرائب السلطانية المباشرة جميع الأراضى والحمامات والسواقى والطواحين والقوارب كلها أخضعها لنظام الضرائب [٤] ، ولم يلبث الغورى أن تعرض لمحنة داخلية أخرى شغلته عن الأحداث الخارجية ، وذلك عندما ثارت عليه طوائف المماليك الذين أثقلوا عليه فى طلب أعطياتهم المالية المفروضة لهم عند ولاية أى سلطان ، والتى كانت تسمى

---

(١) د٠ محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الغورى ٤٨ ٠

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة ٠

(٣) المرجع السابق ، ٦٧ ٠

(٤) د٠ نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٣٠ ٠

بنفقة الهيحة (١) ، وكان الغورى قد اعتذر لهم فى الأيام الأولى من حكمـــه عن دفع تلك الاعطيات بسبب خلو الخزنة ، وطلب منهم بعض الوقـــت ، ولكن الشهور مضت دون أن يحصلوا على شيء ، فنزلوا الى الشوارع ،وهاجموا البيوت والمتاجر ونهبوا ما فيها ولم يوقفهم عن الاستمرار فى ذلك ســـوى تدخل الغورى بعد أن وعدهم بأن يفى لهم بأعطياتهم (٢) ، كان ذلـــك فى وقت خرج فيه فاسكودى جاما ٩٠٧ هـ ـ ١٥٠٢ م بحملته الثانية نحـو المحيط الهندى وشرق افريقيا وبدأ فاسكودى جاما بتنفيذ تعليمات مليكه بضرورة سد مداخل البحر الأحمر وهو ما سنراه فى الفصول القادمة .

من هذا نرى أن الأزمات التى مر بها الغورى منذ توليه العـــرش سواء من المماليك أو الأجناد اضافة الى الأزمات المالية وغارات عـــرب الصحراء ، كل هذه حالت الغورى عن رسم سياسة معينة لمواجهة الأخطـــار الخارجية (٣) ، ففى تلك الظروف التى كانت تجبر الغورى على اعداد جنـــده وتسليحهم ، نجده يضطر الى تشتيت تلك الجهود فى ميادين بعيدة عـــن الهدف الأساسى فمثلا فى شعبان ٩٠٨ هـ ـ ١٥٠٢ م نجد أن الأوضـــاع فى البحر الأحمر فى تلك الفترة تقتضى أن نجد تعاونا اسلاميا موحدا لجمـــع الصف ومواجهة الغازى الجديد ، ولكن الأمر اختلف عندما جمـــع

---

(١) د . حسين مؤنس : سفارة بدرو مارتير دأنجلاريا ٤٥٠ .
أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة . المجلد الأول .

(٢) أحمد حســين : موسوعة تاريخ مصر ج ٢ ٧٩٣ .

(٣) د . حسين مؤنس : سفارة بدرو مارتير دأنجلاريا ٤٤٨ .
ـ أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة . المجلد الأول .

الجازانى (١) جموع الأعراب وهاجم بهم مكة ، ولعب فى أهلها بالسيف على حد قول ابن اياس (٢) ، ونهب البيوت وقطع طريق الحج ، حتى لقد غادر معظم سكان مكة ديارهم وتشتتوا (٣) ، وهكذا انعكست الأمور فبدلا من ارسال الجيوش لحماية الأماكن المقدسة الاسلامية من البرتغاليين نجده يوسلها لحماية المسلمين من المسلمين ، ففى شوال ٩٠٨ هـ ــ ١٥٠٢ م أرسل الغورى قوة من ستمائة مملوك بقيادة الأتابكى قيت الرجبى تمكنت من قتل الجازانى فى شعبان ٩٠٩ هـ وارسال رأسه الى مصر (٤).

وعودة الى آثار الغزو البرتغالى للهند والتأثيرات المباشرة له فى حياة مصر فلعلها تتضح من خلال احدى الرسائل التى أرسلها سفير أسبانيا (٥) لدى

---

(١) الجازانى أحد أخوة الشريف بركات الثانى الذى كان يحكم مكة فى تلك الأثناء وقد خرج على أخيه ونازعه الحكم ٩٠٨ هـ وانتهت ثورته تلك بقتله فى شعبان ٩٠٩ هـ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٤ ٤٧ .
ـــ بن فهد المكى (عبد العزيز بن عمر بن محمد ، توفى ١١٢٩ هـ): بلوغ القرى فى ذيل أتحاف الورى بأخبار أم القرى (مخطوطة) ورقة ١٣٣ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الجزء ٤٨ .

(٤) أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر ج ٢ ٧٩٤ .
ـــ ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٤ ٦٢ .

(٥) عقب سقوط غرناطة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م انتقل فرديناند وايزابيلا الى مهاجمة السواحل المغربية ، وقابل سلاطين المغرب هذا العدوان بتوحيد صفوفهم وكاتبوا الغورى وطلبوا منه الانضمام اليهم ، والقيام بطرد تجار الفرنج المقيمين بدولته وغلق كنيسة القيامة فى وجه المسيحيين ، وعندما وصلت هذه الأنباء الى فرديناند بادر الى محاولة احباط مساعيهم فأرسل عام ١٥٠١ م بيير مارتيردى انجليرا سفيرا لدى الغورى ، حيث حاول اقناعه بحسن معاملة مليكه للمسلمين الذين آثروا الاقامة بأسبانيا ، وانه يسر الهجرة لمن يرغب منهم الرحيل الى شمال افريقية .
ـــ د . أحمد السيد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ، ١٢٩ ، ١٣٠ .

الغورى فى الثامن من يناير ١٥٠٢ م الى أحد أصدقائه اذ من خلال تلك الأسطر نستطيع أن نرى كيف أن البرتغال ومن خلال حملتين حربيتين ١٥٠٠ كبرال ، ١٥٠٢ فاسكودى جاما قد تمكنت بالفعل من الحاق الضرر بما تبقى لدولة المماليك من أسس اقتصادية ، ويقول السفير فى تلك الرسالة " لقد طفت كثيرا بنواحى مدينة الاسكندرية هذه ، وأن تأمل خرائبها ليبعث على البكاء — وفى رأيى وبحسب ما تدل عليه بقايا عمرانها الماضى يمكن القول بأن الاسكندرية كان فيها فيما مضى مائة ألف دار وأكثر ، أما اليوم فلا يكاد يبلغ عدد دورها أربعة آلاف ، ويحشش فى خرائبها البوم واليمام والحمام بدلا من الناس " (١).

ولما كان من دوافع خروج البرتغاليين الى الشرق منافسة البندقية فى تجارتها مع أوربا كمرحلة من مراحل الصراع الخفى على المسارح الأوربية ، كان من الطبيعى أن يشارك البنادقة دولة المماليك فى نتائج تحول التجارة عبر رأس الرجاء الصالح ، بخلاف نقطة واحدة يتميز بها البنادقة عن المماليك وهى أن أوضاعهم الداخلية كانت مستقرة ولم يشاركوا المماليك ذلك الانهيار الذى شمل أنظمتهم السياسية ، بدليل أن البنادقة كان يحلو لهم مساعدة المماليك لولا خوفهم من جمهرة الرأى الأوربى ضدهم ، وحاولوا مرات عديدة ايقاظ المماليك للتنبه للأخطار المحيقة بهم ، ولكن دون جدوى فقد أصبحت دولة المماليك دولة لا حيوية لها ولم يعد لديها المقدرة على مواجهة المشاكل الكبرى (٢) ، ومن ذلك أن البندقية أرسلت فى عام ١٥٠٢ م بعثة

---

(١) د. حسين مؤنس : سفارة بدرو مارتير دانجلاريا ٤٥٢ .
— أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة . المجلد الأول .
(٢) المرجع السابق ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ .

برئاسة بنديتو سانودو Benedetto Sanoudo استعرضت مع الغورى الوضع الاقتصادى سواء فى القاهرة أو فى البندقية نتيجة وصول البرتغاليين الى المحيط الهندى (١)، موجهين أنظاره فى الوقت نفسه نحو خطورة ذلك على عملاء البندقية فى أوربا والذين بدأوا بالفعل بالتوجه الى لشبونة ، ويقال بأن البندقية قدمت العديد من المقترحات لحل تلك المشاكل منها أنها عرضت عليه حفر قناة تصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط (٢) ، وأن يقوم الغورى بارسال بعثة الى الهند للمحافظة على العلاقات التجارية ، مع محاولة اقناع أمراء الهند باقفال موانيهم أمام البرتغال (٣)، ومن خلال هذا الاقتراح الثانى الخاص بارسال بعثة الى الهند نستطيع أن نقول أن الغورى وزعماء البندقية لم يدركوا تماما ما هو الوضع السياسى للهند فى تلك الفترة التى توالت فيها الأساطيل البرتغالية مدمرة ومخربة للموانئ الهندية التى ترفض التعامل مع البرتغاليين فى وقت لم يعرف فيه الهنود قط المدافع النارية والأسلحة الحديثة التى طالما استجد الهنود من أجلها القاهرة (٤) ، وأخيرا عرض البنادقة اقتراح نشتم منه رائحة المصلحة الاقتصادية لبلادهم ، عندما طلبوا منه جلب كميات كبيرة من التوابل بأسعار قليلة ، وتخفيض الرسوم

---

(١) د٠ نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٣٧٨ ٠

(٢) د٠ حسن عثمان : البحر الأحمر كطريق تجارى فى عهد البيزنطيين والعرب والمماليك ٧٢ ٠

- مقال ضمن كتاب رحلة كلية الآداب الى البحر الأحمر ، القاهرة ، ١٩٣٩م٠

(٣) د٠ ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ٢٩٤ ٠

- د٠ حسن عثمان : البحر الأحمر كطريق تجارى فى عهد البيزنطيين والعرب والمماليك ٧٢ ٠

(٤) د٠ السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٦٠ ٠

الجمركية عليها حتى يستطيع البنادقة منافسة البرتغال (١) ، وأجابهم الغورى من واقع ما كان يشعر به وما يدور حوله من مشاكل بضرورة تماونهم معه عن طريق امداده بالأسلحة والأخشاب لبناء الأساطيل اللازمة (٢) ، وفى الحقيقة كان الغورى مجبرا على طلب معونتهم الحربية ، نظرا لأن الأسطول الحربى فى ذلك الوقت كان يعانى من الركود والضعف بسبب نقص مواد بناء السفن من خشب وحديد ، والتى منعت البابوية تصديرها الى مصر بقرارات الحرمان التى أصدرها البابا ضد مصر حتى لا يجد المماليك الفرصة لتقوية أسطولهم ، اضافة الى تحريم ارسال الأسلحة الخاصة بالجنود (٣) ، وعمل البنادقة من جانبهم على محاولة عرقلة النشاط البرتغالى ، طالما أن أصحاب الشأن غافلون عنه ، فكلفوا سفراءهم فى البرتغال بالعمل على الحط من شأن ملك البرتغال لدى السفراء الهنود فى البرتغال ، ومحاولة نشر الشائعات عن فقر البرتغال وضعفها (٤) ، ولكن دون جدوى ، فقد أثبتت البرتغال أنها وان كانت صغيرة وتعانى من نقص فى السكان ، الا أن بحريتها أثبتت مدى قوتها

---

(١) د. نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٧٦ .

(٢) د. أحمد السيد دراج: المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ١٣٣.

(٣) توفيق اليوزبكى : تاريخ تجارة مصر البحرية فى العصر المماليكى ١٣٢ ، ١٣٣ .

— كانت العلاقات المملوكية الأوربية قبيل الغزو البرتغالى أمرا يثير الكنيسة التى كثيرا ما عقدت المؤتمرات مع بعض الدول الأوربية وأصدرت قراراتها ان كل من يبيع للمسلمين الحديد والسلاح والخشب الذى تبنى منه السفن أو يعمل عندهم فى قيادة السفن ، فانه يحرم من الغفران وتصادر أمواله وتسلب حريته الشخصية ، ولكل من يقبض عليه أن يتخذه رقيقا .

— محمد الصغير عبد اللطيف : العلاقات بين مصر وأوربا الجنوبية ١٦٦ رسالة ماجستير لم تنشر ، جامعة القاهرة .

(٤) د. ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

وتصميمها على تنفيذ مشروعاتها ، لقد نقلت البرتغال مجال التنافس واستعمال القوة من البر الى البحر ، فى وقت كانت فيه دولة المماليك دولة تقوم أساسا على القوة البرية حيث اشتهر عنهم بأنهم كانوا فرسانا أشداء ، ولم يملكوا تلك الخبرة فى القتال البحرى على نطاق المحيطات والتى أتقنها البرتغاليون على امتداد سواحل المحيط الهندى .

ومع توالى الاستغاثات الهندية من قبل سلطان كجرات والولايات الاسلامية الأخرى فى الهند ، ومن حكام جنوب الجزيرة العربية [١] ، التجأ الغورى الى الوسائل الدبلوماسية فى سبيل علاج الموقف بأن أرسل سفارة دبلوماسية برئاسة الأسقف Fra Mauro di san Bernardion موروى سان برنار دينو رئيس رهبان الفرنسسكان بدير صهيون ، ومعه راهبان الى ملوك وأمراء أوربا وبابا روما ، لانذارهم بأن يكف البرتغاليون عن أعمالهم العدوانية فى مياه المحيط الهندى والا فانه سيضطر الى قتل كافة الفرنج فى بلاده اضافة الى اغلاق كنيسة القيامة [٢] ، وقد انزعج لذلك بابا روما يوليوس الثانى وأرسل السفير الى ملك البرتغال ليشرح لهم الأسقف مضمون بحثته ، غير أن تلك التهديدات لم تلق أية أهمية ، لأن ملك البرتغال طلب من البابا ألا يهتم بتهديدات الغورى لأنه ليست لديه القوة الكافية لتنفيذ هذه التهديدات [٣] ، اضافة الى أن الغورى لن يستطيع

---

(1) Lane-Pool: A History of Egypt in the Middle Ages 352.

(٢) د . أحمد السيد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ، ١٣٤ .

(٣) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٧٨ ، ٧٩ .

القيام باضطهاد المسيحيين ومنعهم من الحج حتى لا يفقد ما كان يجمعه لخزينة الدولة من الضرائب المفروضة على الحجاج المسيحيين [١] ، وكوسيلة لاثارة النعرة الصليبية لدى البابا أخبره أيضا أن الهدف من عملياته فى الشرق هو نشر المسيحية ومد سلطة البابا الى تلك المناطق . [٢]

وازاء فشل جهود الغورى الدبلوماسية ، قرر الاتجاه نحو القوة الحربية لعلاج الموقف ، خاصة بعد ورود أنباء من الهند عن ازدياد أعمال القرصنة البرتغالية ضد السفن التجارية ، وما يتعرض له الحجاج المسلمين من قتل وذبح ، وبذل الغورى وسط تلك الأوضاع جهودا كبيرة فى سبيل انزال الأساطيل البحرية الى البحر الأحمر حيث اشتركت معظم الترسانات البحرية فى بناء ما يلزم من سفن سواء فى ترسانات السويس أو الروضة أو بولاق ، ولا ننسى أن نشير هنا كذلك الى مدى تأثير العوامل الداخلية والخارجية فى سبيل عرقلة مشاريع الغورى الحربية ، ومن ذلك تعرض الثغور المصرية أثناء اعداد الأساطيل الى غارات القراصنة الفرنج ، وفى مقدمتهم فرسان الاستبارية المشهورين بعدائهم للمماليك ، وذلك بقصد تحقيق هدفين وهما أولا اتاحة الفرصة للأسطول البرتغالى لمهاجمة السفن المتجهة نحو البحر الأحمر مما يؤدى الى قطع المؤن عن مصر ، ثانيا اعاقة الغورى عن بناء الأساطيل الحربية لمحاربة البرتغاليين [٣] ، هذا اضافة الى بعض

---

(1) Liver-More: Portugal and Brazil 192.

(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 84.

(٣) توفيق سلطان اليوزبكى : تاريخ تجارة مصر البحرية فى العصر المماليكى ١٣١ ، ١٣٢ .

المتاعب الداخلية مثل تعرض القوافل التجارية بين السويس والاسكندرية الى قطاع الطرق من قبائل العرب (١) ، ففى الوقت الذى كان فيه الغورى يجد صعوبة فى سبيل تجريد حملة الهند ، نجد أن الأوضاع السياسية سواء فى بلاد الشام أو الحجاز تجبره الى جانب ذلك على اعداد حملات أرسلها الى الكرك بسبب ثورات عربان بنى لام (٢) ، أما الحجاز فعلى الرغم من نجاح المماليك فى التخلص من ثورة الجازانى ، الا أن أحد حلفائه ويدعى يحى ابن سبع أمير ينبع رفع راية العصيان مرة أخرى ، وأخذ يقطع طريق الحجاج لدرجة أن السلطان الغورى أصدر أوامره عام ٩١١ هـ ـ ١٥٠٥ م بعدم سفر المحمل والحجاج الى مكة خوفا عليهم من يحى بن سبع (٣) .

وفى السادس من جمادى الآخرة ٩١١ هـ ـ ١٥٠٥ م أقلعت أول حملة مملوكية من ميناء السويس بقيادة حسين الكردى ، وقد تكونت من جنسيات مختلفة منهم العبيد والتراكمة والمغاربة ، وأبناء الأمراء المتطوعين ، اضافة الى المماليك السلطانية (٤) ، على أنه يؤخذ على طبيعة تكوين الحملة تلك الفئات المختلفة من الجنود التى تكونت منها الحملة ، اضافة الى عدم تحديد شخصية معينة لتولى أمور الحملة سواء فى البحر أو فى البر

---

(١) توفيق اليوزبكى : تاريخ تجارة مصر البحرية فى العصر المماليكى ١٣٢ .
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٤ ٨٢ .
(٣) أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر ج ٢ ٧٩٥ .
(٤) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٤ ٨٥ .
ـ د. محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الغورى ١١٤ .

فالى جانب حسين الكردى كان هناك الخواجا نور الدين على المسلاتى المغربى الذى وكل اليه قيادة المغاربة ، وهذا بدوره ما أدى الى التنافس كما سنرى فيما بعد .

وصلت الحملة مع نهاية عام ٩١١ هـ الى ينبع ودار بينها وبين يحى بن سبع معارك شديدة انتهت بهزيمته وفراره بعد مقتل معظم أنصاره واحراق منازلهم فى ينبع [١] ، ومن ينبع اتجه الكردى الى جدة حيث اتخذها كقاعدة للأسطول ، وشرع فى بناء التحصينات التى كنا قد أشرنا اليها من قبل والتى استغرقت تسعة شهور [٢] ، وفى الوقت نفسه كان الخواجا نور الدين على المسلاتى المغربى قد اتجه ببعض الوحدات البحرية الى سواكن ودهلك ، حيث تم تحصين سواكن ضمن مخططات الحملة فى سبيل تحصين البحر الأحمر قبيل الخروج الى الهند [٣] ، ولكن الأمور ما لبثت أن تأزمت فى جدة بسبب النزاع الذى نشب بين الكردى والخواجا المسلاتى ودون شك فان الخلاف لابد وأنه نشب من أجل التنافس على زعامة الحملة ، وهو أمر اشتهر به معظم القادة فى البحر الأحمر سواء من المماليك أو العثمانيين كما سنرى فيما بعد .

---

(١) أحمد بن محمد بن يعقوب الامام : السلاح والعدة فى أخبار بندر جدة ورقة ٨ ، ٩ .
— بن فهد المكى : بلوغ القرى فى ذيل اتحاف الورى بأخبار أم القرى ورقة ١٦٠ .
— يذكر أحمد حسين فى كتابه موسوعة تاريخ مصر ج ٢ ص ٧٩٦ أن الغورى أرسل جيشا خاصا يختلف عن حملة الكردى قضى على فتنة يحى بن سبع .

(٢) أحمد بن محمد بن يعقوب الامام : السلاح والعدة فى أخبار بندر جدة ورقة ٨ ، ٩ .

(٣) بن فهد المكى : بلوغ القرى فى ذيل اتحاف الورى بأخبار أم القرى ورقة ١٦٢ .
— د . فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ٣٩ . الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٧٦م .

كان من نتيجة ذلك الصراع أن تأخرت الحملة فترة من الزمن عن تحقيق بعض الأهداف التي جاءت من أجلها ، وما أن وصلت أنباء تلك المنازعات الى الغوري حتى بادر الى ارسال قوة من رجاله قبضت على السلاتي وأعادته الى القاهرة (١) .

من تلك المشاغل السابقة التي تعرضت لها حملة حسين الكردي نستطيع أن نتبين مدى تأثيرها سواء في القوة الأساسية لها من رجال وعتاد وذخيرة ، والتي استهلكت سواء في القضاء على فتن يحى بن سبع أو في تحصين سواكن ، والأهم من ذلك كله تلك الفترة الطويلة التي قضتها الحملة في جدة ، في وقت كان لابد فيه من سفرها الى الهند للمشاركة في أحداث المحيط الهندي قبيل وصول أعمدة الاستعمار البرتغالي الى الهند أمثال البوكرك ودالميدا وداكنها ، الذين توزعوا فيما بينهم المراكز القيادية في الهند والخليج العربي ومدخل البحر الأحمر وشرق افريقية ، وليس ذلك الوصف من أجل رفع شأنهم والتقليل من شأن الكردي وانما نستطيع القول بأن هؤلاء القادة ، كانوا من أشد القادة الذين قذفت بهم البرتغال الى المحيط الهندي تعصبا ضد الاسلام والمسلمين .

وفي شهر ذي الحجة ٩١٢ هـ ـ ١٥٠٧ م أقلع الأسطول المملوكي من جدة في طريقه الى الهند فمروا بجيزان التي تزودوا منها بما يحتاجونه ثم أقلعوا الى كمران ومنها الى المخا ثم الى عدن حيث أضافهم أميرها

---

(١) بن فهد المكي : بلوغ القرى في ذيل اتحاف الورى بأخبار أم القرى ورقة ١٧١ .

ـ د . محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الغوري ١١٥ .

مرجان الظاهرى ، وأكرمهم وبعد أن تزودت الحملة بما تحتاجه من مؤن رحل الكردى نحو الهند (١).

وفى عام ٩١٤ هـ - ١٥٠٨ م وصل حسين الكردى بسفنه الى الهند ، واتخذ طريقه رأسا نحو ديو (٢) ، ولحسن حظ البرتغاليين ، كانت سفن الزامورين حاكم قاليقوط قد بدا عليها التعب من طول انتظارهم للأسطول المصرى فعادوا الى قاليقوط (٣) ، وفى ديو استقر الأسطول المصرى والذى كان يتكون من ثلاثة عشر سفينة ، منها ستة أغربة وغليون واحد وست سفائن كبيرة ، وقد انضم أمير ديو Diu مالك آياس Melique Az بأسطوله الى الأسطول المصرى (٤) ، ويبدوا أن الهدف الأساسى من اختيار الكردى لديو كقاعدة له هو رغبته فى أن يكون قريبا من الزامورين أقوى الراجات فى الهند ، وبالتالى تسهيل مهمة الاتصال بين الأسطولين المصرى والزامورى (٥).

وفى أواخر يناير ١٥٠٨ م تقابل الأسطول الاسلامى مع الأسطول البرتغالى بقيادة Lorenco de Almeyda ابن نائب الملك

---

(١) الكبسى محمد بن اسمعيل : اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية مكتبة كورسنى بايطاليا ، تحت رقم ٢٦٢ ورقة ٥٨.
- نورالدين عيسى بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح ورقة ٧.

(٢) ديو جزيرة صغيرة طولها سبعة أميال ، تقع قرابة شاطئ الهند عند جوجيرات.

3 - Bailey, Winius: Foundations of the portuguese Empire 236.

(٤) د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية وآثارها الباقية ١٣١ ، ١٣٢ - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة
- Bailey, Winius: Foundations of the portuguese Empire 236.

(٥) ك. م. بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٤٣.

فى الهند فى شيول (١) ، وفى تلك المعركة التى استمرت يومين ، حـاول البرتغاليون فيها الصعود على ظهر السفن المصرية ، الا أنها باءت بالفشل حيث انتهت المعركة بانتصار الأسطول المصرى ومقتل القائد البرتغالـى لورنزو ، ولم ينجو من الأسطول البرتغالى ، سوى سفينتين انتهزتا فرصة الفوضى التى أعقبت اغراق سفينة القيادة البرتغالية وتراجعت الى القاعـدة البرتغالية فى كوشين Cochin . (٢)

كان لذلك الانتصار أثر معنوى كبير ، ففى القاهرة أمر الغورى بـدق الموسيقات ثلاثة أيام متوالية ، أما فى المحيط الهندى ، فقد كانت فرصـة مناسبة انتهزها كثير من التجار وأخذوا يتنقلون مابين الهند والبحر الأحمر بسفنهم مستغلين ما تعرضت له البحرية البرتغالية ، وان كانت الدوريات البرتغالية المنتشرة عند مدخل البحر الأحمر تعترض بعض تلك السفـن (٣) ، وأرسل الكردى طالبا دعمه بالجنود والسفن الحربية لمواجهة الموقف الجديـد الذى أعقب انتصاره ، ولم يتردد الغورى فى سبيل تلك المطالب ، حيث استعرض فى النيل ستا من السفن الحربية كانت الترسانات قد انتهت منهـا (٤) ،

---

(١) تقع حاليا على الساحل الهندى الغربى جنوبى بومبـاى .

(٢) على التاجر : الربان أحمد بن ماجد — دفاع وتقييم ٥٣٨ . مجلة العرب ، الجزء السادس ، السنة الخامسة ، ذو الحجة ١٣٩٠ هـ ، فبراير ١٩٧١م .

(٣) عقب هزيمة البرتغاليين فى موقعة شيول امتنع كثير من التجار الأجانـب عن الوصول لمصر والشام حتى لا يتهموا فى العالم المسيحى بمساعـدة السلطان ماديا ضد البرتغال .
د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ١٩٠ .

(٤) أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر ج ٢ ٧٩٧ .

هذا بخلاف ترسانة مدينة الطور التى كانت تلقى من الغورى اهتماما بالغــا ، ففى الحادى عشر من محرم ٩١٥ هـ ـ ١٥٠٩ م أرسل علاء الدين ناظــــر الخاص فى مهمة تتعلق بالاشراف على المراكب التى تبنى فيها [١] ، وفــى هذا المجال يجب أن نشير الى أن الغورى ومع غياب الكردى فى رحلته تــلك لم يتغافل عن تحصين البحر الأحمر ، ومحاولة توفير كافة الأسلحة ، وخاصــة المدافع التى عنى الغورى بصنعها على نطاق كبير ابتداء من عام ١٥٠٧م ، بحيث خصص لها مصنعا خلف ميدان قلعة الجبل ، وما أن يتم الانتهاء مــن صنع مجموعات منها ، حتى يحضر تجاربها بنفسه فى جهة تربة الملك العــادل بالريدانية [٢] ، هذا بخلاف حرصه الشديد على تحصين المواقع ذات المراكز الحساسة على البحر الأحمر ، ومن ذلك أنه أصدر أوامره ٩١٤ هـ ـ ١٥٠٨م الى خاير بك المعمار بالذهاب الى مدينة العقبة (عقبة آيلة) وأن يصطحب معه جماعة من البنائين والمهندسين ، لاقامة بروج وقلاع للدفاع عن المدينة [٣] .

ومنذ اللحظة التى خرجت فيها الأساطيل المصرية من السويس ١٥٠٥ م لم تسلم بحار مصر الشمالية من غارات الفرنجة ، حيث مارس الفرسان الاستبارية جولاتهم فى البحر الأبيض المتوسط معترضين ومدمرين ما يصل مصر من معــدات حربية ، وليس من الغريب ومع اشتداد الخطر البرتغالى على بحار الحــرب الجنوبية أن يكون ذلك نوعا من الاتفاق بين الطرفين [٤] ، بدليل علمهم بمدى

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٤ ١٥١ .
(٢) د. عبد الرحمن زكى : الجيش المصرى فى العصر الاسلامى (١٢٦٠ ـ ١٨٠٧) ٢٠٨ . موسوعة الجيوش الاسلامية ـ ج ٢ .
(٣) أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر ج ٢ ٧٩٧ .
(٤) د. أحمد السيد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجــرى ١١٤ .

حاجة مصر للعتاد الحربى البحرى ، وقد أقلقت هذه الغارات السلطان الغورى الذى كان منصرفا نحو تركيز جهوده فى البحار الجنوبية ، فكان عليه ومع هذه الأوضاع تشديد الحراسة على موانىء مصر الشمالية ، وهذا بالتالى ما أثقل عليه ، وعلى الرغم من قيامه بتلك المهام الا أن ذلك لم يأت بنتيجة تذكر ، ففى عام ١٥٠٥ م تعرضت السفن التابعة للغورى لاحدى هذه الغارات فى ميناء قبرص حيث ذهب بها القراصنة الى رودس[(١)]، وسوف نلاحظ فيما بعد وحتى نهاية أيام الدولة المملوكية ، أن تلك الغارات لم تتوقف فى يوم من الأيام ، وانما كانت تأخذ أبعادا أخرى سنراها فيما بعد .

هذا الى جانب أن أسواق القاهرة وحلب ودمشق أصبحت شبه خاوية من تجارة البهارات والعطور الشرقية والحرير ، ففى الوقت الذى كان فيه تجار البندقية لا يملكون الأموال الكافية لشراء كميات البهار الموجودة بأسواق القاهرة عام ٩٠٤ هـ — ١٤٩٨ م[(٢)] ، وبعدما كانت السفن عند عودتها من مصر تترك فى مخازنها من المتاجر الشرقية ماقيمته ٣٠٠٫٠٠٠ دوكة أصبحت بعد تحويل التجارة عبر رأس الرجاء الصالح لا تجد عند عودتها من بيروت سوى أربع بالات من الفلفل ، وعادت خمس سفن من الاسكندرية بحمولة غير كافية لم تجدها الا بمشقة كبيرة .[(٣)]

---

(١) د . أحمد السيد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ١١٤ .

(٢) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ١٥١ .
— د . أحمد السيد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ١٠٩ .

(٣) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ١٥٢ .
— د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٧٠ .

ومع انتصار حسين الكردى على الأسطول البرتغالى فى شيول لم يتجه الكردى نحو استغلال الظروف والعوامل التى نتجت عن انتصاره ، ففى الوقت الذى كان عليه فيه أن يتابع انتصاراته ويهاجم بعض المراكز أو يحاول الاشتباك مع بعض الوحدات التى كانت تبحر باستمرار أمام السواحل الهندية نجده يلتزم الهدوء دون أى محاولة لاستغلال ذلك الاضطراب الذى ساد البحرية البرتغالية فى المحيط الهندى ، فى وقت كان يبعد فيه عن قاعدته الأساسية (السويس) آلاف الأميال [١] ، كان هذا فى وقت عمد فيه البرتغاليون الى تقوية أسطولهم لمواجهة الأسطول الاسلامى المتحالف ، خاصة بعد وصول امدادات جديدة اليهم تتمثل فى أسطول جديد تولى قيادته Diego Lopez de sequeir [٢] ، ومع بداية شهر فبراير ١٥٠٩ م خرج الأمير حسين الكردى بالأسطول من جزيرة ديو مواجها الأسطول البرتغالى فى عرض البحر ، وفى الثالث من فبراير نشبت معركة ديو الشهيرة عندما هاجم نائب الملك فى الهند فرانسسكوا دالميدا حسين الكردى فى عرض البحر ، وعلى الرغم من ضخامة الأسطول الاسلامى ، الا أن أهميته انحصرت فى سفن الأسطول المصرى المزود بالمدفعية ، وهى نقطة تنبه لها البرتغاليون بحيث ركزوا نيران مدفعيتهم عليها فقط [٣] ، مما أصاب

---

(١) الشاطر بصيلى عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط ٤٥٤ .

(٢) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٤٦ .

(٣) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٦٣ .

الأسطول الاسلامى بالتصدع [(١)].

كان لتلك الهزيمة أثر بالغ سواء فى المحيط الهندى أو فى مصر، لقد استقرت السيادة البرتغالية، وأصبح الأسطول البرتغالى قادرا على حمل الجنود الى أى جهة أرادوا طالما أنه لم تعد هناك أى قوة بحرية تستطيع اعتراض وحداتهم البحرية عقب تدمير الأسطول المصرى فى موقعة ديو [(٢)]، وهذا بالتالى ما قاد البرتغاليين نحو تحقيق الكثير من الانتصارات سواء فى البر أو فى البحر وفى أماكن متفرقة من المحيط الهندى [(٣)]، كذلك فقد أعطى ذلك الانتصار للبرتغاليين الفرصة من جديد لمضاعفة جهودهم فى سبيل فرض حصار قوى على مدخل البحر الأحمر لمنع السفن من الدخول والخروج اليه [(٤)]، وأخيرا هناك عامل مهم، وهو أن الطريق الآن أصبح مفتوحا وميسرا للبرتغاليين للدخول الى البحر الأحمر، وهو الأمر الذى جعل

---

(١) يتهم بانيكار فى كتابه آسيا والسيطرة الغربية ٤٣، ٤٤ مالك آياز Meliaue Az أمير ديو بخيانة حسين الكردى قبيل معركة ديو عندما منع المدد والمؤن عن أسطول الكردى، أما الدكتور حسن أحمد محمود فيذكر فى بحثه التهديد البرتغالى لسواحل جزيرة العرب ومصادر دراسته ٦٠٥ يذكر اعتمادا على زين الدين المليبارى فى كتابه تحفة المجاهدين أن هناك اتصال سرى قد تم بين البرتغاليين وبين مالك آياز، بدليل أن البرتغاليين لم يعرضوا لسفنه بسوء، بل ركزوا الهجوم على السفن المصرية، ويستشهد كذلك بقيام مالك بتسليم كافة الأسرى البرتغاليين الذين كانوا فى حوزة الكردى الى القيادة البرتغالية وأن الكردى هرب الى سلطان كجرات خشية أن يقوم مالك بتسليمه للبرتغاليين.

(٢) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ٧٦ . — رسالة ماجستير لم تنشر، جامعة القاهرة.

(٣) د. محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٤٦.

(٤) الشاطر بصيلى عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط ٤٥٥.

الكردى يتراجع مسرعا خوفا من تعقبه وبالتالى مهاجمة الأماكن المقدسة [١]، الا أن كثيرا من جنود الكردى من المماليك لجأوا الى بلاط شاه مملكة بيجابور الاسلامية حيث أمدهم سلطانها بالمواد اللازمة لصناعة السفن وتمكنت بذلك تلك الفئات المتخلفة من انشاء سفن حربية أزعجت البرتغاليين على امتداد ساحل الهند الغربى ، ولم يتمكن البرتغاليون من التخلص من ذلك الخطر الا بعد استيلائهم على جوا عام ٩١٦ هـ - ١٥١٠ م [٢] كما سنذكر فيما بعد .

أما فى القاهرة فقد هزت تلك الهزيمة الغورى خاصة وهو يرى أن احتياطيه من الأموال والسلاح يأخذ فى التناقص بينما تزداد قوة البرتغاليين فى الهند يوما عن يوم وتتسع أملاكهم وتنشط تجارتهم . [٣]

عاد الكردى الى جدة مسرعا قبيل حدوث أى طارئ جديد ، وفى الوقت نفسه محاولا اكمال التحصينات [٤] ، والاستعداد لمواجهة أى غزو محتمل ، ويقال بأنه لم يعد الى القاهرة خوفا من فشله فى حملته فى الهند

---

(١) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٤٦ .
- يذكر باعلوى فى مخطوطه التاريخ الأكمل ، رواية غريبة لم نسمع بها من قبل وهى أن الكردى عقب هزيمته فى ديو لم يعد الى البحر الأحمر الا بعد أن دفع له البرتغاليون أموال كثيرة .

(٢) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٧١ .

(٣) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٩١ .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٤ ٢٨٦ .

فأقام بجدة [١] ، ويؤخذ على الكردى فى تلك الفترة أنه لجأ الى القسوة مع سكان جدة التى تمثلت فى هدم بيوتهم غصبا وضمها الى بناء السور واجبار التجار على حمل التراب والأحجار اضافة الى ما قام به من مصادرة لأموال التجار والأهالى [٢] ، أما الغورى ، فعلى الرغم من تلك الهزيمة التى تأثر بها تأثرا بالغا الا انه لم يستسلم لها ، وتتضح سياسة الغورى فى سبيل مواجهة تلك النتائج المتخلفة عن معركة ديو فى محاولته التخلص من مشاكله الخارجية على سواحل بلاده فى مصر والشام ، اضافة الى علاج الانهيار الداخلى الذى كان يعجل بدولته الى نهايتها المحتومة ، ذلك أن الغورى وحتى ذلك الوقت ومع فشله فى معركة ديو كان لايزال يرى أن معركته الحقيقة والفاصلة مع البرتغاليين لابد وأن تكون فى الهند ، ولم يكن يعلم بأن الأحداث سوف تنقل صراعه مع البرتغاليين الى البحر الأحمر ، عندما يدخله البوكرك عام ١٥١٣ م كما سنذكر فيما بعد . لهذا رأى الغورى وقبيل أى اجراء آخر ضرورة ايجاد وحدة شاملة بين ملوك الهند ليضعوا أيديهم فى يده لعلاج الموقف فأرسل بعثة لهذا الغرض برئاسة الطواشى بشير الى الهند مع بداية عام ٩١٦ هـ — ١٥١٠ [٣] ، وتوقفت أخبار تلك البعثة فى اليمن عندما قابلت السلطان عامر بن عبد الوهاب سلطان الدولة الطاهرية فى جمادى الآخرة

---

(١) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٤٦ .

(٢) النهروالى (قطب الدين محمد بن أحمد . ٩١٧ — ٩٩٠ هـ) البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ١٩ .
— منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الطبعة الأولى . الرياض . ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م .
— اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ٣٥ ، دار الطباعة المصرية ، القاهرة ١٣١٤ هـ .

(٣) د . محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الغورى ١١٦ ، ١١٧ .

من نفس السنة ، وعرضت عليه رسائل الغوري وهداياه التي قبلها ورد عليها[(١)] ، ويبدو أن البعثة قد عادت أدراجها نحو مصر ، ولم تتمكن من الخروج من باب المندب بسبب الحصار الشديد الذي فرضه الأسطول البرتغالي عند مدخل البحر الأحمر كما ذكرنا من قبل ، والواقع انه حتى ولو تمكنت البعثة من الوصول الى الهند ، فان جهودها سوف تذهب عبثا بتلك التطورات السياسية التي حصلت في الهند عقب موقعة ديو والتي يبدوا أن أنباءها لم تكن قد وصلت بعد الى الغوري ، ذلك أن الكثير من الامارات الهندية ، وعلى رأسها جوجيرات وامارة ديو وحلفائهم قد جنحوا الى مهادنة البرتغاليين[(٢)] وهذا بدوره ما أحرج السلطان الغوري الذي كان عليه بذلك أن يقاتل البرتغاليين بمفرده ، وأن يواجه قوة تفوق قوته مرات عديدة ، وكان من الضروري أن نتجول مع الغوري حتى نستطيع أن نرى طبيعة الأحداث السياسية والمشاكل الداخلية التي مرت بها دولة المماليك فيما بين موقعة ديو ١٥٠٩ م ودخول البرتغاليين الى البحر الأحمر لأول مرة عام ١٥١٣ م والتي منعت أو بالأحرى تسببت في تعطيل اعداد القوة اللازمة لارسالها الى الهند عقب فشل حملة الكردي ، ففي تلك الأثناء كان الغوري منصرفا الى محاولة انزال أساطيل جديدة في البحر الأحمر ، ولكن الحصول على الأخشاب اللازمة كانت تمثل مشكلة أساسية خاصة وأن سواحل البحر الأحمر كانت تفتقر الى الغابات ذات الأشجار المناسبة لبناء السفن[(٣)] ، وكان الخشب الذي أستعمل في بناء سفن الأساطيل السابقة يأتي من الاسكندرية على الساحل السوري ، ولكن ترحيله من تلك المنطقة الى السويس كان عملا مزعجا جدا ومكلفا[(٤)] ، يضاف الى

---

(١) الكبسي : اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية (مخطوطة) ورقة ٥٨ .
(٢) د. نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ١٠٧ ، ١٠٨ .
(3) Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 30.
- Liver-More: Portugal and Brazil 197.
(4) Liver-More: Portugal and Brazil 197.

ذلك أن جميع المواد الأخرى والمهندسين المختصين كان لابد من حضور بعضهم من الخارج ، وكان لابد من حمل كل شئ بصورة متعبة على ظهور الجمال عبر الصحراء من القاهرة الى السويس المجدية (١) ، هذا بخلاف الحديد اللازم لصبه ، وصنع المدافع منه الخاصة بالسفن الحربية والتى وجدت مصر صعوبة فى الحصول عليه بسبب قوانيين التحريم البابوية كما ذكرنا من قبل (٢) ، وعوضا عن ذلك كله فمن خلال تلك المعارك البحرية فى المحيط الهندى بين المماليك والبرتغاليين ، كان لابد من صنع سفن كبيرة وقوية على أن تكون خفيفة وبدرجة كافية للسير فى البحر الأحمر الصعب المشاق (٣) ، وحاول الغورى اللجوء الى البنادقة مرة أخرى لمده بالأخشاب اللازمة والأسلحة الحديثة (٤) ، ولكنهم اعتذروا خوفا من تألب الرأى العام الأوربى ضدهم ، موجهين أنظاره فى الوقت نفسه نحو السلطان بايزيد العثمانى (١٤٨١ — ١٥١٢ م) ، الذى رحب بمد المماليك بما يحتاجون اليه ، ففى شوال ٩١٦ هـ — فبراير ١٥١١ م وصلت الى بولاق عدة سفن تحمل ما يحتاج اليه الغورى من أعداد كبيرة من المكاحل ، وثلاثين ألف سهم ، وأربعون قنطارا من البارود ، وغير ذلك من نحاس وحديد ، وما يلزم لتسليح السفن وتجهيزها ، مضافا اليها كافة الأموال التى أرسلها الغورى لشراء المعدات السالفة الذكر تقربا الى الله تعالى (٥) ، ومما لاشك فيه ان السلطان بايزيد الثانى بعمله ذلك انما كان يشارك الغورى مخاوفه من وصول البرتغاليين الى الأماكن

---

(1) Stripling: The Ottoman Turks 30.

(2) Stripling: The Ottoman Turks 30.

(3) Stripling: The Ottoman Turks 30.

(٤) د. أحمد السيد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ١١٥

(٥) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٤ ٢٠١ .
— د. أحمد السيد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ١٢١ .

المقدسة [١] ، والى جانب تلك المشاكل فى سبيل توفير المعدات اللازمة لبناء الأساطيل وتجهيز القوات عانى الغورى من مشاكل جنوده المشاكسين ، ولم يكن ذلك بالشىء الجديد ، فقد عانى منهم الغورى الشىء الكثير منذ وصوله الى الحكم ، ولكن الملفت للنظر انهم كانوا يشاكسونه فى أوقاته الحرجة ، ففى الوقت الذى كان فيه عليهم جميعا أن يشاركوه باطنا وظاهرا جهاد البرتغاليين ، نجدهم يتخذون مواقف معاكسة لما هو مطلوب منهم بثوراتهم تلك التى لا تنتهى ، ومطالبهم الدائمة بالرواتب والجامكيات التى تقطع لهم مما أدخره الغورى لمجابهة البرتغاليين ، والغريب أن معظم تلك الفتن كانت تأتى من طبقة المماليك الخاصة به والتى حظيت عنده بأعلى المراتب [٢] ، وكان من الطبيعى أن يدركوا هم قبل غيرهم طبيعة ما يواجهه الغورى من مشاكل باعتبار أن أمراء طبقته تلك كانوا فى مجالسه دائما ، الا أننا نرى العكس بكثرة نفقاتهم ، حتى لقد وصل بهم الأمر الى اثارة الطوائف الأخرى على السلطان [٣] ، الذين شمل الانقسام صفوفهم ، فكان منهم الناصرية والظاهرية والأشرفية والعادلية ، وبذلك استغل الجميع فرصة تهيئة حملات الهند لاظهار عصيانهم للغورى طالبين زيادة مرتباتهم [٤] ؛

---

(١) د٠ نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٩١ ، ٩٢ ٠

(٢) د٠ محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الغورى ٤٤ ٠

(٣) يبدوا أن السلطان الغورى لم يحسن اختيار أفراد طبقته تماما ، فقد كان أفرادها من أمم وأجناس شتى لا تجمعهم جامعة ، فكان منهم التراكمة والأعاجم وغيرهم ٠
— د٠ محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الغورى ٤٤ ٠

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٤ ٣١١ ٠

ففى مطلع عام ٩١٦ هـ — ١٥١٠ م تمرد المماليك المقيمون بالقلعة ، وامتد أذاهم الى سكان القاهرة حيث رشقوهم بالحجارة ، وطلبوا من السلطان أن يدفع لكل واحد منهم مائة دينار [١] ، ورفض السلطان مطالبهم اندفع المماليك الى متاجر القاهرة ناهبين ومخربين ، وبلغت الفتنة خطورتها عندما اندفع المماليك محاولين خلع السلطان الغورى لولا أن الفشل دب الى صفوفهم فتفرقوا . [٢]

تلك هى الصورة العامة لجند الدولة ، الذين كانوا يشكلون العناصر الأساسية لحملات الهند ، وصاحب ذلك كما ذكرنا من قبل غارات الفرنج على السواحل المصرية والشامية سواء فى اعتراض السفن أو فى شن الغارات على الموانىء المصرية ، ولعل من أخطر تلك الغارات ، التى شنها الاستبارية فى أواخر العاشر من أغسطس ١٥١٠ م — ٩١٦ هـ فى خليج آياس بآسيا الصغرى ، وتجلت خطورتها بسبب فداحة الخسائر التى شملت معظم طاقم القافلة البحرية [٣] ، التى لم ينجو منها سوى ست سفن وصلت خاوية ، ولم يكتفى الفرسان بذلك بل انهم استولوا أيضا على الأخشاب التى كانت ممدة على الشاطىء لنقلها الى مصر [٤] ، والغريب ان قائد تلك الغارة قائد برتغالى يدعى اندريه دامارال Andre d'Amaral مما يثبت قطعا تواطوء البرتغال مع الاستبارية [٥] ، وعلى الرغم من أن السلطان كان يلجأ ازاء هذه الغارات الى القبض على جميع تجار الفرنج ومصادرة

---

(١) أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر ج ٢ ٧٩٨ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الجزء ، نفس الصفحة .

(٣) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٩٤ .

(٤) د . أحمد السيد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ١٤٢ .

(٥) المرجع السابق ١١٦ .

أموالهم وحبسهم كوسيلة للضغط على ملوك أوربا فانها لم تأتى بأى نتيجة تذكر (١).

وعودة الى البرتغاليين فى المحيط الهندى ، فانه كان من المتوقع وعقب انتصارهم على المماليك فى موقعة ديو ١٥٠٩ م أن يلحقوا بفلول الأسطول المملوكى الى داخل البحر الأحمر ، ومن ثم التوجه الى مكة والمدينة كما رسموا لذلك ، غير أن الأحداث السياسية فى المحيط الهندى عقب موقعة ديو أخرت الزحف البرتغالى الى داخل البحر الأحمر لعدة سنوات .

ولعل بداية تلك الأحداث السياسية تتمثل فى وصول البوكرك الى منصب نائب الملك فى الهند ١٥٠٩ م — عقب موقعة ديو — والذى تمكن بذلك من تنفيذ كافة مشاريعه الخاصة بتأسيس قاعدة الامبراطورية البرتغالية الآسيوية بعد موجة من المعارضة فى لشبونة كما سنذكر بالتفصيل فى الفصل القادم ، ولكن يجب أن نشير هنا وبصورة ملخصة الى الأحداث السياسية التى انشغلت بها القيادة البرتغالية فى الهند فيما بين موقعة ديو فبراير ١٥٠٩ م ، ودخول البرتغاليين الى البحر الأحمر لأول مرة فى فبراير ١٥١٣ م ففى عام ٩١٦ هـ — ١٥١٠ م كان استيلاء البوكرك على هرمز Hormuz ومن بعدها جوا Goa ، وأما فى عام ٩١٧ هـ — ١٥١١ م كان الاستيلاء على ملقا Malacca ومع بداية عام ١٥١٣ م كان اتجاههم نحو جزر المولوكوس Moluccos وكانتون Canton فى الصين (٢) ، وهى التى سنتعرض لها بالتفصيل عند الحديث عن السيطرة البرتغالية

---

(١) د . أحمد السيد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ١١٧ .

2 - Edgar Prestage: The Portuguese pioneers 298, London 1933.

على تجارة المحيط الهندى فى الفصل القادم .

وفى فبراير ١٥١٣ م خرجت حملة كبرى من جوا بقيادة الفونســو دى البوكرك تتألف من عشرين سفينة وألف وسبعمائة جندى برتغالى اضافة الــى ثمانمائة من الهنود المليباريين نحو عدن (١) ، وبذلك أندفع البرتغاليون نحــو البحر الأحمر يحذوهم الأمل فى تحقيق أهداف اقتصادية بالاستيلاء علــى عدن لاتخاذها كقاعدة ، ومن ثم التحكم بمدخل البحر الأحمر نهائيا وتحقيــق أهدافهم الدينية بمحاولة النزول فى مكة والمدينة كما ذكرنا من قبل اضافــة الى محاولة الاتصال بالحبشة وتقديم المساعدة لها ضد المسلمين (٢) .

كانت عدن (٣) تسمى بعين اليمن ، أو دهليز الصين ، وكانت فى تلك الأثناء خاضعة للدولة الطاهرية اليمنية على عهد الملك الظافر عامر بن عبدالوهاب الطاهرى (٤) ، وكان يحكم عدن أحد موالى الطاهريين ويدعى مرجان الظافــرى . وقد اشتهرت عدن بأنها أكبر ميناء تجارى فى جنوب بلاد العرب ، وتحيــط

---

(١) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 188-189.

(٢) محمد عبدالقادر بامطرف : الشهداء السبعة ٥١ ، دار الحريــــة للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٤م .
ـ Playfair: A History of Arabia Felix 98.

(٣) تقع عدن على الساحل الجنوبى للجزيرة العربية على خط العرض ١٢/٤٧ ° شمالا وخط الطول ٤٥/١٠ ° شرقا وتبلغ المسافة بينها وبين بوغــاز باب المندب مائة وعشرة أميال شرقى البوغاز ، وهى بذلك تتحكم فــى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر .
ـ د . فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ٢٤ .

(٤) هو السلطان عامر بن عبدالوهاب بن داود بن طاهر ، بن معوضية الأمـوى ولقبه الملك الظافر ، صلاح الدين وهو آخر ملوك بنى طاهر .
ـ النهروالى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ١٦ .

بها القلاع من الغرب والشرق والجنوب (١) ، وبلغ عدد سكانها فى تلك الأثناء نحو ستين ألف نسمة ، وكان يسكنها بالاضافة للعرب جاليات هندية وتركيـــة وصومالية وحبشية ويهودية ، وتعود علاقة البرتغاليين بعدن منذ عام ١٥٠٣ م حينما قاموا بأول زيارة لها عن طريق لودفيسكو دى فارتيما الذى ذكرناه سابقـا ، أصاب عدن الاضطراب بسبب ظهور البرتغاليين المفاجىء أمامها ، وأســرع الأمير مرجان (٢) حاكم عدن ، بارسال الأخبار الى السلطان عامر بـــن عبد الوهاب الذى كان منشغلا فى تلك الأثناء بمشاكله مع الأمامية الزيديـــة فى شمال اليمن ، والذى ما ان سمع بتلك الأنباء حتى أمر بالقنوت عليهـــم فى الصلوات وخطبة الجمعة ، وأخذ يعد النجدة العسكرية اللازمة لعدن ، وفى الوقت نفسه أمر أمراء الموانىء اليمنية الأخرى بالاستعداد لمواجهتهـــم والدفاع عن موانئهم (٣) ، ويذكر المؤرخ البرتغالى فاريا سوزا (٤) ، انـــه عند وصول الحملة البرتغالية الى عدن أرسل اليهم مرجان وفدا يحمل هدية مـن المؤن ، وان البوكرك كان يأمل من وراء هذه الاتصالات الى استسلام عـــدن اليه ، غير انه فقد الأمل فى ذلك فأصدر أوامره بالهجوم (٥) ، وفى اليـــوم

---

(١) محمد عبد القادر بامطرف : الشهداء السبعة ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) كان الأمير مرجان حاكما لعدن فى أيام السلطان عامر بن عبد الوهـــاب واستمر فى منصبه حتى بعد سقوط الدولة الطاهرية (١٥١٧م) ، وتوفـى (٩٢٧ هـ / ٢٠ ، ١٥٢١م) وقد أطلق عليه مرجان الظافرى نسبــة الى لقب السلطان عامر بن عبد الوهاب (الملك الظافر) .
— د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٧١ .

(٣) الديبع (عبد الرحمن بن على . ت ٩٤٤ هـ) : قرة العيون فى أخبـــار اليمن الميمون ، ورقة ١١٢ ، مكتبة مركز البحث العلمى بجامعة الملـــك عبد العزيز بمكة تحت رقم ٢١١٦ .
— د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٧١ ، ٧٢ .

(4) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 189.

(٥) لم تشر أى من المصادر اليمنية المخطوطة الى ما ذكره فاريا سوزا .

التالي لوصول الحملة هاجم البوكرك الميناء حيث تم الاستيلاء على كافة البضائع الموجودة على أرصفة الميناء ، وكان الأهالي قد فضلوا الاعتصام بقلعتهم والاعتماد على حصانتها الطبيعية ، وعدم خوض أي معركة بحرية مع الأسطول البرتغالي نظرا لضخامته (١) ، واستغل البوكرك تلك الفرصة وأصدر أوامره بالهجوم على قلعة عدن ، وتمكنت مجموعة من البرتغاليين من الاستيلاء على دار قريبة من الشاطئ ، حيث نصبوا عليها المدافع التي وجهت فوهاتها نحو المدينة ، وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين واستولوا كذلك على سبعة وثلاثين قطعة مدفعية (٢) ، واتجه آخرون محاولين تسلق الأسوار عن طريق السلاليم ، غير أن محاولاتهم باءت بالفشل بحيث تكسرت سلاليم الصعود نتيجة كثرة المهاجمين ، وانحجاز العديد منهم على الأسوار نتيجة لذلك ، مما اضطر البوكرك الى أمرهم بالنزول ، فانسحبوا تاركين وراءهم مائة قتيل بخلاف الأسرى (٣) ، وعند خروجهم من الميناء انتقموا لهزيمتهم باحراق مجموعة من السفن التجارية كانت راسية في الميناء ، ومن ثم توجهوا الى باب المندب بادئين أول جولة علنية داخل البحر الأحمر . (٤)

والحديث عن فشل البرتغاليين في الاستيلاء على عدن يقودنا الى محاولة

---

(١) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ٧٢ .
— د . فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ٤١

(٢) أبو مخرمة ، أبو محمد عبد الله الطيب : تاريخ ثغر عدن ج ١ ١٦ .
— Sousa: The Portuguese Asia Tome I 190.

(٣) الديبع ، عبد الرحمن بن علي : قرة العيون في أخبار اليمن الميمون (مخطوطة) ورقة ١١٢ .
— باعلوي ، أحمد بن عبد الله بن علوي شنبل : التاريخ الأكمل ٩٤ .
— Sousa: The Portuguese Asia Tome I 190.

(4) Playfair: A History of Arabia Felix 98.

معرفة موقف اليمن من الغزو البرتغالي ، وبالتالي مدى المجهود الذى بذله في سبيل صد الغزو البرتغالي كقوة لها شأنها وذات موقع استراتيجي في البحر الأحمر ، والواقع أن بلاد اليمن وجنوب الجزيرة العربية كانتا من أولى المجتمعات العربية تعرضا لوطأة تحول طرق التجارة العالمية نظرا لقربهم من ميدان نشاط الأساطيل البرتغالية في المحيط الهندى ، اضافة الى أن بلاد اليمن وجنوب الجزيرة العربية كانتا تمثل احدى الركائز الهامة في خطط البرتغاليين الاقتصادية لاضعاف العالم الاسلامى ، بحكم الموقع الاستراتيجي عند مدخل البحر الأحمر المسرح التقليدى للبرتغاليين لتحقيق أهدافهم الاقتصادية والصليبية كما ذكرنا من قبل ، وكان الاقتصاد اليمنى الذى تقوم عليه دعائم دول اليمن يتمثل في قاعدتين ، أولا : أرباح مرور التجارة من أراضى اليمن وموانيه واشتغال السكان بترويجها على الساحل ، ثانيا : الأراضى الزراعية الخصبة ، ولما تم للبرتغاليين تحويل الطرق التجارية عبر رأس الرجاء الصالح ، لم يكن من المتوقع أن يتجه الشعب اليمنى الى أراضيه الخصبة التى أنهكت بسبب عدم توفر العناية بها ، اضافة الى الاضطرابات الأمنية التى كانت هناك [١] ، وهذا بدوره ما أدى الى انهيار النظام السياسى الذى كان قائما في اليمن في ذلك الوقت [٢] ، وتمثل نظام اليمن في دولة الامامية الزيدية بزعامة الامام شرف الدين بن يحيى (٩١٢ هـ — ٩٦٦ هـ ، ١٥٠٦ — ١٥٥٨ م) الذى تمركزت قوته في المناطق الجبلية الشمالية حول صنعاء وصعدة وثلاء [٣] ، أما في جنوب اليمن وتهامة فكانت

---

(١) د. السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٤١ .

(٢) د. فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ٣٧ .

(٣) المرجع السابق ، ٤١ .

الدولة الطاهرية ، التى بلغت ذروتها فى عهد السلطان عامر بن عبد الوهاب (٨٩٤ — ٩٢٣ هـ ، ١٤٨٨ — ١٥١٧ م) وبذلك أصبح فى البلاد نظام سياسى غريب لم تشهده الجزيرة العربية من قبل ، فكان للسلطان مناطق نفوذه وأجناده ، وللامام مناطق نفوذ وله أيضا دعاة ينشرون نفوذه . (١)

من هنا نشب النزاع بين الامامية وبنى طاهر فى سبيل السيطرة على اليمن الكبرى ، وبذلك شغل الجميع كما حدث فى القاهرة عن محاولة مجابهة هذا الغازى ، ولم تساعد الحروب الداخلية السلطان عامر بن عبد الوهاب باعتباره أكثر المتضررين من تحول التجارة على المساهمة فى مواجهة هؤلاء الغزاة ، خاصة وان بلاده لم تكن تعرف الأسلحة الحديثة بعد ، اضافة الى الافتقار الى أسطول قوى مسلح يوازى الأساطيل البرتغالية (٢) ، وكان من المفروض أن تكون بلاد اليمن من أولى الدول التى تسعى لوقف هذا التغلغل الذى حرم البلاد من ايرادات ضخمة كانت ترد الى السلطان عامر من مختلف الموانئ اليمنية نتيجة لمرور التجارة بها قبيل الزحف البرتغالى ،

---

(١) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٤٠ .
— د . فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ٣٧ .
امتد حكم الدولة الطاهرية من ٨٥٨ — ٩٤٣ هـ ، ١٤٥٤ — ١٥١٧ م وهى تعتبر آخر الدول السنية الجنوبية فى اليمن ، وقد انتقل الحكم اليهم على يد على بن طاهر وعامر بن طاهر اللذين كانا يحكمان عدن باسم الدولة الرسولية ، ثم استقل بنو طاهر بحكمها فى عام ١٤٤٦ م ، وأخذوا بعد ذلك فى التوسع شمالا فاحتلوا زبيد عام ١٤٥٤ م ، وحاول الامام الزيدى الناصر بن محمد (١٤٣٧ — ١٤٦٢ م) أن يمنع امتداد الدولة الطاهرية فى اليمن الا أن قواته اندحرت .
د . عبد الحميد البطريق : من تاريخ اليمن الحديث ١٦ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩ م .
(٢) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٥٧ ، ٥٨ .

ولكن الأحداث كانت أقوى منه بحيث لم تتح له مقاومة الزيدية ، واعلان الامام شرف الدين امامته أواخر ١٥٠٦ م الفرصة للمشاركة فى هذه الأحداث [١] ، ذلك أن الأئمة تنبهوا الى ضعف امكانيات السلطان عامر الاقتصادية بعد تحول الطرق التجارية عن بلاده فاندفعوا يشاكسونه [٢] ، لهذا لم يكن من الغريب أن يقضى السلطان عامر شطر طويل من حياته فى ارسال الحملات العسكرية الى جهات اليمن المختلفة للقضاء على الثورات والاضطرابات التى كانت تنشب من قبل القبائل التهامية أو من قبل قبائل يافع فى الجنوب ، اضافة الى تدعيم نفوذه فى المناطق الشمالية كما ذكرنا من قبل ، وكل ما تذكره المصادر عن نشاط اليمن ضد البرتغاليين هو حملة تتكون من أربعة عشر سفينة ضمت ستمائة متطوع يمنى ، وقد خرجت هذه الحملة من ميناء عدن فى ٢٧ شوال ٩١٢ هـ — ١٥٠٧ م وصمتت المراجع عنها ، لأنها كانت فريسة سهلة للبرتغاليين [٣] . وهنا كان لابد لليمن من قوة جديدة ، تمنعه من أن يصبح قاعدة حربية للأعداء ، فلم يكن من الغريب أن يلجأ السلطان عامر الى دولة المماليك طالبا معونتها .

أنهى البوكرك اعتداءه على عدن بادئا أول جولة برتغالية فى البحر الأحمر كما ذكرنا من قبل ، وقد احتفل هو ورجاله بوصولهم للبحر الأحمر

---

(١) د. السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٥٨ .

(٢) د. فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ٣٧ .

(٣) يذكر باعلوى فى مخطوطه التاريخ الأكمل ورقة ٩٠ حوادث ٩١٦ هـ ، أن خميس وعمرو وأولاد سعيد بن الروايدى دخلوا سقطرة وصالحوا الأفرنج بها الذين ما لبثوا أن خرجوا على المسلمين بالجزيرة واشتبكوا معهم فى قتال قتل فيه من الفرنج عشرة وانتصر المسلمون عليهم .

احتفالا ضخما يدل على مدى فرحهم الشديد باعتبار أن البوكرك أول قائد حملة برتغالية يدخل هذا البحر (١) ، حيث مر بجزيرة بريم (٢) الصغيرة الواقعة عند مدخل البحر الأحمر ، وأرسل بعثة لاستكشافها ، وعندما وجدها غير ملائمة لاقامة الحصون عليها أحرقها (٣) ، ومن ثم اتجه الى المخا (٤) التي فشل في الاستيلاء عليها ومنها الى البقعة (٥) التي دمرها ، ورغم ذلك فشل في دخولها نظرا لتنبه الأهالي ، ومن ثم اتجه الى الحديدة (٦) الا أنه لم يستطع أيضا دخولها (٧) ، وازاء ذلك الفشل الذى لاقاه البوكرك فكر في الاتجاه نحو مساعدة الأحباش هادفا القضاء على قوة المسلمين بها ، ومحاولا تهيئة الأمور حتى يجعل من الأحباش الوسيط التجارى لهم في البحر الأحمر ، وفي الوقت نفسه فرصة لتوحيد جهوده معهم ضد المسلمين (٨) ، غير أن الخسارة التي لحقته في الجولة السابقة ، والحالة المعنوية السيئة التي سادت بين صفوف حملته ، وحاجته الى الماء جعلته يتجه نحو

---

(1) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 190.

(٢) يسميها المؤرخون العرب جزيرة ميون أو بريم كما يسميها المؤرخون الغربيون وتقع هذه الجزيرة في أضيق جزء من باب المندب بعيدة عن عدن بنحو ٩٦ ميلا وتبلغ مساحتها نحو خمسة أميال مربعة .

(3) Angelo Pesce: Jiddah 79.

— د . صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ١٥ .

(٤) موضع باليمن بين زبيد وعدن بساحل البحر الأحمر .

(٥) البقعة نقطة على ساحل اليمن .

(٦) الحديدة ميناء في البحر الأحمر على ساحل اليمن .

(٧) الديبع ،عبدالرحمن بن على : قرة العيون في أخبار اليمن الميمون (مخطوطة) ورقة ١١٢ .

— يحيى بن الحسين : غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، القسم الثاني ، ٦٤٠ — تحقيق د . سعيد عبدالفتاح عاشور .

(٨) محمد عبدالقادر بامطرف : الشهداء السبعة ٥٢ .

— Playfair : A History of Arabia Felix 98.

جزيرة كمران (١) ، التى حصنها أهلها خشية وصوله ،وهناك صادف أربعة سفن كبيرة محملة بالبضائع أحدها تخص الغورى (٢) ، فقام بأسرها وتعذيب من فيها من المسلمين ، ذلك أن البوكرك ، ولكى يعوض فشله فى الاستيلاء على عدن ، كان يطفىء ظمأ انتقامه بقطع أيدى وأنوف وآذان أى أسرى يأخذهم من المراكب التى كان يلقاها فى البحر الأحمر (٣) ، وهى قاعدة سار عليها الجميع منذ اللحظة التى وصلوا فيها الى المحيط الهندى ، وهى دلالة واضحة على مدى قوة التعصب الصليبى الذى رافق أعمالهم الحربية فى القرن السادس عشر الميلادى ، ومع بداية شهر صفر ٩١٩ هـ - ١٥١٣م دخل البوكرك كمران وأوقع بمن فيها من المسلمين مذابحه المعهودة وقتل من فيها من أصحاب السلطان عامر بن عبد الوهاب ومن ثم أباحها لجنده الذين نهبوها (٤).

أصيبت أنباء دخول البوكرك البحر الأحمر القاهرة بالذهول ، على الرغم من أن ذلك كان متوقع الحدوث ، فعمد الغورى الى مواجهة ذلك الخطر

---

(١) تقع كمران فى أقصى شمال حدود اليمن على بعد ثمانية أميال فقط من الأرض الرئيسية وقبالة زبيد باليمن ، وهى قليلة السكان فلا يزيد عددهم عن الألف ، وكانت تجلب معظم دخلها من صيد المرجان ونقل البضائع فى قوارب خفيفة .

- Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 22-23.

(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 192.

(3) Stripling: The Ottoman Turks 34.

(٤) عيسى بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح (مخطوطة) ورقة ٩ .

- Pankhurst: Ethiopia 326.

يذكر فاريا سوزا فى كتابه آسيا البرتغالية جـ ٢ ١٩٢ أن البوكرك عندما دخل كمران كانت خالية من سكانها الذين هجروها قبيل وصوله اليها .

بأن أصدر أوامره الى حسين الكردى بالتوجه الى جدة والاستقرار فى نيابتها[(1)] حتى يتم اعداد الحملة ، وأعد الغورى فرقا من طبقته الخاصة وأمرهم بالتوجه الى السويس ، وعين معهم جماعة من النجارين والحدادين من أجل الاسراع فى بناء السفن[(٢)] ، اضافة الى امدادات وفرق عسكرية الى جدة برئاسة الأمير خشقدم خوفا عليها من هجوم مفاجئ[(٣)] .

وتأبى الفرق العسكرية المملوكية مرة أخرى ووسط تلك الظروف الصعبة من اطاعة أوامره ، وبلغت درجة عصيانهم انه عندما أراد استعراضهم فى الميدان كعادته لم يحضر أى فرد منهم الا بعد أن دفعت له نفقته[(٤)] ، وكان على الغورى الى جانب مشاكلهم أن يتابع خطوات ثورات العربان فى القاهرة وضواحيها ، حتى لقد اضطر ازاء موقفهم الخطير ذلك أن يلغى بعض الموالد والأعياد ذات المكانة فى المجتمع القاهرى خوفا من غارات العربان المفاجئة[(٥)] ، اضافة الى ذلك انتشار الطاعون فى تلك الفترة حتى انه كان يموت بسببه فى كل يوم ثلاثة آلاف وكسور[(٦)] ، هذا بخلاف ما جرى لدار صناعة البارود (الزردخانة) اللازم لتموين مدافع الأسطول وأسلحة

---

(١) د . محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الغورى ١١٧ .
كان حسين الكردى قد عاد الى القاهرة فى شهر رمضان ٩١٨ هـ — ١٥١٢ م بعد غيبة دامت سبع سنوات وثلاث أشهر .
— ابن أياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٤ ،٢٨٦ ،٢٨٧ .
(٢) كان الغورى قد منع الناس من بيع خشب السنط اللازم لاكمال سفن أسطوله وانطلق جنوده يقطعون أشجار الناس من الغيطان غصبا باليد ويوسلونه الى السويس لاستعجال بناء السفن اللازمة .
— ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٤ ٣٥٥ .
(٣) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٤ ٣٠٨ ، ٣١٠ .
(٤) المرجع السابق ، نفس الجزء ، ٣١١ .
(٥) المرجع السابق ، نفس الجزء ، ٣٠٩ .
(٦) المرجع السابق ، نفس الجزء ، ٣٠٨ .

قواته عندما شبت فيها النيران وأهلكت العديد من العاملين بها .(١)

وعودة الى البوكرك فى جزيرة كمران ، ومع يأسه فى محاولة تحويل مجرى نهر النيل كما ذكرنا سابقا ، فكر فى غزو مدينة ينبع ميناء المدينة المنورة ومن ثم الاتجاه الى المدينة ومحاولة التعرض للمسجد النبوى الشريف ، ولكن الرياح المعاكسة حالت دون وصوله اليها ، فعمد الى تجويع جدة عن طريق اعتراض سفن المؤن القادمة من بربرة وزيلع ومصوع (٢) ، ومن ثم عاد الى جزيرة كمران لقضاء فصل الشتاء بها ، وفى تلك الأثناء حاول أهالى ساحل عدن مهاجمة البرتغاليين فى جزيرة كمران ، وطلبوا من السلطان عامر أن يسمح لهم بذلك وأن يزودهم بالسلاح ولكن طلبهم رفض . (٣)

ومع بداية شهر يوليو ١٥١٣ م رحل البوكرك من جزيرة كمران بعد أن ذبح كافة المواشى الموجودة بها وقلع كل أشجار النخيل ، وأخيرا أحرق المدينة حتى لا تستطيع السفن المسافرة من عدن فى طريقها الى مكة من التوقف بها والتزود بما تحتاجه (٤) ، ومن كمران اتجه البوكرك نحو عدن محاولا الاستيلاء عليها مرة أخرى ، ومع تحركه من كمران كان قد أرسل مجموعة من سفنه الى زيلع بقصد الاكتشاف والتخريب ، وبوصول سفنه الى زيلع قامت بحرق السفن الموجودة فى الميناء اضافة الى ضرب المدينة ، واحراق ما بها

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٤ ٣١٤ .
(2) Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 34.
(٣) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٧٥ .
(4) Pankhurst: Ethiopia 326
- Sousa: The Portuguese Asia Tome I 193.

من أخشاب ومن ثم لحقوا بالبوكرك الذى كان يحاصر عدن (١) ، ورابط البوكيرك أمام عدن وأخذ يقصفها لمدة خمسة عشر يوما فخرب بعضا من بيوتها ، واستشهد العديد من سكانها ، ولم يستطع أن ينال منها فغادرها الى الهند ، بعد أن أحرق مجموعة من السفن فى مينائها (٢) ، وعلى الرغم من فشل البوكرك وخروجه من البحر الأحمر الا أن الغورى كان يعى تماما نتائج تلك الحملة ، وفى مقدمتها أن البرتغاليين طالما تجرأوا على دخول المعقل الأمامى للمماليك ، فان ذلك يعنى أنهم سيعاودون الكرة سنويا اعتمادا على قواعدهم فى المحيط الهندى ، ومن هنا تجددت استراتيجيته القديمة فى ضرورة مواجهتهم فى معاقلهم تلك ، وبلغ من شدة اهتمامه بانزال الأساطيل أنه سافر بنفسه الى السويس فى المحرم من ٩٢٠ هـ - ١٥١٤ م حيث أشرف بنفسه على سير العمل فى انجاز السفن الحربية والتى أنزل بعضها أمامه الى البحر (٣) ، وفى مدينة السويس تجلت روح الوحدة الاسلامية فى ذلك الوقت

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح (مخطوطة) ورقة ٩ .

- Sousa : The Portuguese Asia Tome I 193.

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، القسم الثانى ٦٤٠ ، تحقيق د . سعيد عاشور .

- Playfair: A History of Arabia Felix 98.

تذكر الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها البحرية فى مصر الاسلامية ١٣١ ، أن السلطان الغورى أرسل اسطولا بقيادة حسين الكردى الذى تلاقى مع الأسطول البرتغالى المحاصر لعدن ، وان الكردى حاربه وانتصر عليه وأجلاه عنها ، وهذا شىء لم نجد له أى ذكر سواء فى المصادر أو المراجع العربية والأجنبية .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٤ ٣٦٥ .

حيث كان العثمانى يعمل بجانب المملوكى والقاهرى جميعا تحت قيادة سلمان الريس العثمانى الذى أشرف بنفسه على انشاء الأساطيل الجديدة ، وبلغ عدد المجاهدين العثمانيين الذين تطوعوا للعمل فى الأسطول المملوكى ألفى مجاهد (١) ، أحيطوا بالتكريم والتبجيل من قبل السلطان الغورى ، وقيل بأن نفقات تلك الحملة وبناء الأساطيل قد صرفها السلطان الغورى من ماله الخاص (٢) ، والتى بلغت نحو أربعمائة ألف دينار وكسور (٣) ، ويجابه الغورى مرة أخرى مشاكل مماليكه فى سبيل الخروج الى البحر الأحمر ، فهو وأن كان فى السابق يواجه مشاكلهم بسبب رفضهم الخروج دون جامكيات فما عذرهم الآن وقد عرف عنه انه كان يصرف لهم رواتبهم وأحيانا لمدة أربعة أشهر قادمة (٤) ، وكأنهم على موعد مع المرض يحتجون به حتى لا يخرجوا حتى انه قيل انه لم يجد منهم سوى ستة آلاف جندى تطوعوا للخروج من تلك الأعداد الهائلة التى ظهرت فيما بعد على ساحة مرج دابق . (٥)

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٤ ، ٤٦٠ .

(٢) يقال بأن السلطان الغورى لما خرج لقتال السلطان العثمانى سليم أودع أمواله قلعة حلب فلما مات استولى السلطان سليم على تلك النفائس والأموال التى قدرها المؤرخون بمائة مليون قطعة ذهبية .
— توفيق اليوزبكى : تاريخ تجارة مصر البحرية فى العصر المماليكى ١٢٤ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٤ ٣٦٦ .

(٤) المرجع السابق ، نفس الجزء ، ٤٦٠ .

(٥) د . محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الغورى ١١٧ ، ١١٨ .
قدر عدد الجيش المملوكى الذى شارك فى موقعة مرج دابق من ٥٠ الى ٨٠ ألف مقاتل .
د . أحمد فؤاد متولى : الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته ١٥٨ .

من هذه الأوضاع تحركت حملة الهند الجديدة ، حيث تولى سلمان الريس رئاسة القطع البحرية ، على أن يكون الكردى قائدا عاما للحملة ، والتى أبحرت فى رجب ٩٢١ هـ — ١٥١٥ م الى جدة ، وفى الحادى عشر من شوال ٩٢١ هـ أبحرت الحملة نحو عدن بعد أن تولى الكردى قيادتها ويساعده سلمان الريس [١] .

وتجلت خطة المماليك فى تلك الفترة لحماية البحر الأحمر فى اقامة مراكز عسكرية تجارية لهم فى عدن تكون بمثابة نقطة انطلاق للحملات المتجهة الى المحيط الهندى والخليج العربى [٢] ، على أن يكون ساحل بربرة مصدرا للتموين والامدادات الغذائية [٣] ، وعندما وصلت الحملة الى جيزان راسل الكردى السلطان عامر بن عبد الوهاب اعتمادا على مراسلاته القديمة للسلطان الغورى عندما داهمه الخطر البرتغالى ١٥١٣ م وطلبه معونة المماليك ، وأوضح الكردى الغرض من حملته فى سبيل مواجهة البرتغاليين طالبا مده بالأموال والطعام ، ولم يتلق الكردى أية اجابة على رسائله [٤] ، وعندما وصل كمران ١٧ ذى القعدة ٩٢١ هـ — ديسمبر ١٥١٥ م واصل اتصالاته فأرسل الهدايا الى السلطان عامر كما أرسلها الى ابنه وولى عهده فى زبيد طالبا معونة الحملة [٥] ، الا أن محاولاته تلك فشلت ازاء رفض عامر الذى

---

(١) د • محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الغورى ١١٨ •
— د • حسن أحمد محمود : التهديد البرتغالى لسواحل جزيرة العرب ومصادر دراسته ٦٠٦ ، ٦٠٧ مجلة العرب •

(٢) محمد عبد القادر بامطرف : الشهداء السبعة ٥٣ •

(٣) د • محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٣٦ •

(٤) د • السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٨٢ •

(٥) المرجع السابق ، نفس الصفحة •

خشى أن يكون ذلك نوعا من السيادة السياسية على اليمن ، وازاء رفض عامر بلشرت الحملة فى فرض سيادتها على كمران ، أو بالأحرى احتلالها مما كان له رد فعل سىء فى نفوس حكام عدن الطاهريين الذين كانت تهامة وكمران تشكلان جزءا من دولتهم [(١)] ، ودعم الكمردى تلك السيطرة ببناء التحصينات والأسوار حول جزيرة كمران كجزء من الخطة العامة المملوكية فى اقامة مجموعة من القواعد البحرية عند مدخل البحر الأحمر لمنع وصول البرتغاليين [(٢)] ، ونتيجة لذلك التصرف عمد السلطان عامر بن عبد الوهاب الى منع وصول المواد الغذائية الى جدة باعتبارها القاعدة الأساسية فى تموين الحملة المملوكية بما تحتاجه من مواد غذائية [(٣)] ، وفى الوقت نفسه قام بتدعيم مدنه التهامية خوفا من هجوم الكردى عليها ، فأرسل جيشا بقيادة أخيه عبد الملك الى زبيد وأرسل قوات أخرى الى الحديدة [(٤)] ، فكأنى بالطرفين وقد عجزا عن الاتفاق فى سبيل الخروج لمواجهة البرتغاليين فى المحيط الهندى ، قد حولا البحر الأحمر ميدان للخصومة والقتال ، فى وقت كانت فيه حكومة نائب ملك الهند تعد عدتها لغزو البحر الأحمر بناء على أوامر الملك عمانويل الذى وردته أخبار تلك الاستعدادات الحربية التى قام بها الغورى [(٥)] ، ولم يخلوا ذلك النزاع من عناصر جديدة تأجج نيران تلك الفتن كطوف ثالث

---

(١) محمد عبد القادر بامطرف : الشهداء السبعة ٥٣ .

(٢) د . فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ٤٣ .
— Serjeant: The portuguese off the South Arabian Coast 49.

(٣) الكبسى ، محمد ابن اسماعيل : اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية (مخطوطة) ورقة ٥٩ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون (مخطوطة) ورقة ١١٠ .
— ابن الكبسى ، بدر الدين : اللطائف السنية فى الأخبار اليمنية (مخطوطة) ورقة ٦٠ .

(5) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 210.

فى سبيل بعثرة جهود المسلمين فى البحر الأحمر عن الهدف الأساسى ، عندما قام المناوئون لحكم الطاهريين فى اليمن بالاتصال بالكردى وجر قواته البرية للاشتراك فى الحروب الأهلية الدائرة بين الزيديين والطاهريين ، ومن انضم الى الزيدية أمثال أشراف جيزان وغيرهم (١) ، وكان من الطبيعى أن ينجرف الكردى وراء هذه العناصر الخارجة فى وقت رفض فيه السلطان عامر التعاون معه ، اضافة الى حاجته الى اقامة قواعد عسكرية تنفيذا لمخطط الحملة السابق ذكره .

كان أشراف جيزان (٢) أول من اتصل بالكردى عند مروره بجيزان ، حيث أرسل أميرها أحد اخوته مرافقا لحملة الكردى الى جزيرة كمران ، وفى الوقت نفسه تهيئة الأجواء لانزال الحملة الى السواحل اليمنية ، وعندما وصل الكردى الى كمران ، كان الامام شرف الدين امام الزيدية قد باشر بالكتابة اليه محاولا اثارة الكردى على السلطان عامر بتهمة تعاونه مع البرتغاليين (٣) ، نتج عن تلك الاتصالات أن بدأ الكردى فى تهديد عناصر الحملة فى السرايا التى أخذ فى ارسالها لتلبية مطالب الخارجين على الدولة العامرية ، وفى كثرة ضرب بعض المدن اليمنية بمدفعية الأسطول المملوكى ، فعندما منع السلطان عامر وصول الأطعمة الى الكردى فى معقله الجديد بكمران ، بادر

---

(١) النهروالى ، قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ٢٠ ، ٢١ .

(٢) كان سلاطين الدولة العامرية يعترفون بحكم الأشراف فى جيزان مقابل دفع الخراج سنويا لهم .
- د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٨٤ .

(٣) عيسى بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح (مخطوطة) ورقة ١١ .

المماليك بضرب الحديدة بالمدافع ، وأتبعوا ذلك بنزولهم الساحل وحملوا ما يقدرون عليه من أطعمة ومواد غذائية ، اضافة الى الأدوات اللازمة لاكمال التحصينات حول كمران من خشب وحديد وخلافه (١) ، ونتج عن تلك الغارة أن مال أمير اللحية أبو بكر بن مقبول الزيلعى الى الكردى ، بعدما سمع بمدى قوة تلك الأسلحة التى لم تعهدها الأراضى اليمنية من قبل ، فقابل الكردى فى كمران واتفقا على النزول سوية فى الأراضى اليمنية ، وأرسل الكردى قوة الى اللحية قادها الأمير الزيلعى الى مدينة مور (٢) من أملاك السلطان عامر واستولوا عليها (٣) ، وبذلك بدأ المماليك فى مشاركة اليمن صراعه الداخلى ، وما لبثت تلك الأحداث أن عجلت بتعمق التدخل المملوكى فى سواحل اليمن حينما بدأت المواجهة الفعلية بين الدولة الطاهرية والحملة المملوكية بقيادة الكردى ، الذى نزل بنفسه الى السواحل اليمنية على رأس قوة كبيرة من المسلحين بالبنادق ، وبعد هزيمته لقوات الدولة الطاهرية فى شمال زبيد تمكن فى التاسع عشر من جمادى الأولى ٩٢٢ هـ — ١٥١٦ م من دخول مدينة زبيد التى تعرضت لتعسف شديد من قبل أفراد المماليك الذين انتهبوها نهبا فظيعا ، وسفكوا الدماء ، وارتكبوا العظايم ، وصادروا أهلها (٤) ،

---

(١) ابن الديبع : (وجيه الدين عبدالرحمن بن على) ، قرة العيون بتاريخ اليمن الميمون (مخطوطة) ورقة ٢٤١ ، نسخة باريس ٦٠٥٨ ٠

(٢) مور ساحل لقرى اليمن ، وأحد مشارف اليمن الكبار ، وهو رأس تهامة الأعظم ٠

(٣) ابن الكبسى (بدرالدين) : اللطائف السنية فى الأخبار اليمنية (مخطوطة) ورقة ٣٦٤ ٠

— ابن الديبع : قرة العيون بتاريخ اليمن الميمون (مخطوطة) ورقة ٢٤١ — نسخة باريس ٦٠٥٨ ٠

(٤) ابن الوزير (السيدعبدالله بن على) جامع المتون فى أخبار اليمن الميمون ورقة ١٣٩ ٠

وفى أواخر جمادى الآخر من السنة نفسها توجه الكردى من زبيد الى زيلع حيث تم اعداد الحملة الخاصة بعدن ، وفى أوائل رجب وصلت الحملة المملوكية أمام عدن ، غير أن المدينة وقفت فى وجههم (١) ، فاضطر المماليك ازاء هذه المقاومة الى العدول مؤقتا عن احتلال عدن ، وبالتالى تأخير سفر حملتهم الى الهند (٢).

كان فشل الحملة فى الاستيلاء على عدن يعود الى عاملين مهمين وهما فشل القادة فى اتخاذ السرية التامة حول أهداف عملياتهم العسكرية ، وهذا من شأنه ما جعل قادة عدن يتخذون وسائل الدفاع المناسبة ، وتحريض السفن اللاجئة الى الميناء على الفرار (٣) ، أما العامل الثانى فهو ما وصل عدن من

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح ورقة ١٣ .

(٢) يذهب الدكتور نعيم زكى فهمى فى كتابه طرق التجارة الدولية ص ١٠٩ الى أن الكردى خرج بحملته تلك (الثانية) ٩٢٠ هـ الى جوجيرات، وانه اجتمع بسلطانها خليل شاه ، والمعروف بناء على كثير من المصادر العربية والأجنبية أن حملة حسين الكردى الثانية لم تغادر قط البحر الأحمر ، وانما انشغلت بمشاكل اليمن ومحاولة ايجاد قاعدة للعمليات الحربية فى عدن .

كذلك يشير المؤلف ص ١٤٦ الى انه عقب عودة حسين الكردى ٩٢٠ هـ الى البحر الأحمر استولى على عدن وعين برسباى الجركسى حاكما لها ، وهى معلومات تغاير الواقع تماما .

(٣) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٥٠ .
فى الوقت الذى كان فيه حسين الكردى يضرب حصاره على عدن كان سلمان الريس منشغلا بمطاردة السفن المدنية فى عرض البحر .
د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٨٧ .

امدادات عسكرية من تعز ، كذلك العون المالى الضخم الذى وصلهم من السلطان محمد بن عبد الله الكثيرى من الشحر (١) ، ومع فشل المماليك فى اتخاذ عدن قاعدة لعملياتهم الحربية كان ذلك مدعاة لتعديل سياسة مصر فى البحر الأحمر (٢) ، فقرر قادة الحملة ضرورة تأمين البحر الأحمر أولا وقبل أى شئ ، ووجد القادة أن هذا التأمين لن يتم الا بانشاء خطى دفاع ، أما الخط الأول فقد تقرر أن يكون على السواحل التهامية لليمن فاتجهوا الى احتلال بعض المواقع الصغيرة على الساحل التهامى ، بعد أن وجدوا التشجيع الكافى من الامام الزيدى الذى كان ينافس الطاهريين فى سلطانهم ، أما الخط الثانى فقد تقرر أن يكون فى جدة (٣) ، ولم يستمر قادة الحملة كثيرا فى كمران عقب عودتهم من عدن ، اذ رجع كل من الكردى وسلمان الريس الى جدة لتركيز الدفاع عنها بعد وصول أخبار تفيد بقرب وصول حملة برتغالية الى البحر الأحمر (٤) ، وفى الوقت نفسه محاولة الاستعداد لمهاجمة عدن مرة أخرى ، وهنا وقعت كارثة أخرى عندما نشب النزاع بين الكردى وسلمان الريس ، وهذا بالتالى ما أدى الى انقسام الأسطول المصرى فتوجه سلمان الريس بجزء منه الى زيلع ، ومنها الى جدة ،

---

(١) محمد عبد القادر بامطرف : الشهداء السبعة ٥٤ .
كانت المنطقة التى تقطنها قبيلة الكثيرى تمتد من أراضى العولقى الى المهرة فى الشرق ، ويحدها الربع الخالى شمالا ، والبحر العربى جنوبا ، وكانت تتبعها الشحر والمكلا .
(٢) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٥١ .
(٣) محمد عبد القادر بامطرف : الشهداء السبعة ٥٣ ، ٥٤ .
— د . فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ٤٤ .
(٤) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٨٢ .

أما حسين الكردى فقد توجه بالجزء الآخر أيضا الى جدة مارا بالموانىء اليمنية المطلة على السواحل الشرقية للبحر الأحمر (١) ، وكانت الأخبار قد وردت الى مصر فى شوال ٩٢٢ هـ ، بأن المراكب التى أرسلها الغورى قد غرقت ، وان خلافا قد وقع بين سلمان الريس ، وبين الكردى ، وأن كلا منهما توجه الى جهة من جهات الهند ، ولم يعلم له خبر (٢) ، غير أن الأيام لم تسعف الغورى لتتبع أنباء حملته البحرية الثانية بسبب ما حدث فى ساحة مرج دابق مع العثمانيين ، وعندما سمع حسين الكردى وسلمان الريس بموت الغورى رغب كل منهما فى محاولة تزعم حركة تأييد السلطان العثمانى الذى دخل القاهرة بعد ذلك بقليل ، وكان الخط حليف سلمان الريس عندما منح الجنود أجر شهرين فتمكن بذلك من ضم معظم أفراد الحملة الى صفوفه فى حين فر الكردى الى مكة (٣) ، الذى وردت بخصوصه المراسيم السلطانية من السلطان العثمانى سليم بارساله الى مصر ، وما أن وصل الكردى الى جدة حتى قام الأشراف باغراقه فى البحر (٤) .

---

(١) د ٠ حسن أحمد محمود : التهديد البرتغالى لسواحل جزيرة العرب ، ٦٠٧ ٠ مجلة العرب ٠

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٥ ١١٥ ٠

(٣) د ٠ محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٤٧ ٠

(٤) النهروالى ، قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ٢٦ ، ٢٧
يذكر الدكتور محمود رزق سليم فى كتابه الأشرف قانصوه الغورى ص ١١٨ أن سلمان الريس عندما اشتد النزاع بينه وبين الكردى قام بقتله ، ومن ثم أكمل طريقه الى جدة ، أما الدكتور حسن أحمد محمود فيذكر فى بحثه التهديد البرتغالى لسواحل جزيرة العرب ص ٦٠٧ ، أن سلمان الريس هو الذى وردته الأوامر بالقبض على الكردى واغراقه فى البحر الأحمر أمام جدة ٠

ومع نهاية الأدوار الأخيرة للمماليك فى صراعهم مع البرتغاليين هنـاك ملاحظة يجب أن نشير اليها وهى كثرة التحامل على موقف الدولة العثمانيـة من المماليك قبيل موقعة مرج دابق وبعدها ، كذلك تلك التهم الـــتى يتعمد بعض المؤرخين الصاقها بسلمان الريس ، ووصف موقفه من خلافــه مع الكردى بأنه نوع من الخيانة دون توضيح أبعاد تلك الخيانة والنتائـج التى خرج منها سلمان الريس بخيانته تلك ، فالمؤرخ البرتغالى فاريا ســوزا يذكر فى كتابه آسيا البرتغالية جـ ١ص٢١٢ بأن سلمان الريس ، بعــد أن قام بقتل الكردى سلم جدة الى الأتراك عقب دخولهم القاهرة ، بحيث جعل الأمر وكأنه خطة مدبرة لاستيلاء الأتراك على النفوذ فى البحـــر الأحمر ، حيث يدلل على ذلك فيما بعد بقوله بقيام الأتراك بقتل السلطـان الغورى ، ويشاركه فى ذلك الرأى الدكتور حسن أحمد محمود [١] ، حيــث يشترك الاثنان فى توجيه اتهام مشترك لسلمان الريس بأنه خان المماليــك واستلم جدة ، دون محاولة الاشارة الى وثيقة أو رواية معقولة لادانة سلمـان الريس ، ويعتمدون فى ذلك على الخلاف بين الكردى وسلمان الريــس ، فلو أخذنا بذلك لوجدنا سؤلا سريعا يفرض نفسه ، وهو لماذا لم يوجـــه Sousa الاتهام نفسه عندما شب النزاع بين البوكرك وأحد ضبـــاط الحملة أثناء عملياتهم الحربية داخل الخليج العربى [٢] ٩١٣ هـ — ١٥٠٧ م [٣]، ولماذا لم يوجه الدكتور حسن محمود للمسلاتى المغربى نفس التهمة عندمـا أعاده الغورى الى القاهرة كما ذكرنا من قبل ، كذلك لماذا لم توجه التهمـــة

---

(١) التهديد البرتغالى لسواحل جزيرة العرب ٦٠٧ — مجلة العرب .

(2) Miles: The Countries And . Tribes of Persian Gulf 149.

(٣) أنظر الصفحات ١١١ ، ١١٢ من الرسالة .

نفسها لكل من خير الدين حمزة وسلمان الريس (للمرة الثانية) عندما خرجا بحملة عثمانية الى اليمن عام ٩٣٣ هـ - ١٥٢٦ م انتهت بتنازع القائدين ومقتلهما كما سنذكر فيما بعد ، كذلك ليس هناك أى مبرر لأن يقوم سليمان الريس بتسليم جدة الى الأتراك لأنه هو فى ذات نفسه تركى (١) ، فكان الأجدر أن يتسلمها هو وليس غيره خاصة اذا علمنا بأن سلمان الريس كان أحد المجاهدين الأتراك الذين تطوعوا للخدمة فى أسطول الغورى ، وأن صمتت المراجع عن كيفية وصوله الى مصر ، اضافة الى ذلك فلو أن بقايا المماليك فى جدة الذين انضموا الى سلمان الريس عقب خلافه مع الكردى ، لو أنهم اشتموا رائحة الخيانة من سلمان الريس لقضوا عليه كما فعل زملاؤهم بمصر ، عندما قتلوا حسن بن مرعى الذى خانهم وسلم طومان باى الى السلطان سليم ، فكيف بهم وقد انضموا جميعا الى سلمان الريس .

---

(١) هناك تحليل تاريخى فى بحث التهديد البرتغالى لسواحل جزيرة العرب الذى أشرنا اليه من قبل ذكر فيه أن الجند الذين انضموا الى الحملة المملوكية الثانية فى البحر الأحمر ، كان لغيابهم فى البحر أثر فعال فى هزيمة الغورى الذى حرم منهم ، وأنهم لو كانوا معه فى موقعة مرج دابق لكان الأمر كفيلا بأن يحقق التوازن فى تلك المعركة الفاصلة ، وعودة الى الوراء قليلا نلاحظ أن الحملة الثانية ، لم تتعد فى مجموعها السبعة آلاف جندى ، منهم ألفى متطوع عثمانى ، هذا بخلاف المغاربة ومن شاركهم من المتطوعين ، فلو أخذنا فى الاعتبار المجموع العام للحملة ، بعد حذف المتطوعين من عثمانيين ومغاربة نجد أن عدد المماليك لم يتجاوز الأربعة آلاف جندى ، فهل من المعقول انه كان مقدرا لهذه الأعداد القليلة من الجند نصيب فى تحقيق التوازن الذى يشار اليه فى ذلك البحث .

الواقع أن نتيجة تلك المعركة وظروفها كانت معروفة سلفا للجميع .

ولما كان الحديث عن جهود المسلمين فى سبيل الدفاع عن البحر الأحمر قد تناول دولة المماليك فى مصر ودولة اليمن كان لزاما علينا ، أن نتعرف على مجهودات دويلات الطراز الاسلامى قبيل العصر العثمانى ، باعتبار أن تلك الدويلات كانت ذات ثقل سياسى مشهود لها به على مر السنين على السواحل الغربية للبحر الأحمر بحكم جوارها للحبشة الحليف التقليدى للبرتغاليين .

تكونت تلك الامارات نتيجة عاملين كانت الظروف فى شبه الجزيرة العربية والعالم الاسلامى من ورائهما (١) ، فعندما كثرت غارات القراصنة الأحباش على سواحل الحجاز لجأ المسلمون فى عصر الخلفاء الراشدين وبداية العصر الأموى الى وضع قوات لحماية جدة -(٢) ، فى وقت لم تكن فيه البحرية الاسلامية قد تكونت بعد ، وعندما بدأت تظهر كان أولى أعمالها مهاجمة أوكار هذه العصابات ، واقامة مجموعة من الخطوط الدفاعية عن طريق الاستيلاء على جزر دهلك التى تقع أمام السواحل الحبشية (٣) ، من هذا نرى أن اتصال العرب المسلمين بالساحل أمر قد أجبروا عليه ، أى أن المسلمين لم يهرعوا الى الساحل الحبشى كغزاة فى تلك الفترة ، وبوصول بنى أمية الى الحكم ، نشبت كثير من الثورات ضدهم ، كثورات الشيعة والخوارج فى العراق وما وراء النهرين ، والزبيريين فى العراق والحجاز (٤) ، ثم فرت أعداد منهم الى بلاد بعيدة مثل المغرب وخراسان وسواحل

---

(١) د . زاهر رياض : تاريخ أثيوبيا ٥٦ .

(٢) د . زاهر رياض : الاسلام فى أثيوبيا ٥٤ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) توماس أرنولد : الدعوة الى الاسلام ٣٧٨ . (ترجمة د . حسن ابراهيم حسن وآخرون) مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٠م .
— د . حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام فى القارة الافريقية ٢٩ ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٤م .

الحبشة ، وسواحل شرق افريقية ، والتى كانت خارجة عن سلطة بنى أمية ، الذين ما لبثوا أن تتبعوهم حيث استولوا على بعض الجزر الساحلية أمام سواحل الحبشة (١).

ولا ننسى كذلك أن العرب أنفسهم منذ القدم كانوا يجدون فى سواحل الحبشة وشرق افريقية ملجأ يلجأون اليه فى بعض الظروف كالسعى وراء الرزق والكسب ، من هذا نرى أن صلة العرب بساحل الحبشة قديمة ، بحيث انهم تعودوا الاتصال بهذا الساحل (٢) ، كان ذلك فى وقت يشق فيه الاسلام طريقه الى سواحل الحبشة وبلاد الصومال وهرر بالتدريج ، اذ لم يقتصر نشاط الدعوة على الساحل فقط وانما بدأ يتدرج الى الحدود الغربية ذلك أن الدعاة والتجار كانوا عندما يتعمقون فى الداخل يؤسسون بطبيعة هدوء الأحوال السياسية مناطق نفوذ مقرونة بعلاقات طيبة مع زعماء الأحباش فى سبيل تسهيل مهمتهم (٣) ، وقد بدأ النفوذ الاسلامى لهذه الامارات فى التوطد على السهل الساحلى فيما بين القرنين العاشر ومنتصف القرن الثالث عشر الميلاديين (٤) ، واشتهر من هذه الامارات سبع وهى أولا أوفات : وتعد هذه الامارة من أقوى السلطنات الاسلامية ، وقد

---

(١) د . زاهر رياض : الاسلام فى أثيوبيا ٥٥ .

(٢) د . محمد المعتصم سيد : دول اسلامية فى شرق افريقيا ٢٧ .
— دراسات فى الاسلام يصدرها المجلس الأعلى للشئون الدينية بالقاهرة ١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤ م .

(٣) المرجع السابق ، ٣١ .

(٤) خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين لم يكن للحبشة حكومة مركزية ، وانما كانت عبارة عن امارات يتولى شئون كل امارة حاكم مسيحى ولكن أكثر هؤلاء الحكام من المسلمين الذين لم يجهروا باسلامهم لأن القوانين فى البلاد تحتم أن يتولى كل امارة حاكم مسيحى .
— ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ١٦ .
رسالة ماجستير لم تنشر ، جامعة القاهرة .

أسسها قوم من قريش وتقع غربى زيلع وكانت تتحكم فى الطريق التجارى الذى يربط الداخل بميناء زيلع فى البحر الأحمر، وكانت قوتها العسكرية تقدر بنحو ١٥ ألف فارس وأكثر من عشرون راجل وتتبعها امارتان صغيرتان هما مورا وعدال (١). ثانيا دوارو : وهى تلى أوفات وتقع على حدودها الغربية وطول مملكتها خمسة أيام وعرضها يومان وقوتها تقرب من قوة أوفات (٢). ثالثا أرابينى : ويقال بأنها كانت تقع فى الشمال الشرقى من بحيرة تانا ، وطولها أربعة أيام وعرضها كذلك ، وعسكرها نحو عشرة آلاف فارس ، أما الرجالة فيزيدون عن ذلك بكثير وأهلها على المذهب الحنفى (٣). رابعا هدية : تقع جنوب أوفات ، طول مملكتها ثمانية أيام ، وعرضها سبعة أيام وتعد أيضا من الامارات القوية ، وكانت تملك من العسكر نحو أربعين ألف فارس سوى الرجالة فانهم خلق كثير مثل الفرسان مرتين أو أكثر (٤) خامسا شرحا : تقع غرب أوفات (بين هدية ودوارو) وطول مملكتها ثلاثة أيام وعرضها أربعة أيام وعسكرها ثلاثة آلاف فارس ورجالة مثل ذلك مرتين (٥)،

---

(١) القلقشندى ، شهاب الدين أحمد : صبح الأعشى فى صناعة الانشاء جـ ٥ ٣٢٥ ، ٣٢٦ . القاهرة ١٩٦٣م.
— د . عبد الرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى شرق افريقية ٤١ ، ٤٢ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشاء جـ ٥ ٣٢٦ ، ٣٢٧ .
— المقريزى ، أحمد بن على : الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ٧ . مطبعة التأليف القاهرة ، ١٨٩٥م .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشاء جـ ٥ ٣٢٧ .
— حمدى السيد سالم : الصومال قديما وحديثا ٣٦٢ ، ٣٦٣ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشاء جـ ٥ ٣٢٧ .
— المقريزى : الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ٧ .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشاء جـ ٥ ٣٢٨ .
— حمدى السيد سالم : الصومال قديما وحديثا : ٣٦٣ .

سادسا بالى : تقع جنوب دوارو وتعد من الامارات الأكثر خصوبة وأطيب سكنا [١]. سابعا دارة : تعد هذه الامارة من أضعف السلطنات الاسلامية وطولها ثلاثة أيام وعرضها كذلك ، وعسكرها لا يزيد عن ألفى فارس . [٢]

وكان نشاط أهالى هذه الامارات يعتمد اعتمادا كليا على التجارة اذ أنهم تمكنوا وبمرور السنين من السيطرة على الحركة التجارية ، عندما تمكنوا من التحكم فى الموانىء الساحلية مثل تاجورة وزيلع ومصوع ، اضافة الى التحكم فى الطرق البرية المؤدية من هذه الموانىء الى داخل الحبشة [٣]، بحيث لا تمر تجارة ما الى داخل الحبشة أو خارجها الا عن طريقهم وبرضاهم نظرا لصعوبة هذه الممرات وجهل الغرباء بها . لم تكن تلك السيطرة أمر تعمده المسلمون للنيل من الحبشة ، وبالتالى اسقاطها ، وانما كان للظروف التى مرت بها المنطقة أثرها الفعال فى احتكار المسلمين لتجارة البحر الأحمر عبر الحبشة ، ويمكن تلخيص هذه الظروف فى عوامل عديدة منها ، أن تلك التجارة بالنسبة للمسلمين على ساحل الحبشة تمثل الأسلوب الرئيسى للارتزاق والمعيشة نظرا لظروف البيئة [٤]، فى وقت كان الأحباش أنفسهم لا يمارسونها بحكم طبيعتهم ، الأمر الذى ساعد بدوره

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ٣٢٩ .
— حمدى السيد سالم : الصومال قديما وحديثا ٣٦٣ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ٣٢٩ .

(٣) د . سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة ٥ .

(٤) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ١٢ .

على تركيز التجارة فى أيدى المسلمين على سواحل الحبشة ، وتكوين ثـروات كبيرة دفعتهم نحو طريق التقدم الحضارى [(١)] ، حيث كانت سفنهم تجوب البحار للتجارة ووصلت بضائعهم الى الهند وسيلان وفارس وعدن ، [(٢)] اضافة الى ذلك تعرض منطقة الحبشة فى القرن العاشر الهجرى لكارثة خطـيرة دمرتها ، وتركتها خاوية على عروشها نتيجة لغزوات جيرانها .

ونتيجة لهذه الأنشطة التجارية أصبحت هذه الامارات الاسلامية خطـرا يهدد كيان ملوك الحبشة المسيحيين ، بحيث طوقتها من الجنوب والشـرق وكونت حول الهضبة الحبشية سياجا عزلها عن أى اتصال خارجى وأصبح يطلـق عليها اسم دول الطراز الاسلامى [(٣)] ، وهذا بدوره ما أدى بملوك الحبشة الى التكتل داخل هضبتهم والتحصن فيها ، والعمل باستمرار على توحيـد صفوفهم لمواجهة الزحف الاسلامى [(٤)] ، وقد اتصلت هذه السلطنـات بالعالم الاسلامى الخارجى عن طريق التجارة والحج ، وسفر الطلاب الـى المدينة المنورة ودمشق والقاهرة طلبا للعلم ، حيث أصبحت لهم أروقـة خاصة كرواق أهل زيلع بالمسجد الأموى بدمشق ، ورواق الجبرتيـة فى الأزهر الشريف [(٥)] ، مما كان له أثر عظيم فى انتشار الثقافة العربيـة فى بلادهم عقب عودتهم ، وتوليهم المناصب الكبرى فى البلاد مثل مناصـب

---

(١) د. سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصـر والحبشة ، ٥ ، ٦ .

(٢) د. زاهر رياض : تاريخ اثيوبيا ٥٩ .

(٣) المرجع السابق ، ٦١ .

(٤) فتحى غيث : الاسلام والحبشة عبر التاريخ ٨٥ .

(٥) د. يوسف أحمد : الاسلام فى الحبشة ٢٦ . القاهرة ، ١٩٣٥م.
— د. ابراهيم على طرخان : الاسلام والممالیك الاسلامية بالحبشة ٣٣ . مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الثامن ، ١٩٥٩م.

القضاء والشرع [١] ، ولم يهمل سكان هذه الامارات الزراعة اذ اشتغلوا بها ، وكانوا يعيشون عيشة متوسطة فمساكنهم متواضعة ، تبنى من الطين والحجارة والخشب ، وكانوا محافظين على دينهم ، ومعظمهم يدين بالمذهب الحنفى [٢].

وبطبيعة الأحوال كانت السلطنات الاسلامية فى طور النشأة تضطر أحيانا الى خطب ود ملوك الأحباش ، فكانت تارة ترتبط وديا بهم ، وتارة تفكر فى الاستقلال ، وعلى الرغم من ذلك فانهم كانوا يدفعون سنويا مقادير معينة من القماش والحرير والكتان [٣] ، أما نظم الحكم فى هذه السلطنات فانها لم تخرج فى مظاهرها عن التنظيمات القبلية ، فكان السلطان منهم يوزع الأراضى الزراعية على جنوده [٤] ، على أنه يؤخذ على هذه الامارات أنها كانت متفرقة الكلمة ، ولم تكن تربطها أى صلة الا رابطة الدين ، بل كانت تحارب أحيانا بعضها البعض [٥] ، وبالاضافة الى عوامل الانقسام التى كانت سائدة بينهم ، فقد كانت الأوضاع الجغرافية تسبب بعض المشاكل التى تحول دون اتحادهم ، ومن ذلك انتشارهم فى مساحات شاسعة رديئة

---

(١) سليمان عطية : سياسة المماليك فى البحر الأحمر حتى نهاية عصر السلطان برسباى ٣٣.
- رسالة دكتوراه لم تنشر ، جامعة القاهرة ، ١٩٥٩م.

(٢) د. عبدالرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى شرق افريقية ٤١ .

(٣) المقريزى : الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ٦ .
- كانت البقاع الرئيسية التى يقطنها مسلمو الطراز الذين يدفعون الجزية لملك الحبشة واقعة فى الأراضى المنخفضة التى تؤلف حدود الحبشة الشمالية من البحر الأحمر غربا حتى سنار ، وفى الجهة الجنوبية والجنوبية الشرقية من المملكة .
- توماس أرنولد : الدعوة الى الاسلام ١٣٧ .

(٤) الشاطر بصيلى عبدالجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط ١٩٠

(٥) د. ابراهيم على طرخان : الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة ٣٤ .

المواصلات تتخللها فى كثير من الأماكن قبائل تعكر صفو الأمن (١) ، وهذا بالتالى مما أدى الى اضطراب أنظمتهم ، اضافة الى صعوبة تعبئة المحاربين وبالتالى تجمعهم فى نقطة واحدة مما جعل مقاومتهم ضعيفة وبالتالى عرضة للانهيار المفاجىء (٢) ، بسبب ذلك الانقسام الذى أشرنا اليه ، كذلك لا ننسى أن نشير هنا الى موقف ملوك الحبشة فى سبيل تنفير هذه الامارات عن بعضها البعض ، والعمل على ازدياد انقسام كلمتهم حتى لا يجتمعوا على محاولة النهوض فى وجههم ، وبالتالى فرصة مناسبة لازدياد تسلطهم على هذه الامارات . (٣)

من هذا نرى أن الأسس الحضارية التى قامت عليها هذه الامارات قوية وانها اتخذت نهجا سليما فى حياتها — بغض النظر عن تفرقهم — ولو استمرت هذه السلطنات فى طريق التقدم نحو وحدة اسلامية لأمكنها من مساندة حركة الجهاد المملوكى ضد البرتغاليين حين دخلوا البحر الأحمر لأول مرة ، ولكنها تعرضت لسلسلة طويلة من الاضطهادات الحبشية أردتها الى الحضيض ، بحيث لم يسمح لها موقفها الا بمشاركة ضئيلة مع كل من أوفات وعدل ، ومشاركة فعالة فى دور هرر كما سنذكر فى الفصول القادمة .

ومن المعروف أن الصراع بين مسلمى الطراز والحبشة قد مر بثلاثة أدوار على التوالى ، فالدور الأول تزعمته أوفات التى كانت أقوى الامارات

---

(١) د . حسن أحمد محمود : انتشار الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ٤٥٣ .

(٢) المرجع السابق ، ١١٠ .

(٣) د . جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ١٢٥ . مطبعة الجيلاوى ، القاهرة ، ١٩٧٥م .

كلها ، وكانت قوتها تعود الى أنها كانت تسيطر على الطرق التجارية المتجهة من الداخل الى الساحل وبالعكس[١] ، وكان دورها بداية من منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، وانتهى باحتلال الأحباش لزيلع العاصمة ٨١٧ هـ - ١٣١٥ م ، أما الدور الثانى فقد تزعمته عدل والذى بدأ ٨٢٥ هـ - ١٣٢٢ م ، وانتهى دورها كقوة حربية فى عهد ملك الحبشة زرء يعقوب (١٤٣٤ - ١٤٦٨ م) أما السنوات التالية وحتى القرن العاشر الهجرى فقد تميزت بمحاولة سلاطين عدل اللجوء الى مسالمة الأحباش[٢] ، وظل الأمر كذلك حتى بداية العقد الثانى من القرن السادس عشر حيث تزعمت هرر الدور الثالث والأخير .

ويجب أن نحدد هنا أن موقف الحبشة من الامارات الاسلامية قد تأثر ابتداء من النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى بعوامل عديدة منها تلك الروح الصليبية التى انتشرت فى الحبشة عن طريق ديرها فى بيت المقدس خلال الحروب الصليبية مما أدى بالتالى بالأحباش الى تعزيز صفوفهم ومحاولة مراقبة ذلك التطور الرهيب للامارات الاسلامية[٣] فالأحباش وعلى الرغم من كثرة غاراتهم على هذه الامارات ابتداء من عهد يكونوا املاك ١٣١٢ م ، فان تلك الامارات لا تلبث أن تعود الى سابق مجدها ، ولم تلبث الروح الصليبية أن تعمقت فى سياسة ملوك الحبشة حينما أرسل زرء يعقوب وفدا يحمل رسالة الى ملك أرغونة الفونس الخامس برئاسة راهب حبشى يدعى ميخائيل لتحقيق بعض المشاريع الصليبية فى وقت كانت

---

(١) فتحى غيث : الاسلام والحبشة عبر التاريخ ١٠٩ .

(٢) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ١٤ .

(٣) د. حسن أحمد محمود : انتشار الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ٤٤٢ ، ٤٤٣ .

فيه العلاقات سيئة بين المماليك والفونس الخامس بسبب تشجيعه لقراصنة الفرنج فى البحر الأبيض المتوسط [١] ، والتى أظهر فيها الفونس الخامس ملك أرغونة استعداده لارسال اسطول مكون من مائة وخمسين سفينة لمهاجمة السواحل المصرية والشامية ، اذا ما هاجم زرء يعقوب حدود مصر الجنوبية وقام بمنع مياه النيل عن مصر [٢] ، ويجب أن نشير هنا كذلك الى أن ملوك الحبشة عندما كانوا يعجزون عن التعبير عن حماستهم الصليبية عن طريق صدام مباشر مع مصر ، كانوا يجدون فى امارات الطراز الاسلامى متنفسا لهم فى سبيل تحقيق ما فشلوا فيه سابقا [٣] ، واضافة الى ذلك حسد الأحباش للامارات الاسلامية بسبب ما وصلوا اليه من مكانة مرموقة اجتماعيا واقتصاديا بحيث أصبح دأب الأحباش المتواصل هو النيل من هذه الامارات ومحاولة ابادتهم واحتلال ديارهم ، وهذا بدوره ما صادف مقاومة عنيفة من سكان الامارات الذين كثيرا ما حاولوا التحلل من تبعيتهم لهم [٤] ، ذلك أن الأحباش أدركوا منذ بداية القرن الرابع عشر الميلادى ، ومع انتشار الاسلام بصورته الكبرى تلك على سواحل بلادهم فى البحر الأحمر خطورة تطور قوة المسلمين فيما بعد ، مما أصابهم بالخوف خاصة وأن تأسيس اماراتهم السابقة الذكر كان على حساب أراضيهم فى الحدود الشمالية الشرقية والمناطق الساحلية [٥] فى وقت حرص فيه أمراء الطراز الاسلامى على التمسك بكل شبر حصلوا

---

(١) د . أحمد السيد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ٦٦ .
(٢) المرجع السابق ، ٦٧ .
(٣) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ٤٢ .
(٤) د . سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة ٢٧ .
(٥) د . محمد المعتصم سيد : دول اسلامية فى شرق افريقية ٣١ ، ٣٢ .

عليه [١] ، وأخيرا يجب أن لا ننسى أن عدم استجابة سلاطين مصر فى بعض الأوقات لرجاء ملوك الحبشة فى سبيل تعيين مطران جديد أو اعادة بناء الكنائس مثلا ، كان يؤدى الى انتقام الأحباش من مصر عن طريق مسلمى الطراز حيث يوقعون بهم اضطهادات شديدة [٢] ، وعلى الرغم من أن الهضبة الحبشية ذاتها كانت تتعرض دائما لمنافسات الأسرة الحاكمة على كرسى العرش ، كانت الامارات الاسلامية تلتقط فيها أنفاسها ، ولكن لا يلبث الأحباش حتى يكتموا تلك الأنفاس فى وقت تكون فيه الحبشة أحوج ما تكون لاصلاح الدمار بها ، والذى ينتج عادة من الصراعات الأهلية ، لهذا لم يكن من الغريب أن تتغلب الروح الصليبية فى نفوسهم وتجعل أنظارهم متجهة دائما الى دويلات الطراز الاسلامى .

ومع بداية النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، وحتى مطلع القرن السادس عشر الميلادى كانت تلك الامارات ما ان تفيق من ركودها حتى يحجلها الأحباش كما ذكرنا من قبل بضربة ترديها الى الحضيض ، حيث سار خلفاء زرء يعقوب من بعده على سياسته فى محاربة مسلمى الطراز ، وتميزت عهود كل من بئيدا مريام والكسندر وناوود ولبنا دنجل بأنها فترة تناول فيها الطوفان النصر والهزيمة حيث اعتاد كل منهما الاغارة على الآخر ، وحرق معالمه

---

(١) كان من جراء تلك الأحقاد الدفينة المتتابعة ان ازداد الأحباش بغضا على بغض للمسلمين ، وأخذوا ينشدون الأغانى الوطنية بوجوب الفتك بهم ومن تلك الأغانى (لقد ولدت هذه البقرة فى العام الماضى وثدياها فى هذه السنة لايزالا ممتلئان . فكيف يطيب لنا العيش اذا لم تذبح هذه البقرة .
— د . يوسف أحمد : الاسلام فى الحبشة ٤٨ .

(٢) د . سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة ٢٦ .

الدينية ، ففى عام ١٤٧١م قام بئيدا مريام (٨٧٢ — ٨٨٣ هـ ، ١٤٦٨ — ١٤٧٨ م) بالهجوم على زيلع فى عهد سلطانها لاداى عثمان Ladai Uthman حيث قضى على جيشها ، وأسر الكثير من أمراء زيلع [١] ، ولم يكن ذلك من الأمور التى يستسلم لها مسلمى الامارات اذ سرعان ما نهضوا مرة أخرى ، واشتبكوا مع القوات الحبشية عام ١٤٧٨ م ، وألحقوا بجيوش بئيدا مريام هزائم متلاحقة ومزقوا جيشه شر ممزق [٢] ، واتبع ابن بئيدا مريام وخليفته الكسندر (٨٨٣ — ٨٩٧ هـ ، ١٤٧٨ — ١٤٩٢ م) سياسة والده حيث داوم الهجوم على مملكة العادليين فى عصر سلطانها شمس الدين بن محمد ، وتناول الطرفان الانتصارات والهزائم حتى لقد دأب الكسندر فى كافة غاراته على تدمير المساجد والمنازل [٣] ، وهو الذى فى عصره نزل دى كوفلهام أرض الحبشة كما ذكرنا من قبل . وأصبحت تلك السياسة تجاه مسلمى الطراز نهجا يسير عليه الجميع فعندما تولى ناوود Naod (٨٩٩ — ٩١٤ هـ — ١٤٩٤ — ١٥٠٨ م) الحكم هاجم مملكة بالى الاسلامية وبالغ فى تدميرها ، حتى انه أجبر قائد جيشها على اعتناق المسيحية ، وكان من الطبيعى أن يحاول مسلمى المدن الأخرى صد ذلك الطوفان ومد يد العون الى جارتهم بالى ، حيث تمكن السلطان محمد

---

(1) Spencer Trimingham: Islam in Ethiopia 42, London 1976.

(٢) د . ابراهيم طرخان : الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة ٦٥ ، ٦٦ .
— يقال بأن بئيدا مريام أمر أن يدفن ووجهه جهة الأراضى العدلية التى قضى عشر سنوات وهو يحارب لاخضاعها .
— محمد عبد الله النقيرة : انتشار الاسلام فى شرق افريقية ومناهضة الغرب له ٤٥ .
— رسالة ماجستير لم تنشر ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥م .

(٣) محمدعبدالله النقيرة : انتشار الاسلام فى شرق افريقية ٤٥ .
— Trimingham: Islam in Ethiopia 82.

ملك عدل من الانتقام من داوود وتشتيت جيشه (١) ، ونستطيع أن نصف عصر لبنا دنجل بأنه من أشد حكام الحبشة تعصبا ضد الاسلام ، فى وقت كانت فيه الامارات الاسلامية ما تزال تلعق جراحها ، اضافة الى ذلك دخول البرتغاليين الى البحر الأحمر ، واحراقهم لزيلع عندما دخله البوكرك عام ١٥١٣ ، وأكمل لبنا دنجل تعصبه المسيحى بهجومه على مملكة عدل وقتله لأميرها وحرق مدنها ، وتخريب قلاعها ، حيث حصر المسلمين فى مكان ضيق من الوادى بين فيتجار وعدل ، وقتل منهم ما يقرب من ١٢٠٠٠ ألف مسلم بينما اعتصم الباقون بالجبال حيث قضى عليهم الجوع والعطش ، حدث ذلك بينما كان البرتغاليون يهاجمون زيلع وينسحبون منها بعد احراقها (٢) ، لهذا لم يكن من الغريب أن يقف مسلمو الحبشة موقفا سلبيا أمام مجهودات المماليك فى البحر الأحمر ، فقد كانوا فى حاجة لمن يعينهم على مدافعة هجمات الأحباش عن أراضيهم لا من يطلب معونتهم .

---

(١) محمد عبد الله النقيرة : انتشار الاسلام فى شرق افريقية ٢٣٤ .
— د . ابراهيم على طرخان : الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة ٦٦ .

(2) Ullendorff: The Ethiopians 85.

— د . عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ١٨٨ ، ١٨٩ .

الفصل الثالث

البرتغاليون وتجارة الهند

أ - سيطرة البرتغاليين على تجارة المحيط الهندى.
ب - خطة البرتغاليين الاقتصادية لإضعاف العالم الإسلامى.

وافق وصول البرتغاليين الى المحيط الهندى ، عدم وجود أساطيل حربية قوية سواء كانت اسلامية أو فارسية أو هندية فى ذلك الوقت ، فأدى غياب تلك القوة الى تسهيل الأمر للبرتغاليين فى السيطرة على المراكز التجارية الاستراتيجية فى المحيط الهندى ، الأمر الذى أدى الى عرقلة حركة التجارة العالمية هناك (١) ، وعلى الرغم من أن وصول البرتغاليين كان مفاجأة للجميع ، الا أن رؤية سفنهم المزودة بالمدفعية ، كانت مفاجأة غير منتظرة ولا عهد للبحار العربية الجنوبية بمثله ، والتى حملت أيضا الصليب للدلالة على نوعية الزائر الجديد (٢) .

وكما ذكرنا سابقا فقد صادف وصول البرتغاليين أيضا الى الشرق وجود مجتمعات عربية مستقرة فى شرق افريقية من سفالة الى مقديشو ، والتى وصلت الى درجة عظيمة من الثقافة والانتعاش (٣) ، لدرجة أن حضارات هذه المجتمعات كانت تفوق حضارة البرتغال ذاتها مع مطلع القرن العاشر الهجرى — السادس عشر الميلادى (٤) ، واشتهر من تلك الامارات باتى ، مالندى ، ممبسة ، كلوة اضافة الى بعض المراكز الصغرى فى زنجبار وجزيرة موزمبيق وسفالة (٥) ، على أنه يؤخذ أيضا على هذه السلطنات كما هو الحال

---

(1) Livermore: Portugal and Brazil 189.

(2) Livermore: Portugal and Brazil 186.

— ك. م. بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٢٩ ، ٣١ .

(٣) باذل دافدسن : أفريقيا تحت أضواء جديدة ٢٦٣ .
ترجمة جمال أحمد .

(٤) جيمس دفى : الاستعمار البرتغالى فى افريقية ٨٠ .
ترجمة الدسوقى المراكبى .

— د. جمال زكريا قاسم : استقرار العرب فى ساحل شرق افريقيا ٢٩١ .
حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس ، المجلد العاشر ، ١٩٦٧م .

(٥) جيمس دفى : الاستعمار البرتغالى فى افريقية ٧٩ ، ٨٠ .

فيما ذكرنا سابقا عن امارات الطراز الاسلامى ، أن امارات ساحل شرق افريقية ، لم تكن تربطها أى وحدة سياسية اضافة الى افتقارها الى التنظيمات العسكرية (١) وهذا بدوره ما أوجد صراع دائم بين الحكومة المركزية فى كلوة وبين حكام الموانىء الأخرى الذين حاولوا الاستقلال بموانيهم وانشاء امارات صغيرة على طول ساحل شرق افريقيا (٢) ، وما أن أشرف القرن السادس عشر الميلادى على الظهور ، حتى كانت كلوة تسيطر على موانىء الجنوب وتجارته بينما اجتاح العرب القسم الشمالى من الساحل (٣) ، وهذا بدوره ما هيأ الفرصة للبرتغاليين عند بداية عملياتهم الحربية ، من استغلال نقطة الضعف هذه لمد سيطرتهم على طول هذا الساحل . (٤)

أما جنوب الجزيرة العربية فنستطيع أن نشير الى أهم وحداته السياسية والممثلة فى الدولة الطاهرية (٨٥٩ — ٩٢٣ هـ ، ١٤٥٤ — ١٥١٧ م) ، فيما يعرف الآن باليمن الشمالى واليمن الجنوبى على أن وجود الأئمة الزيدية فى المناطق الجبلية الشمالية من اليمن الشمالى ، كان دائما يعيق بنى طاهر فى سبيل توحيد اليمن .

---

(١) د. جمال زكريا قاسم : استقرار العرب فى ساحل شرق افريقيا ٢٩١. — جيمس دفى : الاستعمار البرتغالى فى افريقية ٨٠ ، ٨١ .

(٢) د. صلاح العقاد ، د. جمال زكريا قاسم : زنجبار ٨ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .

(٣) د. جمال زكريا قاسم : استقرار العرب فى ساحل شرق افريقيا ٢٩٢ . — جيمس دفى : الاستعمار البرتغالى فى افريقية ٨١ .

(٤) جيمس دفى : الاستعمار البرتغالى فى افريقية ٨١ .

أما الخليج العربى فكما ذكرنا سابقا أيضا ، كانت هرمز صاحبة أقـــوى نفوذ فى المنطقة ، لهذا دانت لها قبائل السواحل الشمالية ، وسواحل عمـــان (مسقط ، كليهات) سياسيا ، أما فى فارس فقد بدأ الشاه اسماعيل الأول (١) فى توسيع ممتلكاته فى كثير من الأرجاء والاتجاهات مقتربا بذلك من الدولـــــة العثمانية (٢) ، وفى الهند قامت فى شمالها ووسطها عدة دول اسلامية قويـــة بجانب حكومة دلهى بالهندستان (٣) ، فكان فى كجرات دولة اسلامية قويـــة وكانت موانيها من المدن التجارية المهمة على سواحل الهند الغربية ، ومـــن أهمها ديو والتى كانت دائما محور صراع بين العرب والبرتغاليين (٤) ، كمـــا كان فى الدكن خمس ممالك اسلامية قامت على أنقاض الدولة البهمنية الاسلامية (٥) ،

---

(١) ولد الشاه اسماعيل يوم الثلاثاء ٢٥ رجب ٨٩٢ هـ / ١٤٨٧ م ، وتوج ملكا على فارس فى عام ٩٠٧ هـ ـ ١٥٠٢ م ، بعد سلسلة من الحروب الأهليـة ، وتوفى فى ٩٣٠ هـ ـ ١٥٢٤ م عن عمر يناهز السابعة والثلاثين عاما .

(2) Serjeant: The portuguese off the South Arabian Coast II.
- Livermore: Portugal and Brazil 186-187.

(٣) كانت سنة ٨١٦ هـ ـ ١٤١٤ م بداية الانهيار لهذه الدولة نتيجة تعرضهـا للغزو المغولى مما أدى الى انفصال كثير من الولايات عنها مثل مالـــــوه والكجرات .

(4) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 12.

تقع الكجرات الآن شمال ولاية بومباى من ولايات الهند وجنوبها يطل عـــلى بحر العرب .

(٥) تحتل اليوم اقليم بومباى وولاية حيدر أباد ، وهذه الممالك هى بـــــرار وبيجابور وأحمد نكر وغولكنده وبيرار ، وقد انشغلت فيما بينها بالنزاعـــات الداخلية اضافة الى مقاومتهم لأمراء فيجا يانكر الهنادكة فلم يكن لهم د ور فعال فى سبيل صد الزحف البرتغالى .

ـ د . أحمد محمود الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهنديـــة ج ٢ ٢١٩ ـ ٢٢٦ .
ـ عبد المنعم النمر : تاريخ الاسلام فى الهند ١٧٣ .

هذا عدا الممالك الاسلامية فى شرق الهند ، وكان يجاور الممالك الاسلامية فى الدكن بعض الممالك الهندوكية وأهمها فى الطرف الجنوبى مملكة فيجايانكر (١) التى جمعها مع البرتغاليين نزعة القتال ضد المسلمين ، فكان الاسلام هو العدو المشترك لكل من البرتغاليين والفيجايانكر الذين أبطنوا الحقد للمسلمين منذ سنوات طويلة ، وكانت فرصة سانحة بوصول البرتغاليين للتنفيس عن تلك الأحقاد (٢) ، وهذا ما سوف نشاهده عقب سقوط جوا بأيدى البرتغاليين عام ١٥١٠م فى الصفحات القادمة .

أما ساحل ملبار والذى يقع الى الجنوب من هذه المنطقة فيوجد به عدة راجات منفصلون عن الداخل ، وكان لهم ولاء اسمى للزامورين (راجا البحر) الذى كان يمثل أقوى سلطة سياسية فى ذلك الساحل ، وكان مقره فى قاليقوط (٣) .

ويجب أن نحدد هنا أن السيطرة البرتغالية كخطة عامة اقتضت أولا : اقامة قواعد فى المحيط الهندى اختلفت فيها آراء القادة ، هل تكون تلك القواعد بحرية لتعزيز الأساطيل المنتشرة على طول الخط التجارى من الهند الى لشبونة أم يلجئون الى قواعد برية معززة بحاميات عسكرية ، وسوف نرى فى

---

(١) كانت تلك المملكة تمتد من جنوب جوا حتى شمال كنانور .

(٢) ك.م. بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٣٤ .

— Oaten: European Travellers in India 55.

(3) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 12.

— تقع قاليقوط جنوب الهند فى ساحل ملبار على شاطئ بحر العرب .

فى الاستعراض تلك الخلافات وكيف سارت والى أى مدى انتهت ، ثانيـــا : سد مداخل الخليج العربى والبحر الأحمر عن طريق اقامة نقط ارتكاز فى تـــلك المداخل لمنع التجارة ، ومن ثم مهاجمة دول تلك البحار الداخلية ، ثالثـا: اقامة قواعد على سواحل افريقية الشرقية لتأمين ذلك الطريق التجارى الطويل الى لشبونة والذى لم يتم لهم الا بعد أن أغرقوا ذلك الشريط الطويل فـــى بحر من الدماء والدمـار.

وبوصول فاسكودى جاما الى قاليقوط فى رحلته الأولى فى مايو ١٤٩٨ م كانت أغراض البرتغال الصليبية قد ظهرت فى تصريحه حينما سأله جماعة مـــن التجار عن أسباب مجيئه ، فكان الجواب أن البحث عن المسيحيين والتوابـــل هو هدفنا أكثر من غزو أى مناطق جديدة (١) ، وباجتماع فاسكودى جامـــا مع الزامورين حاكم قاليقوط سلمه خطابات من الملك عما نويل بالعربيـــة والبرتغالية طالبا منه فى نفس الوقت قيام التبادل التجارى بينه وبين مـــلك البرتغال ، مع السماح بانزال أربعة أو خمسة من رجاله للاستقرار فى قاليقوط غير انه فشل فى تحقيق تلك المطالب (٢) ، ولما كانت أهداف رحلتـــه التجسس والاستكشاف فقد حرص دى جاما على العمل بالتجارة فقط باذن مـن الزامورين ، الا أن رفضه لدفع الجمارك وضع الزامورين أمام خطر سوف يهـل عليه مستقبلا . (٣)

---

(1) Rey: Portuguese Voyages 1498-1663 3.
- Liver-more: Portugal and Brazil 185-186.

(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 48.
- Rey: Portuguese Voyages 3.

(٣) ك . م. بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٣٨ .

كان لوجود العرب فى تلك المنطقة أثره الفعال فى نفسية دى جاما الذى ظن أن الأمور سوف تتم له دون أية متاعب ، واذ به يفاجأ بوجود العرب الذين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير فى بلاط الزامورين ، والذين لعبوا دورا فى سبيل تبديد أحلامه بانشاء مركز تجارى لبلاده فى قاليقوط(١) ، وكان دا جاما يعتقد اعتمادا على مرسوم البابا نيقولا الخامس (افتراضه أن سكان الهند من المسيحيين) أن التعامل مع الهند سوف يكون تعاملا مع المسيحيين ، لدرجة أنه حينما رأى أحد معابد الهندوك ظنه كنيسة مسيحية (٢) ، وتجنبا للاصطدام مع العرب اتجه فاسكودى جاما نحو كانانور وجوا ، وبعد جولة أمام هذه المدن وغيرها من مدن ساحل المليبار شحن سفنه بنماذج من السلع الشرقية ، ومن ثم رحل الى لشبونة حيث وصلها فى ٢٩ أغسطس ١٤٩٩ م . (٣)

كان لرحلة دى جاما الأولى أهمية قصوى فى البلاط البرتغالى الذى أخذ يناقش نتائجها من خلال تقارير دى جاما التى ظهر منها ما يلى : أولا — أن العرب الذين كانوا يسيطرون على الشواطئ التجارية قد تبرموا من ارسالية التبشير المسيحية التى وصلت مع فاسكودى جاما الى قاليقوط (٤) ، ثانيا —

---

(١) د . السيد رجب حراز : افريقية الشرقية والاستعمار الأوربى ١١ .
— د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٣٨ .

(٣) د . السيد رجب حراز : أفريقية الشرقية والاستعمار الأوربى ١٢ .
- Stephens, H. Morse: Portugal 191.

(٤) ك . ج . شينى : تاريخ العالم الغربى ١٧٩ .
ترجمة مجد الدين حفنى ناصف ، دار النهضة العربية ، القاهرة .

وضع فاسكودى جاما البلاط البرتغالى أمام نقطة مهمة وهى مسألة وجود العرب فى الهند ، لأنه لم تكن هناك أنباء عن وجود العرب ، ولما كان البرتغاليون قد نجحوا فى تأسيس مراكز لهم على ساحل افريقية الغربى بسهولة نظرا لعدم وجود العرب الذين التقوا بهم فيما بعد فى سواحل المحيط الهندى ، فقد أدرك عما نويل أن فرض السيطرة البرتغالية فى الهند يحتاج الى بذل مزيد من الجهد والتنسيق للمرحلة القادمة (١) ، خاصة وأنهم كانوا يعلمون علم اليقين بمدى شدة مراس العرب وبأسهم ، ولا ينسون أنهم ذاقوا الأمرين مدة طويلة من الزمان حتى تم اخراج العرب من شبه جزيرة أيبيريا (٢) ، ثالثا - انه من المستطاع القيام بتجارة وفيرة الربح فى الهند ، وبالتالى امكانية تأسيس مستعمرة برتغالية كبيرة فى الشرق ، رابعا - ان سفن العرب التجارية لا تستطيع مقاومة السفن البرتغالية الحديثة والمزودة بالمدفعية . (٣)

ولم تلبث نتائج رحلة فاسكودى جاما الأولى أن انعكست على الحملة الجديدة التى أعدتها البرتغال تحت قيادة الفاريز كابرال Alvarez Cabral ٩٠٦ هـ - ١٥٠٠ م ، وتمثلت تلك النتائج فيما حمله كابرال من مهام فى حملته هذه ، وهى ابراز سلطة ملك البرتغال على البحار الهندية ، ومن ثم التوجه رأسا الى قاليقوط ، ومطالبة الزامورين تحت التهديد بالحرب بالسماح للبرتغال بانشاء مركز تجارى ، وكذلك السماح

---

(١) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٣٨ .

(٢) محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية جـ ١ ٣٤ ، ٣٤١ .
لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٨ م .

(٣) عبد المنعم النمر : تاريخ الاسلام فى الهند ٢٣٥ . مكتبة دار العروبة الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م .

للمبشرين بالنزول لنشر المسيحية ، وأخيرا مطالبة الزامورين بطرد العرب فورا من قاليقوط [١] ، وتدعيما لتلك المطالب كان من الضرورى أن يخرج كابرال بحملة قوية فاقت حملة فاسكودى جاما بنسبة كبيرة ، حيث تكونت من ثلاثة عشر سفينة وأثنى عشر ألف مقاتل لتولى أمر من لم يقبلوا بالتبشير [٢] .

وفى يوليو ١٥٠٠ م وصل كابرال الى موزمبيق ، ومنها الى كلوه حيث حاول أن يعقد مع سلطانها ابراهيم معاهدة تحالف ، ومرة أخرى يقف العرب فى سبيل مشاريع البرتغال عندما أوضحوا لسلطان كلوة نوايا البرتغاليين الاستعمارية [٣] ، وازاء معارضته ارتحل كابرال الى مالندى التى زودتهم بما يحتاجون اليه من مؤن نظرا للعداوة بين مالندى وكلوة ،

---

(١) سونيا ٠ ى ٠ هاو : فى طلب التوابل ٢٢١٠
— ك ٠ م٠ بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٣٨ ، ٣٩ ٠
— الشاطر بصيلى عبدالجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط ٤٤٤ ٠

(2) Alan Villiers: The indian ocean 132.

(٣) د ٠ السيد رجب حراز : افريقيا الشرقية والاستعمار الأوربى ١٣ ٠
— قبل أن يرحل كبرال عن كلوا استطاع اقناع أهالى المدينة بأن يسمحوا لأحد رجاله Antonio Fernandez أنطونيو فرنانديز بالهبوط الى الساحل بسبب مرضه ، ولم يكن مريضا ، وانما أنزله كبرال لكى يكون عينا له على المدينة ويختبر دفاعها ٠

ترمنجهام : الاسلام فى شرق افريقية ١٣ ، ١٤ ٠

ترجمة وتعليق : محمد عاطف النواوى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٧٣م٠

وهى نقطة الضعف التى استغلها البرتغاليون فيما بعد ، ومن ما الذى اتجه كبرال الى قاليقوط حيث أرسل اليه حاكمها رسالة مرحبا به ، غير أن كبرال اشترط الحصول على بعض الرهائن لمقابلة الزامورين (١) ، ويبدو أن عدم تمكن كبرال من تنفيذ بعض الأوامر السابقة التى خرج بها من البرتغال ترجع الى القوة التى وصل بها قاليقوط وهى ست سفن عن تلك القوة التى خرج بها من لشبونة (٢) ، وعلى الرغم من ذلك فقد تمكن كبرال بعد موافقة الزامورين من اقامة مركز تجارى فى قاليقوط (٣) ، غير أن كبرال أخذ يتحرش بالسفن الاسلامية المقلعة من قاليقوط ، وصادف أن أبحرت احدى السفن الاسلامية الكبرى من قاليقوط ، وهى محملة بالتوابل عقب أيام من وصوله فأسرها واستولى على حمولتها (٤) ، وما أن وصل الخبر الى المسلمين فى قاليقوط حتى ثارت حميتهم لذلك العمل فهاجموا الوكالة البرتغالية التجارية من الميناء وقتلوا معظم العاملين بها وعددهم خمسون برتغاليا (٥) ، وعندما لم يجد كبرال الاستقبال المناسب له ضرب المدينة

---

(١) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) المرجع السابق ، ٣٨ .

ـ تعرض الأسطول البرتغالى قبيل عبوره رأس الرجاء الصالح على السواحل الغربية لافريقيا لعواصف هوجاء دمرت بعض القطع ، واضطرت بعض القطع الى العودة الى لشبونة للاصلاح ، بينما ضلت قطع أخرى الطريق واكتشفت البرازيل بطريق الصدفة .

ـ د . سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ١٢٨ .

ـ سونيا ى . هاو : فى طلب التوابل ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٣) د . السيد رجب حراز : عصر النهضة فى أوربا ٣٢٠ .

(4) Alan Villiers: The indian ocean 134.

(5) Edgar Prestage: The Portuguese Pioneers 292.

- Alan Villiers: The indian ocean 134.

بمدافعه يومين كاملين ، اضافة الى ضرب السفن المصرية حتى أغرقها بمن فيها من نساء وأطفال (١) ، ومن ثم أخذ طريقه نحو كوشين Cochin على ساحل الملبار ، وفى الطريق اعترض كبرال سبيل عشر من أكبر السفن الاسلامية هناك فقام بنهبها واحراقها ومن ثم قتل كافة بحارتها (٢) ، ومن ثم أكمل طريقه نحو كوشين وكانانور .

وتميزت هذه الفترة والتى أعقبت فشل كبرال فى قاليقوط بعاملين مهمين وهما أولا : تمكن كبرال من استغلال الخلاف القائم بين كل من كوشين وكنانور وبين قاليقوط فى سبيل اقامة أول مركز تجارى لهم على ساحل الملبار (٣) ، حيث شرع البرتغاليون فى تحميل سفنهم بالبضائع الهندية والرحيل بها الى لشبونة ، وهذا بالتالى ما أدى الى قيامهم بارسال مندوبيهم الى الأقاليم الواقعة وراء ساحل الملبار لاقامة العلاقات التجارية معها (٤) ، أما العامل الثانى فهو اعتراض كبرال لسفن قاليقوط وسلبها ، ومن ثم احراقها ، فكان ذلك أول اشارة تهديد للسفن الاسلامية المتجولة بين الموانىء الهندية . (٥)

---

(١) د . سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ٢٨ .

— Diffie, Winius: Foundations of the Portuguese Empire 220.

(2) Alan Villiers: The indian ocean 134.

- Edgar Prestage: The Portuguese Pioneers 292.

(3) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 12.

- Oaten: Travel and Travellers in India 55.

— كانت قاليقوط تفرض نوعا من السيادة الاسمية على كل من كوشن وكنانور ، بحيث كانت تأخذ منهما جزية سنوية ، كما كانت تفرض عليهما استعمال عملتها الخاصة ، وذلك نتيجة أوضاع تاريخية قديمة .

(4) Stephens: Portugal 139.

(5) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 61-62.

ومع وصول فاسكودى جاما بحملته الثانية الى الشرق ٩٠٨ هـ – ١٥٠٢م والتى تعرفت بها الهند على الهمجية فى تفسيرها لعصر النهضة الأوربى بـدا للعيان ما تحتويه خططهم والتى فرغت حال وصولهم كالتالى ، أولا : تنفيذ الخطة الاستراتيجية ضد العالم الاسلامى عن طريق التبشير بالنصرانيـة واحتكار تجارة الأفاويـة عن طريق العنف ، بحيث أصبحت هذه الأهـداف الروافد التى تستقى منها السياسة البرتغالية عنصر حيويتها فى الشـرق[١] ، ثانيا : اتجاه فاسكودى جاما فى هذه الفترة الى ارغام الجميع على احـترام اللقب الجديد لملك البرتغال " سيد الملاحة والفتح والتجارة ببلاد العـرب وبلاد الحبشة وفارس والهند " والمدعم بقرار من البابا الكسندر الخامس Alexander VI [٢] ، بواسطة قطع الطريق دون أى تحذيـر مسبق لأى سفينة تعثر عليها البحرية البرتغالية ، وتدميرها بمن فيهـا ، وخاصة السفن الغير مسلحة والتى تحمل حجاجا من والى مكة [٣].

---

(١) ك. م. بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٣٠ ، ٣١ .

(2) H. Morse, Stephen: Portugal 191.

(٣) عندما خرج فاسكودى جاما فى رحلته هذه ١٥٠٢ م صادف فى طريقـه سفينة اسلامية كانت تابعة للسلطان الغورى ، وتحمل حجاجـا وبضائع ، وكان عدد الحجاج ٢٦٠ حاجا ، فقام بحارته بتفريـغ السفينة من البضائع ومن ثم منعوا خروج أى عربى منها باستثنـاء عشرون طفلا أخرجوهم للتعميـر ، أما الآخرون فقد أضرم بهـم وسفينتهم النيران حتى هوت بهم الى الأعماق .

- Sousa: The Portuguese Asia Tome I 65.

وفي هذه الفترة لم تكن خطوات السيطرة البرتغالية والتي ذكرناها آنفا قد نفذت بعد باستثناء بعض المواقع التجارية في كوشن وكانانور ، غير أن وصول فاسكودي جاما بحملته الثانية كان بداية الطريق نحو تحقيق تلك السيطرة فمع عبوره لرأس الرجاء الصالح ، ووصوله الى الساحل الشرقي الافريقي كانت بوادر تحقيق ثالث أهداف السيطرة قد بدا واضحا للعيان بحصاره لمدينة كلوة ، وتحت التهديد بحرق المدينة أجبر سلطانها على الاعتراف بخضوعه لملك البرتغال مع دفعه جزية مقدارها ١٥٠٠ مثقال من الذهب (١) ، ولما كان تحقيق الهدف الثاني الخاص بغلق منافذ الخليج العربي والبحر الأحمر يستلزم الحصول على مواقع مناسبة لمداخل تلك البحار في وقت لم يتجول فيه البرتغاليون داخل تلك البحار كما فعلوا في السواحل الهندية ، فقد اكتفي فاسكودي جاما بترتيب خمس سفن حربية عند مدخل البحر الأحمر بقيادة فينست سودر Vincent Sodre لمهاجمة السفن القادمة من كمبايا وقاليقوط في عرض البحر وكذلك السفن الخارجة من البحر الأحمر . (٢)

والغريب أن بعض المؤرخين فسروا تلك الانتصارات والأمجاد على أنها تكمن في التفوق الأخلاقي للرجل الأبيض على الرجل الأسمر والثقة بالنفس (٣) ، وغاب عن بالهم تعذيب فاسكودي جاما لصيادي السمك وهم فئة لا تعرف الدفاع عن نفسها ، وتقطيع أيدي الرجال والنساء وأرجلهم من خلاف على الساحل العربي وباشراف البوكرك (٤) ، وأخيرا فقد

---

(1) R. Coupland: East Africa and its invaders, 44.

(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 64.

(3) Livermore: Portugal and Brazil 165.

(٤) باذل دافدسن: أفريقيا تحت أضواء جديدة ٢٦٦ ، ترجمة جمال أحمد .

نسوا كيفية تفسير قيام البرتغاليين بذبح الأسرى وتقطيع أيديهم وأنوفهم وآذانهم وارسالها الى ذويهم تفاخرا بالنصر (١) ، وبعد أن ترك فاسكودى جاما فنست سودر عند مدخل البحر الأحمر اتجه الى كانانور وكوشن ، واجتمع بحكامها لتنظيم أعمالهم التجارية فيها ، ومن هناك اتجه الى قاليقوط التى باشر بتخريبها بمدفعية أسطوله انتقاما لمقتل وكلاء كبرال التجاريين فيها كما ذكرنا من قبل ، ومن ثم أخذ فى اعتراض السفن الاسلامية المتجولة أمام ساحل المليبار (٢) ، وفى تلك الأثناء كان الزامورين يسعى جاهدا للخلاص من ذلك الخطر فوقعت معركة بحرية أمام سواحل كوشين لم تأت بنتيجة تذكر للزامورين بسبب ضعف أسلحة سفنه وعدم تهيؤها للحروب بعيدا عن السواحل . (٣)

ويلاحظ فى هذه الفترة مدى اهتمام البرتغاليين بتعزيز أساطيلهم فى الشرق ، بحيث كانت الوحدات البحرية تخرج تباعا دون انتظار مما جعل القادة يطمئنون فى مواقعهم لأنهم على علم بأن الامدادات لم تنقطع عنهم وهذا ما كان له أثره الفعال فيما بعد .

وابتداء من ٩٠٩ هـ - ١٥٠٣ م شهدت بحار العرب الجنوبية شخصية لا تختلف فى مضمونها عن فاسكودى جاما وهو الفونسو البوكرك Alfonso Albur querque والذى أبحر من لشبونة لقيادة مجموعة

---

(1) Miles: Countries and Tribes of Persien Gulf 141.
(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 65.
- Edgar Prestage: The Portuguese Pioneers 294.

- د . السيد رجب حراز : افريقية الشرقية والاستعمار الأوربى ١٤ .
(٣) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٤٢ .

مؤلفة من ثلاثة سفن ضمن أسطول كبير ، حيث عهد اليه بمهمة حماية احدى القلاع الحربية فى كوشين بالهند [١] ، وأهمية البوكرك بالنسبة للبرتغال فى صراعها مع العالم الاسلامى لا تأتى فى هذه المرحلة ، وان كانت هذه هى التمهيد ، وانما تكمن فى الفترة الثانية ٩١٥ هـ ١٥٠٩ م حينما تم تعيينه نائبا للملك فى الهند ، فهو اضافة الى قيامه بعمله كقائد فى قلعته فقد صب جل اهتمامه فى هذه الفترة الأولى على جمع المعلومات عن أوضاع المنافذ العربية لتجارة الشرق ، واعداد الخطط وتصحيح الأخطاء ، وعندما عاد الى بلاده ١٥٢٤ م قدم الى مليكه عما نويل تقارير تشمل خططا جديدة للغزو والاستيلاء على مناطق أخرى ، وفى التجارة والتفوق فى الأسطول البحرى [٢] ، لهذا لم يكن من الغريب أن يكون البوكرك مؤسس صرح الامبراطورية البرتغالية فى الشرق عقب توليه منصب نائب الملك فى الهند [٣] ، ولم تختلف أهداف هذه الحملة عما سبقها من حملات حيث

---

(1) Stephens: Portugal 193.

(2) Miles: Countries and Tribes of Persian Gulf 141.

(٣) كان البوكرك أحد ثلاث دعائم حققت للبرتغال تلك السيطرة وهم باشيكو Pacheco الذى ساهم فى خلق قوة بحرية منظمة ودالميدا D'Almida الذى نال من سمعة المسلمين وأخيرا البوكرك الذى يظهر فضله فى احتلال أهم المواقع التى حققت للبرتغاليين السيطرة وهى جوا وملقا وهرمز اضافة الى هذا فقد كان للبرتغاليين ضباط امتازوا بالقسوة والطمع ، والحكمة والتعقل فى نظرهم كلمات جوفاء ، أعمالهم حب الربح ، بعيدون عن الشعور بالعدالة .

— د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٧٩ .

— د . حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ٤٧٦ .

عهد الى قائد آخر ضمن الحملة بالحلول محل فنست سودر السابق ذكره ، لمهاجمة الملاحة العربية فى مدخل البحر الأحمر (١) ، بينما قام آخرون بمهاجمة سواحل افريقية الشرقية حيث قام روى لورنزو Ruy Lorenco بمهاجمة زنزبار ZinZibar وبرافا Brava وأجبرهما على دفع جزية سنوية لملك البرتغال بينما واصل أنطونيو دى سلادانا Antony de Saldanna مهاجمة السفن العربية المحملة بالبضائع والحجاج بين سواحل الجزيرة العربية ورأس جوردفوى Cape Cuardafu (٢) .

أما فى الهند فقد واصل البرتغاليون سياستهم نحو تحصين مراكزهم التجارية على ساحل ملبار مركزين فى الوقت نفسه على محاولة منع كافة السفن الاسلامية من محاولة الوصول الى قاليقوط وتفريغ بضائعها بها (٣) ، وقد حاول الزامورين حاكم قاليقوط توحيد راجات ساحل الملبار تحت قيادته كمحاولة لمقاومة النفوذ البرتغالى غير أن محاولاته تلك باءت بالفشل ، تعرض بعدها لمحاولة برتغالية للاستحواذ على مدينته . غير أن مقاومة الزامورين حالت دون ذلك ، حيث انسحب البرتغاليين معوضين ذلك الفشل باحراق أجزاء من المدينة (٤) ، وحاول الزامورين مرة أخرى استعادة النفوذ التجارى فى المياه الهندية ، غير أن لوبو سواريز Lopo Sories والقادم لتوه من لشبونة تمكن من تدمير أساطيل قاليقوط الحربية فى الميناء ، وما لبث بعد ذلك أن نشر نشاطه على كافة الموانىء الهندية مدمرا ومخربا (٥) .

---

(1) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 72.
(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 74-75.
(3) Stephens: Portugal 193-194.
(4) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 75-76.
(5) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 80.

— ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٤٢ .

وبحلول الأشهر الأولى من ١٥٠٥ م كانت البرتغال قد بدأت تتقاذفها الآراء بخصوص سياستها المقبلة فى الشرق ، والتى بدأت بوصول فرانسسكوا الميدا Fransisco Almida الذى عين كنائب للملك ووكيله فى الشرق ، ومثل هذه الآراء كل من فرانسسكوا الميدا والبوكرك ، فالأول فسر القوة البحرية بأنها المفتاح الحقيقى للموقف ، فاذا احتفظ البرتغاليون بقوة بحرية كبيرة فى المحيط الهندى الى جانب الاحتفاظ بعدد من الحاميات فى البر لتموين وحماية الأسطول فان ذلك أفيد من الاحتفاظ بمناطق كثيرة فى البر دون أسطول قوى (١) ، لأن الاحتفاظ بمراكز برية كبيرة دون أسطول قوى يحتاج الى مجهودات كبيرة وقوات ضخمة ، ثم أنه يؤدى الى توزيع الجهد ويجعل من الصعب الدفاع عن المراكز والحصون البرتغالية اذا كثر عددها (٢) ، أما البوكرك فكان من أنصار الاحتفاظ والتوسع فى المراكز البرية وكان مقتنعا بأن انشاء الحصون فى المواقع الاستراتيجية الهامة شىء ضرورى للمركز التجارى ، وفى نفس الوقت تكون بمثابة قواعد بحرية للانطلاق منها ، وكان يرى بأن الاستيلاء على ملقا وهرمز وعدن ستكون بمثابة المراكز الأساسية للسيطرة البرتغالية التى وصفها بأنها مفاتيح العالم الشرقى وثروته (٣) ، وقد رفض الرأى الأول .(٤)

---

(1) Livermore: Portugal and Brazil 209.
- Coupland: East Africa and Its Invaders 43.

(2) Coupland: East Africa and Its Invaders 43.
— د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٧٦ .
— د . جلال يحى : الاستعمار والاستغلال والتخلف ٢٥٦ .

(3) Coupland: East Africa and its Invaders 43.

(4) Livermore: Portugal and Brazil 210.
— سونيا . ى . هاو : فى طلب التوابل ٢١٥ .

أما الأهداف التى كان على هذه الحملة بقيادة فرانسسكوا الميدا تحقيقها فتظهر واضحة من خلال ضخامة الحملة التى خرجت من لشبونة وتألفت من عشرون سفينة و ١٥٠٠ جندى حيث كلفت بمحاولة تدمير القوى البحرية فى المنطقة بحيث لا تشكل أى خطر على المحطات أو المراكز المزمع انشاؤها ، كذلك بناء مجموعة من القواعد العسكرية التجارية وعددها ست قواعد بحيث تشكل خطا قويا ابتداء من شرق افريقية حتى الهند (١) ، وللحيلولة دون نشاط الأسطول المملوكى المصرى حيال خروجه من البحر الأحمر نصت الأوامر على تدمير كافة الموانىء التى قد يفكر الأسطول المصرى فى الالتجاء اليها (٢) ، فتم مهاجمة سفالة مصدر الذهب والاستيلاء عليها ، ونظرا لكونها غنية بالذهب فقد كلفت الحملة ببناء قلعة بها حرصا على وصول الذهب الى البرتغال (٣) ، أما كلوة والتى كان ملكها قد وعد بدفع الجزية منذ سنتين لدى جاما ولم يدفعها ، فقد اقتحمها البرتغاليون بعد فرار حاكمها وأقاموا بها مذبحة كبرى بين سكانها ، وهدموا كافة مساجدها وأخيرا أقاموا على الساحل بالقرب من المدينة قلعة كبيرة (٤) ، وبعد ذلك هاجم البرتغاليون ممباسا التى رفضت الخضوع لهم ودار قتال عنيف ومتوحش فى الشوارع ، وفى نهاية ذلك طرد السكان خارج المدينة

---

(1) Coupland: East Africa and Its Invaders 44.
- Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 14.

(٢) د . محمود متولى ، د . رأفت الشيخ : افريقيا فى العلاقات الدولية ٥٠ ، ٥١ .

(3) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 103.
- Coupland: East Africa and its invaders 44.

(4) Ingrams, W. H.: Zinzibar Its History and its people.
- محمود شاكر : الكشوف الجغرافية ٢٧ .

بعد خسارة فادحة فى الأرواح والمعدات ، وغنموا كميات هائلة من الذهب والفضة والعاج ، وكانت هذه الغنائم من الكثرة بحيث أنهم تركوا بعضها لعدم وجود فراغ لها فى سفنهم ، ثم اختتموا تلك المأساة باطلاق النار على ثمانمائة سجين ، ومن ثم أحرقوا المدينة . (١)

كذلك أسند الى الحملة محاولة البحث عن موقع مناسب أمام البحر الأحمر لبناء حصن لمنع السفن الاسلامية من الدخول اليه ، مع ارسال وحدات بحرية الى مدخل الخليج العربى وسواحل الهند لاعتراض السفن الاسلامية ، كذلك العمل على أن يفقد الهنود أملهم فى المتاجرة مع غير البرتغال ، وأخيرا عدم منح أى فرصة للمسلمين للعيش فى هذه المناطق بسلام ، الا اذا قبلوا دفع أتاوة للبرتغال ، مع عدم التعرض للسفن البرتغالية بدخول الموانىء لأخذ حاجاتها من بضائع وغيره . (٢)

من هذا نرى أن هذه الحملة تمكنت من تحقيق جزء كبير من الهدف الثالث حين مرورها بساحل شرق افريقية ، فهى وان حققت أهدافها

---

(1) Coupland: East Africa and Its Invaders 45.

(٢) الشاطر بصيلى عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط ٤٤٥ .

— يذكر لوريمير Lorimer فى كتابه Gazetter of the persian Gulf المجلد الأول IA ص ٣ ان الملك عما نويل كلف فرانسسكوا الميدا فى حملته ١٥٠٥م بالاستيلاء على عدن وهرمز وملقا حتى تكون سلسلة مترابطة لتحطيم التجارة العربية. غير أن موقف الميدا من البوكرك عند حصاره هرمز ١٥٠٧م وسياسته تجاه عدن كما سنذكر فيما بعد تخالف ما ذكره لوريمير .

العسكرية فقد تمكنت كذلك من تحقيق أهداف اقتصادية لأن الأجزاء الداخلية من الساحل فقدت المصدر الرئيسى — المدن الساحلية — الذى كان يقوم بدور فعال فى سبيل توزيع سلعه فى موانئ الخليج العربى وسواحل الهند [١] ، أما بخصوص سد منافذ البحر الأحمر والخليج العربى ، فاننا سنلاحظ أن تلك الأهداف قد وقعت على عاتق حملة أخرى ستأتى عقب حملة دالميدا بسنة واحدة

وفى هذه الفترة وصلت استغاثات الزامورين حاكم قاليقوط وأمراء الكجرات الى السلطان الغورى على اعتباره صاحب أقوى دولة اسلامية فى المشرق ، وعلى الرغم من الأوضاع السيئة التى كانت تمر بها مصر المملوكية فقد خرجت أول حملة مملوكية نحو الهند عام ١٥٠٥ م بقيادة الأمير حسين الكردى ، والتى تألفت من ثلاثة عشر سفينة ، وقد اتخذ حسين الكردى الكثير من الاحتياطات فى طريقه الى الهند خوفا من أى غزو برتغالى حيث قام بتحصين جدة وتشييد الأسوار حولها كما ذكرنا من قبل .

وقبيل حدوث أى صدام مصرى برتغالى تحركت حملة أخرى فى عام ١٥٠٦ م من لشبونة بقيادة كل من تريستاو دى كونها Tristao de Cunha وألفونسو دى البوكرك ، وكان خروجها تأكيدا من البرتغال بضرورة محاصرة السواحل العربية ، واغلاق البحر الأحمر اغلاقا مباشرا عن طريق احدى الجزر الموجودة بالداخل ، ومنع الدخول والخروج فى البحر

---

(١) بازل دافدسن : افريقيا تحت أضواء جديدة ٤١٦ .

ذاته ، وتجلت مهمة الحملة فى ضرورة الاستيلاء على جزيرة سقطرة [١] ، من أجل بناء قلعة تكون مستودعا ومأوى للأسطول لمواجهة الأسطول المصرى حال خروجه من البحر الأحمر ، كذلك فهى قاعدة مناسبة لشن الغزوات داخل البحر الأحمر ، ولاعتراض قوافل التوابل المرسلة الى جدة والسويس ، وأخيرا تزويد السفن بحاجتها من الماء [٢].

وفى منتصف ١٥٠٧م ضرب داكنها حصاره على سوكو Soko ميناء سقطرة [٣] ، ووجه إنذاره الى حاكمها المهرى السلطان عامر بن طوعرى بن عفرير بالاستسلام الذى رفضه بشدة ، فشن البرتغاليون هجومهم وقد دافع المهرة [٤] دفاع الأبطال عن قلعتهم ، ولكن الأسلحة الحديثة كانت أقوى من شجاعتهم فاستشهد السلطان ومعه مائتين وسبعة عشرة من رجاله المهرة [٥] ، وبعد ذلك قام البرتغاليون باصلاح القلعة حيث

---

(١) تبعد الجزيرة عن ساحل شبه الجزيرة العربية بنحو خمسين فرسخا ، وعن رأس جوردفوى بثلاثين فرسخا ، وكان من المعتقد فى أوربا بأن سكان سقطرة من المسيحيين ، وسوف يساعدونهم لنزع التجارة من أيدى المسلمين ، وقد عثر على تلك الجزيرة أحد قادة الحملة الجديدة ويدعى جيمس فيرنانديز James Fernandez ، وهى تتبع اليوم لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .

(2) J.H. Parry: Europe and a wider world 41.

(3) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 118.

(٤) كان المهرة قد احتلوا جزيرة سقطرة عام ٨٩٣ هـ — ١٤٨٨ م.

(٥) باعلوى : التاريخ الأكمل (مخطوطة) ورقة ٨١ .

- Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 43.

أطلقوا عليها اسم القديس Michael وحولوا جامعها الى كنيسة ، وعين أفونسودى نورونها Affonso de Noronha قائدا لها(١) وبالاستيلاء على سقطرة كان البرتغاليون قد عملوا على تحقيق أحد أجزاء الهدف الثاني من سياستهم الاستعمارية ، غير أن الأحداث كما سنراها فيما بعد أثبتت لهم عدم جدوى تلك القاعدة بسبب فقرها من الموارد الطبيعية وعدم خضوع الأهالى لنفوذهم (٢) ، ومن ثم توجه داكنها الى الهند ، أما البوكرك فقد يمم شطرا تجاه السواحل العربية لتنفيذ سياسة بلاده ضد التجارة العربية ، والتى تدور حول سد مدخل البحر الأحمر ، واعتراض السفن التجارية الاسلامية والاستيلاء على عدن (٣) ، غير أن البوكرك أدرك أن الأسطول الصغير الذى خصصه له داكنها أضعف من أن يستولى به على عدن ، وفى الطريق نحو السواحل العربية نصب البوكرك أمام عينيه ضرورة مهاجمة كيلهات ومسقط (٤) ، وهما المنطقتان اللتان تشكلان الى جانب هرمز الأسواق الرئيسية للخليج العربى ، والمخازن الأساسية له حيث تتركز التجارة الشرقية هناك قبل شحنها الى شط العرب (٥) .

---

(1) Miles: Countries and Tribes of Persian Gulf 142.
- Sousa: The Portuguese Asia Tome I 118-119.

(٢) ترك البرتغاليون الجزيرة نهائيا فى ٩١٧ هـ — مايو ١٥١١م .

(3) Miles: Countries and Tribes of Persian Gulf 142.

(٤) كانت مسقط الميناء الرئيسى لساحل عمان ، واشتهرت بتصدير الجياد والتمور .

(5) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 126.
- Miles: Countries and Tribes of Persian Gulf 143.

بدأ البوكرك حملته بالطواف فى البحر للتصدى للسفن العربية القادمة من البحر الأحمر بالقرب من جزر كوريا موريا ، ثم يمم شطرا تجاه الشمال الشرقى حيث وصل الى سواحل عمان (١)، وهناك صادف حوالى ثلاثين الى أربعين سفينة راسية عند خور حجاره فدمرها ، وفى اليوم التالى مر البوكرك من أمام خور جيراما فدمر بعض سفنها (٢)، وكان البوكرك يقصد بهذه الأعمال من مهاجمة المدن الصغيرة والغير مهمة نشر الفزع بين صفوف سكان الخليج العربى وجنوب الجزيرة العربية ، بحيث يقبل سكان بعض المدن التى يرغب البوكرك فى احتلالها قبول تبعيتهم لملك البرتغال ، فى وقت كان يشعر فيه بنفاذ مؤنه (٣)، ومن خور جيراما واصل البوكرك طريقه نحو كيلهات وكوريات حيث ألحق بها مذابحه الشهيرة بسكانها ، أما الأسرى من النساء والأطفال والشيوخ فكان نصيبهم التمثيل بهم ، أما مسقط والتى كانت من أهم الأهداف التى زحف من أجلها ، فقد وصلها بعد أيام عديدة من غارته على كيلهات وكوريات ، ودافع أهالى مسقط عن مدينتهم دفاعا باسلا ، ولكن كثافة مدفعية الأسطول أبطلت تلك المقاومة حيث نزلها وذبح من بقى من سكانها (٤)، وتمكن بذلك من اخضاعها للنفوذ البرتغالى حيث أجبر الأهالى على تحويل الضريبة السنوية التى كانوا يدفعونها سنويا لهرمز الى الخزينة البرتغالية (٥)، وأراد البوكرك الاتجاه الى

---

(١) كانت عمان فى تلك الأثناء بيد الامام محمد بن اسماعيل الاسماعيلى الذى تولى الحكم ٩٠٦ هـ — ١٥٠٠ م وكانت سلطته داخلية فقط .

(2) Miles: Countries and Tribes of Persian Gulf 143.

(3) Miles: Countries and Tribes of Persian Gulf 144.

(٤) قدرى القلعجى : الخليج العربى ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

(٥) د . عبدالعزيز سليمان نوار : الشعوب الاسلامية ١٣٢ .

هرمز احدى الأهداف الهامة فى خطة السيطرة البرتغالية ، ولما كـــــان يعانى من نقص فى المؤن كما ذكرنا من قبل ، فقد عاد مرة أخرى الـــــى سقطرى حيث تمون منها ، وقام بحملة ضد السفن العربية فى منطقـــة رأس جرادفوى ، ولكنه لم يأت بأى فائدة من ذلك ، حيث توجه الى جزيـــرة عبد الكوريا Abdel Kuria بالقرب من سقطرة لاتخاذها كقاعـدة (١) ، ولكن عدم توفر أى شىء من الموارد جعله يتوجه الى سقطرى للمرة الثالثة ، وبعد أن أخذت حملته بعضا من الراحة اتجه مرة أخرى الى رأس جردفوى حيث تجول فيما بين المنطقة السابقة وباب المندب ، وهناك لم يجـــــد سوى بعض مواقع عديمة الفائدة ، فعاد الى سقطرة التى وجدها تعانى مـن المجاعة فأرسل سفينة الى مالندى أغارت على السفن الاسلامية هنـــــاك وسلبتها (٢).

ولما كان الاستيلاء على عدن من مهام حملة البوكرك هذه ، لم يستطـع البوكرك القيام بها بسبب سوء الأحوال الجوية اضافة الى حدوث تغـــــير جذرى فى خطة السيطرة عقب وصول فرانسسكوا لميدا عام ١٥٠٥ م الـــى الهند ، وتوليه مهام نائب الملك هناك ، فكما ذكرنا سابقا كان الميـــدا من أنصار سياسة الاعتماد على القوة البحرية الى جانب الاحتفاظ بعدد مـن الحاميات فى البر ، لهذا نجده عندما وصل الى منصب القيادة فى الهنـد لم يضع فكرة الاستيلاء على عدن ضمن خططه ، لأن كان يرى أن وجـــود سفـالة القريبة من البحر الأحمر كفيل بأن تقوم بمهمة عدن (٣) ، وكـــان

---

(1) Playfair: A History of Arabia Felix 98.

(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 140.
- Miles: Countries and Tribes of Persian Gulf 151.

(3) Bailey, Winius: Foundations of the Portuguese Empire 263.

يرى عوضاً عن الاستيلاء عليها ضرورة شن غارات تخريبية عليها لسلبهـــــا لأن ذلك معناه عدم وصول أية توابل الى أراضى مصر المملوكية (١) ، وأمام هذه التطورات رحل البوكرك الى هرمز (٢) ، حيث ضرب عليها حصـــارا بحريا شديدا لم يستطع الهرامزة تحمله فعقد الصلح بين الطرفين (٣) ، تعهد بمقتضاه الهرامزة بالخضوع للبرتغاليين ، مع دفع الجزية السنوية ، واعفـاء البضائع البرتغالية من الضرائب ، ومن ثم اتجه بعد ذلك الى الهند (٤).

وعودة مرة أخرى الى الهند فاننا نجد أن الأمير حسين الكردى حينما وصل الهند اتخذ من جزيرة ديو Diu قاعدة له بعدما انضم اليـــــه أميرها مالك آياس بأسطوله كما ذكرنا من قبل ، وفى شيول وقعت أول معركة بحرية مصرية بر تغالية ، حيث قاد الأسطول البرتغالى لورنزو دا الميـــدا ابن نائب الملك فى الهند ، وانتهت المعركة بانتصار الأسطول المصرى .

كانت تلك المعركة بمثابة ناقوس الخطر للبرتغاليين ، فى وقت كانـــوا

---

(1) Bailey & Winius: Foundations of the Portuguese Empire 263.

(٢) كان يحكم هرمز فى مطلع القرن السادس عشر الميلادى الملك سيف الدين والذى لم يكن عمره يزيد عن الثانية عشر ، فتولى زمام الأمور عمه خوجـــة عطار ، الذى استطاع أن يعطى هرمز استقلالا ذاتيا تدفع من خلالــه هرمز الجزية لايران .

(٣) د. بديع جمعه ، د. أحمد الخولى : تاريخ الصفويين وحضارتهـم ، جـ ١ ٩٥ ، دار الرائد العربى ، الطبعة الأولـى ، القاهرة ، ١٩٧٦م.

(٤) د. عبد العزيز نوار : تاريخ الشعوب الاسلامية ١٣٢ .
— قدرى القلعجى : الخليج العربى ٣٦٥ .
— د. بديع جمعه ، د. أحمد الخولى : تاريخ الصفويين وحضارتهـم جـ ١ ٩٥ ، ٩٦ .

يسعون فيه نحو تثبيت أقدامهم بالهند ، حيث أجبرتهم تلك المعركة على ضرورة التخلص من ذلك الزائر الجديد ، الذى يبدوا أنه قد بث روح المقاومة والصمود فى بعض المدن الهندية ، خاصة قاليقوط التى تشجع حاكمها الزامورين وقام بمهاجمة كوشين احدى المراكز البرتغالية حيث شن عليها غارة سريعة عاد بعدها الى مدينته بغنائم وفيرة [١] ، حتى يعوض ما فقده بوصول البرتغاليين ، الذين كانوا قبل ذلك بفترة وجيزة وعقب معركة شيول قد قاموا بالاستيلاء على دابول بعد نهبها وحرقها [٢]، ويبدوا أن ذلك كان من قبل رفع الروح المعنوية للبرتغاليين، وفى الوقت نفسه فرصة يتشفى بها الميدا لمقتل ابنه لورنزو.

كانت السنوات التالية ابتداء من ١٥٠٩ م سنوات حاسمة فى تاريخ الصراع الاسلامى البرتغالى فى المحيط الهندى ، حيث تميزت بعاملين مهمين كان لهما الأثر الفعال فى نجاح البرتغال فى توطيد سيطرتها على التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وأول هذه العوامل معركة ديو البحرية والتى كانت تعد لها البرتغال منذ لحظة هزيمتها فى شيول ، بعدما رأت نتائجها على الامارات الهندية ، فى وقت كان فيه نائب الملك داالميدا يتحين تلك الفرصة للانتقام لمقتل ابنه لورنزو فى معركة شيول السابقة ، وفى شهر فبراير ١٥٠٩ م وقعت معركة ديو بين الطرفين ، التى هزم فيها حسين الكردى الذى تراجع الى البحر الأحمر لتحصينه كما ذكرنا من قبل.

---

(1) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 44, 45.

(٢) باعلوى : التاريخ الأكمل (مخطوطة) ورقة ٨١ .

- Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 45.

نتج عن تلك المعركة أنها أثبتت مدى قوة النفوذ البرتغالى فى المحيط الهندى ، وأنهم تمكنوا بالفعل من تثبيت ادعائهم بأنهم سادة الملاحة فى البحار الهندية ، [١] وأن الأمر يحتاج الى قوة اسلامية جديدة تــوازى القوة البرتغالية ، اضافة الى ذلك فقد كان لهذه المعركة أثرها المباشر على الامارات الهندية مثل امارة ديو التى فضل أميرها مالك آيامن التفــاوض مع البرتغاليين على محاولة مقاومتهم [٢] ، أما العامل الثانى فيمكن وصفه بوصول البوكرك الى منصب نائب الملك بالهند فى التاسع والعشرين مــن أكتوبر فى ذات السنة ، حيث أتاحت له هذه الفرصة تنفيذ سياسته والتى عارض بها فرانسسكوا الميدا ، وكانت سياسته والتى وجدت مناصرين لها فى البرتغال تقوم كما ذكرنا سابقا على الاحتفاظ بالمراكز البرية مع زيــادة عددها ، وتوسيع مناطقها عن طريق جلب المهاجرين اليها من البرتغــال ، وكان يرى أن ذلك الأمر بسيط اذ أنه لا يحول دون ذلك سوى الاغــارة على منطقة ما فيقتل رجالها ويتزوج البرتغاليون بنسائهم ويعمدوا الأطفال فينشأ بذلك شعب مختلط وكاثوليكى المذهب خاضع للبرتغال [٣].

وضع البوكرك نصب عينيه تنفيذ مجموعة من الأهداف وجد أنها كفيلة بالسيطرة على مصادر التجارة ، وهى أولا : محاولة الحصول على مركز متوسط على ساحل الهند الغربى للمراقبة عوضا عن كوشين البعيدة [٤] ، وفى نفس الوقت كقاعدة يستطيع بها أن يفرض سيطرته على البحار الهندية ، ثانيا : الاستيلاء على عدن وبناء حصن بها لاغلاق البحر الأحمر ، ثالثا : غلق الطريق ما بين

---

(١) د٠ محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٤٤ ٠
(٢) د٠ السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٦٣ ٠
(٣) د٠ جلال يحيى : الاستعمار والاستغلال والتخلف ٢٥٦ ٠
(4) Stephens: Portugal 198.

الخليج العربى والبصرة عن طريق احتلال هرمز (١) ، رابعا : الاستيلاء على ملقا المصدر الرئيسى لكثير من منتوجات شرق آسيا .

ولتنفيذ الهدف الأول كان أمام البوكرك الاختيار ما بين قاليقوط وجوا ، غير أن الأحداث القديمة بين قاليقوط والبرتغاليين ، والتى تزعمت فيها قاليقوط حركة المقاومة ضدهم ، اضافة الى أوامر الملك عمانويل بضرورة الاستيلاء عليها وجهت أنظار البوكرك اليها ، لذا خرجت من لشبونة حملة أخرى بقيادة فيرناندو كوتينو Fernando Coutinno للمشاركة فى الاستيلاء على قاليقوط ، والقضاء على نفوذ الزامورين وفى الوقت نفسه تدعيم الموقف فى المحيط الهندى ، خاصة بعدما بلغت الملك عمانويل أنباء الاستعدادات التى كان يقوم بها السلطان الغورى فى ميناء السويس (٢) ، وهاجم البرتغاليون قاليقوط فى محاولة للاستيلاء عليها ، غير أن مقاومة المدينة صمدت أمامهم ، وفشل هجومهم الذى قتل فيه القائد الجديد Coutinne (٣) ولكن البوكرك ما لبث أن عوض تلك الهزيمة باستيلائه على جوا عام ١٥١٠م التى اتخذها مقرا رئيسيا للبرتغاليين فى الهند عقب مقتل أميرها (٤) ، ويقال بأن ذلك قد تم بمساعدة تولاجى أحد أمراء الهندوك حتى يضعف من قوة سلاطين آل عادل شاه فى تلك المنطقة (٥) ، وفى جوا تمثل الحقد الصليبى بما قام به البوكرك وذلك من خلال خطابه الى مولاه بأنه " عرض على السيف كل عربى بمدينة جوا " ، وأنه " حيثما أمكنه العثور على عربى كان اقلاته من

---

(1) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 151-152.
- ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٤٥ .

(٢) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٤٥ .
- Sousa: The Portuguese Asia Tome I 151.

(3) Stephens: Portugal 198.

(4) Thomas Astley: Voyages and Travels Volume I 72.

(٥) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٤٦ .

يده من المحال " وأنه " كان يملأ بهم المساجد ويضرم فيها النـــار "[١] ، وباستيلاء البوكرك على جوا نستطيع القول أنه تمكن من تنفيذ جزء من مخططه السابق الذى عارض فيه المبدأ الذى سبق وأن أشرنا اليه ، وهو أنه عقب سقوط المدينة أجبر البوكرك زوجات وبنات الجنود المسلمين الذين قتلوا أثناء الدفاع عن المدينة على التنصر ، ومن ثم تزويجهم للجنود البرتغاليين كخطوة جديدة أيضا فى سبيل القضاء على النفوذ الاسلامى[٢] ، ولاشك أن هذه الكراهية الشديدة للمسلمين اضافة الى تعمد البوكرك من محاباة الهندوس على حساب المسلمين[٣] ، كانتا من العوامل التى أدت الى اتحاد ملوك الفيجايانكر الهندوكيين مع البرتغال ، لدرجة أنهم ظلوا يشنون الحروب ضد المسلمين لمدة مائة وسبعين عاما .[٤]

وكان من الطبيعى أن يؤثر سقوط جوا بهذه الطريقة فيما جاورها من امارات الهند الغربية ، حيث وافقت كجرات على اقامة البرتغاليين محطة تجارية لهم فى ديو ، وأخيرا قبول قاليقوط لعقد الصلح مع البرتغال بشرط اقامة حصن لهم على أراضيها[٥] ، أما الفيجايانكر فلم يكتفوا بارسال وفد للتهنئة على ذلك ، وانما سمحوا لهم باقامة حصن فى مدينة بهاتكال بشواطئ بلادهم الغربية .[٦]

---

(١) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٤٦ .

(٢) مانوراما موداك : الهند شعبها وأرضها ١٢٠ . ترجمة محمد عبد الفتاح ابراهيم ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٤ م .

(٣) أصبحت تلك القاعدة أساسا تسير عليه القيادة البرتغالية فى المحيط الهندى ، وليس أدل على ذلك سوى خطاب أريس دى جاما أحد القادة فى الهند عندما كتب عام ١٥١٩ م الى مليكه بضرورة اساءة معاملة التجار المسلمين ومحاولة كسب التجار الهندوس .

- Liver more: Portugal and Brazil 214.

(٤) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية .

(٥) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٦٧ .

(٦) أحمد محمود الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ج ١ ٢٢٨ .

وعقب تحقيق الهدف الأول اتجه البوكرك نحو تحقيق الهدف الخاص بالاستيلاء على ملقا ، التى كانت تعتبر المستودع الرئيسى لتجارة التوابل النادرة ، والتى كانت تنمو فى جزيرة جاوة واندونيسيا وجزر المولوكس Molucas ، وقد جعلها موقعها الطبيعى مفتاحا للمحيط الهادى ، ونظرا لكون التجار العرب والهنود والفرس يرتادونها منذ أزمنة بعيدة [1] ، فقد رأى البوكرك أنه من الضرورى فرض السيطرة عليها حتى لا يتيح الفرصة لغير البرتغال فى سبيل الاتجار معها ، خاصة وأن الأسعار بها لم تكن لتزيد عن ربع سعر بيعها فى سواحل الهند ، وبلغ من شدة اهتمام البوكرك بها ، تكليفه لوبودى سكويرا بالاقتراب منها لجمع المعلومات متظاهرا بكونه تاجر مسلم [2].

وفى السادس والعشرين من يوليو ١٥١١ م هاجم البوكرك مدينة ملقا وبعد مقاومة عنيفة من سكانها تمكن البوكرك من الاستيلاء عليها ، وقبيل رجوعه الى الهند بنى بها قلعة وكنيسة [3] ، وكان الاستيلاء عليها بمثابة

---

(1) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 175-176 (١)

— ك. م. بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٤٧ .

— تقع مالقا عند طرف شبه جزيرة الملايو ، وقد دخلها الاسلام ابتداء من عام ١٤٠٩ م على أيدى التجار العرب ، وكانت تعتبر من أهم المراكز التجارية للعرب فى هذه الجهات ، وكانت ملقا محطة بحرية للسفن المتجهة من شمال سومطرة ومن جزر المولوكاس وجاوة والصين ، ومن كوجيرات وملبار وكورماندل وشبه جزيرة العرب .

د. قيصر أديب مخول : الاسلام فى الشرق الأقصى ٢٥ . ترجمة : د. نبيل صبحى .

(2) Edgar Prestage: The Portuguese Pioners 298.

— ستيفان زفايج : ماجلان قاهر البحار ٣٤ . ترجمة : حبيب جاماتى .

(3) Thomas Astley: Voyages and Travels Vol. I. 74.

أكبر انجاز حققه البرتغاليون فى سبيل تحطيم السيطرة العربية التجارية ، ذلك أن استيلاء البرتغاليين على ملقا لم يكن يعنى أنهم نجحوا فى فرض السيطرة البرتغالية فقط على المحيط الهندى ولكنه كان يعنى أن المحيط الهادى قد أصبح مجالا لتوسع البرتغاليين (١) ، الذين حولوا الأرخبيل كله ميدانا لصراعهم مع الاسلام والتجارة ، وكالعادة اندفع المبشرون لنشر المسيحية ، الأمر الذى دفع بالمسلمين لمقاومة هذا الزحف التبشيرى عن طريق نشر دعوة الاسلام فى ماليزيا وسومطرة وجاوا (٢) ، وهى المناطق التى هاجر اليها المسلمون من العرب والهنود الذين ظلوا يقاومون المنافسة الأوربية فى تلك البلاد حتى القرن الثامن عشر الميلادى . (٣)

أما فى أوربا فقد هز احتلال البرتغاليين لملقا المجتمع الأوربى طربا ، حيث أقيم لتلك المناسبة قداس شكر فى عام ٩٢١ هـ — ١٥١٥ م فى روما ، قال أحد الخطباء فى هذا القداس أمام البابا ليو العاشر " ان هذا سيسهل استعادة القدس " ، وفسر كيف أن الصليب وصل الى أماكن بعيدة ، واتهم سلطان ملقا بانه مسلم متعصب يكره النصارى ، ونادى بحرب صليبية جديدة لاحتلال بيت المقدس . (٤)

---

(١) ك.م. بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٤٩ .
(٢) د. قيصر أديب مخول : الاسلام فى الشرق الأقصى ١٣٩ ، ١٤٠ .
(٣) المرجع السابق ، ٦٨ .
(٤) محمود شاكر : الكشوف الجغرافية ٢٩ .

— عندما انشغل البوكرك بحصاره لملقا حاول العرب الاستفادة من غيبته فأبحروا من الهند الى البحر الأحمر فى شتاء ١٥١٠ — ١٥١١ م ، مستغلين كذلك سحب البوكرك لدوريات البحر الأحمر ، ولكن تحطمت كل سفنهم تقريبا بسبب العواصف ، وكانت الخسارة شديدة الى حد أن قرر التجار أن يستخدموا مراكب أصغر وبذا يقللون فرصة الخراب الكلى ولما كانت هذه الطريقة مكلفة للغاية فقد تخلوا عنها .

- Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 33.

أما البحر الأحمر فكما قلنا سابقا من انه كان مقررا الهجوم عليه عقب سقوط سقطرة ، غير أن نقص المؤن وتعليمات دالميدا التى سبق وأن أشرنا اليهـا قد حالت دون ذلك ، والآن وقد أصبح البوكرك صاحب السلطة العليا فى الشرق ، فقد بدأ الخطر يحيق بالبحر الأحمر ، وكانت فكرة البرتغاليين من مهاجمة البحر الأحمر تقوم على مجموعة من الأهداف وهى أولا : اشتداد عملية تهريب السلع الافريقية عن طريق ميناء عدن ، فعلى الرغم من أن البرتغاليون استولوا على سقطرة لمنع تجارة البحر الأحمر ، فأن ذلك لم يؤد الى النتيجة المطلوبة ، اذ كانت كثير من السفن اليمنية والتهامية (١) والهندية تتمكن من التسلل عبر هذا الحصار الوسلى الى داخل الخليج العربى والبحر الأحمر ، وهذا بالتالى ما أدى الى اشتداد عملية تهريب السلع الهندية عن طريق جزيرة هرمز ، وكذلك تهريب البضائع عن طريق عدن .(٢)

ثانيا : الاستيلاء على عدن التى تعتبر من أهم دوافع حملته حتى يتمكن من التحكم فى مدخل البحر الأحمر ، وبالتالى تنفيذ جزء من مخططه الرئيسى الخاص بالمواقع الاستراتيجية اللازمة للامبراطورية البرتغالية على امتداد سواحل بلاد العرب الجنوبية والمحيط الهندى .

ثالثا : رغبة البرتغاليين فى قطع سبل الاتصال بين دولة المماليك ومسلمى الهند ، فعلى الرغم من هزيمة المماليك فى موقعة ديو البحرية عام ١٥٠٩ م ، ، فقد ظل المماليك قوة يحلم الهنود دائما بوجودها الى جانبهم ، وقد ظهر ذلك جليا من المساعدة التى قدمها شاه مملكة بيجابور لبقايا المماليك عقب هزيمتهم فى ديو ، حيث دعاهم الشاه للاقامة فى بلاده كما ذكرنا من قبل .

---

(١) نسبة الى سواحل تهامة بالحجاز .
(٢) محمد عبد القادر بامطرف : الشهداء السبعة ٤٨ ، ٤٩ .

رابعا : محاولة الاتصال بالحبشة .

خامسا : رغبة البوكرك[1] فى مهاجمة البحر الأحمر للقضاء على بقايا الأسطول المصرى الذى هزم فى موقعة ديو البحرية ، اضافة الى محاولته عرقلة مشروع تحصين جدة ، وفى الوقت نفسه القضاء على محاولات المماليك فى سبيل اعداد أسطول جديد لمحاربة البرتغاليين فى الهند[2] .

سادسا : تحقيق الأهداف الصليبية الخاصة بالاستيلاء على مكة والمدينة وهو ما شرحناه سابقا ، ونظرا لكوننا تطرقنا لدخول البوكرك الى البحر الأحمر وفشله فى حملته تلك وعودته الى الهند ، فيكفى أن نشير أن البوكرك عقب غارته الأولى فى حوض البحر الأحمر ١٥١٣ م انسحب الى الهند مصمما على تكرار العملية ذاتها وفقا للنتائج التى خرج بها من حملته تلك ، والتى من أهمها ما يلى : أولا — أن احتلال عدن يحتاج الى حملة يتراوح عددها مابين أربعة وخمسة آلاف جندى وذلك لاقامة حصن بها ، ثانيا — ضرورة الحصول على مصوع لضمان الحصول على المؤن والامدادات اللازمة[3] ، ثالثا — ضرورة احتلال زيلع وبربرة وجزيرة كمران[4] ، رابعا — ضرورة توثيق العلاقات مع الحبشة .

---

(١) سمى البوكرك فى بعض الكتب العربية القديمة باسم تهكمى هو "عين البقر" وأحيانا "أبو كرش" .
— محمد عبد القادر بامطرف : الشهداء السبعة ٤٧ .
وذكر فى مخطوط باعلوى باسم الدوك .

(٢) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٧٨ .

(٣) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٧٤ .

(٤) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٧٩ .

وفق هذه النتائج انطلق البوكرك فى فبراير ١٥١٥ م من جوا علـى رأس حملة كبرى نحو البحر الأحمر ، غير أن أحداث الخليج العربى خاصة فى هرمز جعلته يتوجه رأسا اليها عندما نقض حاكمها خوجة عطار بعض نصوص المعاهدة السابقة بينه و بين البرتغاليين برفضه دفع الجزية المقررة عليه ، على الرغم من اعترافه بالتبعية البرتغالية . (١)

ضرب البوكرك حصاره على هرمز وحاول الوصى الشرعى خوجه عطار اللجوء الى المفاوضات خوفا من تدمير المدينة ، وما أن بدأت تلك المفاوضات بين الطرفين حتى تجلت صورة أخرى من صور الحقد الصليبى ضد المسلمين ، عندما فاجأ البوكرك خوجة عطار بطعنة أردته قتيلا ، وازاء ذلك لم يجد حاكم الجزيرة سيف الدين مفرا من الخضوع للبرتغاليين الذين فرضوا عليه قبول الحماية البرتغالية مع السماح لهم بانشاء قلعة بالجزيرة ، وأخيرا دفع الجزية السنوية المقررة ، ونزل ابن أخ البوكرك Pero كأول حاكم برتغالى فى هرمز وما لبث البوكرك أن عاد الى جوا حيث توفى قبل أن يصلها . (٢)

وبوفاة البوكرك مؤسس صرح الامبراطورية البرتغالية أصبح الموقف فى المحيط الهندى ، وقبيل وصول الأتراك العثمانيين الى الشرق بفترة وجيزة كالتالى ، أولا : بالنسبة لشرق افريقية نجح البرتغاليون فى أقل من عشرة أعوام بداية من القرن السادس عشر الميلادى فى توطيد ونشر نفوذهم على كافة الساحل الشرقى لافريقيا ، وتمكنوا من القضاء على كافة المراكز العربية التجارية فيه ، ومما لاشك فيه أن هناك عاملين مهمين ساعدا البرتغاليين على سرعة

---

(١) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٧٩ .

(٢) د . صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ١٨ .

- Lorimer: Gazetteer of the Persian Gulf Vol. Part 1A 4, 5.

انجاز احتلالهم للشواطئ الشرقية وهما ، أولا : استخدامهم للأسلحة الحديثة التى لم يكن أى من العرب أو الزنج يعرفها ، خاصة أن الامارات الاسلامية التى تكونت بها لم تقم أساسا على الفتح بل على التجارة (١) ، ثانيا : نجاح البرتغاليين فى استغلال المنازعات الداخلية التى كانت دائرة بين الامارات الاسلامية فى شرق افريقية ، وقد ارتكز البرتغاليون على الأجزاء الجنوبية من الساحل الشرقى الذى كان يضم اقليم سفالة وموزمبيق التى اتخذوها مقرا للادارة الاستعمارية ، أما سفالة فكانت مركزا لتجارة الذهب . (٢)

أما السياسة التى قاموا بتنفيذها بعد استقرارهم فى شرق افريقية فقد كانت تقوم على عاملين هما محاولة عزل الساحل عن الداخل الذى كان يمده بالسلع التجارية التى كانت تصدر الى الخليج العربى والهند والشرق الأقصى ، (٣) ومن ثم : الاتجاه الى اثارة الحروب والخلافات بين الجماعات التى تقطن الساحل بقصد اضعافهم حتى تؤول اليهم السيطرة فى نهاية الأمر ، (٤) ثانيا : بالنسبة للبحر الأحمر فعلى الرغم من فشل حملة البوكرك الأولى ١٥١٣ م على البحر الأحمر ، وتعذر وصوله مرة أخرى عام ١٥١٥ م اليه بسبب أحداث الخليج العربى ووفاته كما ذكرنا من قبل ، الا أننا نستطيع القول أن البوكرك بحملته الأولى على البحر الأحمر قد وضع لخلفائه فى القيادة البرتغالية بجوا خطط الدخول لهذا البحر وغزوه بواسطة المعلومات والنتائج التى خرج بها

---

(١) د . جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ٩٦ ، ٩٧ .

— د . السيد رجب حراز : افريقيا الشرقية والاستعمار الأوربى ١٧ ، ١٨ .

(٢) . سبنسر ترمنجهام : الاسلام فى شرق افريقية ١٥ . ترجمة : محمد عاطف النواوى .

(٣) د . جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ٩١ .

(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

عن طبيعة البحر الأحمر ومراكز الضعف والقوة فيه ، اضافة الى الحركة التجارية الدائرة بين مراكزه ، وأخيرا دراسته لأوضاع الدول المسيطرة عليه حتى يتمكن خلفاؤه من بعده انتهاج السياسة التى يرونها فى سبيل التغلب على بعض الدول أو جرها الى صفهم (١).

من هنا نرى أن عدن ستكون محور صراع دائم بين البرتغاليين والعثمانيين الذين سيدخلون فيما بعد ، وتجلى ذلك فى كثرة دخول الحملات والدوريات البرتغالية ابتداء من عام ١٥١٧ م كما سنرى فى الفصل القادم ، وان كنا قد ذكرنا من قبل أنهم سيطروا على سقطرة للتحكم فى مدخل البحر الأحمر ، الا أن الموارد الضئيلة والمعدمة أحيانا أجبرت البرتغاليين على اخلائها فى وقت مبكر ١٥١١ م ، ثالثا : بالنسبة للخليج العربى كان لاخضاع هرمز للسيطرة البرتغالية ، أن نجحوا فى السيطرة على الخليج العربى وتجارته ، حيث أصبح هناك ثلاث مناطق عربية كمحطات للتجارة البرتغالية وهى هرمز وكيلهات ومسقط (٢) ، وأجبر البرتغاليون كل التجار العرب والفرس على الاتجاه الى هرمز ، ودفع الضرائب على تجارتهم ، ويضاف الى ذلك أن بدأ البرتغاليون فى التوغل داخل الخليج العربى ففى السنة التى سقطت فيها هرمز ١٥١٥ م ، نزل البرتغاليون البحرين وأقاموا بها حصنا ، ومن ثم أجبروا الأهالى على دفع الجزية بالقوة (٣) ، رابعا : بالنسبة للسواحل الهندية فيكفى أن نشير الى أن تلك السواحل كانت تمثل الركيزة الأساسية فى القاعدة الاستعمارية ، خاصة جوا Goa احدى الأهداف الهامة التى نجح البرتغاليون بقيادة البوكرك فى الاستيلاء عليها عام ١٥١٠ م ، كجزء من خطة السيطرة التى باشر بتنفيذها

---

(١) د • فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ٤٢ •

(2) Miles: Countries and Tribes of Persian Gulf 156.

(٣) د • صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ١٨ ، ١٩ •

عند تسلمه منصب نائب الملك فى الهند عام ١٥٠٩م٠

ولما كان النشاط البرتغالى مع بداية القرن السادس عشر الميلادى قد تركز فى السواحل الهندية باعتبارها المصادر الأساسية لبعض مواد الشرق ذات الطلب فى أوربا ، كان من الطبيعى أن يكثر البرتغاليون من انشاء المراكز البرية والبحرية ، فكان الى جانب جوا مراكز فى كوشن وكنانور ودابول وديو وبهتكال وسيلان ، وكلها كانت مراكز ذات ثقل تنطلق منها الدوريات لاعتراض كافة السفن التجارية الاسلامية التى كانت تبحر دون اذن من القيادة البرتغالية ، خامسا : بالنسبة للشرق الأقصى كان الاستيلاء على ملقا قد أعطى للبرتغاليين المجال للوصول الى مصادر التوابل ، حيث عملت سفنهم على تحميلها بربع الثمن الذى كانت تباع به فى قاليقوط كما ذكرنا من قبل ، كما أتاح لهم ذلك الاتصال بالامبراطورية الصينية اضافة الى جزائر المحيط الهادى الأخرى (١) ،وبذلك أصبح للبرتغاليين سلسلة طويلة من المحطات التجارية والمراكز الاستعمارية على امتداد سواحل المحيط الهندى بداية من ملقا ونهاية بسواحل شرق افريقية ، فكانت أشبه بالسلسلة الفقرية عدا عدن ، التى كانت تمثل بالنسبة لهم نقصا كبيرا فى تماسك تلك السلسلة وامتدادها مما جعلهم لا يغفلون عنها ، وسيكون هناك صراع من أجلها ولكن مع قوة جديدة تنبع بالحيوية والنشاط كما سنرى فى الفصل القادم٠

وهكذا يتضح مما سبق أن هناك خطة اقتصادية جديدة للبرتغاليين ، ونحن نقصد بقولنا خطة جديدة أى أنها تختلف عن الصراع الأوربى المسيحى مع العالم الاسلامى فى العصور السابقة ، والتى كانت قد تمثلت فى مهاجمة هذا العالم هجوما مسلحا ، كما حدث حينما أشعلت أوربا نار الحروب الصليبية

---

(١) ك٠م٠ بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٤٩ ٠

ضد العالم الاسلامى ، وأنشأت الامارات اللاتينية بالاضافة الى محاولاتهم المتكررة للاستيلاء على مصر ، ولما كانت الخطة الاقتصادية الجديدة تقوم أساسا على نجاح السيطرة البرتغالية فيجب أن نشير الى أن العامل الاقتصادى كان له دور فعال فى الصراع الاسلامى المسيحى فى السابق ، كما حدث خلال الفترة التى كانت فيها البابوية وأوربا تعدان للحروب الصليبية عندما ربطت العامل الاقتصادى بالعامل الصليبى فى سبيل استرداد بيت المقدس ، كما أوضح ذلك البابا أوربان الثانى حينما وصف الوضع الاقتصادى فى الشام ومصر بالأنهر التى تجرى لبنا وعسلا (١) ، وبذلك أصبحت الحروب الصليبية أول هجوم مسلح تقوم به أوربا فى سبيل تحطيم قوة المسلمين ، وسقوط عكا بأيدى المماليك عام ٦٩١ هـ — ١٢٩١ م كان لابد من ميادين أخرى تسعى اليها أوربا فى سبيل تحطيم العالم الاسلامى عن طريق حرمانهم من المورد الأساسى لغناهم وقوتهم وهو التجارة ، خاصة فى وقت كانت فيه العلاقات التجارية بين العالم الاسلامى والعالم المسيحى قد أخذت فى الازدياد كنتيجة للحروب الصليبية ، فكما قلنا سابقا فقد اكتسبت مصر والشام نتيجة لوقوع موانيهما على مراكز الاتصال بين الشرق والغرب موقعا تجاريا فريدا حيث كانت تصلها تجارة شرق آسيا والهند ، وتجارة غرب أوربا ، وكانت مهمتها توزيع هذه البضائع بحكم موقعها التجارى ، وهو ماكان بمثابة الشريان الحى للعالم الاسلامى ، لهذا اتجهت الأنظار والآراء على أنه قبل الاقدام على غزو العالم الاسلامى واسترداد الأماكن المقدسة ، يجب اضعافه ماديا بأن يقطعوا عنه مصادر قوته وثروته ، فالشراء منه عامل من عوامل قوته المالية لأنه يدر عليه الأرباح عن طريق المكوس المفروضة على التجارة ، كذلك فان المبادلة

---

(١) د. نظير حسان سعداوى : الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى ٥ ، ٦ — مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦١م.

بالبضائع فيها سد لحاجته ، وذلك من عوامل قوتهم (١) .

ومع فشل قوانين التحريم التى أصدرتها البابوية ، كان ذلك مدعاة لقيام العالم المسيحى بشن غارات تخريبية ضد العالم الاسلامى فى الشام ومصر وشمال افريقية ، استمرت طوال القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلادى (٢) .

وقد تناولت الخطة فى سبيل تنفيذها أوجه عديدة شاركت جميعها فى نهاية الأمر الى اظهار الصورة الحقيقية فى كيفية تحطيم الاقتصاد الاسلامى فى ذلك الوقت ، من واقع وصول البرتغاليين الى المحيط الهندى وسيطرتهم على تجارته ، ولعل هذه الأوجه تتضح فيما يلى : أولا — السيطرة ، وهو عامل تقليدى كان له دور حيوى فى مجالات الصراع السابقة بين الاسلام والمسيحية ، مع اختلاف واضح فى هذه الفترة ، وهو أن تلك السيطرة كثيرا ما حاولت الجبهة المسيحية تنفيذها عن طريق الشمال ابتداء من آسيا الصغرى نهاية بسواحل المغرب العربى فى طنجة ، بحيث مثلت سواحل البحر الأبيض المتوسط الذى يطل عليه العالم الاسلامى ثلاث جبهات ، ففى آسيا الصغرى كان الأتراك العثمانيون يرمون بأنظارهم نحو الزحف على أوربا ، أما المغرب العربى فقد توزعت جهوده مابين الحفاظ على الأندلس وبين رد هجمات الأسبان والبرتغاليين عليه ، وأخيرا جبهة المماليك فى مصر والشام ، أما فى هذه الفترة

---

(١) محمد الصغير عبد اللطيف : العلاقات التجارية بين مصر وأوربا الجنوبية ١٦٧ — رسالة ماجستير لم تنشر ، جامعة القاهرة .

(٢) د . أحمد السيد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ٥ .

فقد حاق الخطر بالعالم الاسلامى من جنوبه ، لهذا كان من الطبيعى أن يكون هناك نوع من التبديل والتغيير فى حالة وقوع السيطرة ، وما جد فى هذه الفترة عقب السيطرة هو ظهور خطة اقتصادية جديدة تهما للهدف الذى من أجله خرج البرتغاليون .

ثانيا :- تحويل التجارة عبر رأس الرجاء الصالح ، فمن المعروف أن الهدف من تحويل طريق التجارة من أيدى المسلمين الى أيدى الأوربيين هو التقليل من ثروة البلاد ، لأن البضاعة التى كانت تمر بالأراضى المصرية كانت تؤدى الحقوق السلطانية عند دخولها وخروجها ، وبلغت فداحة الحقوق التى حد أن ما كان يدفع على ما تحمله ثلاثة مراكب وأربعة كان يساوى حمولة واحدة منها ، كما أن السفن التى كانت تنقل البضائع بالطريق النهرى أو فى الترع كانت تؤدى أيضا ضرائب أخرى ، اذا فتحويل التجارة عن مصر يعتبر خسارة كبيرة عليها . (١)

لهذا لم يكن من الغريب أن نرى البرتغال ، وتحت دوافع حقدها على المسلمين لا تتورع عن حمل شعار الحرب الصليبية ضد المسلمين ، بحيث أصبح كافة ملوك البرتغال وقادتها يعدون أنفسهم مناضلين بحق فى الحملات الصليبية التى تخرج من بلادهم ، وكانت كل ضربة تكال للمسلمين تعد فى نظرهم نصرا للمسيحية ، كما أوضح ذلك البوكرك بصريح العبارة لجنوده فى ملقا " بأن كل هجوم يشن على تجارة الأفاوية هجوما على الرغد المالى الذى تسعد به الأمم الاسلامية " (٢) ، والذى ما لبث أن أكد على

---

(١) محمد الصغير عبد اللطيف : العلاقات التجارية بين مصر وأوربا الجنوبية ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٢) ك. م. بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٤٩٧ .

الناحية الصليبية بقوله " الخدمة الجليلة التى سنقدمها لله بطردنا للعرب من هذه البلاد ، وباطفائنا شعلة شيعة محمد بحيث لا يندلع لها هناك بعد ذلك لهيب ". (١)

ثالثا — منع بضائع الشرق من الدخول الى بحار العرب سواء فى الخليج العربى أو البحر الأحمر ، وقد تم ذلك بوسيلتين ، فالأولى كانت عن طريق اعتراض السفن الاسلامية بكافة أنواعها فى عرض البحر سواء كانت متجهة الى تلك البحار أو خارجه منها ، أما الوسيلة الثانية فكانت عن طريق تخصيص دوريات مسلحة للتجول أمام تلك المداخل السابقة الذكر ، وهذا بدوره ما أدى الى ندرة البضائع الشرقية التى كانت تتلقاها الموانئ المصرية والشامية فى غابر زمانها بوفرة ، ففى الوقت الذى كانت فيه سفن البندقية تزور موانى الدولة المملوكية فى مصر والشام مرتين سنويا ، أصبحت ابتداء من عام ١٥٠١م لا تشاهد الا مرة واحدة وكل عامين (٢) ، وبعدما كان التجار البنادقة تعوزهم الأموال اللازمة لشراء ما يحتاجونه فى موانئ مصر والشام أصبحت سفنهم لا تستطيع أن تجد أكثر من نصف الكمية التى كانت تحملها فيما سبق (٣) ، وكان يظل دائما بمصر بعد رحيل الأسطول البندقى خمسة عشر من كبار التجار للاشراف على التجارة ، ولكن بوصول البرتغاليين لم يزد عدد التجار البنادقة على ستة تجار لا يكاد يكون لهم من الموارد المالية شئ .(٤)

---

(١) ك. م. بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٤٨

(٢) د. أحمد السيد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ١٣٢ — شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ١٥٣ .

(٣) د. أحمد السيد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ١٣٢ .

(٤) — شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ١٥٣ .

رابعا - مطاردة التجار العرب ، فعلى الرغم من أن وصول البرتغاليين كان له مغزى كبير عن طريق تلك المراكز المنتشرة على طول سواحل المحيط الهندى كما ذكرنا من قبل ، وعلى الرغم من أن تحركات التجار العرب وتنقلاتهم بين موانىء المحيط الهندى أصبحت محفوفة بالمخاطر ، الا أن البرتغاليين عمدوا وبصورة مركزة على محاولة قفل كافة الأبواب أمام التجار العرب والاستيلاء على كافة المراكز التجارية التى يلجأون اليها كلما أحسوا بوطأة البرتغاليين الذين عمدوا الى محاولة دفع العرب الى بحارهم الداخلية واغلاقها عليهم [١]، والدليل على ذلك أن البرتغاليين عندما وصلوا الى قاليقوط ، وبدأوا فى اعتراض السفن الاسلامية أمام السواحل الهندية هاجر معظم التجار العرب والأفارقة منها متجهين الى ملقا وسيلان [٢] ، التى ما لبثت أن تعرضت للغزو البرتغالى كما ذكرنا سابقا .

خامسا - الترويج للبضائع البرتغالية ، ومن المعروف أن منتجات الهند كانت تصل الى أوربا عبر تجار مصر والبندقية ، ولما كانت أسعارها باهظة الثمن اندفع البرتغاليون نحو الشرق فى محاولة للوصول الى المصادر الشرقية الأصلية لها ، وكان ذلك معناه أنهم هم وحدهم العملاء القادرين على ايصال تلك البضائع الى أوربا بحيث حالوا دون اشتراك أى طرف آخر مشاركتهم للضرائب المتحصلة على ايصال منتجات الهند الى الأوربيين ، وبصورة أخرى نستطيع القول أن خطة البرتغاليين فى الشرق كانت تقوم على أساس عدم السماح لأحد فى منافستهم فى المراكز التجارية [٣] ، ففى الوقت الذى كان فيه القنطار من الفلفل يدفع فيه فى الاسكندرية ثمانون بندقى هذا

---

(١) د . السيد رجب حراز : افريقية الشرقية والاستعمار الأوربى ١٤ .

(٢) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٣٠٧ .

(3) J.H. Parry: Europe and a wider world 41.

بخلاف لسعر بيعه فى أسواق البندقية ، ومن ثم عملية توزيعه داخل أوربا
كان البرتغاليون يبيعون ذلك القنطار بسعر يتراوح ما بين العشرون
والأربعين بندقى فى محاولة لضرب مصر والبندقية [١] ، ولم يكن ذلك
بالشىء الذى يخشى منه على الاقتصاد البرتغالى ، اذ نلاحظ أنه بداية
من عام ١٥٠٣ م عمد البرتغاليون فى سبيل انجاح خطتهم الاقتصادية
وجلب الدول الأوربية اليهم الى الاقتناع بالحصول على مبالغ معينة تسدد
نفقة الرحلات التجارية وعدم النظر الى الأرباح فى محاولة لتوجيه أنظار
أوربا الى أسعارهم المنخفضة ، وهذا بالتالى ما يصرفهم عن أسواق مصر
والشام [٢] ، لهذا لم يكن من الغريب أن نرى التجار الانجليز قد بدأوا
بالفعل ابتداء من عام ١٥٠٢ م بالتوجه فعلا الى لشبونة لرخص أسعارها عن
الاسكندرية اضافة الى قلة رسوم الجمارك [٣] ، وعلى الرغم من تلك السياسة
التى انتهجوها الا أننا نلاحظ أن أرباح تلك العمليات كانت فى ازدياد مستمر
ففى السنة ذاتها عاد فاسكودى جاما الى لشبونة بحمولة ضخمة من منتجات
الهند قدرت بـ ٣٥٫٠٠٠ قنطار من الفلفل والزنجبيل وجوز الطيب اضافة
الى الجواهر والأحجار الكريمة حيث بيعت بمبلغ مليون بندقى ، على الرغم
من أن تكاليف حملته تلك لم تزد عن ٢٠٠٫٠٠٠ بندقى [٤] ، ورغم أن

---

(١) محمد اسماعيل الندوى : تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ١٧١،
— شارل ديل : النبدقية جمهورية أرستقراطية ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٢) د. نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٧٥ .

(٣) المرجع السابق ، ٧٦ .

(٤) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ١٤٦ .

البرتغاليين قد أغرقوا أسواق لشبونة بالمنتوجات الشرقية بكثافة الا أنهم لم يكتفوا فقط بانتظار عملائهم للحضور الى لشبونة للشراء وانما قاموا بأنفسهم بارسال السفن حاملة التوابل الى انجلترا والأراضى المنخفضة وغيرها من البلدان (١)، كذلك لجأ البرتغاليون فى سبيل الترويج لبضائعهم الشرقية الى محاولة معرفة احتياجات الدول الأوربية ذاتها من البضائع الشرقية لتوفيرها لهم، فعلى سبيل المثال كان لعسل اللبن (نوع من أنواع البخور) قيمة كبيرة فى ايطاليا (٢)، وعندما أدرك البرتغاليون مدى أهمية ذلك النوع بالنسبة للكنائس وبيوت الأمراء عمد فاسكودى جاما فى بداية الأمر عن طريق جواسيسه الى محاولة معرفة أسعاره فى الاسكندرية، ومن ثم أغرق الأسواق بكميات كبيرة منه (٣)، وبذلك لم يكد الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادى يقارب الانتهاء حتى كانت معظم دول أوربا مثل أسبانيا وبرنس وبرجندى وانجلترا وأيرلندا واسكتلندا، وكذلك الجزء الأكبر من هولندا كانت جميعها تستقبل البضائع الهندية عن طريق البرتغال، أما فى ايطاليا فقد تولت جنوه المنافس التقليدى للبنادقة فى أوربا مهمة توزيع بضائع البرتغال فى كل من توسكانيا وروما ونابلى. (٤)

سادسا: المنافسة وهى ذات فرعين : ١ — منافسة الدول التى قد تفكر فى محاولة مشاركة البرتغال أرباحها الضخمة تلك وهى كما قلنا عن طريق اغراق الأسواق الأوربية بكميات وفيرة من البضائع الشرقية، وبأسعار رخيصة لقطع الطريق على أية دولة قد تفكر فى منافستها، أما الفرع الثانى من مجال

---

(١) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ١٤٩.

(٢) د. نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٢٣٣.

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(4) Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 35.

المنافسة فيتمثل فى منافسة البندقية ذات المجد التجارى القديم والتى كـان يخشى منها بسبب اتصالاتها المستمرة مع المماليك ، لهذا اتجه البرتغاليون الى السماح للسفن الفلورنسية والجنوية بمرافقة الأساطيل البرتغالية الى الشرق وحمل ما تريده من بضائع شرقية نظير أرباح معينة للبرتغاليين كوسيلة لاغراق الأسواق الأوربية ولضرب البندقية . (١)

سابعا — سياسة الاحتكار ، فعندما أدرك البرتغاليون جدوى فصل البنادقة عن دولة المماليك فى سبيل ضرب اقتصادها ، خاصة وأنها لم تكن تتورع عن تقديم أى عون يحتاجه المماليك ، عرضوا على حكومة البندقية وهيئة التجار بها تسهيل مهمة حصولهم على التوابل والسلع الشرقية من أسـواق لشبونة ، مقابل قيامهم بتوزيعها فى أسواق أوربا ، ولكن كبرياء وعظمة البندقية منعاها من الاستجابة لهذا العرض ، حتى لا يقال عنها بأنها دولة تابعة للبرتغال (٢) ، وتبدوا لنا أهداف البرتغال الاقتصادية وبصورة أدق ضد مصر من خلال ما دار من مناقشات بين الوفد البندقى وملك البرتغال عما نويل الذى حدد أهداف بلاده الاقتصادية ضد مصر فى النقاط التالية : ١ — الضرب على أيدى التجار العرب والمصريين والاقلال من ثروتهم لامكان الانتقام منهم سياسيا ودينيا . ٢ — فتح باب جديد لثـراء البرتغال وسيطرتها على الشرق وتجارته . (٣) من هنا نرى أن الـروح

---

(١) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٨٤ .

(٢) المرجع السابق ، ٧٢ ، ٧٣ .

(٣) من أشد الضربات الاقتصادية التى نزلت بمصر تلك التى شنها فرسان جزيرة رودس فى ٩١٦ هـ — ١٥١٠ م على عهد الغورى حينما هاجموا بقيادة القائد أندريه دى آمارال قافلة بحرية مكونة من ثمانى عشرة سفينة متجهة نحو الاسكندرية ومحملة بالسلاح والذخيرة من قبل السلطان العثمانى بايزيد الثانى ، ولم يصل للاسكندرية من هذه السفن سوى ست سفن خاوية .

الكاثوليكية كانت تسيطر على كافة المشاريع البرتغالية فى المشرق الاسلامى ،لأن المذهب الكاثوليكى هو أقدم المذاهب المسيحية الأوربية أو بالأحرى كان ذلك المذهب الراية التقليدية التى حمل الأوربيين تحت ظلها حقدهم على الاسلام ، اذن فلابد ومع انفراد البرتغاليين بالأمر فى المشرق من أن يظهر هذا الحقد الدفين فيما ارتكبوه من مجازر ومذابح أينما حلوا .

ثامنا — افتتاح الفروع التجارية ، كان من نتيجة ضخامة الأرباح التى جمعها البرتغاليون عن طريق خطوات تدابيرهم الاقتصادية ضد العالم الاسلامى والتى سبق وأن أشرنا اليها ، أن أدت الى قيام نشاط رأسمالى كبير فى البرتغال اضافة الى غرب أوربا (١) ، حيث اتجه الملك عما نويل الى افتتاح مستودعات تجارية تمولها لشبونة ، ومن ثم تقوم بتوزيعها على كافة الدول الأوربية ، ومن أهم تلك المستودعات هى أنتورب فى الأراضى المنخفضة وأنفرس (٢) ، حيث اشتهرت الأولى بمهمة توزيع التوابل على السواحل الشمالية لأوربا ، وبلغ من ثراء البيوت المالية بها أن عمدت الى مد البرتغال بالأموال اللازمة لأعداد الحملات الى الهند (٣) ، أما انفرس فقد اشتهرت بأنها أكبر مركز تجارى فى أوربا ، ذلك أن لشبونة كانت تعتبر هى المخزن الرئيسى أما انفرس فكانت بالنسبة للبرتغاليين السوق الرئيسية لتوزيع تلك الأطنان الهائلة التى كانت تلقى الى أرصفة ميناء لشبونة (٤) .

ولم يكن من الغريب تدعيما لنجاح خطوات الخطة الاقتصادية أن يقوم

---

(١) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٥٤ ، ٥٥ .
(٢) تقع على بعد ١٢ ميلا من لشبونة على امتداد الساحل .
(٣) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٥٥ .
(٤) د . جلال يحى : الاستعمار والاستغلال والتخلف ٢٦١ .

البرتغاليون بوضع نظام دقيق لتجارتهم تلك ، فكانت هناك حكومة لدول الهند ، وللهيئات المكلفة بالادارة الاقتصادية فى لشبونة ، التى كانت تشرف على تحديد أسعار السلع المصدرة (١) ، وأصبحت تجارة بعض السلع (خاصة التوابل) احتكار لملك البرتغال ، ولا يحق لأحد المتاجرة بها دون تصريح برتغالى بعد دفع الضرائب ، حيث تصل الى لشبونة ومنها توزع الى أوربا أما السفن التى لا تحمل تصريحا فى المحيط الهندى فقد كان مصيرها الأسر والاغراق خاصة اذا كانت تخص التجار المسلمين ، (٢)

... ...

---

(١) د ، جلال يحى : الاستعمار والاستغلال والتخلف ٢٥٧ ،
— كانت هناك سبع حكومات تقسم فيما بينها حكم المراكز البرتغالية من رأس الرجاء الصالح الى ماكاو بالصين ،

(2) Liver more: Portugal and Brazil 193.
— جورج لوفران : تاريخ التجارة ٦٩ ، ٧٠ ،

الفصل الرابع

الصراع فى البحر الأحمر فى العصر العثمانى

أ - فتح العثمانيين عدن وإغلاق البحر الأحمر.
ب - أدوار الصراع.

مع بداية القرن السادس عشر الميلادى ، وفى الوقت الذى كان فيه البرتغاليون يرمون بأنظارهم تجاه تنفيذ أحلامهم فى المحيط الهندى عقب تحرك الفاريز كابرال بحملته عام ١٥٠٠ م نحو الشرق ، كانت علاقات حسن الجوار مستمرة بين المماليك والعثمانيين عقب المعارك الدامية التى نشبت على عهد السلطان قايتباى والسلطان بايزيد العثمانى ، بدليل مشاركة العثمانيين للمماليك فى صراعهم مع البرتغاليين ، عندما أمدهم بما يزيد بما يحتاجونه من خشب وعتاد وسلاح ، الى جانب فئات المتطوعة من البحارة برئاسة سلمان الريس ، الذين انضموا الى صفوف المماليك وشاركوهم أعداد الأساطيل الحربية اللازمة فى ميناء السويس كما ذكرنا من قبل .

ومع وصول السلطان سليم الثانى (الأول) الى عرش الحكم ٩١٨ هـ — ١٥١٢م كانت العلاقات بين الطرفين قد بدأت فى التدهور ، خاصة بعدما أرسل السلطان الغورى لسليم الثانى (الأول) رسالة تضمن جزء منها طلبه للأخشاب وبعض الصناع ، وعدم رد السلطان سليم بجواب على ذلك الطلب (١) .

هذا وعلى الرغم من كافة الأسباب التى قد يتناقلها المؤرخون فى تفسيرهم لأسباب تحول الأتراك من أوربا الى العالم العربى ، الا أننا لا نستطيع أن ننكر أن وصول الأتراك الى مصر والشام أمر كان لابد منه فى ظروف دولة كانت تئن من جراح الماضى ، وليس المجال هنا متسعا للحديث عما حدث بين أكبر دولتين فى مرج دابق والريدانية ، ولكن هناك حقيقة هامة يجب أن نعترف بها ، وهى أن الأتراك عندما دخلوا العالم العربى دخلوه فى وقت كان يجرى فيه تغير اقتصادى كبير ، عندما تحطمت دعامة الكيان الاقتصادى

---

(١) د . أحمد فؤاد متولى : الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته ١١٠ .

للعرب بتحول طرق التجارة عبر رأس الرجاء الصالح مع بداية القرن السادس عشر الميلادى ، خاصة وأن هناك فترة مابين عام ١٥٠١ م وهى السنة التى بدأت فيها منتجات الهند يندر وجودها فى أسواق الشام ومصر ، وبين عام ١٥١٧م السنة التى دخل فيها الأتراك العثمانيين القاهرة ، فيكفى أن تكون تلك السنوات عاملا أساسيا فى انهيار الاقتصاد الاسلامى فى العالم العربى ، ومن ثم يسرى مفعوله الى الأوضاع الاجتماعية والثقافية .

ومن الملاحظ هنا أن العثمانيين باستقرارهم بمصر لم يشتبكوا مع البرتغاليين فى موقعة فاصلة تحدد مصير تجارة المحيط الهندى ، وكان هذا راجعا الى انشغال العثمانيين بجبهات متعددة ، وليس أدل على هذا سوى تأخرهم فى ارسال نجدة عسكرية الى جدة عقب فشل لوبو سواريز فى الاستيلاء عليها ، والتى وصلت أواخر عام ١٥١٩ م عقب مرور سنة ونصف على فشل المحاولة واستنجاد شريف مكة بخاير بك حاكم مصر(١) كما سنذكر فيما بعد ولا يدل هذا على تقاعس العثمانيين ، وانما كان للدور الكبير الذى كانوا يقومون به سواء فى أوربا أو فى آسيا عقب ضم مصر أثره فى أن ينشغل السلطان سليم بأحداث جسام قد تقلق أمن الدولة ، فالسلطان سليم مثلا لم يتسع له الوقت للبقاء بمصر أثناء مقامه بها ، لدراسة أحوالها ، ومن ثم التعرف على طبيعة الغزو البرتغالى عن كثب ، وذلك كله بسبب انشغاله بالخطر الصفوى الذى كان يهدد شرق الأناضول(٢) ، اضافة الى هذا يجب

---

(١) د. السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٢٩.

(٢) د. أحمد فؤاد متولى : الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته ٢٣١.

أن لا ننسى أن الدولة العثمانية كانت دولة عملاقة تمتد من المجر الى نهاية بلاد الشام فى حدودها مع العراق (١) ، وكانت مسئولية حكم هذه الشعوب الكثيرة المختلفة يدخل فيها الزود عنها بقتال القوى الأوربية ، وهو أمر كان صعبا الى حد انه لم يترك للسلطان من الوقت أو الأموال أو القوات الحربية سوى القليل يستخدمه فى محاولة اعادة تقويم طرق التجارة القديمة عبر الشرق الأوسط من الهند (٢) .

وابتداء من ٢٥ يوليو ١٥١٨ م كان السلطان سليم قد شغل بأمر اعداد الأساطيل الحربية لمهاجمة جزيرة رودس بحرا ، وفى الوقت نفسه كان يستعد أيضا لمحاربة الفرس عندما حشد قواته فى قيصرية (٣) ، ورغم تلك المشاغل الا أننا نستطيع القول أن السلطان سليم قد أبدى اهتماما كبيرا بهذا الطريق التجارى حتى انه أعد فى السنة التالية أسطولا غايته بلاد الهند لمحاربة البرتغاليين ومقره الاسكندرية ،وسعى لاجتذاب أمراء جنوب الجزيرة العربية اليه لولا أن داهمه الأجل . (٤)

---

(١) بلغت مساحة الأراضى التى شملتها الدولة العثمانية حتى عصر السلطان سليم ٢٠٠٠ر١٧٠ر١ كم٢ فى أوربا ، ١٩٠٥٠٠٠ كم٢ فى آسيا ، ٢٩٥٠٠٠٠ كم ٢ فى افريقيا . وقد كانت مساحة ولاية مصر وحدها تبلغ ٢٧٥٠٠٠٠ كم٢ .
— د . أحمد فؤاد متولى : الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته ٢٥٨ .

2. Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 88.

(٣) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ٧٨ .

(٤) ليلى الصباغ : الفتح العثمانى لسوريا ومطلع العهد العثمانى فيها ٤٨ ، ٤٩ — رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٠م .

وعلى الرغم كذلك من انشغال خليفته السلطان سليمان القانوني بمشاكل الدولة (١) ، الا أن ذلك لم يمنع أمراء مصر العثمانية من تحديد السياسة العثمانية الجديدة تجاه الخطر البرتغالى ، والتى يمكن حصرها فى النقاط التالية : أولا — الاهتمام بشئون مصر البحرية ، فمع وصول الأتراك الى مصر كان الأسطول المصرى قد ضعف تماما وأهمل نتيجة لظروف منها نقل السلطان سليم ضمن من نقلهم الى القسطنطينية أمهر الصناع فى بناء السفن حتى اضطرت دور الصناعة المصرية الى اغلاق أبوابها فانحط شأن الأسطول وسرح بحارته (٢) ، اضافة الى انقراض معظم سفن الغورى وضياع البعض فى حين حجز القادة المصريون ما بقى منها على شواطئ اليمن تحت قيادة الأمير سلمان الريس . (٣)

لهذا كان على القيادة العثمانية المصرية ونتيجة للضغط البرتغالى على البحر الأحمر أن تعمل من جديد فى سبيل بناء القوة البحرية المصرية تحت راية الهلال العثمانى ، وكانت بداية تأسيس الأسطول المصرى الجديد على يد الوالى العثمانى خاير بك الذى أمر بتشييد السفن فى دار الصناعة ببولاق عام ٩٢٦ هـ — ١٥٢٠ م ، ثم عرض أمامه ما أنتجته من مراكب وأغربة . (٤) وباعتلاء السلطان سليمان عرش الحكم نهج العثمانيون نهجا جديدا بأمر الثغور المصرية حيث تم ترتيب نظام مخصوص لادارة السواحل

---

(١) واجه السلطان سليمان عقب توليه العرش مشاكل عديدة مثل فتنة الغزالى الذى حاول الانفصال بالشام عن الدولة العثمانية اضافة الى فتحه مدينة بلغراد وجزيرة قبرص عام ١٥٢٢ م ومشاكله فى بلاد القرم ١٥٢٢م ، وفى اقليم الفلاخ ١٥٢٤ م .

(٢) د . سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ١٣٥ .

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار جـ ٢ ٣٧ .
— جميل خانكى : تاريخ البحرية المصرية ٢٠٨ .

(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار جـ ٢ ٣٧ .

المصرية التى قسمت بين ثلاثة قبودانات أحدهم لثغر دمياط والثانى لثغر السويس ، والثالث لثغر الاسكندرية ، وأصبح مرجعهم الأول والأخير السلطان العثمانى نفسه . (١)

ثانيا — توطيد النفوذ العثمانى على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر ، ولقد كان من الطبيعى أن تتفق سياسة العثمانيين مع سياسة المماليك القديمة فيما يتعلق بموقفهم حيال البرتغاليين وتجارة المحيط الهندى فى البحر الأحمر ، خاصة وأن السواحل الغربية للبحر الأحمر كانت تمثل ميدانا هاما للبرتغاليين ، فى وقت كان فيه بقايا دولة المماليك فى اليمن بمثابة مانع لارتكاز البرتغال على السواحل الشرقية عن طريق عدن وبالتالى اغلاق البحر الأحمر ، هذا فضلا عن بحث الأحباش المستمر وحاجتهم لقوة جديدة تساندهم فى صراعهم ضد مسلمى الامارات الذين باتوا يشكلون خطرا جسيما على الحبشة .

من هنا ندرك مدى الأهمية التي رمى من ورائها العثمانيون الى تعزيز سلطانهم على السواحل الغربية للبحر الأحمر ابتداء من السنوات ١٥١٩م فى وقت فشل فيه البرتغاليون عام ١٥١٧ م فى احتلال جدة وتهديد الأماكن المقدسة ، وبعدما علم العثمانيون بخطورة تلك الاتصالات التي كانت تجرى بين الحبشة والبرتغال ، هذا فضلا عن أن العثمانيين كانوا يعتبرون أنفسهم حماة للأماكن المقدسة ، وهو ماكان سائدا بين شعوب منطقة الشرق الأوسط عقب دخول السلطان سليم القاهرة ، لهذا لم يكن من الغريب أن يتمسك آل عثمان بذلك اللقب خاصة بعدما قدم لهم شريف مكة مفاتيح الكعبة

---

(١) د. سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ١٣٦ .

دليلا على خضوع الحجاز لهم ، فلم يتعد الأمر اتباع العثمانيين لخطة المماليك فى سبيل جعل البحر الأحمر بحيرة اسلامية حرصا على سلامة الأراضى المقدسة ، وتأمينا لطرق الحج اليها ، اضافة الى هذا فقد أثبتت الأحداث السابقة أن الاستقرار فى عدن واليمن بالنسبة للعثمانيين يستلزم انشاء قاعدة بحرية على الساحل الغربى لتموين قواعدهم فى مدخل البحر الأحمر ، وهو ما حرص عليه كل من حسين الكردى وسلمان الريس فى حملة المماليك الأولى والثانية كما ذكرنا من قبل ، لهذا اتجه السلطان سليم عقب استيلائه على مصر الى ارسال حملة بقيادة سنان باشا لضم سواكن ، حيث هدف من ذلك الى منع البرتغاليين من الاستيلاء عليها ومن ثم الانتفاع بمواردها الجمركية [١] ، كذلك استولوا على ميناء زيلع الذى كان له أهمية كبرى فى ربط ساحل البحر الأحمر بالداخل الذى يقوم عن طريق زيلع بتصدير منتجات البلاد الافريقية ، وأقاموا بها جمركا وكونوا أسطولا صغيرا لحماية الميناء . (٢)

ثالثا — اتجاه العثمانيين الى مد نفوذهم الفعلى الى اليمن ، والذى صادف وجود ثلاث قوى سياسية على أرضه تناحرت من أجل السيطرة ، ففى عدن كان الطاهريون فى نزاع مع الأئمة الزيدية الذين اقتسموا المرتفعات الشمالية ، وأخيرا بقايا المماليك فى السواحل اليمنية والمعترفين بالسيادة الاسمية للعثمانيين وممثليهم فى اليمن ، فالدولة الطاهرية ومع استقرار

---

(١) د. السيد رجب حراز : أرتيريا الحديثة ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ٧٥ .
رسالة ماجستير لم تنشر ، جامعة القاهرة .
— د. محمد المعتصم سيد : دول اسلامية فى شرق افريقية ٣٤ .

العثمانيين بمصر تطورت بها الأحداث السياسية كالتالى ، تحول صراعهم مع الامامية الزيدية الى صراع مع مماليك اليمن الذين فشلوا سابقا فى الحصول على عدن التى كانت تمثل بالنسبة لهم المركز الرئيسى أو القاعدة الأساسية للانطلاق منها الى الهند لمهاجمة المراكز البرتغالية فيها ، فبعد أن كانت الحروب بينهما فى السابق تأخذ طابع الحصار البحرى لعدن أصبح الفريقان الآن على استعداد للمواجهة البرية حول المدن والقرى ، ودارت حروب عديدة انتهت بانتصار المماليك حتى انتهى الأمر بقتل السلطان عامر بن عبد الوهاب بالقرب من صنعاء فى الثالث والعشرين من ربيع الثانى ٩٢٣ هـ — ١٥١٧ م (١) ، وبذلك انحسر نفوذ الطاهريين فى عدن وما حولها من قرى وأودية .

أما بالنسبة للمماليك فقد كانوا يبسطون نفوذهم على بعض جهات تهامة وعلى زبيد وتعز ، وما أن وصلتهم الأخبار بسقوط دولة المماليك ودخول السلطان سليم القاهرة ، حتى قام الأمير اسكندر زعيم الفئات الباقية باعلان بيعته للسلطان سليم فى الجامع الكبير بصنعاء ، وخضوعه هو ومن معه من المماليك فى اليمن للسيادة العثمانية (٢) ، وهذا بدوره ما جعل السلطان سليم يعترف به حيث أرسل اليه حكما سلطانيا بأن يكون واليا على اليمن من قبله ، فأطاع اسكندر وأظهر الشعار العثمانى ، وارتدى زى الأروام وخطب باسم السلطان سليم فى المساجد والمناسبات . (٣)

---

(١) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٩١ ، ٩٢ .

(٢) المرجع السابق ، ٩٥ .

(٣) النهروالى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ٣٣ .

أما الأئمة الزيدية فيبدوا أن نشوب الصراع بين الطاهريين والمماليك كان غاية أمانيهم فى سبيل أن يبدد الطرفان قوتهما حتى تحسم الأمور لهم ، وهذا ما أوجد للمماليك فريقا آخر انشغل بمشاغبتهم ، وانصرفوا هم بدورهم الى التعمق داخل البلاد كمحاولة فى سبيل القضاء على مراكز الأئمة الزيدية فى المرتفعات الشمالية .

تلك هى صورة اليمن مع بداية العهد العثمانى فى العالم العربى ،خاصة وأن النظرة العثمانية تجاه اليمن لم تكن تختلف عن نظرة المماليك باعتبار أن السواحل اليمنية تشكل الخط الدفاعى الأول للزود عن البحر الأحمر والأماكن المقدسة ، فاليمن بحكم موقعها الممتاز فى جنوب الجزيرة العربية ، ولقربها من مدخل البحر الأحمر وخاصة باب المندب يوفر للدولة العثمانية ميزات ثلاث منها امكانية الحصول على موقع مناسب لمواجهة الأساطيل البرتغالية فى المياه الجنوبية ، كذلك امكانية ضمان سلامة الأماكن المقدسة ، وأخيرا موقع مناسب يتم من خلاله محاولة تطويق الفرس من الجنوب (١) ، ورغم تلك الاستراتيجية التى نظمها العثمانيون فى سبيل مواجهة البرتغاليين عن طريق فرض سيطرتهم على اليمن الا أنه من الملاحظ أن خطواتهم تجاه ذلك لم تكن بحجم النظرة الاستراتيجية لليمن أى أن خطوات تنفيذ سيطرتهم على اليمن كانت ضعيفة ولم تأخذ طريقها الى الظهور الا فى وقت متأخر عام ١٥٣٨ م كما سنرى فيما بعد ، وليس معنى ذلك أنهم أهملوا اليمن ، أو لم يرسلوا اليه القوات اللازمة ، ولكن القصد هنا انه على الرغم من خروج حملات من جدة وأحيانا من السويس لأجل فرض السيطرة الفعلية على اليمن ،

---

(١) د. فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ٤٩ .

فانها لم تأت جميعها فى ضخامة الحملة التى ستخرج بقيادة سليمان باشا الخادم فيما بعد ، ولعل ذلك راجع الى عامل مهم ألا وهو انشغال الامبراطورية العثمانية بأخطار القوى الأوربية التى قد تستغل فرصة اهتمام سليم أو سليمان فيما بعد بالخطر البرتغالى فتقوم بازعاجه عبر الحدود الأوربية العثمانية حتى تتمكن من تحقيق هدفين على ما يبدوا ، أولهما هو محاولتهم الحصول على مكاسب جديدة ، ومن ثم ارجاع الأتراك الى داخل آسيا الصغرى ، والثانية هى محاولة تخفيف العبء عن البرتغاليين فى سبيل زيادة نفوذهم ونشاطهم البحرى هناك.

ولعل من أولى الدلائل التى قد تفسر لنا اهتمام العثمانيين بمد نفوذهم الفعلى على اليمن هى جعلهم من مدينة جدة [1] القاعدة الأساسية فى سبيل انطلاقهم الى اليمن وفرض السيطرة عليه ، وما لبث خاير بك حاكم مصر أن أصدر أوامره فى ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠م الى نائب جدة حسين الرومى بأن يضم اليه ولاية السواحل اليمنية الى جانب ولايته لجدة [2] ، وبذلك رتبت الدولة العثمانية الخطوات الأولى لفرض سيطرتها على اليمن ، ولم يتبق لها سوى تنفيذها على الواقع ، والذى بدأ فى نفس السنة عندما خرج حسين الرومى نائب جدة بحملة صغيرة الى ميناء البقعة اليمنى ، الا أن حسين الرومى لم يوفق فى ذلك بشىء خاصة بعدما رأى مدى استعداد مماليك اليمن بقيادة اسكندر المخضرم لمقاومته فآثر السالمة وعاد الى

---

(١) عقب دخول الأتراك العثمانيين القاهرة أضحت جدة سنجقا كان أول من تولاه من قبل العثمانيين هو الأمير قاسم الشروانى ، ثم خلفه بعد وفاته الأمير حسين الرومى .

النهروالى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ٣٤ .

(٢) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٣٠ .

جـدة [١] ، كان ذلك فى وقت توفى فيه السلطان سليم وحل مكانه ابنه سليمان الذى شغل بالحركة الانفصالية التى قام بها نائب الشام جان بردى الغزالى ولكن حسين الروسى ما لبث أن عاد الى اليمن مرة أخرى يحدوه الأمل فى الاستفادة من الفتن التى قامت فى اليمن بين المماليك والتى انتهت بقتل اثنين من الزعماء هم اسكندر المخضرم ورمضان الرومى ، وحلول اثنين مكانهما وهما على الطويل واسكندر القرمانى [٢] ، ويجب أن نشير هنا الى نقطة هامة ، وهى ظهور سلمان الريس على مسرح الأحداث السياسية فى البحر الأحمر مرة أخرى ، ويمكن أن نضيف قصة ظهوره كعامل ثان ساعد حسين الرومى على محاولة العودة ثانية الى اليمن ، والذى كثيرا ماكان يغرى حسين الرومى على ضرورة نزوله اليمن والاستيلاء عليها [٣] ، وهذا بدوره مما يؤدى الى اضطراب الأوضاع السياسية فى اليمن ، فسلمان الريس شخصية ذات نفوذ فى اليمن ، وربما لعب ذلك الدور طمعا فى أن تعينه الدولة العثمانية واليا على اليمن بحكم خبرته السابقة بالأوضاع السياسية فى تلك المنطقة من خلال عمله كقائد بحرى زمن الدولة المملوكية ، اضافة الى أنه كان يطمع فى أن تنصره الفئات العثمانية القديمة التى تطوعت فى حملة المماليك الثانية والأخيرة ، والتى بقيت على ولائها للدولة العثمانية عقب دخول السلطان سليم القاهرة .

---

(١) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٤٨ .
— جاء فى كتاب الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، القسم الثانى ٦٦٣ أن حسين الرومى عاد الى جدة بسبب أخبار تفيد بوصول حملة برتغالية الى البحر الأحمر ففضل حسين الرومى العودة الى جدة للدفاع عنها .

(٢) النهروالى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى

(٣) المرجع السابق ، ٣٨ .

جرت الأحداث بعد ذلك سريعا حيث تمكن سلمان الريس بما له من خبرة سابقة من استمالة بعض العناصر اليمنية الى صفوف حسين الرومى[١]، الذى نجح فى الدخول الى زبيد وتأمين الناس على أموالهم وأرواحهم ، وهنا ظهرت شخصية سلمان الريس على حقيقتها أمام حسين الرومى حينما حاول سلمان الريس الانفراد بالسلطة فى زبيد ، وهذا ما أدى الى نشوب الخلافات بين الشخصيتين ، انتهى الى تصدى حسين الرومى لمحاولات سلمان بالانفراد بالسلطة والذى فر الى القاهرة لاثارة الادارة العثمانية عليه هناك[٢]، وبذلك هدأت الأحوال السياسية فى اليمن لأول مرة منذ وصول المماليك ، وظلت كذلك حتى توفى حسين الرومى فى عام ٩٣٢ هـ / ١٥٢٦م.

وهكذا مرت السنوات بداية من دخول الأتراك القاهرة وحتى عام ١٥٢٦م اعتمد فيها أمراء القاهرة على حكام جدة فى بسط نفوذ الدولة العثمانية على اليمن ، والواقع أننا لا نستطيع أن نتهم الدولة العثمانية وخاصة فى الفترة السابقة بأنها قصرت فى سبيل مد نفوذها الفعلى عن طريق حملة كبرى ، لأن واقع الأحداث السياسية التى كانت تمر بها الدولة العثمانية كان يضطرها الى تركيز جهودها فى تلك الفترة على القوى البرية التى حاولت سواء فى آسيا أو فى أوربا أن تنال منها ، فلو تتبعنا الأحداث السياسية من عام ١٥٢٠م وهى السنة التى تولى فيها السلطان سليمان مقاليد الحكم وحتى عام ١٥٢٦م لوجدنا أنها كانت عامرة بحروب واستعدادات بحرية

---

(١) د. السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٣٢ .
(٢) المرجع السابق ، ١٣٣ .

وبرية وأموال تصرف فى سبيل أعداد الجند والعتاد اللازم للفتح أو الصد .

وعودة الى القاهرة نجد أن الأمور من حيث النظرة العثمانية تجـــاه الاستراتيجية الحربية للدولة العثمانية قد طرأ عليها نوع من التطوروالتجديد من خلال النقاط التالية : أولا — فى عام ١٥٢٤ م أى قبل وفاة حسـين الرومى والى اليمن بسنتين أرسل السلطان سليمان (١٥٢٠ — ١٥٦٦م) الصدر الأعظم ابراهيم باشا لتنظيم النواحى الادارية فى كل من الشام ومصر وهنا ورغم انشغال السلطان سليمان بمشاكل دولته مع اقليم الفلاخ وارسـال الجيوش الى عاصمة ذلك الاقليم ، نلاحظ مدى اهتمام الدولة بالخطر البرتغالى عندما قام الصدر الأعظم باتخاذ السويس القاعدة الأساسية لعمليات الدولـة الحربية فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ضد البرتغاليين بعد أن تـم تنظيم شئونها البحرية (١)، ثانيا — نجاح سلمان الريس فى اثـــارة الصدر الأعظم ابراهيم باشا على حسين الرومى ونجاحه فى اقناعه بارســـال حملة معه لدفع أذى البرتغاليين وأخذ اليمن وتحصيل الأموال لخزائــن السلطنة العثمانية (٢) ، وعلى الرغم من تلك المساعى التى بذلها سلمـا ن الريس فى سبيل خروج حملة جديدة من مصر يتولى قيادتها ، الا أن مساعيه تلك فشلت عندما أسند اليه الصدر الأعظم قيادة الأسطول فقط ، فى حـين تولى القيادة العامة خير الدين حمزة الى جانب نيابته فى زبيد (٣) ، وتكونـت الحملة من عشرين سفينة تحمل أربعة آلاف جندى ملفق أى من كل نـــوع وفى شهر رمضان ٩٣٢ هـ — ١٥٢٦ م وصلت الحملة الى جدة ومنها الـى اليمن ، ومع وصول الحملة نشبت الفتن بين الطرفين كما هى العادة فـى

---

(١) د. السيد رجب حراز : أرتريا الحديثة ٢٨ .

(٢) النهروالى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحات .

الفترات السابقة ، بعدما رفض مصطفى الرومى الذى خلف حسين للرومى فى تسليم نفسه الى سلمان الريس ، وانتهت تلك الحروب بانتصار سلمان الريس لتنشب مرة أخرى بين القادة الجدد أى سلمان الريس وخير الدين حمزة الذى نجح فى قتل سلمان الريس عام ٩٣٤ هـ ــ ١٥٢٨ م (١) ، واستمرت مسرحية القتل والنزاع بين القادة ، فعندما علم مصطفى بيرم ابن أخت سلمان الريس بقتله سارع مستعينا ببعض بحارة الأسطول وهاجم خير الدين حمزة وقتله . (٢)

كان من جراء تلك الفتن والحروب بين المماليك التى عاش فى ظلها مصطفى بيرم السابق ذكره أثرها الفعال فى نفسيته عندما أدرك خطورة بقائه وما قد يجر عليه من مؤامرات من أنصار خير الدين حمزه أو غيرهم من المماليك الذين اعتادوا حياة العصيان والمشاكسة على أرض اليمن ، خاصة وأنه كان يعلم علم اليقين أن من أهداف الحملة التى خرج معها تحت قيادة خير الدين حمزة وخاله سلمان الريس هى التصدى للغزو البرتغالى فى المحيط الهندى ، وخوفا على نفسه من الانسياق وراء مشاكل الولاية فى اليمن ، اضافة الى ما قد يؤدى ذلك الى تهديد قوة الحملة وما بقى منها تحت قيادته فى حروب على أرض اليمن قد تطول ولا تنتهى ، قرر الخروج الى الهند والعمل فى خدمة سلطان كجرات ، وجهاد البرتغاليين هناك بعيدا عن مشاكل اليمن ، فأعد عدته وخرج بما تبقى من أسلحة وسفن بعد أن ترك على اليمن على الرومى واليا عليها (٣) ، وقبل أن يخرج من البحر الأحمر عمل على

---

(١) النهروالى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) الموجع السابق ، ٥٣ .

(٣) المرجع السابق ، ٥٤ ، ٥٥ .

تحصين جزيرة كمران وتزويدها بما تحتاجه ، ومن ثم اتجه الى الهند حيث وفد على السلطان بها دورشاه صاحب كجرات الذى أكرمه وعينه حاكما لديو ولقبه رومى خان (١) ، وظهرت جهوده ومقدرته فيما بعد عندما تمكن من صد غارة برتغالية للاستيلاء على ديو مما أدى الى رفع شأنه بالهند . (٢)

وبسفر حملة مصطفى بيرم الى الهند ٩٣٦ هـ — ١٥٣٠ م نستطيع القول أن الدولة العثمانية وعلى الرغم من مشاكلها فى أوربا قد تمكنت من فرض وجودها فى البحر الأحمر بطريقة مكنتها من دراسة الأماكن التى وصلتها وفى الوقت نفسه عرفت القوى السياسية سواء فى البحر الأحمر أو المحيط الهندى أن الدولة العثمانية ليست كسابقتها جدارا يمكن صعوده ، فان فشلت تلك الحملة فى بسط النفوذ الفعلى للعثمانيين على اليمن كما سنرى فيما بعد ، فانها أى الدولة أثبتت أن لديها قادة يمكن الاعتماد عليهم فى سبيل مواجهة البرتغاليين ، ولا أدل على ذلك سوى خروج مصطفى بيرم الى الهند وكان هذا بامكانه البقاء فى اليمن ، والانغماس فى دائرة الفتن والحروب الأهلية ، ومن واقع الأحداث السابقة التى مرت بها الحملة فى اليمن ، ومع اشتداد الخطر البرتغالى أصدر السلطان سليمان القانونى عقب فترة وجيزة من سفر مصطفى بيرم الى الهند ٩٣٧ هـ — ١٥٣١ م أوامره

---

(١) النهروالى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ٥٥ .

(2) Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 59.

الى سليمان باشا الخادم حاكم مصر باعداد أسطول للخروج الى البحر الأحمر (١) ،
فعلى الرغم من علم السلطان سليمان بسفر حملة مصطفى بيرم الى الهند ،
وكان عليه أن ينتظر النتائج لتلك الحملة ليقرر بعدها حجم الحملة الجديدة
والنقاط التى يجب تقويتها لتغطية ماقد يظهر من ضعف فى الحملات السابقة
الا أننا نجده يسرع فى اعداد تلك الحملة دون انتظار لأى نتيجة مدركا
بأن ضرب البرتغاليين فى عقر دارهم أمر ضرورى لمواجهتهم ، خاصة
وأنه لم تكن قد هدأت أحوال جيوشه منذ لحظة عودتها من أسوار فينا
عام ١٥٢٩ م بعد سلسلة طويلة من الحروب مع الامبراطورية النمساوية (٢) .

وعودة الى الاستعدادات لتلك الحملة فاننا نجد أن القادة قد
عانوا صعوبات مختلفة بنقل المواد التى يحتاجها بناء الأسطول ، ولكن
تغلب عليها تصميم القائمين على الأمر ، ولما لم يكن هناك خشب فى
مصر أو سوريا أو بلاد العرب فقد اضطر الأتراك الى نقل الخشب من خليج

---

(١) نص الفرمان السلطانى المرسل الى سليمان باشا الخادم " عليك يابيك البكوات (بكلر بك) بمصر سليمان باشا ، أن تقوم فور تسلمك أوامرنا هذه بتجهيز حقيبتك وحاجاتك واعداد العدة بالسويس للجهاد فى سبيل الله ، حتى اذا تهيأ لك اعداد أسطول وتزويده بالعتاد والميرة والذخيرة وجمع جيش كاف ، فعليك أن تخرج الى الهند وتستولى وتحافظ على تلك الأجزاء ، فانك اذا قطعت الطريق وحاصرت السبل المؤدية الى مكة والمدينة تجنبت سوء ما فعل البرتغاليون وأزلت رايتهم من البحر " .
— ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٥٠ ، ٥١ .

(٢) د . محمد كمال الدسوقى : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ٥٧ .

آياس الى الاسكندرية ودمياط والقاهرة بالمراكب ، ومن هناك على الجمال الى السويس التى كانت فى حاجة الى الطعام والماء (١) .

ولم تلبث مشاكل الدولة العثمانية مع أعدائها الصفويين الألداء والقريبين من حدودها فى آسيا ومن حدود العالم العربى أن ظهرت مرة أخرى عندما استنجد حاكم بغداد بالسلطان سليمان ضد شاه فارس ، وهذا ما أدى بالتالى الى نشوب الحرب بين الدولتين حينما اندفعت الجيوش العثمانية فى الثالث عشر من يوليو ١٥٣٤ م واستولت على مدينة تبريز عاصمة الشاه (٢) ، واستمرت فى طريقها ووصلت الى سواحل الخليج العربى ، وبوصول العثمانيين الى تلك السواحل أصبحوا فى موقف مواجه للبرتغاليين ، وعلى الرغم من قربهم من تلك السواحل الا أنهم فضلوا أن تبقى السويس القاعدة الأساسية لحملاتهم باعتبار أن البحر الأحمر هو المجال الحيوى للبرتغاليين لتنفيذ أطماعهم الصليبية والاقتصادية ، وكان السلطان سليمان بعدما أمر باعداد تلك الأساطيل السابقة الذكر قد طلب من سليمان باشا أن يلحق بالحملة العثمانية الى العراق ومعه خراج مصر (٣) ، اضافة الى ذلك فهناك عامل مهم ساعد السلطان سليمان على الاسراع بارسال سليمان باشا ألا وهو وصول استغاثات من الهند عندما أرسل ملك كمبايا Cambaya يطلب معونته ضد البرتغاليين ، كذلك أرسل يستغيث به بهادور شاه صاحب كجرات الذى ما لبث أن قتل على أيدى البرتغاليين غدرا ، وهذا بدوره ما أثار السلطان وتحركت حمية الاسلام فى نفسه لدى سماعه ذلك الخبر فأخذ يستحث سليمان باشا على ضرورة الاسراع الى الهند بعد أن زود الحملة

---

(1) Stripling: The Ottoman Turks 90.

(٢) د. محمد كمال الدسوقى : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ٥٨ .

(٣) د. السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٣٨ .

بمدافع كثيرة وآلات للحرب (١).

وهنا يجب أن نذكر أن النظرة العثمانية تجاه سياستهم فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، من خلال ضخامة تلك الحملة التى تعتبر من أضخم الحملات التى أرسلها العثمانيون من السويس ، والواقع أن ذلك يبدو لنا من خلال أهدافهم وخططهم تجاه مستقبل الطريق التجارى طبقا لتوقعاتهم بنجاح حملتهم تلك ، وان كانوا لم يحسنوا الاختيار لمنصب القيادة شخصية تتسم بالجرأة والشجاعة (٢) ، أو أشخاص عاشوا ومارسوا الفنون البحرية فى البحار خاصة بعدما انضم خير الدين باربوسا ورفاقه الى صفوف الدولة العثمانية ، فكان لابد والأمر كذلك من اختيار أحد هؤلاء المجاهدين فى البحر الأبيض المتوسط لقيادة الأساطيل العثمانية الجديدة وأول تلك الأهداف هى امكانية الاستفادة عند وصول الحملة الى الهند من هؤلاء الحلفاء الهنود خاصة وأن الحملة تعتبر فى حكم الغيب ، باعتبارها تبعد آلاف الأميال عن قاعدتها الأساسية فى السويس ، ثانيا : تحقيق زعامتهم على العالم الاسلامى (٣) ، ثالثا : ضرورة فرض سيطرة الدولة العثمانية على البحر الأحمر وتأمين قواعدهم على سواحل اليمن قبيل الخروج الى الهند ، ويلاحظ هنا تركيز الحملة على ضرورة الاستيلاء على عدن باعتبارها

---

(1) Sousa: The Portuguese Asia I 433.

— الصديقى (محمد أبى أكرم البكرى) : المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية (مخطوطة) ورقة ١٧ .

(٢) كان سليمان باشا الخادم جندى انكشارى يونانى ولد فى جزيرة موريا Morea وكان يبلغ من العمر ثمانين سنة ، وكان يحتاج لأربعة أشخاص لمعاونته على القيام ، وكان مشهورا بسفك الدماء خوارا جبانا .

(٣) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٤٠ .

قاعدة أمامية ومناسبة للدولة العثمانية للقيام بعملياتها الحربية فى الهند ، ومن ثم اعتراض السفن التى قد تحاول الدخول الى البحر الأحمر لتهديد الأماكن المقدسة .

وكانت استراتيجية الاستيلاء على عدن نابعة أساسا من ثلاث عوامل مهمة وهى أولا : الموقع الجغرافى ، ذلك أن وجود عدن على الساحل الجنوبى للجزيرة العربية قد حباها بعديد من المميزات مثل كونها ميناء طبيعى ممتاز ، فهى عبارة عن حائط من صخور نارية ورمال قاحلة [١] ، لهذا فقد ركز العثمانيون أنظارهم عليها ، اضافة الى أن التحصين الطبيعى الذى حبته به الطبيعة كان يجعل الدفاع عنها أمرا سهلا ميسورا بالنسبة لمن يسيطر عليها [٢] ، وأخيرا خشية العثمانيين من وقوعها فى أيدى البرتغاليين والتى كانت بالنسبة لهم قاعدة مناسبة وقريبة لاغلاق البحر الأحمر نهائيا فى وجه السفن التجارية والحربية ، ومن ثم تهديد الأماكن المقدسة .

ثانيا : التقارب ما بين ايران والبرتغال ، ولعل هذا العامل من أكثر العوامل فعالية فى سبيل توجيه العثمانيين أنظارهم الى عدن والاستيلاء عليها ، لأن ذلك يعنى أن الأساطيل العثمانية بامكانها التحرك من عدن والدخول الى الخليج العربى لاغلاقه ومن ثم افساد أية محاولة قد يقوم بها الطرفان فى سبيل التحالف [٣] ، وتوحيد الجهود العسكرية ضد الدولة

---

(١) د. محمدعبداللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٣٧ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ، ١٤١ .

العثمانية وممتلكاتها فى الشرق ، ولعل بداية الجذور التاريخية لتلك التحالفات قد بدأت (١) فى الأشهر الأولى من تولى البوكرك منصب نائب ملك الهند ١٥٠٩ م عندما أرسل رسالة هامة الى شاه فارس (٢) مع أحد قادته ويدعى روى جوميز يعرض فيها على الشاه مشروعاً يقضى بأن تأخذ فارس مصر وتأخذ البرتغال فلسطين كثمرة لهذا التحالف ، غير أن هذا المشروع قضى عليه فى مهده عندما قام سكان هرمز باغتيال مبعوث البوكرك خشية أن يضحى ببلادهم فى حالة نجاح مهمة المبعوث البرتغالى (٣) ،

لم تكن الظروف السياسية تسمح للبوكرك أن يتابع مثل هذه الاتصالات فقد انشغل بمهمة انجاح خطوات السيطرة البرتغالية التى تمثلت فى استيلائه

---

(١) يمكن القول أن فكرة استعانة البرتغاليين بالفرس كانت قد تبلورت فى البلاط البرتغالى ذاته عندما اقترح بيرس (أحد مفكرى البرتغال فى بداية القرن السادس عشر الميلادى) على ملك البرتغال عما نويل أن يتحالف مع اسماعيل شاه فارس لأن هذا الأخير كان مخاصما للعثمانيين ، ويقول يكفينا أن ايران تعارض محمداً .
— د . قيصر أديب مخول : الاسلام فى الشرق الأقصى ١٣٨ .

(٢) نص الرسالة المرسلة من البوكرك الى شاه فارس " انى أقدر لك احترامك للمسيحيين فى بلادك ، وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك فى الهند ، واذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو أن تهاجم مكة فستجدنى بجانبك فى البحر الأحمر أمام جدة أو فى عدن أو فى البحرين أو القطيف أو البصرة ، وسيجدنى الشاة بجانبه على امتداد الساحل الفارسى وسأنفذ له كل ما يريد .
— د . صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ١٧ .

(٣) د . عبد العزيز نوار : الشعوب الاسلامية ١٣٥ .
— د . صلاح العقاد: التيارات السياسية فى الخليج العربى ١٧ .

على جوا وملقا وهرمز كما ذكرنا من قبل ، ولكن ما ان هزمت فارس فى موقعة جالديران ١٥١٤م أمام السلطان سليم الأول حتى كان الفرس أنفسهم أكثر استعدادا وتقبلا من قبل للتحالف مع البرتغاليين لتغطية نتائج هزيمتهم فى جالديران ، وبدأت تلك الاستعدادات للارتباط بالبرتغال عقب استيلاء البوكرك على هرمز ١٥١٥م عندها ارتبطت الدولتان بمعاهدة نصت على ما يلى : أولا — تقدم البرتغال أسطولها لمساعدة الشاه فى حملته على البحرين والقطيف ، ومقابل ذلك يعترف الشاه بالحماية البرتغالية لهرمز وأن لا يتدخل فى أمورها الداخلية ، اضافة الى تنازله عن ميناء جودار على ساحل بلوشستان (١) ، ثانيا — تتحد الدولتان لمواجهة الدولة العثمانية ، ثالثا — تتعاون البرتغال مع فارس فى اخماد حركات التمرد فى بلوجستان ومكران ، رابعا — يتعهد البرتغاليون بفتح جوا أمام التجار الفرس (٢).

وعلى الرغم من وفاة البوكرك صاحب التعصب الصليبى الشديد ضد المسلمين ، والذى يمكن القول معه أن مشروع التحالف قد دفن معه الا أننا لا نستطيع أن نستبعد احتمال احياء ذلك المشروع فيما اذا وصلت شخصية قوية الى منصب نائب ملك الهند ، خاصة وأن الظروف السياسية بين الدول الثلاث (الصفوية ، البرتغالية ، العثمانية) كانت تملى ذلك.

---

(١) د. صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ١٨.
— د. بديع جمعه ، د. أحمد الخولى : تاريخ الصفويين وحضارتهم ج ١ ٩٧.

(٢) د. صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ١٨.
— د. بديع جمعه ، د. أحمد الخولى : تاريخ الصفويين وحضارتهم ج ١ ٩٧.

فالعثمانيون تتسع شقة الخلاف بينهم وبين الصفويين ، أما البرتغاليون فتضيق شقة الخلاف بينهم وبين الصفويين ان كانت موجودة فعلا ، وهذا ما جعل من الضرورى قيام التحالف بين الطرفين ، فالبرتغاليون يدركون تماما معنى وصول حملة عثمانية الى الهند ، وفى الوقت نفسه يدركون معنى هزائم الفرس ، ومحاولة العثمانيين الوصول الى الخليج العربى ، اذا كان لابد للبرتغاليين من التمركز . أما فى الخليج العربى أو البحر الأحمر ، وان كانوا يفضلون عدن باعتبارها تحقق لهم أهدافا عديدة فهى قريبة من حلفائهم التقليديين الأحباش ، وهى موقع مناسب لغلق البحر الأحمر ، وأخيرا نقطة هامة لاثارة الدولة العثمانية عن طريق تهديد الأماكن المقدسة ، ولم يمن ذلك أن يتخلى العثمانيين عن فكرتهم الخاصة بعدن ولكن تحسبا للطوارئ ، وخوفا من أن تتجدد تلك المحاولات صمم العثمانيون على احتلال عدن ، خاصة وأن الأنباء قد كثرت عن تقديم حكام عدن المساعدة للبرتغاليين وسواء أصحت تلك الأخبار أو لم تصح فان الخوف من وقوع عدن بأيدى البرتغاليين قد ساعد على زيادة تصميم العثمانيين على أخذ عدن وضمها الى رقعة الدولة العثمانية ، كذلك وصول أخبار أكدت للسلطان سليمان مدى قوة التعامل بين الطرفين أثناء زحفه على بغداد ، وبأن الفرس قد تلقوا معونات حربية ، اضافة الى وصول بعض العمال والفنيين البرتغاليين لتعليم الفرس صناعة المدافع الكبيرة ، وكيفية استخدامها . (١)

وفق هذه الأهداف تحركت حملة سليمان باشا الخادم من السويس فى الخامس عشر من محرم ٩٤٥ هـ — ١٣ يونية ١٥٣٨ م ، وبعد سبعة أيام

---

(١) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٣٩ .

وصل سليمان مع عساكره الى جدة ، واضطربت لخشيته البلاد ، الا أنه تمكن من ضبط العسكر أقوى ضبط ولم يسمح لأحد النزول فيها [(١)] ، وفى العشرين من يوليو ١٥٣٨ م وصلت الحملة الى كمران حيث أرسل سليمان سفن الى عدن وزبيد وسلطان الشحر فى جنوب الجزيرة العربية يأمر فيها قادتها بالدخول فى طاعة العثمانيين ، وأن يكونوا على استعداد لتزويد أسطوله بكل ما يحتاجه من مؤن ، كذلك الاستعداد لدفع الجزية للسلطان وقد قبل سلطان الشحر بدر الطويرق ذلك أما السلطان العدنى عامر بن داود فقد راوغ وتعمد ألا يرد ردا محددا على رسول سليمان باشا اليه مما أحرج موقفه أمام سليمان باشا [(٢)] ، خاصة بعد أن قام الامام شرف الدين الزيدى وولده مطهر بالكتابة الى سليمان بأن السلطان عامر بن داود مداهن للأفرنج ، وأنه يريد ادخالهم عدن فوقع كلامهما فى قلب سليمان باشا أشد موقع [(٣)] ، وبيت لذلك أمر سنراه فيما بعد .

أما فيما يختص بسواحل اليمن فقد كان للحروب الأهلية بين زعماء المماليك أن مهدت الطريق أمام سليمان باشا لبسط نفوذ الدولة العثمانية

---

(١) النهروالى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ٧٨ ، ٧٩ .

(2) Playfair: A History of Arabia Felix 101.

- د . فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ٥١ .

(٣) أبى المحاسن عبد الباقى عبد المجيد : الاحسان فى دخول مملكة اليمن تحت ظل آل عثمان ، ورقة ٨ ، ٩ (مخطوطة) .

على السواحل نظرا لأن تلك الحروب قضت على معظم الزعماء الأقوياء من المماليك (١) ، وتابعت الحملة طريقها حيث وصلت عدن فى الثالث من أغسطس ١٥٣٨ م ، وهناك طمع عامر بن داود فى نصرة سليمان باشا له على الامام شرف الدين الزيدى ، فمناه سليمان باشا ذلك وأظهر له الرغبة فى اسعاده ، واستأذن عامرا فى دخول العسكر لقضاء حوائجهم وطلب منه الحضور الى سفينته للتفاوض ، ولم يعلم عامر بتلك الخدعة الا بعد أن شاهد المشاعل وهو يعد له الحبل الذى سيشنق به على سارية السفينة هو ووزيره ومن معه فى وقت كان فيه الجند قد أنهوا استيلاءهم على عدن (٢) .

وبعد أن أنهى سليمان باشا احتلاله لعدن قام بتحصينها وعين عليها أحد ضباطه بهرام باشا ، بعد أن زودها بحامية من ٦٠٠ جندى ، ومن ثم اتجه بسفنه الى الهند مارا بالمكلا والشحر التى أسر عندها أسطولا برتغاليا من ست سفن وأسر معها مائة وستين برتغاليا (٣) ، وقبل أن نتابع رحلة سليمان باشا الى الهند يجب أن نشير هنا الى نقطة هامة وهى أن الحملة قد حملت معها فى طريقها الى الهند احدى عوامل ضعفها الا وهى الطريقة الغادرة التى قام بها سليمان باشا فى سبيل بسط نفوذ

---

(١) د • السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٣٧ •

(٢) السيد عبد الله الموزير : جامع المتون فى أخبار اليمن الميمون (مخطوطة) ورقة ١٧٥ •

— نور الدين عيسى بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح (مخطوطة) ورقة ٢٩ •

(3) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 84.

— د • محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٥٤ •

الدولة العثمانية على عدن ، بحيث وصلت تلك الأخبار الى هناك قبيل وصوله مما جعل الدولة العثمانية مفقودة الثقة بين أهالى الهند ، هذا بخلاف أن ذلك يعنى ضياع فرصة كبيرة لتكوين جبهة اسلامية فى البحار العربية الجنوبية والمحيط الهندى لاقتلاع البرتغاليين (١) ، كذلك كانت الأوضاع السياسية فى السواحل الهندية عاملا مساعدا على عدم ايجاد خطة معينة للعمل المشترك بين الحلفاء لمواجهة البرتغاليين ، وكانت هناك ثلاث عوامل مهمة تتهدد الهند أو بالأحرى تقودها الى هاوية لا يعرف لها قرار ، فالبرتغاليون مثلا يسعون الى تثبيت أقدامهم على السواحل ويحيكون المؤامرات للاطاحة بالنظم السياسية القائمة على السواحل الهندية فقاليقوط اضطرت ازاء الضغط البرتغالى فى بعض الأحيان الى عقد الصلح مع البرتغاليين (٢) ، وقبيل وصول سليمان باشا بفترة وجيزة وقعت معركة بحرية بين الزامورين والأسطول البرتغالى تمكن خلالها القائد البرتغالى مارتن دى سوزا Martin de Soiza من تشتيت الأسطول الهندى (٣) ، أما فى داخل البلاد فقد كان هناك خطران يهددان السواحل الهندية أولهما خطر الغزوات المغولية والذى أثر بصفة عميقة على كجرات أهم الولايات الاسلامية على الساحل الغربى للهند ، حيث تعرضت أواخر عام ٩٤١ هـ - ١٥٣٤ م لهجوم همايون أكبر سلطان المغول مما أدى الى اضعافها (٤) ، أما الخطر الثانى فيتمثل فى الولايات

---

(١) د. فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ٥٢.
- Stripling : The Ottoman Turks and the Arabs 91.
- النهروالى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ٨١.
(٢) د. محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٤٠.
- د. السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٤١.
(٣) د. عبد العزيز نوار : الشعوب الاسلامية ١٤١.
(٤) د. السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٤٠.

الهندوكية التى كانت كثيرا ما تنتهز الفرص لشن الحروب وكسب أراضـى جديدة ٠ (١)

تلك هى الحالة العامة للهند أثناء خروج سليمان باشا من عـدن ٠ والغريب فى الأمر أن البرتغاليين سمعوا بأنباء حملة الأتراك قبيل خروجها من عدن ٠ بحيث صدرت الأوامر من القيادة البرتغالية فى الهند بـأن كل سفينة برتغالية تدخل موزمبيق فى افريقية الشرقية عليها أن تمضى الى ديو وتترك بعض رجالها لحماية القلعة التى حصنت تماما ٠ وزودت بست سفن مسلحة لمقاومة هذا الغزو المرتقب (٢) ٠ وعودة الى سليمان باشا نجـده قد وصل الى ديو أوائل سبتمبر بعد أن فقد حوالى ست سفن فى الطريـق الى الهند ٠ وهناك وجد حلفاءه من مسلمى سلطنة كجرات يحاصـرون (٣) البرتغاليين فى قلعة ديو لستة وعشرين يوما قبيل وصوله اليهم ٠ وعندمـا وصل الى مظفر أباد القريبة من ديو أرسل السلطان محمود الذى خلـف (٤) بهادور شاه اليه أحد قادته للقيام بخدمته ولمده بالمؤن والذخـيرة ٠ وعندما وصل سليمان الى ديو أنزل فرق الانكشارية لمساعدة الوحـدات (٥) الهندية فى حصار القلعة ٠ وهنا سارع حاكم ديو الخواجا صفر الى الاتصال

---

(١) د ٠ محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٤٠ ٠

(2) Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 91.

(3) Sousa: The Portuguese Asia II 434.

- Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 91.

— يجب أن نشير هنا الى أن مدينة ديو كانت بأيدى المسلمين ٠ أمـا القلعة فكانت بأيدى البرتغاليين ٠

(٤) د ٠ محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٥٤ ٠

(٥) أحد القادة الذين رافقوا مصطفى بيرم فى حملته الى الهند ٠ وقـد تولى حكم مدينة ديو عقب وفاة مصطفى بيرم ٠

بسليمان باشا وتقديم معونته اليه فى سبيل توحيد جهودهما معا ، ولكنه لم يحاول الاجتماع بسليمان خوفا من غدره كما فعل بعامر بن داود (١) ، ومع اشتداد مقاومة قلعة ديو (٢) للقوات المتحالفة ، قرر سليمان باشا النزول فى اليوم الثامن من وصوله للاشراف على حصار القلعة بعد أن أحكم حصارها بمجموعة كبيرة من المدفعية . (٣)

بدأ الهجوم للقوات المشتركة على قلعة ديو ، ولكن المقاومة البرتغالية كانت ذات فعالية بحيث فشل الهجوم واضطر سليمان الى الانسحاب بعد أن فقد من رجاله نحو أربعمائة جندى (٤) ، ولم ييأس سليمان وانما باشر بضرب القلاع الأمامية الصغيرة فى محاولة لتقليم أظافر المقاومة البرتغالية ، وما أن هل الأول من أكتوبر حتى استسلمت احدى القلاع الصغيرة الأمامية بعدما أحدثت بها المدفعية العثمانية أضرارا بالغة وأسرت البقية الباقية من حاميتها وهم ثمانون برتغاليا ثم حجزهم فى السفن العثمانية (٥) ، مما جعل البرتغاليين فى موقف صعب ، خاصة وقد بدأت المؤنة فى النفاذ ، مما جعل

---

(1) Thomas Astley: Voyages and Travels Vol. 1 93.

— النهروالى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ٨٢ .

— جميل خانكى : تاريخ البحرية المصرية ٢١٠ .

(٢) كانت قلعة ديو حصينة جدا تحيط بها مياه البحر من ثلاثة جوانبه، ويحدها من ناحية البر سور عظيم وأشجار عالية ، اضافة الى ذلك وجود بعض القلاع الصغيرة أمام الحصن الكبير .

— د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٥٥ .

(3) Thomas Astley: Voyages and Travels Vol. 1 93.

(٤) د . سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ١٣٨ .

— جميل خانكى : تاريخ البحرية المصرية ٢١٠ .

(5) Thomas Astley: Voyages and Travels Vol. 1 94.

سقوط القلعة الأمامية أمرا وشيك الوقوع فيما اذا استمر الحصار الدائم ، ولكن حال دون ذلك وصول امدادات جديدة للبرتغاليين ، ففى الثالث من أكتوبر تمكن البرتغاليون من اختراق الحصار المفروض من جهة البحر على ديو وارسال ثلاث سفن تمكنت من دخول الميناء وتزويده بالمؤن (١) ، وازاء ذلك الصمود حاول سليمان باشا أن يجرب مدفعية الأسطول حيث رحل فى الثالث عشر من أكتوبر بأسطوله من الجانب الغربى الى الجانب الشرقى من القلعة على بعد ميلين فقط ، الا أن المدفعية البرتغالية الكثيفة والمنصوبة على الأسوار حالت دون نجاح الأسطول فى ذلك فانسحب سليمان بعد غرق احدى سفنه واتجه مرة أخرى الى البر (٢) ، ولم يكن يعيق سليمان من اقتحام القلعة الأساسية سوى خندق عظيم ، لهذا فكر فى طريقة حربية جريئة عندما قام فى اليوم الخامس والعشرين من الشهر بتهيئة عدد كبير من جوالات القطن تغطيها الجلود ، وربطها فى الحبال حيث ألقى بها فى الخندق ، فكان ان كونت جدارا عاليا يساعد على تسلق القلعة ، ولكن تنبه البرتغاليون لذلك ، وقاموا بالقاء البارود المشتعل عليها حتى أحرقت جميعها ومن عليها . (٣)

وعلى الرغم من شدة الحصار الا أننا نلاحظ أن البرتغاليين ومع الرقابة الشديدة لحملة سليمان باشا على البر والبحر من الجهات المحيطة بالقلعة كانوا كثيرا ما يجازفون فى محاولة الوصول الى القلعة ، ذلك انهم يعلمون علم اليقين معنى استحواذ الأتراك قلعة ديو فعلى الرغم من أن تلك القلعة لم تكن تشكل أية أهمية بالنسبة للمواقع الأخرى فى جوا وملقا وسيلان ، الا أنهم كانوا يعلمون علم اليقين أن معنى سقوط قلعة ديو هو ازدياد

---

(1) Thomas Astley: Voyages and Travels Vol. 1 94.
(2) Thomas Astley: Voyages and Travels Vol. 1 95.
(3) Thomas Astley: Voyages and Travels Vol. 1 95.

وحدة المسلمين فى الهند مما يشجع هذا بدوره سكان المدن الأخرى على الثورة والمقاومة سواء على امتداد سواحل الهند أو فى الخليج العربى أو على السواحل الشرقية لافريقيا ، لهذا لم يكن من الغريب أن يصادف سليمان باشا مقاومة عتيدة من قبل حامية ديو ، وهذا بدوره أيضا مما يشجع سلاطين الدولة العثمانية على متابعة حملاتهم البحرية الى الهند ، بحيث يؤكد لهم ذلك أن مسلمى الهند على استعداد للتعاون والتضحية متى وجدوا المساعدة اللازمة ، فكل ما يحتاجه سلاطين الدولة العثمانية هو قلعة حصينة محاطة بحلفاء مسلمين وأقوياء لا يشكلون على القواعد العثمانية أية أخطار ، مما يساعد هذا على قيام السفن العثمانية بالتالى على اعتراض السفن البرتغالية فى عرض البحر ، ومن ثم العودة الى مراكز حصينة تحيط بها شعوب موالية .

كانت آخر محاولة برتغالية للوصول الى القلعة هى فى السابع والعشرين من أكتوبر ، حينما حاول البرتغاليون انفاذ مؤن للقلعة ، فأرسلوا ثلاث سفن للقيام بالمهمة ، غير أن المدفعية البرية العثمانية منعتها من تحقيق أهدافها (١) ، ولم يستمر حصار سليمان للقلعة طويلا ، اذ قام دون سابق انذار بسحب قواته والخروج من الهند عائدا الى البحر الأحمر ، ولعل تفسير ذلك ينحصر فى النقاط التالية : أولا — نظرا للامدادات البرتغالية التى وصلت قلعة ديو فقد اضطر سليمان باشا الى الانسحاب ، مما أحدث ارتباكا بين صفوف حملته لهذا القرار المفاجىء ، حيث تخلف من جنود حملته الكثيرين الذين فضلوا البقاء فى خدمة السلطان محمود حاكم كجرات طمعا فى زيادة العلوفات الكبيرة كما يذكر النهروالى ، هذا بخلاف ما تركه

---

(1) Thomas Astley: Voyages and Travels Vol. 1. 95.

من أسلحة ومعدات ثقيلة للحصار[1] ، ثانيا — ضعف الجبهة الهندية سواء في سلطنة كجرات أو باقي سلطنات ساحل الهند الغربي[2] ، ثالثا — وهو رأي يذهب اليه الكثير من المؤرخين عندما يذكرون أن السلطان محمود صاحب كجرات والخواجا صفر قد خشيا من غدر سليمان باشا فعملا على الايقاع به عن طريق رسالة مزورة بعثا بها اليه ، وتذكر تلك الرسالة المرسلة من القائد العام الى الحامية في ديو أن هناك أسطولا برتغاليا قادما لنجدتهم[3]

والواقع أن تفسير رحيل سليمان باشا المفاجيء وفق هذا العامل الأخير نستطيع الأخذ به ، لأننا لو افترضنا أن هناك أسطولا برتغاليا قادم لسمعنا بالفعل عن موقعة بحرية جرت بين الطرفين ، خاصة وأن الأسطول البرتغالي لابد له من مهاجمة الأسطول العثماني المتعب ، والذي خرج دون تنظيم سابق له ، فهي فرصة مناسبة للبرتغاليين للاحتكاك به ومن ثم تدميره ، حتى يفقد مسلموا الهند الأمل في الاعتماد على المساعدات الخارجية ، وفي الوقت نفسه فرصة أيضا فيما اذا تم تدمير الأسطول العثماني ألا تحاول الدولة العثمانية مرة أخرى ارسال أساطيلها خارج البحر الأحمر ، ونحن وان أخذنا بصحة الخطاب المزور والعامل

---

(١) النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني ٨٥ .

- Playfair: A History of Arabia Felix 102.

(٢) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ١٤٦ .

(٣) جميل خانكي : تاريخ البحرية المصرية ٢١٠ .

— النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني ٨٢ ، ٨٣ .

التى أدت الى اختراعه ، فان ذلك له أسبابا عديدة منها ، أولا – أن خواطر سلمى الهند نفرت من سليمان باشا بسبب غدره بعامر بن داود وليس أدل على ذلك سوى امتناع الخواجة صفر من مقابلة سليمان باشا خشية غدره (١) ، ثانيا – استغلال البرتغاليين حادثة قتل السلطان عامر فى اثارة الفرقة بين العثمانيين وسلطان كجرات ، ثالثا – ما شعر به الهنود من اهانات من سليمان بسبب احتقاره لهم وعدم الاذن للقادة منهم بالجلوس فى حضرته (٢) ، رابعا – أساء الجنود العثمانيون الذين نزلوا الى البر لمعاونة الخواجة صفر معاملة حلفائهم الكجراتيين عندما عاملوهم بطريقة خشنة متعالية ، اضافة الى ما قاموا به (٣) من أعمال السلب والنهب .

ومن هنا نرى أن قصة تلك الرسالة المزورة قد تكون من أهم الأسباب التى أدت بسليمان باشا الى الرحيل والعودة الى البحر الأحمر ، خاصة وهو الذى وصفته المراجع بأنه خوار وجبان .

وفى الرابع من شهر رجب ٩٤٥ هـ – ١٥٣٨ م وصل سليمان باشا الى الشحر ، حيث قام بارسال الخلع الى سلطانها بدر ، وجعل نفوذه على المنطقة فيما يلى عدن الى ظفار ، ولم يذهب الى عدن حتى تأكد من تنفيذ

---

(١) النهروالى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ٨١ ، ٨٢ .
(٢) المرجع السابق ، ٨٢ .
(٣) جاء فى كتاب الشعوب الاسلامية ١٤١ ، ١٤٢ أن سليمان باشا الخادم عقب فشله فى الهند عاد الى الخليج العربى ، حيث حاصر هرمز واستطاع أن يستولى على مسقط والقطيف ، والواقع أننا لم نجد لتلك المعلومات صدى لها سواء فى المخطوطات العربية أو المراجع الأجنبية مثل كتاب آسيا البرتغالية أو البرتغاليون حول جنوب الجزيرة العربية لسارجنت .

مراسيمه ولأخذ العهود على حاكم الشحر بدفع الخراج السنوى ومقداره ١٠٫٠٠٠ أشرفى ، ومن ثم أكمل طريقه الى عدن حيث قام بتحصينها لتأمينها ضد البرتغاليين فزودها بمائة مدفع كبير وكميات من البارود وترك خمس سفن وحامية مكونة من خمسمائة جندى للدفاع عنها ، ومن ثم اتجه الى كمران التى قام بتحصينها أيضا عن طريق تزويدها ببعض مدافع الأسطول ، ومن ثم اتجه الى المخا على سواحل اليمن (١) ، ورغم الفشل الذريع الذى أصاب حملة سليمان باشا الا أننا لا نستطيع أن نصف مجهودات الدولة العثمانية بالضعف ، اذ أن ذلك كان راجع دون شك الى شخصية قائد الحملة فرغم ذلك الفشل نستطيع أن نتبين أنها حققت الأهداف التالية ، أولا — علمت البرتغاليين أن يأخذوا حذرهم ، ثانيا — أغارت بعض سفن الأسطول على سواحل الحبشة (٢) ، ثالثا — أصاب الخوف البرتغاليين لأنهم عرفوا أن الدولة العثمانية لو سمحت لها الظروف لاستطاعت تحويل جهودها وقدراتها بعيدا عن أوربا وآسيا الى الهند ، واذا حدث ذلك فانه يعنى أن السيادة البرتغالية قد قاربت نهايتها ، رابعا : أبان للعرب

---

(1) Playfair: A History of Arabia Felix 102.

- Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 90.

— د • فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ٥٣ ، ٥٤ •

تذكر الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها البحرية فى مصر الإسلامية ص ١٣٩ أمرا غريبا عند سردها لأحداث عودة سليمان باشا الى عدن عقب فشله فى الهند ، عندما تذكر بأن الأمير سليمان باشا قد استولى على عدن عقب عودته من الهند ، وانه قام بطرد أميرها عامر بن داود من البلاد لاتهامه بموالاة البرتغال بينما تذكر فى الصفحة ١٣٨ أن سليمان باشا قد أعدمه •

(2) Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 92,93.

أن تركيا قوة بحرية لا يستهان بها ، وأخيرا زيادة رقعة الدولة العثمانية حينما أضيف اليها عدن[(١)] ، خامسا في اخضاع ميناء جيزان للسيادة العثمانية بعد أن كان خاضعا لاشراف الحجاز[(٢)] ، سادسا ـ نجاح الحملة فى فرض سيطرة الدولة العثمانية على اليمن وانتزاع عدن ، وهى من الأهداف الأساسية لاغلاق البحر الأحمر ، فكما ضم سليمان باشا عدن الى الدولة العثمانية فى بداية حملته عن طريق الغدر ، تمكن كذلك من ضم زبيد المقر الرئيي للمماليك عن طريق الغدر أيضا ، فبعد رحيله من عدن اتجه الى المخا حيث أرسل رسولا الى زبيد يطلب فيها من واليها الأمير أحمد مقابلته على الساحل وتقديم ولاء الطاعة[(٣)] ، وامتنع الأمير أحمد عن الذهاب خوف الغدر وعرض على سليمان باشا دفع الجزية وتمثيل السلطنة العثمانية فى الحكم ، الا أن سليمان باشا رفض تلك المطالب وازاء امتناع الأمير أحمد زحف سليمان باشا بنفسه الى زبيد حيث وصلها فى العشرين من فبراير ١٥٣٩م ، وفى الوقت نفسه كان كثير من جنود الأمير أحمد قد انضموا الى سليمان باشا وأمام هذا الوضع اضطر الأمير أحمد الى الذهاب بنفسه الى سليمان باشا الذى قام بقطع رأسه فورا[(٤)] .

وبذلك تمكن العثمانيون من فرض نفوذهم على سواحل اليمن وان كان ذلك مؤقتا ، فهم على الرغم من قضائهم على الطاهريين ، وبقايا المماليك فى زبيد الا أنه كان هناك خطر آخر ينتظرهم ألا وهو خطر الأئمة الزيدية ،

---

(1) Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 93.

(٢) د. السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٤٩.

(3) Playfair: A History of Arabia Felix 102.

(٤) عيسى بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح (مخطوطة) ٢٩.

- Playfair: A History of Arabia Felix 103.

وهذا بدوره ما سيقود العثمانيين الى معارك أخرى جانبية داخل اليمن تعيقهم عن الدور الأساسى لمهمتهم على سواحل اليمن والبحر الأحمر .

كانت تلك الأحداث السابقة هى الخطوات الأولى للدولة العثمانية فى سبيل ظهورها على مسرح الأحداث فى بحار العرب الجنوبية ، وهى وأن اتسمت بصفة عامة بعدم وجود مجابهة فعلية بين القوتين فى المحيط الهندى بخلاف ما ذكرناه سابقا عن أيامهم حول قلعة ديو ، الا أن ذلك قد جعلهم وبصورة واقعية يجابهون الخطر البرتغالى ، بعدما كانوا فى السابق أى على عهد دولة المماليك يعتمدون على ارسال المعونات والمجاهدين دون أن تكون هناك راية عثمانية ترفع الى جانب رايات المماليك فى بحار العرب الجنوبية ، من هنا نرى أن ما ذكرناه سابقا عن النشاط العثمانى على مسرح الأحداث السياسية فى تلك المنطقة قد ضم مماليك اليمن والدولة العثمانية والبرتغاليين ، وبقى لنا أن نتعرف الآن على الأحداث القائمة فى البحر الأحمر منذ دخول الأتراك العثمانيون القاهرة .

الواقع أن أحداث البحر الأحمر قد شاركت فى صنعها قوى عديدة ، ففى الجانب الأول نرى الدولة العثمانية واليمن وسلمى الطراز ، أما الجانب الثانى فمثله البرتغاليون والأحباش الحلفاء التقليديين كما توقع الطرفان من قبل ، وكما ذكرنا سابقا كان البحر الأحمر هو المجال الحيوى للبرتغاليين وما أن وصل الأتراك العثمانيون حتى أصبح البحر ذاته منطقة صراع ، ومن هنا نستطيع أن نتبين بالتالى الموقع الاستراتيجى لكلا الطرفين داخل البحر الأحمر والأهداف التى رمى من ورائها الطرفان تحقيقها ، فلو نظرنا مثلا الى الدولة العثمانية نجد أنها قد اطمأنت فى تلك الأثناء على المدخل الشمالى للبحر الأحمر عن طريق موانىء السويس والطور والقصير ، وبذلك يمكن القول أن المداخل الشمالية للبحر الأحمر هى مناطق ذات نفوذ

عثمانى تماما ، أما البرتغاليون فلم يتمكنوا بعد وحتى ذلك الوقت من الوصول الى المداخل الشمالية ، باستثناء محاولاتهم الفاشلة فى عام ١٥٤١ م كما سنذكر فيما بعد ، وبالا نحدار من شمال البحر الأحمر نحو جنوبه تصادفنا السواحل الحبشية ، وهنا نلاحظ أن الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين من أجل السيطرة على السواحل العربية كان يقتضى الاستيلاء على مراكز استراتيجية على أراضى مملكة الحبشة المسيحية [١] ، فالبرتغاليون وكما هو معروف مما ذكرناه سابقا عن اتصالاتهم بالحبشة ورغبتهم فى التعاون معهم قد أحرجوا بذلك الدولة العثمانية التى رسمت سياستها تجاه مواجهة ذلك الخطر كالتالى ، أولا — محاولة حصار الأحباش وتحطيم أية محاولة برتغالية فى سبيل جر الحبشة الى شن حرب مشتركة ضد القوى الاسلامية المنتشرة على السواحل الشرقية والغربية للبحر الأحمر ، ثانيا — اتجاه العثمانيين الى تعزيز علاقاتهم الودية مع الزعماء والأمراء الصوماليين [٢] ، ثالثا — نجاح العثمانيين فى النزول فى زيلع ومصوع كما ذكرنا من قبل ، أما على السواحل الشرقية وهى المقابلة للسواحل الحبشية فنجد أن العثمانيين قد تمكنوا من بسط نفوذهم على السواحل اليمنية من واقع حملة سليمان باشا السابقة ، خاصة مدينة زبيد التى أصبحت المقر الرئيسى للقيادة العثمانية هناك وهى السواحل التى فشل البرتغاليون فى سبيل التمركز عليها أو محاولة الحصول على مواقع استراتيجية بها كما حدث من خلال حملة البوكرك ١٥١٣م بحيث تمكن العثمانيون من تأمين قواعدهم على طول ذلك الشريط الساحلى ومتخذين منه وسيلة للاطلاع على الأحداث السياسية التى تقع أمامهم على

---

(1) Trimingham: Islam in Ethiopia 77.

(٢) د. راشد البراوى : الصومال الكبير حقيقة وهدف ١٠ — مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦١م.

السواحل الحبشية للتدخل فى الوقت المناسب كما سنذكر فيما بعد ، عندما أرسلوا امداداتهم للامام القرين ١٥٤١م.

وبالانتقال من السواحل الحبشية نجد أنفسنا قد وصلنا الى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، حيث المواقع الاستراتيجية المهمة ، فعلى الشواطىء الشرقية نجد عدن ، أما على الشواطىء الغربية فنجد السواحل الصومالية التى هى امتداد لأملاك سلطنة الطراز الاسلامى ، وهنا ومرة أخرى نجد تناقضا تاما فى أوجه الاستراتيجية الحربية للعثمانيين والبرتغاليين ،فالعثمانيين عزموا على السيطرة على المواقع الاستراتيجية لمدخل البحر الأحمر من أجل استمرار التجارة عبر البحر ذاته ، أما البرتغاليين فكان غرضهم تحويل التجارة من الشرق الى الغرب (١) ، وبالنسبة لعدن حاول البوكرك خلال حملته ١٥١٣م الاستيلاء عليها ، ورغم ضخامة حملته فقد فشلت جهوده ، كما ذكرنا من قبل ، أما بالنسبة للسواحل الصومالية فكانت تمتاز بأن أجزاء منها كان يقع عند مدخل البحر الأحمر ، أما الأجزاء الأخرى فكانت تشرف على المحيط الهندى ومن هنا نستطيع تفسير المحاولات البرتغالية فى سبيل انشاء قواعد لهم فى بعض موانى الطراز الاسلامى ، وهو أمر لو نجحوا فيه لأمكنهم مطاردة سفن العرب والقضاء على نشاطهم التجارى (٢) ، وأخيرا كان افصل الختام وهو نجاح العثمانيين فى الاستيلاء على عدن ، وبذلك أصبحوا يسيطرون أيضا على المدخل الجنوبى للبحر الأحمر.

---

(١) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ٧٥ .

(٢) د. راشد البراوى : الصومال الكبير حقيقة وهدف ١٠ .

من خلال الاستعراض السابق نستطيع أن نتبين الحقائق التالية
أولا - نجاح العثمانيين فى السيطرة على البحر الأحمر وتأمينه بما ذكرناه سابقا ، وبذلك أصبحوا هم المهيمنين على السواحل الشرقية والغربية للبحر الأحمر ، ثانيا - أن العثمانيين اعتمدوا على البحر الأحمر والنشاط فى مياهه فى سبيل السيطرة عليه وعلى سواحله وموانيه ، وكان ذلك على نقيض سياسة الدولة المملوكية التى فضلت الاستناد الى اليابس والاعتماد على القوة البرية لتحقيق أغراضها (١) ، ثالثا - انه فى الوقت الذى كان فيه العثمانيون يقومون بتنفيذ سياستهم فى البحر الأحمر ، كان البرتغاليون عاجزين تماما عن عمل أى شىء ازاء التوغل العثمانى وانتشاره على سواحل البحر الأحمر بعدما سيطروا على عدن والسواحل اليمنية ، وبعض المراكز الاستراتيجية على السواحل العربية للبحر الأحمر (٢) ، ومن واقع تلك السيطرة العثمانية على البحر الأحمر نستطيع أن نتبين السياسة البرتغالية تجاه منافسة القوة العثمانية داخل البحر الأحمر من خلال النقاط التالية :
أولا - اعتماد البرتغاليين على ارسال الأساطيل البحرية سنويا لغزو البحر الأحمر - أحيانا أكثر من مرة فى السنة الواحدة - والاغارة على موانيه واعتراض كافة السفن التجارية التى قد تسير فيه ، بقصد الحاق أكبر نسبة من الخسائر بالمواقع العثمانية ومن ثم نشر الفزع والاضطراب بين سكان المدن الساحلية ، ثانيا - محاولة تعزيز علاقاتهم مع الحبشة فى سبيل ايجاد فجوة على السواحل الحبشية يمكن من خلالها ظهور قوات مشتركة برتغالية وحبشية لجلب أنظار القيادة العثمانية اليها ، ومن ثم تهديد الأماكن المقدسة ، مما يساعد الأساطيل البرتغالية فى الحصول على موقع استراتيجى يساعدهم على حرية الحركة داخل حوض البحر الأحمر.

---

(١) د. صلاح الدين الشامى : الموانى السودانية ١١٩ - مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٦١م.
(٢) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ٧٥ .

بدأت البرتغال جولة أخرى فى البحر الأحمر [١] ، حينما تحرك نائب الملك فى الهند لوبو سواريز Lopo Soires [٢] من جوا فى الثامن من فبراير ١٥١٧ م على رأس حملة بحرية من سبع وعشرين قطعة تحمل ألفين من المقاتلين ، وحدد لوبو أهدافه كالتالى : أولا — تتبع بقايا الأسطول المملوكى بقيادة سلمان الريس والذى كشف عن مدى قوته عقب محاولة الاستيلاء على عدن فى صيف عام ١٥١٦ م ومن ثم القضاء عليه وتدمير جدة ، ثانيا — الاتجاه الى نجدة النصارى الأحباش ضد امارات الطراز الاسلامى ، وانزال بعثة داورت جالفان الكاثوليكية الى الأراضى الحبشية [٣] ، وأخيرا احتلال عدن وتدميرها والتنكيل بأهلها .

كانت أنباء عدن تصل البرتغاليين بواسطة بحارة السفن الملابارية الهندية والتى كان البرتغاليون وراءها [٤] ، هذا وقد حمل البرتغاليون على تكرار محاولاتهم الاستيلاء على عدن معرفتهم بفشل الأسطول المملوكى فى أخذ عدن ، كذلك معرفتهم بأنباء مفصلة عن الأضرار البالغة التى لحقت بحامية عدن وتحصيناتها الدفاعية [٥] ، اضافة الى محاولة اغتنام هذه الفرصة للاستيلاء عليها ، فى وقت كانت فيه عدن تبكى القتلى من أبنائها وانتظارا لمعونات جيرانها . [٦]

---

(١) كانت الأخيرة بالنسبة للمماليك والأولى بالنسبة للعثمانيين أصحاب الشأن .

(٢) أبو الضوارس كما ورد فى مخطوط بامعييد : زاد الأسفار فى أخبار الشحر وعدن وملا بار .
— أنظر : محمدعبدالقادر بامطرف : الشهداء السبعة ٥٦ .

(٣) د . السيدمصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٠٢ .

(٤) محمدعبدالقادر بامطرف : الشهداء السبعة ٥٥ .

(5) Sousa: The Portuguese Asia I 211.

(٦) محمدعبدالقادر بامطرف : الشهداء السبعة ٥٤، ٥٥ .

وصلت الحملة أمام عدن فى شهر فبراير ١٥١٧ م ، ولم يهاجم لوبو المدينة[(١)] وانما اكتفى بأن نال ما يحتاجه من مؤن وبعض المرشدين ، حيث واصل طريقه نحو الداخل ، ويبدوا أن لوبو كان بامكانه الاستيلاء على عدن غير أن هناك عاملين كانا وراء أبطائه فى ذلك ، أولا — نظرته الى عدن على أنها هدف ثانوى بالنسبة للهدف الأكبر ، وهو البحث عن بقايا الأسطول الذى يقوده سلمان الريس للايقاع به خارج جدة ، ثانيا — استغلال الوقت لمساعدة نصارى الحبشة ضد مسلمى الطراز ، وعندما وصل الحديدة علم بلجوء الأسطول المصرى الى جدة وعدم وجود دفاع مناسب لها فصمم على مهاجمتها [(٢)] ، الا أن هجومه فشل بسبب المقاومة من قبل القلعة الحصينة ، ولم يلبث الأسطول البرتغالى أن انسحب من أمام الميناء حيث تعرض لعواصف شديدة دمرت بعضا من قطعه فاضطر لوبو الى الاعتصام بجزيرة كمران حتى بداية الصيف ، حيث قام بتدمير كافة التحصينات التى أنشأها المماليك قبيل سقوط دولتهم ، وفى الجزيرة توفى دوارت جالفان مبعوث البرتغال الى الحبشة [(٣)] ، وفى تلك الفترة كان الأسطول المصرى يواصل دورياته مطاردا حملة لوبو سواريز حيث فاجأ سفينتين بالقرب من

---

(١) تذهب معظم المصادر اليمنية سواء التى نشرها الدكتور سارجنت أوالمصادر الأخرى التى لم ينشر بعضا منها الى أن حاكم عدن الأمير مرجان الظافرى قد فضل مهادنة البرتغاليين على مقاومتهم بسبب المشاكل التى كانت تواجهها عدن عقب فشل غارة المماليك السابقة ، أما فاريا سوزا فيذهب فى كتابه ج ١ ص ٢١١ الى أن حاكم عدن عرض على لوبو سواريز مفاتيح القلعة التى فضل لوبو استلامها عقب انتهاء مهمته داخل البحر الأحمر .

(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 211.

(3) AnGelopesce: Uiddah 87.

ميناء اللحية جاءت للحصول على مؤنتها ، فتمكن من أسر احدها وأسر بحارتها الذين قام سلمان الريس بارسالهما الى السلطان سليم فى عاصمته[١] ، ومع بداية فصل الصيف تابع لوبو سواريز غارته فى البحر الأحمر ازاء الساحل الحبشى حيث هاجم ميناء زيلع ونهبه ومن ثم أحرقه[٢] ، واتجه بعد ذلك الى جنوب البحر الأحمر .

وبفشل حملة لوبو سواريز عاد أدراجه الى الهند بعد أن مر بعدن والتى كان حانقا عليها لعدم استسلامها له ، وكان ذلك عائدا الى أن الأمير مرجان الظافرى استغل فرصة توغل الحملة داخل البحر الأحمر فقام بعمل كافة الاستعدادات الممكنة للدفاع عن مدينته حتى تصمد ضد البرتغاليين فى حال عودتهم اليها[٣] ، وهذا بالتالى ما أدى الى قيام لوبو سواريز بتغيير سياسة سلفه البوكرك ، وكانت سياسة البوكرك تنص على عدم السماح للسفن البرتغالية الغير رسمية بالتحرش بأهالى المناطق التى يزورونها ، ومع هزيمته سمح لوبو سواريز لكافة السفن التجارية البرتغالية بالتجول حيثما شاءت بشرط أن تساعد القوات الرسمية على مطاردة سفن العرب[٤] ، ومن هنا تعرضت سلسلة الموانئ العربية لموجة شديدة من غارات القراصنة ، حيث تحول التجار البرتغاليين الى قراصنة خطرين يغيرون على الموانى للنهب والتدمير واغراق السفن ، مما أدى بأهالى كثير من المدن الساحلية مثل المخا والشحر الى الهرب نحو المرتفعات[٥] ، ورغم ذلك الفشل الذريع

---

(1) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 51.

(2) AnGelo Pesce: Jiddah 88.

(3) Playfair: A History of Arabia Felix 100.

(٤) محمد عبد القادر بامطرف : الشهداء السبعة ٥٦ .

(٥) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

الذى أصاب حملة لوبو الا أنه وما أن وصل الى جوا حتى بادر الى لرسال أسطول آخر بقيادة أنتونى دى Antony de Soldana سلدانا الذى دخل البحر الأحمر ولم يجد أمامه سوى زيلع التى قام الأسطول البرتغالى مرة أخرى بنهبها وحرقها ، ولم يستطع دى سلدانا أن يفعل أى شىء حيث عاد مرة أخرى الى الهند . (١)

كانت تلك هى الخطوات الأولى للصراع بين الطرفين داخل البحر الأحمر فى وقت لم تكن فيه الأوضاع قد استقرت بعد للعثمانيين ، ولم ينالوا معها الفرصة لانزال أسطول لمواجهة الأساطيل السابقة ، وان كانوا قد عاينوا بالفعل وأمام أنظارهم طبيعة الغزو البرتغالى للبحر الأحمر وأهدافه من حيث التركيز على مهاجمة جدة ، ومحاولة انزال بعثاتهم الدينية فى الحبشة اذا كان لابد والأمر كذلك من أن يدرك العثمانيون مدى الخطر البرتغالى من الناحية الصليبية قبيل ادراكهم للخطر الاقتصادى الناتج عن الغزو البرتغالى ، الذى رسم سياسته وكما ذكرنا من قبل على محاولة ارسال الحملات البحرية السنوية الى البحر الأحمر فى محاولة لأخذ عدن ، ومن ثم انزال البعثات الدينية ، وكان من الطبيعى أن يداوم البرتغاليون على غزو البحر الأحمر منذ لحظة دخول العثمانيين خاصة وانهم نجحوا فى اقامة الخط التجارى المسلح الذى ذكرناه فى فصل سابق ، والذى امتد من ملقا حتى شرقى افريقية باستثناء عدن التى ستكون محور صراع دائم بين الطرفين ، اضافة الى هذا أن البرتغاليون لم يروا بعد أية حملة ضخمة تغزوهم منذ عهد حملة الكردى لتعبر عن مدى قوة الدولة العثمانية التى شرحنا سابقا الظروف التى كانت تمر بها ، والتى منعتها من ارسال حملة ضخمة فى السنوات الأولى لدخولهم القاهرة ، وقد يكون من الجائز لنا أن نفسر

---

(1) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 217.

سبب تكرار الحملات البرتغالية السنوية الى البحر الأحمر ابتداء من عام ١٥١٧ م فى النقاط التالية : أولا - معرفة البرتغاليين بمشاكل الدولة العثمانية فى أوربا وآسيا ، لهذا أرادوا استغلال الفرصة فى سبيل نشر نشاطهم البحرى داخل مياه البحر الأحمر ، ثانيا - ربما أراد البرتغاليون من وراء حملاتهم المتكررة محاولة التعرف على مدى قوة الرد العثمانى لغاراتهم فى البحر الأحمر ، ومهما تكن الظروف فقد أثبتت أحداث حملة لوبو سواريز أن قادة الدولة العثمانية فى جدة قد نجحوا فى عرقلة مشاريع لوبو بالنزول فى جدة ، هذا بخلاف ما قامت به بقايا السفن المصرية فى جدة من مطاردة السفن البرتغالية واجبارها على الخروج من البحر الأحمر كما ذكرنا من قبل .

ونحن وان أشرنا من قبل الى أن العثمانيين قد وضح لهم مدى شدة الخطر الصليبى من واقع حملة لوبو سواريز وفشلها فى انزال بعثة جالفان فى البر الحبشى ، فان تلك النظرة ما لبثت الأيام أن أكدتها فى عام ١٥٢٠ م عندما عزل الملك عما نويل لوبو سواريز عن نيابة الهند وعين مكانه لوبو دى سكويرا Lopez de Sequeira نظرا لفشله فى انزال البعثة الدينية فى الحبشة ، وفى محاولة لأن ينجح القائد الجديد فى ارسال تلك البعثة الى هدفها [١] ، وفى الثالث عشر من فبراير ١٥١٧ م خرجت من جوا حملة مكونة من أربع وعشرون سفينة شملت ١٨٠٠ برتغالى وأعداد ضخمة من الملاباريين بقيادة دى سكويرا قاصدة البحر الأحمر ، ورسمت أهدافها على أساس مهاجمة جدة ، ومن ثم انزال بعثة دى ليما الذى خلف دوارت جالفان فى رئاستها ، وعلى الرغم من مرور الحملة أمام عدن الا أنها لم تحاول مهاجمتها وانما اتجهت مباشرة الى جدة [٢] ، وهذا بالتالى ما يؤكد

---

(1) Alvarez: Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia 3.

(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 231.

لنا مدى شدة النزعة الصليبية لدى البرتغاليين فى تلك الفترة ، وعندما دخلت حملة دى سكويرا البحر الأحمر تمكنت من أسر مجموعة من سفن المسلمين الذين أخبروهم بوجود ست سفن تركية فى جدة ، وعليها ١٢٠٠ جندى والتى كانت معدة للهجوم على عدن (١) ، وفى الواقع لم تكن تلك السفن معدة لعدن ، وانما هى حملة حسين بك الرومى الذى ذكرناه سابقا ، حينما خرج بحملته تلك لاعادة النفوذ العثمانى على اليمن ، وعندما وصل ميناء البقعة باليمن علم بوصول تلك الحملة فعاد أدراجه الى جدة للدفاع عنها . (٢)

استمر دى سكويرا فى طريقه الى جدة الا أنه لم يتمكن من الوصول اليها بسبب معاكسة الرياح ، ولأنه علم بوجود حشود عسكرية كبيرة بها (٣) ففضل الاتجاه الى السواحل الحبشية لتنفيذ الهدف الثانى ، وعندما وصل الى هناك كانت أنباء حملته قد وصلت الى الحبشة ، ولما كان الأحباش على استعداد للتعاون مع البرتغاليين كان يسرهم أن يتصلوا بالحملة وأن يستعلموا عن أنباء مبعوثهم ماتيو ، ومحاولة معرفة أخباره التى فقدت منذ زمن ، وكم كان سرورهم عظيما حينما أخبرهم دى سكويرا بأن مبعوثهم معه وأنه يحمل أوامر من الملك لارساله الى الحبشة (٤) ، واصلت الحملة طريقها وعندما وصلت الى زيلع كان سكانها قد هربوا منها ، ولم يبق

---

(1) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 231.

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، القسم الثانى ٦٦٣ .

(3) Bailey & Winius: Foundation of the Portuguese Empire 352 - 353.

(4) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 232.

بها أكثر من خمسين شخصا حيث أسروهم وقتلوا كبار السن منهم بينما استعملوا الصغار كعبيد ، وبعد قضاء يوم بكامله قاموا باحراق المدينة التى لم يبق فيها بيت على دعائمه (١) ، ومن ثم اتجهوا الى مصوع التى فرغت من سكانها قبيل خمسة أو ستة أيام من وصول الحملة ، وعند نزول البعثة فى مصوع أصدر قائد الحملة أوامره بتحويل مسجدها الى كنيسة ، ومن ثم أكملت البعثة طريقها نحو الداخل (٢) كما ذكرنا من قبل فى فصل سابق .

أما بخصوص الحملة البحرية فانها عادت أدراجها الى مدخل البحر الأحمر بعد أن تزودت بما تحتاجه من مؤن من عدن ، ومن ثم أكملت طريقها عائدة الى الهند . (٣)

نتج عن نجاح الحملة البرتغالية فى انزال بعثتها الى الحبشة أن بدأ البرتغاليون فى تحديد سياستهم المقبلة فى البحر الأحمر بصورة أدق ، وخاصة من الناحية الصليبية والاقتصادية ، فكما هو معروف فان الجانب الصليبى كان يتناول شقين وكان البرتغاليون دائما ومن خلال حملاتهم السابقة الذكر يسعون الى تحقيقهما ، فالشق الأول كان النزول فى جدة ، أما الشق الثانى فكان يتمثل فى أنزال بعثاتهم الدينية فى الحبشة ، والآن وقد نزلت بعثتهم وسافرت الى البلاط الحبشى فقد أصبح الاهتمام البرتغالى ينحصر فيما يلى : أولا — بالنسبة لجدة توقف البرتغاليون عن مهاجمتها لعلمهم بشدة تحصيناتها وتوفر الحاميات العسكرية بها ، ثانيا — بدأ البرتغاليون

---

(1) Pankhurst: Ethiopia 326.

(2) Alvarez: Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia 3.

(٣) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، القسم الثانى ٦٦٣ .

يركزون أنظارهم تجاه الساحل الحبشي كمحاولة لنجاح البعثة في جر الحبشة الى التعاون مع البرتغال في سبيل تكثيف النشاط العسكرى ضد القوى الاسلامية في البحر الأحمر ، ثالثا ـ وهى الناحية الاقتصادية حيث فكر البرتغاليون في ضرورة التركيز على احتلال عدن خوفا من وقوعها بأيدى الأتراك وهذا بدوره ما يؤدى الى اغلاق مدخل البحر الأحمر . (١)

وكنا قد شرحنا من قبل الظروف الأولى للاتصالات الحبشية البرتغالية والتى انتهت بوصول بعثة دى ليما وخروجها مرة أخرى الى البرتغال ١٥٢٦م ويجب أن نشير هنا الى عامل مهم ، وهو أن وصول ماتيو الأرمنى الى بلاط الملك البرتغالى قد أدى الى بلورة فكرة كثلكة الحبشة ، فماتيو قضى عامين في البرتغال حيث وجد فيه رجال الدين فرصة لا تعوض لكونه مبعوث دولة مسيحية فأرادوا أن يستقصوا منه الأحوال الدينية في الحبشة حتى يتمكنوا من تحويلها الى المذهب الكاثوليكى ، ولما لم يكن ماتيو خبيرا بشئون عقيدة الأحباش فلابد وأنه أدلى اليهم بمعلومات تغاير الواقع رسخت في أذهان البرتغاليين سهولة تحويل الحبشة الى المذهب الكاثوليكى وهو ما سنشاهده في الصفحات المقبلة .

شهدت السواحل الغربية للبحر الأحمر ابتداء من بداية العقد الثالث للقرن السادس عشر الميلادى تطورا في العلاقات بين امارات الطراز الاسلامى والحبشة تميز بنشوب صراع مرير بين الطرفين حيث حملت هرر لواء امارات الطراز الاسلامى في كفاحها ضد الأحباش بعد فشل دور كل من أوفات وعدل ، وهذا بدوره ما جعل الدولة العثمانية والبرتغاليين يتخذون من

---

(١) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٠٦ .

ذلك مجالا لتأييد فريق على آخر كما سنرى فيما بعد ، ففى عام ١٥٢١ م زحف مسلمو الامارات على هرر بقيادة الأمير أبو بكر محمد سلطان عدل ، واستولوا عليها ، حيث اتخذها الأمير أبو بكر عاصمة لدولته عوضا عن العاصمة القديمة زيلع [١] ، وكان هذا الدور بمثابة احياء لدور عدل فى الماضى ، وهذا بدوره ما أدى الى ازدياد الاحتكاك بين مسلمى الطراز وملوك الحبشة ، حيث دخل الصراع بينهما مرحلة جديدة تختلف عن المراحل السابقة . [٢]

وعودة الى البرتغاليين فاننا نجدهم وفق الآراء السابقة التى خرج بها دى سكويرا من حملته السابقة قد أرسلوا فى عام ١٥٢٢ م حملة أخرى الى البحر الأحمر بقيادة D. Luis لاحضار بعثة ماتيو من الحبشة ، وفى الطريق هاجمت الحملة ميناء الشحر فى جنوب الجزيرة العربية حيث أوقعت مذبحة كبرى بالمسلمين هناك [٣] ، ومن ثم واصلت الحملة طريقها حيث أغارت على عدن وضربت المدينة بالمدافع لعدة أيام ، وازاء مقاومة عدن عبرت الحملة باب المندب واتجهت الى السواحل الحبشية فى محاولة لاعادة بعثة ماتيو ، الا انها لم تنجح فغادرت الساحل عائدة الى الهند [٤] .

---

(١) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ٢٥ ، ٢٦.
— د . عبدالمجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ١٩١ .

(٢) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ٢٦ .

(3) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 52.

(4) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 268.
- Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 52.

وقعت تلك الأحداث السابقة فى وقت كانت فيه مدينة جدة هى للقاعدة الامامية للدولة العثمانية فى بداية الأمر ، ولما كانت معظم الحملات السابقة تستهدف النزول فى جدة فلابد وأن يكون الاهتمام العثمانى قد انحصر بها باعتبارها المعبر الرئيسى للأماكن المقدسة ، وكما شرحنا من قبل لم تسمح الظروف السياسية للدولة العثمانية سواء فى أوربا أو آسيا بمواجهة حملات كل من لوبو سواريز ودى سكويرا ودون لويس ، لأنها كانت ترى أن فرض النفوذ العثمانى يجب أن يتم أولا وقبل كل شىء على السواحل اليمنية باعتبارها المدخل الرئيسى للبحر الأحمر ، فى وقت كانت فيه تلك السواحل تشهد صراعا مريرا بين القادة من أجل الانفراد بالسلطة (١) ، ومن هنا أيضا كان لابد أن يقف قادة المماليك فى اليمن عاجزين عن اعداد سفنهم الحربية فى سبيل اعتراض البرتغاليين بسبب تلك الفتن والحروب التى شغلوا بها ، أما البرتغاليون فعقب حملة دون لويس ١٥٢٢ م توقف نشاطهم لمدة سنتين داخل البحر الأحمر ، بحيث لم نعد نسمع خلال تلك السنتين عن أية حملة دخلت البحر ذاته ، الا أنه بداية من عام ١٥٢٤ م بدأت الحملات البرتغالية مرة أخرى فى غزو البحر الأحمر فى محاولة لتحقيق هدفين : أولا — اعادة بعثة دى ليما الى جوا لمعرفة نتائج مباحثات البعثة فى البلاط الحبشى ، ثانيا — محاولة الاستيلاء على عدن ، ولتنفيذ ذلك خرجت حملة برتغالية فى عام ١٥٢٤ م بقيادة de silveyra الى البحر الأحمر وبلغ من قوتها أن قائدها تمكن من اجبار حاكم عدن الذى خلف مرجان الظافرى على عقد معاهدة مع البرتغاليين نصت على دفع عدن جزية سنوية للبرتغاليين اضافة الى فتح عدن موانيها أمام السفن البرتغالية ، الا أن نائب ملك البرتغال فى الهند فاسكودى جاما رفض تلك المعاهدة

---

(١) أنظر الصفحات ٢٣٣ ، ٢٣٤ من الرسالة .

على اعتبار أن البرتغاليين يجب أن تكون لهم السيطرة التامة على المراكز التجارية فى سبيل نجاح مهمتهم الاقتصادية [١] ، وبهذا لم تأت الحملة بشىء جديد ، اضافة الى فشلها فى التقاط بعثة دى ليما .

ومرة أخرى أبحر دى سيلفيرا الى البحر الأحمر ١٥٢٦ م حيث أجبر مصوع ودهلك على دفع الجزية ، ومن ثم اتجه الى الساحل الحبشى حيث تمكن من التقاط De Lima الذى كان فى انتظارهم ومعه مبعوث مرسل من الملك الحبشى الى البرتغال [٢] ، ومن هناك عاد أدراجه الى مدخل البحر الأحمر محاولا الاستيلاء على عدن ، الا أن الرياح أبعدته عنها وشتتت سفنه فخرج متجها الى هرمز [٣] ، وبذلك نجح البرتغاليون فى تنفيذ أحد شقى عملياتهم الصليبية فى البحر الأحمر ، والتى من أجلها كانوا يكثرون من ارسال حملاتهم وهى عودة بعثة دى ليما الى البرتغال ، ولما كان البرتغاليون كما ذكرنا من قبل قد حددوا عقب عودة دى سكويرا عام ١٥٢٠ م أهدافهم من الناحية الصليبية والاقتصادية ، فيجب أن نشير هنا الى أنه بداية من عام ١٥٢٧ م طرأت تعديلات جديدة يمكن القول معها أن معظم حملاتهم فيما بعد وحتى قبيل تدخل الأتراك العثمانيين والبرتغاليين فى الصراع بين مسلمى الطراز والحبشة قد أصبحت تتسم بطابع محاولة اثارة القوات العثمانية فى موانى البحر الأحمر ومحاولة

---

(١) د ٠ السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١١١ ٠
ـ د ٠ فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ٤٧ ٠

(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 289.
- Thomas Astlay: Voyages and Travelrs I 107-108.

(٣) د ٠ السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١١١ ٠

(٤) أنظر الصفحات ٢٦٦ ـ ٢٦٧ من الرسالة ٠

الاحتكاك بها ، اضافة أيضا الى استمرار الهدف الاقتصادى الخاص بالاستيلاء على عدن ، فمثلا فى عام ١٥٢٦ م أعد نائب الملك فى الهند Lopo Vaz de Sampayo عدته للذهاب الى البحر الأحمر لمهاجمة الأتراك الذين قاموا بتحصين جزيرة كمران غير أن أحداث الهند حالت دون ذلك (١) .

وفى تلك الأثناء شهدت سواحل الحبشة أحداثا سياسية أخرى فى سبيل التمهيد لظهور دولة هرر على المسرح السياسى فى البحر الأحمر ، ذلك أن الأحباش ما لبثوا أن تنبهوا لتلك الصحوة من قبل مسلمى الامارات فأعدوا العدة للقضاء على هذه الدولة الجديدة حينما أرسل لبنادنجل الجراد آبون للقضاء على تلك الصحوة ، وتذكر المراجع أن الامام أحمد القرين — الذى سيحمل راية الجهاد فيما بعد — كان الساعد الأيمن للجراد آبون الذى قتل عقب القضاء على دولة أبى بكر بن محمد ، ونظرا لجهود الامام فقد عينه لبنادنجل أميرا على هرر (٢) ومهما كانت الآراء متنوعة فى ظهور الامام القرين (٣) ، فان المهم هو أن السلطان أبى بكر بن محمد

---

(1) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 300.

(٢) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ٣٩ ، رسالة ماجستير — جامعة القاهرة .
— د . زاهر رياض : تاريخ أثيوبيا ٩٣ .

(٣) ولد الامام أحمد بن ابراهيم والملقب بأحمد جرى أى الأعسر فى مدينة هوبت لعام ٩٠٨ / ١٥٠٠ م من أب وأم صومالية بمقاطعة هرر ، وقد بدأ الامام حياته العملية بالانتساب الى أسرة الأمير محفوظ حاكم زيلع عندما تزوج ابنته دولنبره ، وكان أتباعه يسمونه الامام لأنهم كانوا ينظرون لحروبهم مع الأحباش على أنها جهاد دينى .
— ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ٣٦ .
— د . حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ٤٦٤ .

بحركته تلك قد أعاد احياء هرر كمركز اسلامى على سواحل الصومال ، وهيأ المسلمين هناك لمتابعة الجهاد ضد الأحباش مرة أخرى ، فى وقت نزل فيه الأتراك العثمانيون على السواحل الصومالية حيث اتجهت أنظارهم لمراقبة ذلك الصراع .

تعتبر هرر أصلا مدينة اسلامية ، وتقع الى الشرق من الحبشة ، حيث تشغل المنطقة المنخفضة بين البحر الأحمر والمرتفعات الغربية ، ويعود الفضل فى ظهورها الى هجرات عربية من حضرموت واليمن نزلت هذه المنطقة حيث حملوا اليها الاسلام فى القرون الأولى للهجرة ، ولكنها لم تصبح مركزا اسلاميا قويا الا فى القرن الثالث عشر الميلادى ، حيث أصبحت مركزا للفقه والتعاليم الاسلامية لشبه جزيرة الصومال (١) ، وكان موقع هرر ذا أهمية بالنسبة للأحباش اذ يعتبر كمنفذ وسوق لتصريف منتجات الحبشة واستيراد ما تحتاجه من جهة أخرى ، لهذا لم يكن من الغريب أن يداوم الأحباش غاراتهم ، وكما ذكرنا من قبل فدور هرر فى الجهاد الاسلامى ضد الأحباش والبرتغاليين فيما بعد هو أحد أدوار ثلاثة حيث احتلت هرر الدور الأخير بعد أن سبقتها كل من عدل وايفات ، ولكنها تميزت عن غيرها بمميزات جعلتها صاحبة الكلمة لمدة طويلة أوشكت معها الحبشة أن تصبح مملكة اسلامية بين ليلة وضحاها لولا الاستشهاد المفاجئ لزعيمها أحمد القرين ، ومن تلك المميزات أنه نتيجة لأن هرر أصبحت القاعدة الاسلامية الرئيسية فقد أصبح الأحباش عندئذ بعيدين عن قواعدهم فوق الهضبة الحبشية (٢) ، كذلك اتصال هرر بقبائل (عفار Afar) والصومال فى وقت ازداد فيه

---

(١) د . حمدى السيد سالم : الصومال قديما وحديثا ٣٦٠ ، ٣٦١ .

(٢) فتحى غيث : الاسلام والحبشة عبر التاريخ ١١١ .

الحماس الديني الذى دفع المسلمين الى الزحف الى الداخل ، وأخيرا هناك عامل مهم ، وهو أن هرر بدأت تأخذ دور الهجوم ولرسال الحملات بعد أن كان من قبلها يتخذ دور الدفاع فى مركزه وما صاحبه من كر وفر .(١)

ويرى البعض أن الامام أحمد بن ابراهيم القرين(٢) لم يكن زعيما دينيا الا لأن الأتراك أرادوا أن يجعلوا منه ذلك ليقدموه الى المسلمين مستغلين ما كان عليه من تقوى وايمان ليجعلوا منه رمزا يلتف حوله مسلمو تلك الجهات لنشر الاضطراب فى هذا الجزء من العالم ليهيء لهم نقطة ارتكاز يستطيعون من خلالها اتمام خطتهم ، والواقع أن العثمانيين بتأييدهم الامام القرين انما كانوا يؤيدون مجاهدا كغيره من المجاهدين ، وهو طريق كان عليهم أن يسلكوه ويصلوا الى نهايته ، لأن الدولة العثمانية صاحبة النفوذ الجديد فى البحر الأحمر لن تقف موقف المتفرج وألوف من المسلمين تذبح ، اذ كان عليها تكملة المشوار الذى بدأه الغورى لحماية طرق التجارة من ناحية ولصد البرتغاليين وتأمين طرق الحج من ناحية أخرى ، فكما جاء البرتغاليون واتصلوا بزعماء بالندى وبعض زعماء الموانى الهندية والحبشية ليضمنوا لأنفسهم أرضا صلبة يقفون عليها ، جاء العثمانيون كذلك ، والفرق هنا أن العثمانيين وأحمد القرين تجمعهم عقيدة واحدة ومبدأ واحد الا وهو صيانة الدين الاسلامى وحمايته ، أما البرتغاليون فلم تكن بينهم وبين من حالفوهم مثل ذلك ، وصحيح أن المسيحية تجمعهم مع الحبشة ، ولكن بمجرد محاولتهم فرض المذهب الذى يعتنقونه نشبت الاضطرابات فى الحبشة نفسها كما سنرى فيما بعد .

---

(١) فتحى غيث : الاسلام والحبشة عبر التاريخ ١١١ .

(٢) د . زاهر رياض : الاسلام فى أثيوبيا ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

- د . جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية ١٢٩ .

بدأ الامام أحمد جهاده عندما منع مندوبى البلاط الحبشى من جباية الخراج ، كما منع الناس من أن يدفعوا لهم المطلوب فى الأقاليم [1] ، وبذلك أصبحت تلك الخطوات بمثابة اعلان من الامام القرين عن خروجه عن طاعة ملك الحبشة ، حيث وجه اهتمامه بعد ذلك نحو تحرير أراضى المسلمين الأخرى من السيطرة الحبشية ، فبدأ بالاتصال بالامارات الاسلامية التى سوف تمونه بالمال والرجال وهى دوارو وبالى ، فاستوالى عليهما بعد أن هزم جيوش الامبراطور الحبشى التى كانت تدافع عنها وقتل قائدها [2] ، وما لبث الامام القرين بعد ذلك أن اشتبك مع الجيوش الحبشية فى موقعة شابها كورى حيث تمكن من تشتيتها والحاق هزيمة كبرى بها [3] ، وبذلك النصر تم له تحرير معظم مدن الطراز الاسلامى من سيطرة الأحباش ، حيث عاد مرة أخرى ٩٣٥ هـ — ١٥٢٨ م الى هرر مركز دولته استعدادا لغزو الهضبة الحبشية بعدما تجمع حوله الآلاف من المجاهدين العرب والصوماليين .

كانت تلك الاشتباكات عاملا مهما فى ازدياد النشاط العسكرى من قبل الدولة العثمانية والبرتغاليين فى ذلك الوقت داخل البحر الأحمر ، ففى يناير من عام ١٥٢٨ م أبحر الأدميرال أنتونى دى ميرا Antomy de Mira من جوا الى البحر الأحمر ، وحاول النزول فى الشحر الا أن القوات العثمانية حالت دون ذلك [4] ، فاتجه الى مدخل البحر الأحمر حيث قابل أسطولا بقيادة Henry de Macedo الذى كان مشتبكا مع الأسطول العثمانى هناك ، ولم تسفر المعركة عن نتيجة محددة [5] ، الا أن دى ميرا

---

(١) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ٥١ .
(٢) د . زاهر رياض : الاسلام فى أثيوبيا ١٠٢ .

(3) Jean Doresse: Ethiopia 128.
(4) Miles: The Countries and Tribes of persin Gulf 164.
(5) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 315.

واصل طريقه نحو داخل البحر الأحمر حيث دمر زيلع ، ومنها عاد الى مدخل البحر الأحمر وتجول مدة فى خليج عدن ، ومنها عاد الى مسقط حيث قضى بها فصل الشتاء ، وعاد مرة أخرى الى التجول فى مدخل البحر الأحمر حيث قام باعتراض طريق بعض السفن التجارية العربية هناك (١) ، وفى تلك الأثناء وصلت الامام أحمد القرين كميات ضخمة من الأسلحة والأدوات الحربية ومواد التموين ، التى أرسلها مسلمو اليمن وحضرموت والحاكم العثمانى لسواكن ، اضافة الى قيام مصر بارسال أسلحة جلبتها السفن المصرية الى مسلمى الامارات (٢) وليس من الغريب أن يحدث مثل ذلك الموقف من قبل الدولة العثمانية فى سبيل تحطيم أى تحالف برتغالى حبشى ، خاصة عقب رحيل بعثة دى ليما عام ١٥٢٦م على ظهر أسطول برتغالى ضخم خصص لعودة تلك البعثة الى البرتغال ، والتى مالبثت أى الدولة العثمانية أن تشددت مع قوافل الحج المسيحية لبيت المقدس ، وأخذت كذلك توجه انظارها نحو تقوية مراكزها على السواحل الغربية للبحر الأحمر ، حيث اتخذ العثمانيون من قاعدتهم فى زيلع مركزا لمراقبة تطور الأحداث السياسية بين الأحباش ومسلمى الطراز .

وهنا وقبيل زحف الشعب الصومالى على الهضبة الحبشية يجب أن نلاحظ الحقائق التالية : أولا — أن هذه الحروب بين الأحباش ومسلمى الطراز قد اتخذت ظاهرة الحرب الدينية أى أنها كانت حرب بين مجموعتين مختلفتين فى الديانة كل منها تريد القضاء على الأخرى (٣) ، ثانيا — ان اعتداء الحبشة

---

(1) Miles: The Countries and Tribes of Persian Gulf 164.

(٢) حمدى السيد سالم : الصومال قديما وحديثا جـ ١ ٣٨٣ ، ٣٨٥ .

(٣) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ٦٠ .

المتكرر والمستمر على مسلمى الطراز قد جعل من رد المسلمين لعـــدوان الأحباش عليهم فتوحات اسلامية خاصة فى عهد الامام القرين (١) ، ثالثـــا — انه كـان للوجود العثمانى على السواحل الحبشية أثره الفعال فى ازديـــاد التعاون بينهم وبين مسلمى الطراز ، بدليل انه ما ان ارتفعت الأصـوات تنادى بضرورة جهاد المسلمين ضد الحبشة حتى بدأت الاستجابة الفوريـــة من قبل أمراء المدن الاسلامية على سواحل الحبشة (٢) ، رابعا — كـــان من نتيجة انتصار الامام على الأحباش فى موقعة شامبا كورى أثرها الفعـــال فى انتهاج مسلمى الطراز استراتيجية حربية جديدة تختلف عن السابـــق عندما كانوا يقومون بالاغارة على أطراف الهضبة الحبشية ، ومن ثم العـودة الى مراكزهم ، ولكنهم الآن قد صمموا على ضرورة النفوذ الى داخل الهضبـــة الحبشية نفسها . (٣)

سجلت السنوات بداية من ١٥٢٨ م أكبر عملية غزو تشهدها الحبشة ، عندما اندفعت جحافل الصوماليين مخترقة هضبتها ، بعد أن كان الأحبـاش هم الذين يباشرون الهجوم عليها ، حيث وقعت كل من شوا وفندار بأيـــدى القرين ، مما أجبر الملك الحبشى لبنادنجل على الفرار من مدينة الى أخـرى وجيوش الامام تتبعه وتقتل من الأحباش أعدادا كبيرة ، وفى السنة التاليـــة ١٥٢٩ م استولى الامام أحمد على بالى أشهر مدن الحبشة حيث دخل الكثير من سكانها فى الاسلام (٤) ، وابتداء من عام ١٥٣٠ م حول الامام القريـــن

---

(١) محمد عبد الله النقيرة : انتشار الاسلام فى شرق افريقية ومناهضة الغـــرب له ٩٢ .
— رسالة ماجستير لم تنشر ، جامعة القاهرة .
(٢) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ٥٧ .
(٣) المرجع السابق ، ٦٢ .
(٤) د . محمد المعتصم سيد : دول اسلامية فى شرق أفريقية ٣٤ ، ٣٥ .

هجومه نحو شمال الحبشة حيث تمكن من تدمير كنائس اكسوم وجوجـــــلم ، وأصبح الامام بذلك يسيطر على نحو ثلثى الحبشة (١) ، حيث توجـــــه بعد ذلك الى وسط الحبشة .

كانت تلك الأحداث السابقة الذكر هى الصورة العامة للأوضـــــاع السياسية على سواحل الحبشة ، حيث اندفع الصوماليون نحو الهضبـــــة محاولين اختراقها فى حين تمركز العثمانيون فى قواعـدهم الساحلية لتأمـــين قواعد الامام أحمد البرية التى انطلق منها ، وفى الوقت نفسه مراقبة الوحدات البحرية البرتغالية التى تعودت سنويا الاغارة على سواحل البحر الأحمـــــر ، والتى تمكنت فى عام ١٥٣١ م من احراج العثمانيين داخل البحر الأحمـــــر عندما نجح أحد القادة ويدعى Hektor de silveyra من اجبـــار حاكم عدن على دفع جزية سنوية للبرتغاليين مقدارها ١٢٫٠٠٠ أشرفـــــى ، اضافة الى تركه فى الميناء أحد قادة حملته ويدعى Antony Botello ومعه سفينته وثلاثون رجلا للاشراف على الميناء وايراداته المالية (٢) ومن ثـــم تابع طريقه نحو داخل البحر الأحمر حيث أخذ فى ارسال السفن الى أماكـــن عديدة لاعتراض السفن الاسلامية التى أحرق بعضها فى حين تم أسر مجموعـة أخرى بعد قتل كافة من بها من المسلمين (٣) ، وكان من المتوقع أن تتوغـــل تلك الحملة الى أقصى نقطة فى شمال البحر الأحمر ، أو ربما تواصل غاراتهـــا على السواحل الحبشية نتيجة ذلك التقدم الذى أحرزته فى عدن ، الا أنـــــه لم يحدث من ذلك شىء بسبب تغير الموقف فى عدن عقب رحيل الحملـــــة

---

(١) حمدى السيد سالم : الصومال قديما وحديثا ٣٦٨ .
(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 346.
ـ د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١١١.
— Thomas Astly: Voyages and Travelrs I 81.
(3) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 346.

البرتغالية عنها ، ففى الوقت الذى أخذت فيه السفن البرتغالية فى اعتراض السفن الاسلامية كما ذكرنا من قبل ، قام حاكم عدن بالقبض على كافة البرتغاليين الموجودين فى عدن وسجنهم فى مؤخرة المدينة (١) ، وبذلك اضطر البرتغاليون مرة أخرى الى الانسحاب من البحر الأحمر دون تحقيق ما جاءوا من أجله .

ولم يكن ذلك انسحابا نهائيا اذ ، اعتاد البرتغاليون فى تلك الفترة كلما عادت حملة من البحر الأحمر سواء أحققت أهدافها أو لم تحققها يسرعون الى ارسال حملة أخرى حتى لا تمنح القوى الاسلامية فى البحر الأحمر الفرصة اللازمة فى سبيل الاستعداد والتحصين ، فعقب عودة حملة Hektor خرج جيمس دى سيلفيرا James de Silveyra نحو البحر الأحمر مباشرة ، وبعد أن أنهى أعماله العدوانية فى جنوب الجزيرة العربية اتجه نحو عدن حيث تمكن من احراق مجموعة من السفن ، الا أنه ما لبث أن انسحب مسرعا عندما وصلته أنباء عن وصول سفن عثمانية من جدة لمطاردته (٢) ، وقبيل عودة تلك الحملة الى جوا عقب فشلها فى البحر الأحمر كان البرتغاليون قد أرسلوا حملتين الأولى بقيادة دافا سكوسيلو الذى بدأ بجنوب الجزيرة العربية ، خاصة ساحل الشحر حيث تمكن من الاستيلاء على مجموعة من السفن الكبيرة المحملة بالبضائع ، الا أنه لم يتمكن من الدخول الى البحر الأحمر حيث تابع ابحاره الى مسقط ، أما الحملة الثانية فكانت بقيادة سالدانها الذى اتجه رأسا الى عدن ، وعندما وصل الى مدخل البحر الأحمر لم يكن بمقدوره مقاومة الرياح المعاكسة فغير اتجاهه وعاد الى مسقط

---

(١) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١١٢ .
(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 356.

هو الآخر [١] ، وما لبث البرتغاليون فى السنة التالية ١٥٢٣م من اعداد حملة كبرى لتعويض ذلك الفشل الذى حاق بالحملات السابقة الذكر ، عندما غادر ديغو سيلفيرا جوا الى جنوب الجزيرة العربية حيث أخذ فى اعتراض السفن التجارية المبحرة بين سقطرة ومدخل البحر الأحمر ، وبعد أن أنهى غاراته هناك أبحر باتجاه الشرق ليقضى فصل الشتاء فى الخليج العربى [٢] ، وفى طريقه الى الخليج العربى صادف مجموعة من السفن الاسلامية حيث أسرها ، وبانقضاء فصل الرياح المعاكسة أ. حر سيليفيرا من جديد الى عدن حيث باشر فى الاعتداء على السفن الاسلامية بها فحرق معظم السفن الصغيرة بينما أخذ السفن الكبرى الى مسقط [٣] ، وبذلك فشل البرتغاليون مرة أخرى فى الدخول الى البحر الأحمر ، ومحاولة التدخل فى الصراع القائم على السواحل الحبشية بفضل اليقظة العثمانية خاصة وان الدولة العثمانية فى تلك الفترة بدأت فى تركيز جهودها بطريقة أكثر من السابق تجلت فى ناحيتين مهمتين أولا — ما شرحناه سابقا عن محاولات ولاة جدة وحكام القاهرة فى سبيل بسط نفوذ الدولة العثمانية على السواحل اليمنية باعتبارها الخط الأول لمحاولة عرقلة كافة المحاولات البرتغالية للتقدم نحو البحر الأحمر ومن ثم تهديد الأماكن المقدسة ، أما الناحية الثانية فتتمثل فى توجيه العثمانيين أنظارهم الى الصراع الدائر على السواحل الحبشية بين مسلمى الطراز والحبشة ، والذى تطور الى هزيمة ساحقة منى بها الأحباش فى بداية الأمر عندما هزموا فى موقعة شمبركورى عام ١٥٢٨ م كما ذكرنا من قبل ، وهى المعركة التى عجلت بضرورة تعاون العثمانيين ومسلمى الطراز ، عندما أرسل الامام أحمد القرين ما تجمع

---

(1) Miles: The Countries and Tribes of Persian Gulf 166.
(2) Miles: The Countries and Tribes of Persian Gulf 167.
(3) Miles: The Countries and Tribes of Persian Gulf 167.

لديه من الغنائم مع وفد الى اليمن لشراء الأسلحة والمعدات الحربية [١]، التى قدمتها لهم الدولة العثمانية على يد حاكم زبيد فى اليمن الذى عهد اليه بتزويد الامام بالأسلحة والمدافع كمساعدة دون مقابل ، فى وقت وعد فيه شريف مكة بتزويد الامام أحمد بالجنود والسلاح [٢]، وهذا بدوره ما جعل الامام أحمد يطمئن الى وجود قاعدة قوية مضافا اليها التفاف مسلمى الطراز حوله مما شجعه على متابعة فتوحه للهضبة الحبشية ، حيث سيطرت على معظمها القوات الصومالية مع مطلع عام ١٥٣٤ م .

وازاء تلك الهجمات الشديدة قرر ملك الحبشة لبنادنجل ضرورة الاستعانة بالبرتغاليين حلفائه التقليديين ، على أن هناك عاملا مهما قاد لبنا دنجل الى تلك الفكرة وهى وجود John Bermudez يوحنا برمودز أحد أعضاء بعثة ماثيو السابقة فى أرضه ، والذى أخذ يشجع لبنادنجل على ضرورة استعانته بالبرتغاليين لايقاف الزحف الاسلامى ، ولما كانت هناك فترة زمنية انقطعت فيها الاتصالات بين الحبشة والبرتغاليين منذ لحظة سفر بعثة ماتيو ١٥٢٦ م لجأ لبنادنجل الى خطة بارعة فى سبيل نيل عطف ومساعدة البرتغال وهى لجوءه الى ادخال الكنيسة الحبشية تحت تشريع الكنيسة فى روما ، اضافة الى تعيينه لبرمودز بطريركا للحبشة [٣]، والذى أرسل فى السنة التالية ١٥٣٥ م لطلب المعونة ، غير أن تلك البعثة تعرضت لمتاعب عديدة من قبل قوات الامام القرين ، والقوات العثمانية التى فرضت

---

(١) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ٦٨ .

(٢) المرجع السابق ، ٦٢ .

(3) Ullendorff: The Ethiopians 74.

– د. زاهر رياض : الاسلام فى أثيوبيا ٢١٩ .

حصارا قويا لمنع أى اتصال بين الحبشة والبرتغال ، وانتهى الأمر بوقوع كافة أفراد البعثة بأيدى قوات الامام القرين عدا برمودز الذى نجح فى الفرار الى ميناء مصوع ومنه الى البرتغال (١) ، حيث شرح للملك جوان الثالث حرج الموقف فى الحبشة ، والخوف من وقوعها بأيدى المسلمين وبالتالى نشر الاسلام بها ، فأرسله الملك البرتغالى الى نائبه فى الهند بخطاب يأمره فيه بامداد الحبشة بمعونة عاجلة من الرجال والأسلحة ، ولكن شيئا من ذلك لم يتم بالسرعة التى كان يتوقعها لبنادنجل ، فبرمودز عرج قبيل سفره الى جوا على روما حيث قابل فيها البابا ، وأعلمه بما وصلت اليه المسيحية من تدهور فى الحبشة ، حتى انه لم يتمكن من الوصول الى جوا الا فى عام ١٥٣٩ م ، فى وقت كان فيه نائب الملك فى الهند يعالج النتائج التى ترتبت على وصول حملة سليمان باشا الخادم الى الهند ورحيلها الى البحر الأحمر عقب فشلها . (٢)

كانت السنوات من عام ١٥٣٦ م وحتى وصول النجدة البرتغالية ١٥٤١ م مليئة بالنكبات المتتابعة والهزائم الساحقة للأحباش ففى عام ١٥٣٨م استطاع الامام القرين الاستيلاء على اقليم شوا ، وأن يدفع بالملك لبنادنجل أمامه حتى حدود سنار حيث وقعت معركة حامية على ضفاف النيل قتل فيها أعداد كبيرة من الأحباش (٣) ، اضطر بعدها لبنادنجل الى الفرار مرة أخرى معتصما بداخل الهضبة الحبشية التى هاجمها أحمد القرين من جميع سبلها ، حيث

---

(1) Pank hurst: Ethiopia 329.
   - Jones & Monroe: A History of Ethiopia 83.
(2) S.H. Longrigg: A Short History of Eritrea 48.
— الحيمى ، الحسن بن أحمد : سيرة الحبشة ٢٦ — تحقيق د . مراد كامل .
— ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ١٥٦ .
(٣) محمد عبد الله النقيرة : انتشار الاسلام فى شرق افريقية ٤٦ .

أخذت أعداد وفيرة من الأحباش فى اعتناق الاسلام ، وأخيرا توفى لبناعنجل طريدا مشردا قبيل وصول النجدة البرتغالية ، حيث خلفه ابنه جلاوديوس الذى سعى بمختلف الطرق لكسب تأييد ومعونة الدول الأوربية له لانقاذ بلاده من الانهيار . (١)

كذلك كانت الفترة بداية من عام ١٥٤١ م فترة حاسمة فى تاريخ تلك المنطقة لأنها حددت موعدا زمنيا لتلاقى كل من الدولة العثمانية والبرتغاليين على الساحل الحبشى للمرة الثانية ، عقب فشل حملة سليمان باشا الخادم فى الهند عام ١٥٣٨ م ، فكما ذكرنا سابقا كان مبعوث لبنادنجل قد وصل الى جوا عام ١٥٣٩ م بخطاب من ملك البرتغال الى نائبه فى الهند بتزويد الحبشة بمعونة عاجلة لمواجهة أحمد القرين ، على أن تلك المعونة لم تجهز الا مع نهاية ١٥٤٠ م عندما أعد نائب الملك فى الهند Stephano de Gama حملة بحرية قوية لغزو البحر الأحمر حدد أهدافها كالتالى : أولا — القيام بتوصيل المساعدات اللازمة للحبشة (٢) ، ثانيا — القضاء على الأسطول العثمانى فى السويس ذلك أن الأنباء كانت قد وصلت الى جوا عن قيام العثمانيين باعداد أسطول آخر فى السويس عقب رحيل سليمان باشا عن الهند ، لهذا قرر نائب الملك فى الهند ضرورة الاسراع بمهاجمة ميناء السويس ، وحرق الأسطول قبيل خروجه من البحر الأحمر ، ثالثا — محاولة ازاحة السفن المتخلفة من حملة سليمان باشا الخادم عن طريق الهند التجارى . (٣)

---

(١) محمد عبد الله النقيرة : انتشار الاسلام فى شرق افريقية ٤٦ .
- Jean Doresse: Ethiopia 145.
(2) Thomas Astley: Voyages and Travelrs I 107-108.
(3) Playfair: A History of Arabia Felix 103.
- Thomas Astley: Voyages and Trabelrs 108.

وصلت الحملة البرتغالية الى البحر الأحمر حيث قامت بضرب عدن بالمدافع ، ومن ثم توجهت الى باب المندب ثم الى سواكن ودهلك حيث أسروا معظم السفن التى وجدوها داخل البحر الأحمر بعد قتل كافة بحارتها ، وبلغ من قوة وضخامة الحملة أنها أدت الى خلو كثير من جزر البحر الأحمر من سكانها ، مما يدل على مدى الفزع الذى لحق بأهالى سواحل البحر الأحمر من جراء ضخامة الحملة (١) ، وعندما وصل دى جاما الى السواحل الحبشية لم يحاول انزال النجدة العسكرية بالسرعة المطلوبة للأحباش ، ويبدوا أنه أراد القضاء أولا وقبل كل شىء على المراكز العثمانية المنتشرة على السواحل الحبشية فى محاولة لتسهيل الطريق أمام امداداته العسكرية للأحباش خوفا من قيام العثمانيين بالاغارة عليها .

بدأ البرتغاليون عملياتهم العسكرية عندما نزلوا فى سواكن ،وازاء مقاومة سكانها لجأوا الى عقد هدنة معهم ، ولكنهم ما لبثوا أن قاموا بسلبها والقبض على سكانها كأسرى (٢) ، وحاول دى جاما ارسال مائة من جنوده كطلائع لامداداته العسكرية ، الا أن قوات الامام القرين كانت قد أدركت ذلك فهاجمتهم ، وأبيدت القوة عن بكرة أبيها ، وازاء تلك المقاومة سحب دى جاما قواته وانسحب بسفنه فى محاولة لايجاد المكان المناسب لرسو سفنه ، وبالتالى ارسال الامدادات العسكرية اللازمة ، وفى محاولة للانتقام للقتلى البرتغاليين على أيدى القوات الاسلامية اتجه دى جاما الى مصوع وأنزل جنوده الذين أوقعوا بأهالى ذلك الميناء مذبحة كبرى (٣) ، ومن مصوع اتجهت الحملة البرتغالية الى موانىء مصر الجنوبية على البحر الأحمر .

---

(1) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 98.
- Thomas Astley: Voyages and Travelrs I 108.

(2) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 99.

(3) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 99.

وفى تلك الأثناء كان امبراطور الحبشة الجديد جلاوديوس (١٥٤٠ — ١٥٥٩ م) موجودا بجنوب شوا حيث كان يقود حركة المقاومة ضد المسلمين أما العثمانيون فقد أرسلوا حملة الى اليمن ، وقاموا بارسال التعزيزات العسكرية الى عدن ، اضافة الى قيامهم باعداد الأسطول وتشديد الحراسة على ميناء السويس خوفا من الغارات البرتغالية عليه بعد ما وصلتهم تحذيرات بذلك من أمير سواكن . (١)

واصل الأسطول البرتغالى طريقه نحو القواعد العثمانية فى شمال البحر الأحمر حيث أغاروا على ميناء القصير ، ونزلت قواتهم وأوقعت بالأهالى مذبحة شديدة كما فعلوا من قبل فى مصوع ، ومن ثم اتجهوا الى الطور حيث أسروا بعض السفن التجارية هناك ، وحاولوا النزول فى الميناء الا أن المقاومة العثمانية حالت دون ذلك (٢) ، فتابعوا طريقهم نحو السويس أكبر القواعد العثمانية هناك ، وعندما اقتربوا من الميناء أرسلوا ثمان سفن ليلا لمراقبة حركة الميناء ، وعندما لاحظوا مدى استعداد الحامية والأسطول أسرعوا الى القيادة وأبلغوها بما شاهدوه ، فانسحبوا مسرعين الى الجزر المقابلة لسواحل الحبشة ، وهناك توالت على قائد الأسطول دى جاما الاستغاثات من الملك جلاوديوس لمساعدته ضد الامام أحمد القرين (٣) ، ولم يسرع مرة أخرى فى ارسال المساعدات المطلوبة ، اذ كان يرى أن هناك حسابا له مع مدينة سواكن وأميرها الذى قام بتحذير العثمانيين من زحفهم على قواعدهم

---

(1) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 100.
- The Campridge History of Africa Vol. 3 181.
— د . السيد رجب حراز : أرتريا الحديثة ٢٩ .
(2) Thomas Astley: Voyages and Trabelrs 108.
(3) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 100.
- Playfair: A History of Arabia Felix 103.
- The Campridge History of Africa Vol. 3 181.

السابقة الذكر ، ومن أجل الانتقام قام قائد الأسطول البرتغالي ستفانـــــوا دى جاما بارسال أخيه كريستوفر على رأس حملة مكونة من ١٠٠٠ جندى حيث ارتكبوا في الجزيرة مذبحة بين الأهالي ، ومن ثم قاموا بسلب المدينة واحراقها (١)

وفي التاسع من يوليو ١٥٤١ م أنزل ستفانوا دى جاما قائد الأسطـــــول القوة المعدة لمساعدة الأحباش في حرقيقو (اركيكو) ، والتي تكونت من ٤٥٠ جندى اضافة الى العديد من المدافع الميدانية و ٩٠٠ بندقية ، وقد تمكن كريستوفـــر شقيق ستفانوا وقائد الحملة من الافلات من العثمانيين حيث واصل طريقه الـــى الداخل بعدما رحب بهم نائب ملك الحبشة ووالى اقليم التيجرى البحر نجـش ، وفي الطريق الى الداخل عمد أفراد الحملة الى تحطيم كافة المساجد الـــتى وجدوها في طريقهم. (٢)

---

(1) Thomas Astley: Voyages and Trabelrs Tome I 108.
(2) Longrigg: A Short History of Eritrya 48.
- Jean Doresse: Ethiopia 145.
- فتحي غيث : الاسلام والحبشة عبر التاريخ ١٥٧.
جاء في كتاب الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ص ١٣١ توتـــر في الأخبار التي يسردها المؤلف خاصة عقب وفاة لبنادنجل ، فهو يذكـــر مثلا أن جلاوديوس هو الذى أرسل في طلب المعونة البرتغالية في حـــين أن معظم المصادر ذهبت الى أن لبنادنجل هو الذى طلب تلك المعونة ، ولكنها وصلت عقب وفاته ، ومرة أخرى نجده وفي نفس الصفحة يسرد أحداث حملة ثانية وصلت الى الحبشة لم تشر اليها المصادر ، ومن خلال متابعـــة أحداث الحملة الثانية التي نزلت الحبشة والتي أشار اليها الباحث نجـــد أنها هي الحملة التي اتفقت المصادر على نزولها الحبشة عقب وفاة لبنادنجل أما الحملة الأولى فلم نجد لها أى أثر في المصادر ، أى أنه يشير بذلـــك الى أنه كانت هناك حملتان على عهد جلاوديوس نزلت الحبشة ، والواقـــع أنها حملة عسكرية واحدة هي التي نزلت في عهد جلاوديوس.

وعودة الى داخل الهضبة الحبشية فاننا نجد أن جلاوديوس لم يحاول الاحتكاك بقوات الامام القرين انتظارا لوصول المساعدة البرتغالية باعتبارها كانت تحمل أسلحة نارية قادرة على مواجهة الكتائب العثمانية المسلحة بالأسلحة الحديثة ، أما الامام القرين فلم يشأ مواصلة القتال انتظارا لانتهاء فصل الأمطار ، وفى الوقت نفسه كتب هو أيضا الى الوالى العثمانى فى زبيد يستمده العون والمساعدة الحربية ، وكان أمرا طبيعيا أن تلتحم القوى الاسلامية داخل حوض البحر الأحمر لمواجهة ذلك الخطر الصليبى الذى اتخذ من السواحل الغربية للبحر الأحمر مجالا لنشاطه لتهديد العالم الاسلامى ، وخاصة وان الامام أحمد بحروبه تلك ضد الحبشة قد هدد النفوذ البرتغالى عن طريق القضاء على دولة الحبشة الحليف التقليدى للبرتغاليين ، الذين كانوا يسعون الى بسط نفوذهم داخل البحر الأحمر عن طريق تحالفهم مع الأحباش وكان من الطبيعى أيضا أن يجد الامام أحمد مساعدة فعالة من العثمانيين الذين وجدوا فى تحالفهم مع مسلمى الصومال قاعدة أساسية لحماية مصالح العالم الاسلامى من الغزو البرتغالى ، وفى الوقت نفسه يعطيهم ذلك فرصة للانطلاق نحو المحيط الهندى ، بعدما أطمأنوا على قواعدهم داخل البحر الأحمر فى وقت حاصر فيه العثمانيين الأحباش داخل هضبتهم ، ومنعوهم من الوصول الى البحر الأحمر لدرجة أن تلك السنوات سجلت أكبر نسبة فى انخفاض عدد الحجاج الأحباش الذين كانوا يحجون الى بيت المقدس عن طريق البحر الأحمر (١) ، وحتى بداية عام ١٥٤٢ م كان الامام أحمد يسيطر على معظم أجزاء الهضبة الحبشية باستثناء الأجزاء الجنوبية ، التى تمركز فيها الملك جلاوديوس ، وفلول الجيوش الحبشية حيث انضمت اليها المساعدة البرتغالية ، (٢)

---

(١) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ١٨١ .

(٢) المرجع السابق ، ١٥٧ .

وبتلك المساعدة شهدت سواحل البحر الأحمر لأول مرة صراعا دوليا ، وتم أول لقاء حربي بين الطرفين في جنوب بحيرة أشانجي Ashangi في منتصف أبريل ١٥٤٢ م.

كانت تلك المعركة هي الأولى من نوعها التي يستخدم فيها الأحباش المدفعية الميدانية ، اضافة الى العديد من الأسلحة النارية الحديثة ، وهذا بدوره ما جعل للمدفعية أثر فعال في صفوف الجيش الاسلامي الذي تقهقر الى المناطق الجبلية في زابيل Zabel بعدما جرح الامام القرين ، الذي أخذ في اعادة تنظيم قواته العسكرية استعدادا للمعركة القادمة (١) ، وفي تلك الأثناء كانت القيادة البرتغالية في المحيط الهندي قد أرسلت قافلة من خمس سفن تحمل كميات من الأسلحة والمؤن الى قواتها في الحبشة في محاولة لتعزيز صفوف القوات المتحالفة ، الا أن يقظة الأساطيل والحاميات العثمانية حالت دون وصول أية سفينة من تلك القافلة الى السواحل الحبشية ، وبفشل تلك المحاولات اضطرت القافلة الى العودة مرة أخرى الى الهند دون تحقيق أي من أهدافها. (٢)

وعودة الى الامام أحمد القرين فاننا نجده قد أعاد تنظيم صفوف جيشه في صيف عام ١٥٤٢ م بعدما وصلته الامدادات العسكرية من مصطفى باشا النشار والي اليمن ، وهي عبارة عن تسعمائة جندي مسلحين بالبنادق ومجموعة من المدفعية اضافة الى متطوعين من الحجاز بلغوا الألفي مجاهد . (٣)

---

(1) Jean Doresse: Ethiopia 146.
- Longrigg: A Short History of Ertrya 49.
- The Camp Hist of Africa Vol. 3 181.

(2) Serjeant: The Portuguesse off the South Arabian Coast 102.

(3) Jean Doresse: Ethiopia 146.
- محمد عبدالله النقيرة : انتشار الاسلام في شرق افريقية ٤٦.

كانت الخطوة الأولى أمام الامام أحمد القرين لتشتيت جهود الحلفاء المسيحيين أمامه هى لجوءه الى الحيلولة دون اتصال القوات البرتغالية مع القبائل المعادية له ، وما أن تمت له تلك الخطة حتى باشر بضرب الجميع مع بداية أغسطس ١٥٤٢ م وخاصة الفرق البرتغالية التى أحيط بها من كل مكان ، بعد أن تمكن المسلمون من أسر قائدهم كريستوفر دى جاما وقتله وتبعا لذلك الهجوم المباغت فقد انخفض عدد الجنود البرتغاليين الى نحو مائتى جندى ، كان معظمهم يشقون طريقهم بصعوبة نحو معسكر الملك جلاوديوس خوفا من الاصطدام بالقوات الاسلامية التى باتت تلاحقهم فى عملية تراجعهم نحو الصفوف الخلفية بعدما فقدوا قائدهم ونصف عتادهم وذخيرتهم (١).

كان لذلك النصر أثر بالغ الأهمية على مجريات الحوادث داخل البحر الأحمر لأنه قد حدد وبصورة نهائية أن مملكة الحبشة انما هى فى طريقها الى الزوال وأن الأمر لم يتعدى سوى غزو الامام القرين لمواقع الملك جلاوديوس فى جنوب الهضبة الحبشية ، وبذلك تتحول تلك الامبراطورية الى دولة اسلامية بين ليلة وضحاها ، وهذا بالتالى ما يؤكد أن البحر الأحمر قد أصبح دون أى شك بحيرة اسلامية خالصة على طول شواطئه من الشمال الى الجنوب.

كان من المتوقع أن تستمر القوات الاسلامية بمساعدة الكتائب العثمانية فى طريقها نحو مراكز الأحباش الأخيرة ، الا أنه لم يحدث من ذلك شىء بسبب نشوب الخلاف بين الامام القرين والقوات العثمانية ، ذلك أن الامام أحمد القرين وعقب انتصاره الساحق على الأحباش والبرتغاليين ظن أن الأمور

---

(1) Longrigg: A Short History of Eritrya 49.
- The Camp Hist of Africa Vol. 3 181-182.
- Jean Doresse: Ethiopia 146.

— فتحى غيث : الاسلام والحبشة عبر التاريخ ١٥٦ .

قد استتبت له بذلك الانتصار ، وأنه قادر فيما بعد على تحقيق أهدافه ضد الحلف المسيحى ، دون أن يدرك مدى تأثير تلك الاشتباكات السابقة على مركزه وما تعرضت له قواته من انهاك (١) ، وفى الوقت نفسه خشى الامام أنه فى حالة قضائه على الامبراطورية الحبشية سيواجه مشاكل أخرى مع القوات العثمانية التى وقفت الى جانبه طيلة فترة حروبه ، وهذا ما جعله فى خوف دائم منهم ، لهذا قام القرين باعادة معظم حملة البنادق العثمانيين الى زبيد باستثناء مائتى جندى استبقاهم الى جانبه ، وبذلك فقد الامام أحمد ركنا هاما كان يعينه فى حربه (٢) ، وما لبثت الأمور أن تعقدت أكثر مما سبق حينما رفض أحمد القرين قبول الامدادات العسكرية التى كان يبعث بها العثمانيون من قواعدهم على سواحل اليمن ، وهذا بدوره ما أدى الى ارباك القيادة العثمانية فى اليمن التى أخذت تنظر الى ذلك الوضع بعين الحسرة والضيق ، لأنه أدى بالفعل الى زيادة التعاون بين الأحباش والبرتغاليين فى حين وقف أحمد القرين بمفرده فى مواجهتهم . (٣)

أما فى المعسكر المسيحى فقد كان لذلك الانفصال بين القوات العثمانية والصومالية أثره الفعال فى ازدياد التعاون بين الأحباش والبرتغاليين الذين أرادوا استغلال تلك الفرصة فى سبيل الانتقام لهزائمهم السابقة ، وفى الوقت

---

(1) Jean Doresse: Ethiopia 147.

- فتحى غيث : الاسلام والحبشة عبر التاريخ ١٥٦.

(2) The Camb Hist of Africa Vol. 3 182.

- محمد المعتصم سيد : دول اسلامية فى شرق افريقية ٣٧ .

- ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ١٨٦ .

(٣) محمد المعتصم سيد : دول اسلامية فى شرق افريقية ٣٧ .

- ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ١٨٦.

نفسه فرصة للخلاص من القرين وحركته بعدما أبعد الفصائل العثمانية عن معسكره خاصة وأنهم قد أصبحوا أى البرتغاليين فى حالة يرثى لها بعدما أحكم العثمانيون تشديد الرقابة على الشواطىء الحبشية لمنع وصول الامدادات البرتغالية اليهم من وقواعدهم فى المحيط الهندى ، أما القوات الحبشية فكانت قد بلغت مرحلة من التدريب الجيد على أيدى الضباط البرتغاليين الذين استفادوا من هزائمهم السابقة (١) ، واستطاعوا كذلك تصنيع البارود من مواد محلية عوضا عن نقص الامدادات نتيجة الحصار العثمانى على السواحل الحبشية (٢) ، وفى فبراير ١٥٤٣ م قامت القوات المسيحية المتحالفة بمهاجمة جيوش الامام أحمد القرين المعسكرة فى وينا داجا Waina Daga فى الأجزاء الشمالية من الهضبة الحبشية ، وكان قتالا عنيفا استخدم فيه البرتغاليون كافة الأسلحة الحديثة من مدافع وبنادق ، اضافة الى استخدام الأحباش للدروع المصنوعة من الصلب لوقايتهم من الرصاص ، فى وقت قام فيه البرتغاليين بترتيب مجموعات من القناصة التى أجادت التصويب على الأهداف والأفراد ، ومن ثم اتجهت الى اختراق صفوف الجيوش الاسلامية مما أدى الى اضطراب صفوفها ازاء الضغط الشديد للأسلحة الحديثة (٣) .

وكانت خاتمة المطاف هو نجاح احدى الكتائب البرتغالية بقيادة بدروليسونى فى الوصول الى مركز الامام أحمد القرين ، حيث أطلقوا جميعهم الرصاص عليه فاستشهد نتيجة لذلك ، وازاء استشهاد الامام القرين أصاب الذعر

---

(١) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ١٩١ .

- MarGery Perham: The Government of Ethiopia 43.

(2) Margery Perham: The Government of Ethiopia 43.

(3) The Camb Hist of Africa Vol. 3 181-182.

- Jean Doresse: Ethiopia 147.

— ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ١٩٢ .

صفوف القوات الصومالية التى أخذت فى التراجع والفرار فى اتجاه الساحـــل (١) ، دون تنظيم ما ، والقوات الحبشية تتبعهم وتقتل منهم أعدادا كبيرة ، وتلا تلك الهزيمة قيام القوات الحبشية بالانقضاض على المدن والقرى الاسلامية وحرقها وترك الدمار والخراب يعبران عن شهوة الانتقام . (٢)

وضح مما سبق أثر التدخل البرتغالى فى تغيير موازين القوى لصالـــح الأحباش ، وبالتالى تحقق النفوذ البرتغالى ، فالجنود البرتغاليون فضلـوا عقب استشهاد الامام أحمد القرين البقاء فى الحبشة ، خاصة بعدما طلـب منهم الملك جلاوديوس ذلك لحمايته وبناء ما دمرته الحروب ، نظرا لكـون الكثيرين منهم كانوا أصحاب حرف تفتقر اليها الحبشة مثل الصناعة والزراعـة ، وما لبث هؤلاء البرتغاليون أن تزوجوا بالحبشيات وكونوا أسرا مختلطة (٣) . من هذا نرى أنه كان لحملة ستفانوا دى جاما وأخيه كريستوفر ١٥٤١ م والظـروف التى انتهت اليها المعارك بين مسلمى الصومال والحبشة أثرها الفعال فـى جعل البحر الأحمر يأخذ أبعادا سياسية واستراتيجية أخرى ، غيرت المفاهيم السابقة للعثمانيين والبرتغاليين من حيث نظرتهم الى البحر الأحمر ، فمثلا الحروب التى قام بها الامام القرين لا نستطيع أن نصفها بالصبغة السياسية البحتة لأنه فى الوقت الذى كانت فيه جيوش القرين تتسلق الهضبة الحبشيـة كان دعاته يتصلون بالسكان ويدعونهم لدين الاسلام لدرجة أننا نلاحظ اسلام

---

(1) Jean Doresse: Ethiopia 147.

— ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ١٩٣ .

(٢) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ١٩٧ .

(٣) المرجع السابق ، ١٩٧ ، ١٩٨ .

— بدر السيد بدر نصار : رحلة الحسن بن أحمد الحيمى لشرق افريقيـة ١٢٢ ، ١٢٣ . رسالة دكتوراه (لم تنشر) ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ م .

كثير من الزعماء الأحباش ومن كان تحت أيديهم (١)، كذلك فقد نجح التجار العرب المسلمون من الانتشار فى مدن الحبشة المختلفة التى فتحت واستقروا بها متخذين منها أسواقا لتصريف منتجاتهم (٢)، ولكن ما ان استشهد الامام القرين حتى كانت الجيوش الصومالية قد فقدت أعصابها، لدرجة أن القادة فقدوا السيطرة على أنفسهم وقواتهم، وتفرقوا على مجموعات من جيوشهم عائدين الى المناطق التى جاءوا منها (٣)، حيث لم يقدر لهم التجمع مرة أخرى الا فى فترات متقطعة، وهذا بدوره ما أعطى الفرصة مؤقتا لتعمق العلاقات الحبشية البرتغالية كما سنرى فيما بعد .

أما العثمانيون فعلى الرغم من أن انسحابهم من المعركة النهائية التى استشهد فيها الامام أحمد أمر قد أجبروا عليه ، فلم يكن من المتوقع أن يهملوا السواحل الحبشية ويتركوها الى الأبد ، فهم وان شاهدوا جحافل الصوماليين تتراجع تجاههم عقب مقتل امامهم فقد تمسكوا أكثر من ذى قبل بالسواحل الحبشية ، خاصة وأنهم قد أدركوا تماما وأمام أعينهم مخاطر التحالف الحبشى البرتغالى ، ومدى النتائج التى حققت نتيجة ذلك التحالف ، لهذا نجدهم قد رسموا سياستهم كالتالى : أولا — تشديد قبضتهم على السواحل الحبشية ، خاصة مصوع وسواكن وجدة التى تمركزت بها حامياتهم باعتبارها نقاط الوصل بين حامياتهم المنتشرة على طول السواحل الحبشية فى محاولة لقطع كافة الاتصالات بين الطرفين (٤) ، ولم يكن ذلك يعنى أن امتلاك الحبشة بالنسبة

---

(١) د . محمد المعتصم سيد : دول اسلامية فى شرق افريقية ٣٨ .
— توماس . و . أرنولد : الدعوة الى الاسلام ١٣٧ .
(٢) د . محمد المعتصم سيد : دول اسلامية فى شرق افريقية ٣٨ .
(٣) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ١٩٧ .
(4) Longrigg: A short History of Eritrya 50
— Perham: The Government of Ethiopia 43.
— الحيمى : سيرة الحبشة ٢٦ .

للعثمانيين أمر ضرورى للغاية ، وانما هو أمر مرغوب فيه حتى لا تتاح الفرصة للبرتغاليين للتمركز هناك ، ومن ثم تهديد الأماكن المقدسة (١) .

ثانيا : - اغلاق البحر الأحمر فى وجه البرتغاليين حيث بدأت السفن العثمانية خاصة عقب دخول حملة ستفانوا دى جاما ، فى تنظيم دوريات تتجول بانتظام داخل البحر الأحمر ، وبلغ من شدة يقظة تلك الدوريات العثمانية أن نائب ملك البرتغال فى الهند الذى جاء عقب ستفانوا دى جاما ، قرر مؤقتا منع كافة المحاولات البرتغالية للاتصال بالأحباش نظرا لكثافة النشاط البحرى للعثمانيين أمام السواحل الحبشية . (٢)

ثالثا - العمل على تطهير السواحل العربية الجنوبية من السفن البرتغالية المتناثرة بها ، ومن أجل هذا أرسل العثمانيون فى ربيع الثانى ٩٤٧ هـ - ١٥٤١ م ثمان سفن حربية الى المخا وعدن من مصر ، حيث لحقتها فيما بعد ١٢ سفينة تحمل امدادات وجنودا . (٣)

أما البرتغاليون فانهم مع نجاحهم فى القضاء على القوات العسكرية لمسلمى الطراز الاسلامى ، وتمركزهم فى الحبشة بصورة أعمق من السابق ، كان لابد والأمر كذلك أن تصبح الهضبة الحبشية مجالا لنشاطهم فى سبيل نشر الكاثوليكية فى الحبشة ، ومن ثم محاولة القيام بعمليات مشتركة مع الأحباش ضد القوى

---

(1) Stripling: The ottoman Turks and the Arabs 97.

(٢) د. السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٤٠٤.

(3) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 100.

الاسلامية فى حوض البحر الأحمر ، الا أنه لابد لنا من تحديد الخطوات أو المفاهيم الجديدة التى نظر من خلالها البرتغاليون الى سياستهم المقبلة داخل البحر الأحمر ، ولعل ذلك يتحدد فى النقاط التالية :

أولا — مع نجاح حملة ستفانوا دى جاما فى انزال بعثتها الى الحبشة عام ١٥٤١ م حاول البرتغاليون فى البداية الجنوح للسلم مع الدولة العثمانية عن طريق مشروع لمعاهدة تؤدى الى استلام العثمانيين كميات من الفلفل ، ازاء القمح من ميناء البصرة مع السماح للسفن البرتغالية بالتجول داخل البحر الأحمر ، اضافة الى تحديد العثمانيين لعدد الحاميات العسكرية فى عدن الا أن العثمانيين رفضوا تلك المعاهدة رفضا باتا ، (١) ولكنهم ما لبثوا أن عاودوا الكرة فى عام ١٥٤٤ م ، عندما حاولوا ارسال سفيرهم وادردو كتانو Odoardo Cataneo الى استامبول لعقد الصلح مع الدولة العثمانية ، ومرة أخرى تفشل محاولاتهم (٢).

ثانيا — توثيق علاقاتهم مع الأحباش ، ولعل ذلك قد تمثل فى صور عديدة من حيث النظرة البرتغالية تجاه الأحباش ، والنتائج التى قد يخرجون بها ازاء تحالفهم معهم ، ولعلنا نستطيع القول فى بداية الأمر أن هناك علاقة وثيقة بين فشل البرتغاليين فى غزو السويس ١٥٤١ م ، وبين توثيق روابطهم مع الحبشة ، ولعل تلك العلاقة تظهر من خلال نقطتين هما أن البرتغاليين ومع فشل ستفانوا دى جاما فى غزو السويس قد شعروا بمدى الخطورة الناتجة عن تحقيق مثل تلك الغارة السابقة حتى لا يعرضوا أساطيلهم للدمار ، لهذا قرروا تركيز جهودهم مع الأحباش فى سبيل

---

(1) Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 93.

(٢) د. السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

توحيد أعمالهم الحربية بداخل البحر الأحمر (١) ، أما النقطة الثانية فهى رغبة البرتغاليين فى الاستقرار بالحبشة لاشغال العثمانيين عن الخروج الى المحيط الهندى ، ومراقبة الأحداث التى قد تجرى على السواحل الحبشية ، ومن الصور الأخرى لتوثيق العلاقات الحبشية البرتغالية ازدياد نشاط البعثات التبشيرية للجزويت لدرجة جعلتهم يحتلون المكانة العليا فى الكنيسة الحبشية على مر السنين ، بذلك نستطيع القول أن البرتغاليين بنشاطهم السابق قد تمكنوا من تحقيق بعض أحلام أوربا التى عجزت الحروب الصليبية عن تحقيقها .

وأخيرا فقد أثبتت الأحداث السياسية السابقة التى مر بها البرتغاليون سواء فى المحيط الهندى أو أثناء حروبهم مع الامام القرين أن سيطرة البرتغاليين على الحبشة يجب أن تكون مستمرة ، ذلك أن ترك العثمانيين يهددونها أمر قد ينتهى بهم الى جعلها مملكة اسلامية ، وهذا بدوره ما يساعد على جعل البحر الأحمر بحيرة اسلامية تساعد العثمانيين على الخروج واعتراض السفن مابين شرق افريقية والهند ، خاصة اذا علمنا أن السفن المتجهة من لشبونة الى الهند كانت تتوقف فى شرق افريقية للاستراحة والتزود بالمؤن .

من واقع ما ذكرناه سابقا تطورت الأحداث السياسية على السواحل الحبشية بدرجة أصبحت معها الأنظار تتجه بصورة مركزة لمراقبتها ، خاصة من قبل الدولة العثمانية والبرتغاليين ، وبذلك أصبحت السواحل الحبشية هى المجال الحيوى لجولات الأساطيل العثمانية لمواجهة ذلك السيل العنيف من البعثات الكاثوليكية التى بدأ البرتغاليون فى ارسالها الى البلاط

---

(١) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٣٩٩ .

الحبشى ، وفى الوقت نفسه محاولة مد يد المساعدة لما سيظهر من حركات المقاومة التى سيقوم بها مسلمو الامارات كما سنرى فيما بعد ، ومع نهاية عام ١٥٤٣ م لم يكن مقدرا أن تهدأ الأحوال السياسية بين مسلمى الطراز والحبشة ، خاصة بعدما اتجه جلاوديوس الى اعداد وتنظيم جيوشه عوضا عن الاتجاه الى اصلاح البلاد واعادة تنظيمها (١) ، كان ذلك فى وقت أخذ فيه أحد أعوان الامام القرين ويدعى الوزير عباس يرفع راية الجهاد الاسلامى ضد الأحباش ، وذلك كرد فعلى لاستعدادات جلاوديوس ، حيث تمكن من تكوين دولة اسلامية من مقاطعات دوارو فاتجار وبالى ، ومرة أخرى تسقط تلك الدولة على أيدى الجيوش الحبشية التى غزتها عام ١٥٤٥ م بقيادة جلاوديوس (٢) .

وبينما تلك الأمور تجرى كان بقايا البرتغاليين يعملون جادين على نشر المذهب الكاثوليكى بين الأحباش فى محاولة لضم الكنيسة الحبشية الى الكنيسة الغربية ، ولم تكن تلك الخطوات قد اتخذت بعد مظهرا رسميا يعمل من خلاله البرتغاليون على تنفيذ أحلامهم تلك ، ولكن ما أن حلت السنة التالية ١٥٤٦ م حتى كان ملك البرتغال يوحنا الثالث Jean III قد بدأ عمليا فى محاولة ربط الكنيسة الحبشية بالكنيسة الرومانية ، الا أنها أيضا لم تكن بصورة رسمية وانما أراد فى بداية الأمر أن يجس نبض جلاوديوس لتلك العملية ، عندما أرسل له فى ١٣ مارس ١٥٤٦ م رسالة يخبره فيها بأنه سيرسل اليه أحد البطاركة لرئاسة الكنيسة الحبشية ، وكان رد النجاشى ردا

---

(1) Trimingham: Islam in Ethiopia 86.
(2) Trimingham: Islam in Ethiopia 86.

- د . حسن أحمد محمود : انتشار الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ٤٦٨ .

غامضا بصفة عامة ، حيث لم يجب جوابا محددا حتى لا يحرم نفسه من المساعدات البرتغالية . (١)

ومرة أخرى تتوقف الاتصالات بسبب تطور الأحداث السياسية بين مسلمي الطراز والحبشة عندما انتفضت هرر مرة أخرى واجتمع المسلمون حول أرملة الامام أحمد للأخذ بالثأر ، واتحدت القوات الاسلامية بقيادة كل من القواد عمر دين وعلى الجراد ابن الامام القرين ، وقامت تلك القوات بغزو امارة دوارو ، ولكنهم ما لبثوا أن هزموا ، وأسر الزعماء منهم وبذلك انتهت الانتفاضة الثالثة لهرر مرة أخرى . (٢)

وازاء تلك التطورات الأخيرة للأحداث على السواحل الحبشية كان لابد لنا من التساؤل عن موقف العثمانيين من تلك الأحداث ، والواقع أن العثمانيين بداية من عام ١٥٤٧ م قد أجبروا وبصورة مؤقتة على تركيز أنظارهم على السواحل الشرقية للبحر الأحمر بسبب ما تعرضت له تلك السواحل من أحداث هزت القيادات العثمانية داخل البحر الأحمر ، ففى بداية الأمر تعرض العثمانيون لخطر التصادم مع القوات الزيدية فى اليمن عندما أعلن الامام شرف الدين وأبناؤه الثورة على العثمانيين ، ومن ثم قاموا بشن أعنف الهجمات على القوات العثمانية المعسكرة فى اليمن فى محاولة لزحزحتها عن مواقعها ، كان ذلك فى وقت نشبت فيه الفتن بين العثمانيين فى زبيد (٣) ، وبذلك أصبح

---

(١) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٥ ، ٠

(٢) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ٢٠١ .

- Trimingham: Islam in Ethiopia 91.

ـ د . حسن أحمد محمود : انتشار الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ٤٦٨ .

(٣) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٥٨ .

العثمانيون فى موقف لا يحسدون عليه ٠

أما فى جنوب البحر الأحمر خاصة عدن التى كانت تعتبر المفتاح الرئيسى لمدخل البحر فقد تعرضت هى الأخرى لهزة أدت الى ارباك القيادة العثمانية فى مصر ، عندما قام أحد سكان عدن ويدعى على بن سليمان الطوالقى (البدوى) بالاستيلاء عليها ، وطرد الحاميات العثمانية منها (١)، ولم تكن درجة الخطورة كامنة فى طرد القوات العثمانية من عدن فقط ، وانما جاءت الخطورة من قائد ذلك الانقلاب الذى عمل على الاستعانة بالبرتغاليين مستغلا فرصة عبورهم لمدخل البحر الأحمر ، حيث اتصل بأحد قادتهم ويدعى دى بايو دى نورنها D. Payo de Noronha وتحالف معه تحالفا قام على أساس تولى الأسطول البرتغالى حماية عدن من البحر حتى يتفرغ على بن سليمان لقتال العثمانيين فى البر ٠ (٢)

كانت تلك الأنباء بالنسبة للعثمانيين تعنى شيئا واحدا ، وهو ضرورة التحرك وبسرعة جادة لاعادة الأمور الى نصابها ، والا فقد يرفع البرتغاليون أعلامهم على الأبراج العليا من القلعة الحصينة ، ومن ثم فقد تشكل عدن لوحدها جبهة قوية تجذب اليها القوات العثمانية برا وبحرا فيما اذا وقعت بأيدى البرتغاليين ، وبالفعل جهز داود باشا نائب مصر حملة قوية

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، القسم الثانى، ٦٩٦٠

(٢) د ٠ محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٥٨٠
— يحيى بن الحسين : غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، القسم الثانى ٦٩٦٠

عززت بقوة أخرى من بندر المخا ، وهاجم الجميع عدن وتمكنوا من استرجاعها في ٩٥٥ هـ - ١٥٤٨ م بعد مقتل قائد الانقلاب على بن سليمان البدوى .(١)

أما الأسطول البرتغالى والذى كان يحرس عدن من ناحية البحر ، فقد نجح العثمانيون فى مهاجمته وأسر سفينتين بينما تمكنت السفن الأخرى من الفرار عائدة الى الهند (٢) ، وبذلك نجح العثمانيون مرة أخرى فى اعادة سيطرتهم على المداخل الجنوبية للبحر الأحمر .

من هذا نرى أن الأحداث على السواحل الشرقية لم تسعف العثمانيين لمؤازرة الحركات الأخيرة لمسلمى الطراز ، وبالتالى عدم تمكنهم من متابعة آخر الأنباء عن الوجود البرتغالى فى الهضبة الحبشية الذى تكاثف بسرعة وقوة ، عندما قام البرتغاليون بمحاولات جديدة لنشر المذهب الكاثوليكى عن طريق ما قاموا به من ترجمة لكتب المذهب الكاثوليكى الى اللغة الأمهرية ، مما جعل جلاوديوس أمام أمر لا حيلة له بمقاومته سوى الالتجاء الى الكنيسة المصرية لتمد الأحباش بالكتب التى يستطيعون ترجمتها الى اللغة الأمهرية لمواجهة هذا السيل الذى لا ينقطع من الكتب الكاثوليكية المترجمة . (٣)

---

(١) النهروالى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ١٠٠ ، ١٠١ .
- د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٥٨ .

(2) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 107.

(٣) الحيمى : سيرة الحبشة ٢٧ .

وما أن بدأ العقد السادس من القرن السادس عشر الميلادى حتى كان البرتغاليون أكثر تحمسا من ذى قبل لنشر مذهبهم الكاثوليكى توطئة لبسط النفوذ الرسمى لهم على الهضبة الحبشية ، وصاحب ذلك ظهور عاملين مهمين كان لهما الأثر الفعال فى تكاثف النشاط العثمانى على السواحل الحبشية وأول هذه العوامل هو انتفاضة جديدة لهرر التى اتحدت مرة أخرى تحت راية نور بن الوزير مجاهد ٩٥٥ هـ ـ ١٥٥١ م ابن أخت الامام أحمد القرين الذى صمم على ضرورة متابعة الجهاد ضد الأحباش ، وبلغ من شدة تدينه أن أطلق عليه لقب صاحب الفتح الثانى . (١)

أما العامل الثانى فهو تدخل البابوية الى جانب البرتغاليين فى المعركة الدائرة داخل البحر الأحمر ، فكان بذلك على العثمانيين أن يواجهوا العالم المسيحى بأسره عن طريق البابوية التى عمدت هى الأخرى الى ارسال بعثاتها أو التدخل لدى البرتغاليين فى اختيار أفراد البعثات الكاثوليكية فى محاولة لفصل الكنيسة الحبشية عن الكنيسة المصرية وربطها بالكنيسة الكاثوليكية . (٢)

---

(1) Trimingham: Islam In Ethiopia 91.

ـ ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ٢٠١ .

يعمد كثير من الكتاب وبعض العرب وفي مقدمتهم د . زاهر رياض أن ينزعوا عن مسلمي امارات الطراز الاسلامى أى وازع دينى فى حروبهم وجهادهم ضد الأحباش ، وكأن الأمر أن المسلمين انما يسعون الى الدنيا فقط ، فان قاوم المسلمون تلك الحركات الصليبية فهم وثنيون متعصبون ضد المسيحية ، وأن استسلموا له فهم الفائزون بصحبة ذلك الغريب ، وكأنى بهم لم يقرأوا كتاب الدعوة الى الاسلام لتوماس أرنولد والذى فصل فيه تفصيلا شاملا عن جهاد مسلمى الطراز ضد الأحباش وحالات التحول الى الاسلام بين صفوف الأحباش عندما عاشروا المسلمين وشاهدوا بأعينهم مدى تسامحهم الدينى .

(2) Pankhurst: Ethiopia 333.

- Jones & Monroe: History of Ethiopia 89.

بدأ البرتغاليون نشاطهم العسكرى بكثافة داخل البحر الأحمر ، فقد تميزت حملاتهم الحربية بداية من العقد السادس من القرن السادس عشر بالتركيز على محاولة شن غارات تخريبية على موانئ البحر الأحمر ، وفى الوقت نفسه انزال بعثاتهم الكاثوليكية الى الأراضى الحبشية ، ففى عام ١٥٥٠م أرسل نائب ملك الهند فى جوا حملة الى البحر الأحمر من خمس سفن حربية بقيادة Luis Figueyra الذى ما أن وصل الى السواحل الحبشية حتى اعترضته الدوريات البحرية العثمانية ، وأجبرته على الفرار دون تحقيق غرضه باستثناء أحد القادة Gasper Nunez الذى تمكن من الانسحاب أثناء المعركة وذهب بسفنه الى السواحل الحبشية ، (١) الا أننا لم نجد له أى خبر يدل على وصوله الهضبة الحبشية ، لهذا نرجح أن تلك السفينة اما أسرت فى البحر أو قد أسر ركابها أثناء نزولهم السواحل الحبشية من قبل الحاميات العثمانية المنتشرة على طول الساحل .

وبفشل تلك المحاولات السابقة لانزال أحد البطارقة البرتغاليين الى الأراضى الحبشية ، وجدت البابوية فى ذلك فرصة لاعطاء المجال لجمعيات الجزويت فى محاولة لتعيين أحد رجال الدين فى روما أسقفا على الكنيسة الحبشية (٢) ، ولكن ملك البرتغال يوحنا الثالث لم يشأ أن يتسرع فى ارسال بعثات الجزويت الى الحبشة الا بعد التأكد من أن ذلك أمر مرغوب فيه لدى جلاوديوس الذى قاوم من قبل محاولة ربط كنيسته بالكنيسة البرتغالية ، ومن أجل هذا قام نائب الملك فى الهند عام ١٥٥٣م بارسال أحد رجاله جونكالى رودريجوس Gon Calo Rodrigues الى الحبشة ليمهد

---

(1) Sousa: The Portuguese Asia 2 151.
(2) Jones & Monroe: History of Ethiopia 88.

لوصول البطريرك البابوى ، وفى الوقت نفسه كتابة تقارير عنها (١) ، وقد حمل معه خطابات من ملك البرتغال ومن نائبه فى الهند كما حمل معه عددا من الهدايا ، وأحسن جلاوديوس استقبال السفارة ، ولكنه رفض تعيين البطريرك البابوى لرئاسة الكنيسة الحبشية ، الا أنه وافق على السماح له بالنزول فى أراضيه والبقاء فى بلاطه اذا رغب فى ذلك (٢) ، ولكن المبعوث لم يتمكن من العودة نتيجة الاستعدادات التى كانت تقوم بها الدولة العثمانية فى مصوع واركيكو (٣) ، لمواجهة نتائج وصول ذلك المبعوث الى البلاط الحبشى والذى يبدوا أن أنباء فشله لدى جلاوديوس لم تكن قد وصلت بعد الى العثمانيين ، وما لبث البرتغاليون أن كرروا المحاولة ذاتها للمرة الثانية عندما أرسل نائب الملك فى الهند بعثة من الجزويت برئاسة Bro Fulgentius فى السنة التالية ١٥٥٤ م الى الحبشة لاقناع ملكها بالعدول عن مساوئه بين الشعب فى قضية الخلاف الدينى ، غير أن أحداث الخليج العربى عندما وصلت اليه الحملة أدت الى فشل مهمة هذه البعثة (٤) ، بسبب المعارك التى كانت تدور رحاها على جانبى الخليج العربى بين الأساطيل العثمانية بقيادة الملاح الشهير سيدى على والبرتغاليين والتى أدت فى نهاية الأمر الى فشل مهمة العثمانيين لتحرير دول الخليج العربى من الاستعمار البرتغالى . (٥)

---

(1) Pank hurst: Ethiopia 334.

(2) Pank hurst: Ethiopia 334.

(٣) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٩٧ .

(4) Sousa: The Portuguese Asia Tome 2 175-176.

(٥) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٦٨ .

ومع فشل المجهودات السابقة للدولة العثمانية داخل الخليج العربي خشى البرتغاليون أن تكون تلك المحاولة مقدمة لمحاولات أخرى قد ينفذها العثمانيون داخل الخليج العربي أو في الهند أو على السواحل الشرقية لافريقيا ، ويبدوا أن تلك الأحاسيس كانت نابعة أساسا من اعتقاد البرتغاليين بأن انقطاعهم سنوات عديدة عن ارسال حملات دورية الى البحر الأحمر هى التى شجعت العثمانيين على الخروج الى بحار العرب الجنوبية بعد فترة من التوقف ، وكمحاولة للتعرف على مدى قوة الاستعدادات البحرية العثمانية فى السويس أرسل البرتغاليون حملة بقيادة John Peixoto الى البحر الأحمر عام ١٥٥٥ م لمحاولة معرفة ما يحدث فى السويس(١) ، وعندما وجد أن الأمور تسير على ما يرام عاد أدراجه حيث مر بجزيرة اركيكو التى التقط منها Goncalo Rodriguez المبعوث السابق لنائب ملك الهند كما ذكرنا من قبل والذى ما لبث أن أكد لنائب الملك أن النجاشى ليست لديه نية تغيير عقيدة أجداده وربط نفسه بالكنيسة الكاثوليكية .(٢)

لم تسعف الأحوال أيضا القيادة العثمانية لمهاجمة تلك الحملة السابقة الذكر بسبب تدهور الموقف بين مسلمى هرر وجلاوديوس فى نفس السنة ، واضطرار العثمانيون لمراقبة ذلك التدهور عن كثب ، وبدأت تلك التطورات عندما قام الأمير نور بتحصين هرر وبناء سور حولها ، ولكن امتناع مسلمى الصومال عن غزو الهضبة الحبشية ذاتها كما فعل من قبل الامام أحمد القرين منح الأحباش كافة الامتيازات الحربية ، وكالسابق انطلقت الجيوش الحبشية

---

(1) Sousa: The Portuguese Asia Tome 2 181.
(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome 2 181-182.

- د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٤١٥ .

من قواعدها داخل الهضبة وقامت بغزو هرر وتدمير أسوارها وتحصيناتهـــا ، وازاء ذلك الفشل اضطر نور الى الالتجاء الى الباشا التركى فى مصوع ، انتظارا (١) لهدوء الأوضاع ومن ثم العودة مرة أخرى الى ميدان الجهاد .

بعد انتصار جلاوديوس على هرر عاد الى قصره فى جوندار حيث فوجىء بوجود وفد برتغالي برئاسة برمودز ، والذى كان قد سافر من قبل الـــى البرتغال لطلب المعونة للحبشة ، وخلال الاجتماع الذى تم بين الطرفين طلب برمودز تعيينه بطريركا للكنيسة الحبشية ، اضافة الى مطالبتـــه لجلاوديوس بالخضوع له ولسلطة بابا روما بناء على وعود أبيه لبنا دنجـــل (٢) للبرتغاليين فى السابق بخضوع كنيسة الحبشة للمذهب الكاثوليكى ، فيما اذا ساعدوه ضد الامام أحمد ، ولم تأت تلك الاجتماعات بأية نتيجة ، خاصـة بعدما رفض جلاوديوس مطالب برمودز معتمدا فى ذلك على كون برمودز مجرد قسيس فقط . (٣)

كان برمودز يتوقع تأييد الشعب الحبشي لمطالبه تلك ، نتيجة الدعاية التى قام بها البرتغاليون فى السابق ، الا أن طلبهم لمساحة ثلث البـــلاد كثمن للمعونة التى قدموها سابقا جعلت الأحباش ينقلبون على البرتغاليـين ويكرهون مقترحاتهم ، فنظروا اليهم والى البابا نظرة ملؤها الحقد الــــذى لا يخلو من الخوف (٤) ، ولم يكن من المتوقع أن يستسلم البرتغاليون لذلـــك

---

(١) د. زاهر رياض : تاريخ أثيوبيا ٩٧ .
ـ د. حسن أحمد محمود : انتشار الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ، ٤٦٨ .
(2) Pank hurst: Ethiopia 232-333.
(3) Jones & Monroes: A History of Ethiopia 88: 89.
(4) Pank hurst: Ethiopia 333.
ـ الحيمى : سيرة الحبشة ٢٧ ، ٢٨ .

الفشل الذريع ، خاصة وانهم كانوا ينظرون الى الحبشة على أنها القاعـدة الشالية لتجديد نشاطهم البحرى داخل البحر الأحمر ، بعدما شعروا بشدة وطأة الحصار العثمانى للسواحل الحبشية الى جانب تعوض حملاتهم البحرية لغارات الأساطيل العثمانية التى أخذت تواصل دورياتها فى مياه البحـر الأحمر ، اضافة الى ذلك تجدد نشاط البابوية فى ضرورة الاسراع بنشـر المذهب الكاثوليكى ، وهو أمر كثيرا ما كان يقلق البابا جوليوس الثالث ، الذى أخذ يتحرق شوقا لليوم الذى يتم فيه تعيين أحد البطارقة لديـه بطريركا لكنيسة الحبشة (١) ، فعندما أراد ملك البرتغال ارسال بطريـرك لاتينى الى الحبشة تدخل البابا الذى صمم أن يتولى الأمر بعثة من الجزويت التى تكونت من جون نونيز باريتو John Nunez Barreto بطريركا و أندريو دى أوفيدو Andrew de Oviedo ، Milchior Carneiro ملشيور كارنيرو أسقفين لمساعدته ولخلافته .

وفى سبتمبر وصلت البعثة الى نائب ملك الهند ومعها أوامر بارسالهـم الى الحبشة مع قوة لشد أزرهم قوامها خمسمائة رجل (٢) ، ولم يكن بوسـع نائب الملك أن يوفر القوة التى طلبها الملك ، اضافة الى أنه يعلم أن جلاوديوس لن يرحب بأية حال بوصول بطريرك من روما ، وخوفا من وقوع سفينة البطريـرك بأيدى الأساطيل العثمانية قرر ألا يخاطر بذلك ، وانما أرسل أوفيدو بدلا عنه مع قليل من القساوسة (٣) .

---

(1) Jones & Monroe: A History of Ethiopia 88.
- Pankhurst: Ethiopia 333.
(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome 2 188.
- Pank hurst: Ethiopia 343.
- Jones & Monroe: A History of Ethiopia 88.
(3) Longrig: A Short History of Fritrya 45.

نجح أوفيدو فى النزول الى السواحل الحبشية عام ٩٦٥ هـ ــ ١٥٥٧ م التى انطلق منها الى الهضبة الحبشية ليعرض مطالب البابا على جلاوديوس وفى اللحظة التى وصل فيها أوفيدو الى الحبشة أعلنت حالة الطوارئ بين القوات العثمانية على الساحل خاصة بعدما قدم أزدمر باشا من مصر بقوات اضافية قوامها ثلاثة آلاف جندى لمواجهة النتائج التى قد تظهر من واقع وصول أوفيدو ، وفى الوقت نفسه محاولة مراقبة الموقف الحربى بين مسلمى هرر والحبشة ، بعدما أدت الهزيمة السابقة لسلطان هرر نور بن مجاهد الى تصميم مسلمى هرر على الانتقام من الأحباش ، وهذا بدوره ما أوجد بينهما توازنا من حيث القوة الحربية ، وأصبحت الحرب بين الطرفين وشيكة الوقوع . (١)

بعد أن اطمأن الأتراك على قواعدهم فى مصوع وحرقيقو (اركيكو) وسواكن انطلقوا نحو الداخل ، وتسلقوا المنحدرات الشرقية للهضبة ، وتمركزوا عند حدود مقاطعة دباروا Dabarwa ، وبدأوا فى تسيير دوريات عسكرية لمراقبة الأجزاء الشرقية للهضبة خوفا من تحرك مفاجئ للأحباش وفى الوقت نفسه أقاموا بعض التحصينات العسكرية فى الأقليم السابق دباروا ، حيث وصلتهم امدادات عسكرية سريعة ، وبذلك نجح العثمانيون فى جعل الاقليم قاعدة عسكرية للانطلاق منها . (٢)

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، القسم الثانى ٧١٥ .

ــ د . محمدعبداللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٩٦ .

(2) Longrig: A short History of Eritrya 50.

كانت أول انطلاقة للكتائب العثمانية قد تمت بعد ذلك بقليل عندما قامت بغزو اقليم آجامى Agame اضافة الى مهاجمة دير دبرا دامو Dabra Damo شمال غرب أديجرات Adigrat وقتل رهبانه وتخريب كنيسته [١] ، كان ذلك فى وقت أبحر فيه نائب ملك الهند Alvaro de silveyre باسطول مكون من عشرين سفينة نحو البحر الأحمر للهجوم على المراكز العثمانية ، غير أن كثيرا من سفنه اصطدمت بالصخور عند مدخل البحر الأحمر بينما رجعت السفن الباقية الى جوا [٢] .

كان من المتوقع أن تستمر القوات العثمانية فى زحفها نحو مقر الملك جلاوديوس ، وسط الهضبة الحبشية ، الا أن شيئا من ذلك لم يتم بسبب توافر عوامل عديدة أدت الى تراجع القوات العثمانية نحو مراكزها على الساحل الحبشية ، وأول تلك العوامل هو ما يمكن أن نسميه بمناخ البيئة الذى لم يساعد القوات العثمانية على البقاء فى تلك المناطق السابقة الذكر ، حيث تفشت الحمى بين أفراد القوات العثمانية ، اضافة الى الشمس المحرقة ، وقد أدى ذلك الى هلاك الكثير من أفراد القوات العثمانية ،[٣] أما العامل الثانى فيعود الى فشل العثمانيين أنفسهم فى سبيل تحقيق جبهة اسلامية موحدة مع مسلمى هرر عندما قاموا بغزو الحدود الشرقية للهضبة الحبشية ، [٤] وأخيرا فقد تمكن الأحباش من استغلال العوامل السابقة وقاموا بهجوم مضاد على القوات العثمانية المنهكة والمتعبة ، حيث أحاطوا باقليم دباروا من جميع جهاته ، ولم تستطع القوة الباقية تحمل الحصار حيث سقطت دباروا ، وبذلك

---

(1) Longrigg: A short History of Eritrya 51.

- د . السيد رجب حراز : أرتريا الحديثة ٣٠ .

(2) Sousa: The Portuguese Asia tome 2 194.

(3) Longrigg: A Short History of Eritrya 51.

(٤) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٩٧ .

انسحبت القوات العثمانية تجاه الشواطئ الحبشية بعدما فقدت معظم أفرادها (١)
وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه تلك المعارك نشب صراع عنيف وعلنى بين
الملك جلاوديوس ومندوب نائب ملك الهند أوفيدو ، الذى أعد وثيقة بأخطاء
الكنيسة الحبشية ، ومن ثم ألقى خطابا نصح فيه الأحباش بترك مذهبهم
والثورة ضد جلاوديوس الذى رد على ذلك بوثيقة سماها شهادة العقيدة
وفيها اصرار بأنه لن يخضع لكنيسة روما . (٢)

وضح من موقف البعثة الكاثوليكية السابق الاتجاه الجديد للبرتغاليين
فى سبيل شطر الشعب الحبشى الى فريقين أحدهما يؤيد الكنيسة الكاثوليكية
والآخر يؤيد كنيسة الاسكندرية ، وبالتالى محاولة ايصال الحزب المؤيد
للكاثوليكية الى عرش الحكم اعتمادا على وجود البرتغاليين الذين قاموا بمساعدة
عصابات الشفتا الحبشية (٣) التى اشتهرت بعدائها لملوك الحبشة منذ زمن
بعيد ، وكان من المتوقع وازاء النشاط البرتغالى أن تشهد الهضبة الحبشية
انقسامات بين صفوف الأحباش لولا تطور الموقف على الحدود بين مسلمى الطراز
والحبشة الذى انتهى الى نشوب معارك بين الطرفين انتصر فيها المسلمون ،
وقتل جلاوديوس حيث احتز رأسه وعلقوها على عامود لمدة ثلاثة سنوات . (٤)

خلف جلاوديوس أخاه ميناس Minas فى حكم البلاد (١٥٥٩
— ١٥٦٣ م) ، ولم يكن من المتوقع أن تتحسن الأحوال بينه وبين البرتغاليين
الذين نجحوا فيما فشلوا به أيام جلاوديوس عندما دخلت الحبشة فى دوامة

---

(1) Longrigg: A short History of Eritrya 51.
(2) Pank hurst: Ethiopia 334.
(٣) تخصصت عصابات الشفتا فى الحبشة منذ العصور الوسطى فى اصطياد الرقيق الحبشى وبيعه للخارج .
(4) Jean Doresse: Ethiopia 148.

الحروب الأهلية نتيجة الانقسام الدينى بين طبقات الشعب الحبشى بذاتـه ، الذى انقسم الى فريقين الأول يؤيد الكنيسة الغربية والثانى يؤيد كنيسة الاسكندرية (١) ، أما على سواحل الحبشة وخاصة سلطنة هرر فلم يكن مقدرا أيضا أن تشهد البلاد هناك أى هدوء ، فعلى الرغم من انتصارهم على الجيوش الحبشية وقتلهم لملكها جلاوديوس فقد ظلت موازين القوى فى صالح الأحباش الذين لم تتأثر جيوشهم وامكانياتهم بصحوة الموت التى لازمت هرر فى عهد الأمير نور بن مجاهد وانتصاره الأخير عليهم • (٢)

كذلك كان على مسلمى هرر أن يواجهوا مع مرور الأيام مصيرا لا يختلف عما آلت اليه الأوضاع السياسية فى الحبشة كما سنرى فيما بعد ، خاصة بعدما بدأت جحافل قبائل الجالا فى النزوح من الجنوب نحو أراضى المسلمين على السواحل الحبشية وتدمير ما عليها • (٣)

من خلال الاستعراض السابق نستطيع أن نحدد الآن موقف كل من الدولة العثمانية والبرتغاليين ، حيث طرأت تغيرات واضحة فى سياسة كل من الطرفين ، فالدولة العثمانية مثلا لا نستطيع أن ننكر أن تغير مجرى الحوادث داخل الحبشة كان أمرا يجرى فى صالحها ، لأن ذلك معناه انخفاض حدة الاتصالات الحبشية البرتغالية وفى الوقت نفسه يعطى المجال للقيادة العثمانية فى سواكن وجدة ومصوع لمراقبة تطور الأمور عند الأحباش ومحاولة التدخل لتأييد فريق على آخر كما سنرى فيما بعد ، أما البرتغاليون

---

(١) د • محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٩٧ •

(٢) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ٢٠٢ •

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة •

فقد اتجهوا الى ضرورة استغلال نتائج النزاع الدينى بين الأحباش لتأييد الفريق الكاثوليكى على منافسه الاسكندرى .

أما على نطاق التدخل فى البحر الأحمر فكان على نطاق أضيق مما سبق لدرجة أننا لم نسمع سوى عن محاولة واحدة قام بها البرتغاليون فى عام ١٥٦٠م عندما أبحر Christopher Homen بحملة بحرية نحو البحر الأحمر لانزال بعثة من الجزويت برئاسة Fulgentius ، وبالقرب من اركيكو اعترضته السفن العثمانية التى تمكنت من أسر السفينة التى تحمل البعثة بينما لازت السفن الأخرى بالفرار [١] ، وبفشل تلك العملية السابقة خفت حدة العمليات البحرية البرتغالية على السواحل الحبشية لدرجة اضطر بسببها البابا بيوس الى تحذير البرتغاليين من أنهم لو فقدوا الحبشة فقد يفقدون الهند كذلك . [٢]

وعودة الى الهضبة الحبشية المجال الرئيسى لتحرك البرتغاليين ، نجد أن التطورات ما بين الأحباش والبرتغاليين قد وصلت لدرجة سيئة للغاية عندما قام ميناس بمنع الأحباش من دخول الكنائس الكاثوليكية ، وطلب من المبشرين البرتغاليين مغادرة البلاد ، ومنعهم من نشر عقيدتهم أو الظهور فى الكنائس ، كما منع زوجات البرتغاليين الحبشيات من اعتناق مذاهب أزواجهن [٣] ، وبذلك أصبحت البلاد على شفا حرب أهلية بدأها البحر نجش

---

(1) Sousa: The Portuguese Asia Tome 2 303.

(2) Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 97.

(٣) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٩٧ .

لسحاق [١] ،(أمير الساحل البحرى) عندما قام بخلق عصا الطاعة على النجاشى وتمكن من احراز استقلال فعلى عن طريق التعاون مع القيادة العثمانية فى مصوع على أساس التنازل لها عن معظم أراضيه بما فيها عاصمته دبـــاروا ، وبذلك تمكن العثمانيون من توسيع الرقعة التى تحت أيديهم ومن تثبيت أقدامهم فيها [٢] ، وفى الوقت نفسه اتجه البحر نجش اسحق لمحاولة المشاركة فى عزل النجاشى ميناس ، حيث بايع تازكارو Tazkaro وهو ابن شرعى لأخى ميناس نجاشيا للحبشة [٣] .

فى البداية وجه ميناس الجيوش الى مقاطعة دباروا فى محاولة لاعاقة التقدم العثمانى فى الاقليم ، ولكن اسحاق تمكن من هزيمة تلك الجيوش ، الأمر الذى جعل ميناس ينشط من جديد يساعده فى ذلك بعض البرتغاليين فى بلاطه حيث تمكن من هزيمة تازكارو واعدامه [٤] ، ولم ييأس اسحاق لذلك الفشل اذ بادر مرة أخرى الى مبايعة باذل أخا تازكارو نجاشيا ، وهــرول مسرعا الى العثمانيين لمساعدته حيث عرض عليهم اقليم أرتريا كله ، وبذلك تجددت الحروب الأهلية مرة أخرى الا أنها لم تؤد الى نتيجة معينة ، اذ رغم كثرة الحروب والمعارك بين الطرفين ، فانها لم تؤد الى تحديد الفريق الفائز والفريق المهزوم [٥] ، وبآخر معركة التى نشبت بين الطرفين

---

(١) ظهر اسحاق على مسرح الأحداث عام ١٥٥٧ م عندما قام بطرد القوات العثمانية من اقليم دباروا كما ذكرنا من قبل .

(2) Longrigg: A short History of Eritrea 51.

— د . السيد رجب حراز : أرتريا الحديثة ٣٠ .

— د . محمدعبداللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٩٧ .

(3) Longrigg: A short History of Eritrea 51.

(4) Longrigg: A short History of Eritrea 51.

(٥) د . السيدرجب حراز : أرتريا الحديثة ٣٠ .

فى ابريل ١٥٦٢ م لم يستطع النجاشى ميناس تحقيق أى كسب له ، حيث توفى بعد تلك المعركة عندما أصابته الحمى ، وبذلك نجح العثمانيون فى تثبيت أقدامهم داخل اقليم دباروا فى حين استمر اسحاق فى حمل راية الثورة ضد ملوك الحبشة لمدة طويلة .(١)

تولى الحكم عقب وفاة ميناس ابنه سرسادنجل Sarsa Dengel (١٥٦٣ — ١٥٩٧م) حيث ورث وضعا معقدا للغاية خاصة من قبل الحركات الثورية التى ظهرت فى دباروا ، الا أن عصره قد تميز بتحول غريب تجاه البرتغاليين بخلاف سياسة أبيه وجده ميناس وجلاوديوس ، فان كان كل من جلاوديوس وميناس قد حاولا فى بداية الأمر تجنب الخلافات مع البرتغاليين بخصوص العقائد الدينية فى محاولة لاستمرار المساعدات البرتغالية وجنوحهما فى نهاية الأمر الى اتخاذ موقف حازم ضدهم بعدما أثاروا عصابات الشفتا ، الا أن سارسادنجل اتجه اتجاها عميقا فى علاقته مع البرتغاليين ، اضافة الى اتصالات أخرى مع فيليب الثانى ملك أسبانيا عندما أرسل له بعثة ليمد الحبشة بالأسلحة والفنيين فى استعمال المدفعية ، كذلك ارساله الى البابا يطلب منه التبريك وارسال البعثات الدينية (٢) ، وبذلك أظهر سرسادنجل رغبة أكيدة فى ربط بلاده بالمذهب الكاثوليكى ، وتوجيه أنظار الدول الأوربية الى البحر الأحمر لجعله ميدانا للصراع الدولى مرة أخرى .

---

(1) Longrigg: A short History of Eritrea 51.

(٢) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٩٧ ، ٩٨ .
— د . زاهر رياض : الاسلام فى أثيوبيا ٢٦٢ .

بدأت العلاقات بين الأحباش والبرتغاليين تأخذ مجراها الطبيعي عندما سمح سرسادنجل للجزويت أن يبشروا في سلام حيث استقرت ارسالياتهم في فريمونا Fremona قرب العاصمة القديمة أكسوم ، ورغم ذلك التسامح مع البرتغاليين من قبل سرسادنجل الا أنهم نظرا لخطورة أوضاع الأحباش الخارجين على النجاشي ولجوئهم الى العثمانيين ، وما قد يؤدي ذلك الى تهديد ارسالياتهم داخل الحبشة ، عمدوا الى الكتابة الى ملك البرتغال ليمدهم بستمائة جندي لضم الحبشة الى الأملاك البرتغالية (١)، خوفا من انتصار الفئات الخارجة خاصة بعدما ازداد الأمر سوءا بانضمام العديد من نبلاء البلاط الحبشي الى البحرنجش ، واتحدت كلمة الجميع في سبيل خلع النجاشي (٢) ، الأمر الذي أثار الفزع بين صفوف البرتغاليين ، الذين مالبثوا أن تنفسوا الصعداء بالأمس القريب عندما تعاون معهم سرسادنجل وأعادهم الى بلاطه بعد فترة طويلة من العداء الشديد .

أما العثمانيون ، وازاء التحول الجديد لسرسا دنجل في علاقاته مع البرتغاليين الذين انتشروا داخل البلاد فلم يكن أمامهم سوى تنفيذ خططهم السابقة في سبيل محاصرة السواحل الحبشية ، مع التركيز وبصورة واضحة على مؤازرة الولايات الخارجة عن سلطان النجاشي التي أخذت في استعمال الأسلحة العثمانية أثناء حروبها مع سرسادنجل ، وهذا بدوره ما سمح للعثمانيين من توسيع مناطق نفوذهم (٣) ، ومراقبة الأوضاع السياسية داخل الهضبة الحبشية عن قرب .

---

(1) Jones & Monroe: A History of Ethiopia 91.

(2) Jean Doresse: Ethiopia 149-150.

(٣) د . محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ٩٧ ، ٩٨ .

كان سرسادنجل يرى أن الوسيلة الوحيدة للتخلص من السيطرة العثمانية هى محاولة القضاء أولا على هؤلاء الثوار الذين كانوا بمثابة الجسر الذى سار عليه العثمانيين نحو ولاية ديباروا ، وغيرها من الولايات الشرقية التى أعلنت عصيانها فيما سبق ، ولم يستطع سرسادنجل فى بداية الأمر مقاتلة كافة أولئك الخارجين رغم المساعدات البرتغالية ، لهذا قرر أن ينتهى منهم واحدا بعد واحد (١) ، كذلك نظر سرسادنجل الى سلطنة هرر على أنها مصدر خطر للحبشة ، نظرا لمرابطة العثمانيين فى مصوع والذين كانوا دائما على اتصال بهم فى محاولة لرفع راية الجهاد ضد الأحباش ، وكما قلنا سابقا فقد بدأ سرسا دنجل بمحاربة النبلاء فى شرقى الحبشة ، وما أن بدأت مطالع العقد الثامن من القرن السادس عشر الميلادى حتى كان سرسادنجل قد تخلص من معظم النبلاء (٢) ، باستثناء البحر نجش الذى ظل على قوته السابقة مؤيدا بالقوات العثمانية ، تلى ذلك اتجاه الى مدن الطراز الاسلامى وكما بدأ فى السابق بتقليم أظافر القوى المعادية له فى شرقى الحبشة باشر نفس الخطة مع مدن الطراز الاسلامى ، عندما هاجم هدية فى نفس السنة ١٥٧٠م ، وأجبر سكانها على تقديم ولائهم له . (٣)

وقد نتساءل لماذا تخلت المدن الأخرى وخاصة هرر عن الوقوف الى جانب جارتهم هدية فى محنتها مع ملك الحبشة ، والواقع أن تلك المدن وفى مقدمتها هرر ضعفت تماما عقب وفاة نور بن مجاهد ، بعد أن أنهكت الحروب السابقة مواردها من الرجال والعتاد ، وأصبحت مهمة خلفاء نور بن مجاهد هى المحافظة فقط على حدود الامارات الاسلامية من الأحباش

---

(1) Jean Doresse: Ethiopia 149.
(2) Jean Doresse: Ethiopia 149.

(١) د . زاهر رياض : الاسلام فى أثيوبيا ٢٦٢ .

المتربصين بها ، ونتيجة لذلك تركز كفاحهم فى المناطق الداخلية لتحسين الأحوال الاقتصادية والاجتماعية لشعوبهم [١] ، وازاء تحركات سرسا دنجل الأخيرة شعر العثمانيين بضرورة اتخاذ موقف معين وعاجل لضرب الأحباش ، بعدما شعروا بقوة البرتغاليين الذين وضح مدى تغلغلهم داخل البلاط الحبشى ، عندما قاموا بانشاء جيوش حبشية جديدة وحديثة بدلت أسلحتها من السيف والرمح الى البنادق والمدافع [٢] لهذا وجه العثمانيون الدعوة لمسلمى هرر لمشاركتهم مع البحر نجش اسحق فى سبيل تكوين جبهة موحدة لمواجهة تحركات الأحباش والبرتغاليين معا ، ولكن كما قلنا سابقا فقد وصلت هرر الى درجة من الضعف لم تسمح لها بمشاركة الدولة العثمانية عملياتها الحربية فى شرقى الهضبة الحبشية ، خاصة وأنها الى جانب كونها قد ضعفت تماما فقد زادت مشاكلها بنشوب الصراع بين الأسر المتتابعة على العرش ، اضافة الى تعرضها لموجات شديدة من غارات قبائل الجالا التى قامت بقطع الطرق التجارية بين هرر وزيلع [٣] ، وجلبت عليها انهيارا تاما فى اقتصادها.

وقبيل حلول شهر فبراير ١٥٧٨ م كانت الجيوش الحبشية بمؤازرة البرتغاليين قد تجمعت عند الأطراف الشرقية للهضبة الحبشية ، وحاول سرسادنجل تجربة الطرق الدبلوماسية مع البحر نجش لفصله عن القوات العثمانية ، الا أنه فشل فى ذلك ، وبدأت المعارك بين الطرفين فى الأول من نوفمبر ١٥٧٨ م ، حيث تقدمت القوات العثمانية وتمكنت من ابادة بعض

---

(١) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم الغازى ٢٠٤.
- Trimingham: Islam in Ethiopia 95.

(٢) د. زاهر رياض : الاسلام فى أثيوبيا ٢٦٢.

(3) Trimingham: Islam in Ethiopia 95.

الفرق الحبشية ، فى حين فرت الأخرى الى معسكر سرسادنجل الذى تركزت عليه قذائف المدفعية العثمانية[١].

كان من المتوقع وازاء الزحف العثمانى الشديد انسحاب سرسادنجل الى داخل الهضبة الحبشية ، ولكن موقف البحر نجش اسحاق أفقد العثمانيين تلك الفرصة ، عندما حاول مهادنة الأحباش ، وكانت فرصة مناسبة للنجاشى والبرتغاليين الذين سرعان ما أعادوا تنظيم قواتهم وأحاطوا بالقوات العثمانية وقوات البحر نجش ، حيث قتل كل من الباشا العثمانى والبحر نجش اسحاق[٢] ، وبتلك الهزيمة اضطرت القوات العثمانية الى الانسحاب مرة أخرى الى مواقعها فى سواكن ومصوع فى محاولة لمراقبة الأوضاع من تلك القواعد الساحلية.

عقب انتهاء سرسادنجل من تأمين حدود بلاده الشرقية اتجه الى سلطنة هرر ، والتى كان يحكمها السلطان محمد الرابع الذى انتهى لتوه من اعداد جيوش جديدة رغم كافة الصعوبات التى كنا قد ذكرناها من قبل ، وتقابل الطرفان على نهر ويى Webi حيث جرت معركة كبرى هزمت فيها سلطنة هرر ، وأسر محمد الرابع مع أعداد كبيرة من شباب هرر حيث تم تنفيذ حكم الاعدام فيهم جميعا[٣] ، وبتلك الهزيمة كانت القوة الحربية لهرر قد أذنت بالزوال ، خاصة بعدما وضح مدى تأثير التدخل البرتغالى الى جانب الأحباش فى حروبهم مع المسلمين على طول الساحل الحبشى[٤] ، الذين

---

(1) Longrigg: A short History of Eritrea 53.
- Jean Doresse: Ethiopia 150.

(2) Longrigg: A short History of Eritrea 53.
(3) Trimingham: Islam in Ethiopia 96.
- Longrigg: A short History of Eritrea 53.

(٤) د. محمد المعتصم سيد : دول اسلامية فى شرق افريقية ٢٩٠.
- محمد عبدالله النقيرة : انتشار الاسلام فى شرق افريقية ٢٤٥.

ما لبثوا أن عادوا لمزاولة نشاطهم البحرى داخل البحر الأحمر ، بعدما تأكد لهم أن الأمور قد عادت الى نصابها فى علاقاتهم مع الأحباش الذين نجحوا فى جعل سيطرة القوات العثمانية تقتصر على المدن الساحلية ،فقط ، ففى عام ١٥٨١م دخل Hierome de Mascarennas البحر الأحمر فى حملة بحرية ، الا أن تلك الحملة لم تأت بنتيجة معينة بسبب اليقظة العثمانية (١) ، وكرر البرتغاليون المحاولة فى عام ١٥٨٥م عندما تحركت حملة بحرية بقيادة Ruy de Camara نحو البحر الأحمر وتقدم أحد قادتها ويدعى Casme Faya بسرية لكشف مدخل البحر الأحمر حيث نزل فى جزيرة كمران ، غير أن المقاومة العثمانية حالت دون تنفيذ البرتغاليين لمآربهم عندما قتل القائد ومن معه من الجنود فى الجزيرة ، ومع ذلك الفشل واصلت الحملة تجولها قرب سواحل العرب الجنوبية ومن ثم عادت الى جوا دون أن تخرج بأية فائدة من جولاتها . (٢)

وبفشل تلك الحملة نستطيع القول انها كانت خاتمة الحملات البحرية التى دخلت البحر الأحمر فى سبيل مهاجمة المراكز العثمانية داخل البحر ذاته بعدما اقتنع البرتغاليون باستحالة مهاجمة تلك المراكز ، وليس معنى ذلك أن امتنع البرتغاليون نهائيا عن دخول البحر الأحمر ، وانما أصبح دخولهم فيما بعد مرتبطا بفكرة معينة ، وهى ارسال البعثات الكاثوليكية الى الحبشة ومحاولة أن تكون هناك اتصالات دائمة بالبعثات الكاثوليكية فى الحبشة للاطلاع على سير أعمالها .

---

(1) Sousa: The Portuguese Asia Tome 3 6.
(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome 3 29-30.

أما على نطاق العلاقات بين العثمانيين والأحباش فقد بدأت فى اتخاذ طابعا يختلف عن السابق بعض الشيء ، فالعثمانيون أدركوا أن ميدان عملهم الحيوى لمراقبة الأوضاع داخل الهضبة الحبشية انما يأتى نتيجة نشوب النزاعات الأهلية داخل الهضبة الحبشية ، وما يؤدى ذلك الى ظهور ثوار يلجأون الى القيادة العثمانية فى سبيل مدهم بالسلاح والعتاد ، خاصة بعدما دخلت هرر دور الاحتضار والانهيار التام بعدما كانت الساعد الأيمن لنشاط القيادة العثمانية داخل الأراضى الحبشية ، أما الأحباش فهم وان كانوا فى السابق يعملون على طرد العثمانيين من حدودهم الشرقية وقصر نفوذهم على الساحل الحبشى ، فانهم الآن أصبحوا يركزون على محاولة اخراج العثمانيين أيضا من السواحل الحبشية ، خاصة بعدما اطمأنوا على حدودهم مع هرر التى قضت الحروب السابقة عليها نهائيا .

وما أن حلت سنة ١٥٨٩ م حتى كانت القوات العثمانية قد عادت الى ميدان الجهاد مرة أخرى ضد الأحباش عندما نشبت ثورة بقيادة البحر نجش ولدا عزوم Walda Ezum ضد ملك الحبشة سارسا دنجل ، والذى ما لبث أن اتصل بالأتراك فى مصوع وتحالف معهم (١) ، ولكن سارسا دنجل كان أسرع من الجميع عندما أدرك مدى المتاعب التى ستتعرض لها بلاده نتيجة ذلك التحالف ، فوجه جيوشه نحو مركز ولدا عزوم فى دباروا الا أنها دحرت جميعها ، وتقدم بعدها العثمانيون الى ديباروا ومنها الى اقليم شيرى Shire ، وهناك تمكن سرسادنجل من نصب كمينا للقوات العثمانية وأباد معظمها (٢) ، أما القائد العثمانى فقد تمكن ومعه

---

(١) د . السيد رجب حراز : أرتريا الحديثة ٣١ ، ٣٢ .
(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحات .
— Longrigg: A short History of Eritrea 53.

البقية الباقية من القوات فى التراجع الى قاعدته فى حرقيقو ، وهناك حوصرت القوات العثمانية وهوجمت ، ولكنها تمكنت من المقاومة بنجاح وراء خنادقهـا وبذلك فشل سرسادنجل فى اخراج العثمانيين فاضطر الى التراجع الى عاصمته . (١)

وبينما تلك الأمور تجرى كانت هناك محاولات من قبل البرتغاليين لامداد الحبشة ببعض رجال الدين لتجديد الارسالية البرتغالية بها ، وكانت البعثة برئاسة كل من الأب بائز ، ومونصرات الا أن السفينة التى كانت تقلهما غرقت أمام سواحل جنوب الجزيرة العربية ، فأسرا وأرسلا الى الوالى العثمانى فى زبيد . (٢)

وعودة الى الهضبة الحبشية فاننا نرى أن هناك تطورا غريبا فى العلاقات العثمانية الحبشية ، عندما جنح الفريقان الى الهدنة والسلام ، فعندما عاد سرسادنجل أدراجه نحو ديباروا ، وجد هناك هدايا ثمينة من باشا مصوع فى انتظاره ، فقبلها ووافق على أن يعقد صلحا معه (٣) ، ولم يكن ذلك الصلح يعنى نهاية الصراع ، اذ على الرغم من ذلك فقد عملت القوات العثمانية على تشديد رقابتها على السواحل الحبشية لمنع وصول البعثات الدينية ، خاصة بعدما قضى الموت على كافة الجزويت فى أبرشية فريمونا الحبشية ، وحرمت الارساليات فى النهاية من كل قساوستها ، لهذا نشطت

---

(1) Longrigg: A short History of Eritrea 54.

(٢) جاكلين بيرين : اكتشاف جزيرة العرب ٦١ .
— محمود كامل المحامى : اليمن شماله وجنوبه ٢١١ ، ٢١٢ .

(3) Longrigg: A short History of Eritrea 54.
— د . السيد رجب حراز : أرتريا الحديثة ٣٢ .

القيادات البرتغالية مرة أخرى الى اغاثة الحبشة برجال الدين رغم علم نائب ملك الهند فى جوا بالصعوبات التى كانت تعيق تلك المحاولات من قبل الأتراك فى مصوع [1] ، ولم يكن بدا من المخاطرة واستعمال الحيل لخدع العثمانيين عن طريق أشخاص أجادوا اللغة العربية ، ففى عام ١٥٩٥م أرسل القس Maronite Priest على أمل عدم اكتشاف أمره ، ولكن كشف أمره بمجرد دخوله البحر الأحمر .

وفى السنة التالية قاموا بارسال ملشيور دى سيلفيا Milchior de Sylva الذى وفق فى الوصول الى الحبشة [2] ، وبتلك المحاولة السابقة للبرتغاليين توقفت كافة عملياتهم الحربية والدينية داخل البحر الأحمر حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادى ، وان كانت تلك المحاولات قد جاءت مع نهاية القرن السادس عشر الميلادى ، فان البرتغاليون ما لبثوا أن واصلوها ، ولكن بعد مرور سنوات عديدة من القرن السابع عشر ، فى وقت تميز فيه ملوك الحبشة الذين خلفوا سرسادنجل بالتسامح الدينى مع كافة البعثات التى كانت تنزل أراضيهم ، ورغم ذلك كله فقد كان مقدرا أيضا للعثمانيين البقاء لمدة ثلاثة قرون أخرى على سواحل الحبشة .

... ...

---

(1) Jones & Monroe: A History of Ethiopia 92.
(2) Jones & Monree: A History of Ethiopia 92.

الخَاتِمَةُ

وضح لنا من السابق أن دوافع صراع المسلمين مع البرتغاليين داخل البحر الأحمر قد ارتبطت بعوامل عديدة انحصرت جميعها فى عاملين مهمين وهما الدوافع الصليبية والدوافع الاقتصادية ، حيث رأينا كيف نشطت البابوية فى سبيل توجيه أنظار العالم الأوربى الى مهاجمة العالم الاسلامى عن طريق بحاره الجنوبية عقب فشل الحروب الصليبية وارتباك التجارة عبر البحر الأسود والمضايق والأناضول ، وكيف أنها هددت العالم الاسلامى عن طريق مشاريعها الحربية ومحاولاتها اثارة الدول الأوربية فى سبيل اعادة الأتراك العثمانيين الى داخل آسيا .

والواقع أن نظرة سريعة على الأهداف التى رمت البابوية الوصول اليها توحى بمدى شدة الدافع الصليبى فى الصراع الاسلامى المسيحى ، لأن النظرة البابوية تجاه الدافع الاقتصادى تتمثل فى كونه وسيلة للوصول الى الغاية ، بدليل ذلك النشاط البابوى الواسع ضد العالم الاسلامى كما حدث من خلال خطة الهند والاتصال بطوائف الرهبان الفرنسسكان فى الشرق وتنظيم صفوف ملوك شبه الجزيرة الأيبيرية فى حروبهم الاستردادية ضد المسلمين ، واندفاع الروس المسكوفيين ، وتشجيع القرصنة ضد سواحل مصر الشمالية .

فنجاح البابوية المفترض فى تنفيذ تلك الأهداف السابقة لا يقل أهمية عن نجاح البرتغاليين فى عبور رأس الرجاء الصالح ، ومن ثم تحويل التجارة عبره ، فالعالم الغربى تعرف على سلع الشرق مع نشوب الحروب الصليبية ، ولهذا نشأت كثير من المراكز التجارية على السواحل الايطالية فى وقت مبكر ، وانتظمت الطرق التجارية ما بين موانى البحر الأبيض المتوسط وعبر البحر الأسود وآسيا الصغرى ، ولكن ما ان وصل الأتراك العثمانيون الى المراكز السابقة حتى تعرض العالم المسيحى والبابوية لضربتين مزدوجتين فالأوربيون بدأوا يعانون الصعوبات فى سبيل الحصول على محاصيل الشرق

بأسعار مناسبة بعد تركز معظم طرق التجارة بأيدى المسلمين فيما سمى بالشرقين الأوسط والأدنى .

وأصبح الأوربى بذلك أمام خطر اقتصادى جارف ، أما البابوية فقد كانت الأخطار المحيقة بها أكبر من قدرتها ، فهى وان كانت فى السابق قد خرجت مدحورة فى الحروب الصليبية ، ومن ثم فشلت فى مشاريعها فى مصر والشام عن طريق طوائف الرهبان الفرنسسكان ، الا أنها ما لبثت أن فوجئت بالتقدم العثمانى ووصوله الى أسوار القسطنطينية .

من هنا أدرك الجميع بأن سيطرة المسلمين على طرق التجارة هى سر قوتهم ، ومن هذا كان اندفاع البرتغاليين والاسبان كل فى طريق حسب توجيهات البابوية ، وان كان لهذا الاندفاع الشديد أهداف عديدة فان من بين تلك الأهداف ما أدى الى انتقال المواجهة من البر الى البحر كأسلوب من أساليب المواجهة بين العالم الاسلامى والعالم المسيحى .

وصحيح أنه كثيرا ما نشبت بعض الغارات البحرية بين المماليك وقراصنة جزيرة رودس ومالطة ، الا أننا لا نستطيع مقارنتها بما حدث فى غرب البحر الأبيض المتوسط عندما أصبحت الغارات البحرية ميدانا هاما وركنا أساسيا فى استراتيجية الدول والقوى التى مارستها ، وكان توقيتا زمنيا مناسبا عندما نشبت تلك الحروب (القرصنة) فدول شبه الجزيرة الأيبيرية كانت تسعى جاهدة لاتمام حروبها الاستردادية ، ومجاهدو البحر المسلمين فى قواعدهم بشمال افريقية ينظرون بعين الحسرة الى سوء أوضاع اخوانهم الذين شردوا من مواطنهم ، وكان لابد من مساعدتهم فانطلقوا بسفنهم للاغارة على شواطىء شبه الجزيرة الأيبيرية .

هذا وان تضررت دول غرب أوربا من حركة الجهاد البحرى التى ازدهرت

فى الحوض الغربى للبحر الأبيض المتوسط ، وتعرضت سفنها وسواحلهـــــا لهجمات المجاهدين كرد فعل لطرد المسلمين من شبه الجزيرة الأيـبيريـة ، واتجاه هذه الدول الى محاولة الاستقرار على سواحل شمال افريقية ، فـان الأيام ما لبثت أن أدت الى تدخل الدولة العثمانية لحماية المسلمين فـى تلك البقـاع .

وأخيرا كانت الرغبة الملحة فى نفوس حكام دول غرب أوربا لمنافسة المدن الايطالية فى تجارة أوربا وحرمانها من السيولة النقدية والمكانة الحضارية الـتى حظيت بها من جراء قيامها بتوزيع سلع الشرق فى القارة الأوربية ، ويلاحـظ هنا أنه الى جانب تلك العوامل الاقتصادية السابقة التى رغب البرتغاليـون فى تحقيقها ضد المدن الايطالية ، كان هناك عامل مهم اشترك فيـــه البرتغاليون وبابوات روما وهو أنهم لا يغفرون للمدن الايطالية مواقفها السابقة من قرارات وقوانين تحريم الاتجار مع العالم الاسلامى ، لهذا لم يكــن من الغريب أن يسارع البرتغاليون فى الابحار نحو الشرق للانتقام من المـدن الايطالية ، ومما يؤكد تلك الرغبة الشديدة فى الانتقام لجوئهم الى السمـاح للسفن الجنوية المنافس القديم للبنادقة بالسفر مع السفن البرتغالية الـى الشرق .

هذا وان كانت مقدمات الحروب الصليبية قد بدأت بطواف بابـوات روما لاثارة العالم المسيحى ضد المسلمين ، فان مقدمات صراع المسلمـين مع البرتغاليين بدأت فى صمت وسكون ، عندما اندفعوا من قاعدتهم فـى سبتة لاكتشاف السواحل الغربية لافريقيا بعدما أيقنوا أنها السبيل الوحيـد للوصول الى الشرق والاتصال بالقديس يوحنا دون حاجة للمرور فى أراضـى المسلمين ، ويلاحظ هنا أن عمليات الاستقرار فى سبتة من قبل البرتغاليين قد صبغت بأهداف صليبية أكثر منها اقتصادية ، فعلى الرغم من أن نتيجـة

استكشاف السواحل الغربية لافريقيا ستؤدى بهم للوصول الى الشرق ، الا أن المتتبع لعمليات نزولهم فى سبتة يلاحظ أنها وافقت فترة اندفعت فيها شعوب شبه الجزيرة الأيبيرية تطارد المسلمين من مكان لآخر ، ومن هنا كان الاندفاع الصليبى فى السواحل الشمالية لافريقيا .

وبعدما تم تحديد أهدافهم الصليبية من النزول فى الأراضى المغربية المطلة على سواحل الأطلسى ، وهى العوامل التى مهدت لهم الطريق فى سبيل استكشاف المجهول من سواحل غرب افريقيا حيث تم تقسيم رحلاتهم الكشفية الى مرحلتين ارتبطت كل مرحلة فى نهايتها بأهداف معينة تمكن البرتغاليون من تحقيقها ، والتى انتهت جميعها الى الهدف المطلوب وهو الوصول الى رأس الرجاء الصالح .

وعلى الرغم من افتخار شعوب شبه الجزيرة الأيبيرية من برتغاليين واسبان بما حققوه من انجازات كشفية ، الا أنهم لا يملكون القدرة على انكار جرائمهم البشعة فى هدر الطاقات البشرية لسكان افريقيا من الزنوج الذين أرسلوا الى شبه الجزيرة الأيبيرية والمستعمرات التابعة لدول تلك المنطقة .

وهنا يجب أن نشير الى أن ذلك الاندفاع البرتغالى نحو بحار الشرق لم يكن ليتم لهم دون ذخيرة علمية تتاح لهم ، خاصة فى وقت كانت فيه تعاليم البابوية تسيطر على المجتمع الأوربى بصفة عامة ، ولكنهم عرفوا كيفية الاستفادة من التراث العربى القديم بوجوه مختلفة ، فمن ناحية استفادوا من مخلفات العرب العلمية التى تركوها وراءهم عقب خروجهم من شبه الجزيرة الأيبيرية ، ومن ناحية أخرى كان للجولات البرتغالية فى بحار العرب الجنوبية أثرها فى نفوس الرعيل الأول من القادة بعدما اجتمعوا بملاحين مسلمين من تلك الجهات ، وتعرفوا على الأدوات الملاحية التى كانوا

يستخدمونها ، وكيفية رسم الخرائط الحديثة .

وأخيرا اختتم البرتغاليون مقدمات اندفاعهم الى الشرق بوصولهم الى المحيط الهندى وتجولهم أمام السواحل الشرقية لافريقيا التى أدهشتهم بوفرة الموانى الصالحة لرسو السفن التى لاتعد ولا تحصى بما تحمل من بضائع شرقية ، ومع انتقالهم الى مالندى حيث قادهم الى الهند ملاح مسلم تعددت الآراء والروايات فى شخصيته ، هل هو ابن ماجد أم غيره .

وهنا مجموعة من الملاحظات تجدر الاشارة اليها وهى أولا : أن البرتغاليين أدركوا تماما فعالية العامل الصليبى لخطة انطلاقهم الى الأراضى المغربية ، وكيف أن ذلك العامل قد أدى بهم الى الدوران حول افريقية ، ومن واقع مشاهداتهم الغير متوقعة للحرب داخل المحيط الهندى نستطيع الاشارة الى مدى قوة الدافع الصليبى الذى تحكم بالبرتغاليين مع تتابع حملاتهم الى المحيط الهندى منذ بداية القرن السادس عشر الميلادى .

ثانيا : أن قصة وصول الطلائع الأولى للبرتغاليين الى المحيط الهندى ان دلت على شىء فهى تدل على مدى ضعف العلاقات بين سكان الساحل الشرقى لافريقيا والقوى الاسلامية داخل البحر الأحمر ، اذ من غير المعقول ان حادثة مثل هذه لا يكون لها رد فعل داخل العالم الاسلامى .

ومع بداية الصراع فى البحر الأحمر قبل العصر العثمانى ، ، أدرك البرتغاليون مدى الحاجة الى حليف قوى يساندهم داخل البحر ذاته ، فهم وان كانوا فى السابق قد جدوا فى البحث عن القديس يوحنا الذى كثرت عنه الروايات داخل أوربا ، وهو ما أدى الى ارسال العديد من البعثات البرية والبحرية ، الا أن جميعها فشلت باستثناء بعثة واحدة وصلت قبيل وصول بارثلميو دياز الى رأس الرجاء الصالح ، ولما كان ذلك الهدف أحد

دوافعهم الصليبية فان الأيام ما لبثت أن حققته لهم ، ولكن عن طريق الأحباش الذين ما لبثوا أن نهضوا بمجرد سماعهم لأنباء المعارك الاسلامية المسيحية فى المحيط الهندى ، وقاموا بدورهم بارسال بعوثهم الى الهند حيث المراكز العسكرية البرتغالية ، وبذلك تأكد للبرتغاليين ضرورة مزاولة نشاطهم العسكرى داخل البحر الأحمر ، ولكنهم مهدوا لذلك بارسال البعثات الدينية التى تأخر وصولها حتى بداية العقد الثالث من القرن السادس عشر الميلادى .

وبوصول تلك البعثات الدينية الى الحبشة نجح البرتغاليون فى رسم الخطوط الأولى لتحالفهم مع الأحباش والطرق الكفيلة بتوحيد جهودهم لاثارة الاضطرابات داخل البحر الأحمر فى وقت كانت فيه دولة المماليك تودع أيامها الأخيرة ، وكأنى بالأحباش قد أعادوا ذكرى تلك الأيام السابقة بمواقفهم السيئة فى التعامل مع القوى الأجنبية فى سبيل تهديد أمن البحر الأحمر ، فهم وان كانوا فى السابق قد تعاملوا مع العالم المسيحى لجره الى البحر الأحمر فانهم قد أصبحوا ركيزة هامة فى سياسة القوى المعادية للاسلام فى أيامنا هذه عن طريق الخبرات والمساعدات العسكرية والاقتصادية والتى جندتها الحبشة فى سبيل حصد أرواح الآلاف من مسلمى الصومال وأريتريا ، هذا بخلاف التقارب بينها وبين اسرائيل التى سعت بدورها الى محاولة جلب أنظار العرب الى البحر الأحمر لمراقبة نشاطها المشترك مع الأحباش .

وسط تلك الأجواء المعادية للاسلام اندفعت الحملات البرتغالية فى محاولة لتهديد الأماكن المقدسة الاسلامية داخل البحر الأحمر لاثارة المسلمين هناك ، وهو الأمر الذى يؤكد أن اندفاع البرتغاليين نحو البحر الأحمر انما تؤكده عوامل صليبية أكثر منه اقتصادية ، وأضحت الأماكن المقدسة هدفا من الأهداف العسكرية يتعهد بتنفيذها قادة الحملات الذين

اعتادوا على الدخول الى البحر الأحمر منذ اللحظة التى دخل فيها البوكرك البحر ذاته بأول حملة بحرية برتغالية ، وكانت ارادة الله عز وجل فوق الجميع عندما فشلت كافة الحملات البرتغالية فى سبيل النزول فى جدة ، وعلى الرغم من ضيق الأحوال الاقتصادية ذاتها فى عهد المماليك فان الجهود الاسلامية ما لبثت أن ظهرت حينما شارك مسلمو الهند وقادة الدولة العثمانية مماليك القاهرة محنتهم تلك فى وقت كانت فيه مدينة جدة ميناء بحريا صغيرا انعدمت من حوله الأسوار والقلاع والتحصينات الحربية ، والتى ما لبثت أن حظيت باهتمام بالغ من قبل مماليك مصر حيث أصبحت تلك التحصينات ركيزة هامة من ركائز السياسة المملوكية لتأمين البحر الأحمر .

كانت الدولة المملوكية هى القوة الاسلامية الأولى التى حملت راية الجهاد ضد البرتغاليين على الرغم من اقترابها من الشيخوخة ، ولم يكن هناك مجالا للفرار أو التأجيل فالعدو على أبواب بحارها الجنوبية وقد سد عليها منافذ القوة والارتزاق ، وأخذ يهدد بالوثوب داخل بحيرتها الاسلامية الكبيرة حيث الأماكن المقدسة والقواعد العسكرية فى السويس ، وكان من الطبيعى أن يبادر المماليك منذ اللحظات الأولى الى هدم همة البرتغاليين داخل قواعد ارتكازهم فى المحيط الهندى لولا الأوضاع الداخلية السيئة عندما تفرغ قادة المماليك للصراع على عرش السلطنة ، مما ألحق بالبلاد كوارث شملت الحياة الاقتصادية العنصر الحيوى الى جانب القوات المحاربة فى كيان أى دولة حتى انتهى الأمر بوصول السلطان الغورى الى الحكم ، والذى لم ينشط جديا الا بداية من عام ١٥٠٥ م عندما خرجت أول حملة مملوكية من ميناء السويس بقيادة حسين الكردى ، والتى قيض لها أن تستنزف جزءا من قوتها فى جدة وينبع ، وما ان وصلت الى الهند حتى نشبت معركة شيول والتى هزم فيها البرتغاليين وأدت الى ارباك قواعدهم العسكرية داخل المحيط الهندى الذى استمر فيه الصراع بين الطرفين حتى اذا ما هزمت الأساطيل المملوكية وعادت الى البحر الأحمر ، نقل البرتغاليون الصراع

الى داخله عندما عبر البوكرك باب المندب لأول مرة عام ١٥١٣ م ، كما أشرنا الى ذلك فى حينه .

والواقع أنه كان بامكان سلاطين دولة المماليك مواجهة الخطر لو أنهم اهتموا منذ البداية بتوطيد قوتهم على السواحل الشرقية الأفريقية ، وتكوين وحدة اسلامية قوية هناك تعيق البرتغاليين عن اتخاذ مراكز عسكرية لهم ، لأن البرتغاليين من غير المعقول أن يواصلوا رحلاتهم الى الهند مباشرة من غرب افريقية دون محطات عسكرية ، كذلك فان مقاومة الدفعات الأولى من الحملات سيؤدى دون شك الى احباط عزيمة البرتغاليين فى سبيل اكمال رحلاتهم الى الهند ، فكما هو معروف ان نجاح أى مشروع يعتمد على انجاز بدايته كما حدث عندما نجح فاسكودى جاما فى تحقيق أهداف رحلته الأولى عام ١٤٩٨ م الى الهند ، الأمر الذى أدى الى تتابع الرحلات البرتغالية دون انقطاع .

ولا ننسى هنا أن ننوه بدور العثمانيين فى سبيل الوقوف الى جانب المماليك لمواجهة الخطر البرتغالى ، ولكن على الرغم من كافة المساعدات التى أرسلها العثمانيون الى المماليك ، الا أن الموقف كان يتطلب تعاونا جديا ومشتركا فى سبيل توحيد الجهود لنزول الجميع الى البحر الأحمر بقوات ضخمة تعبر عن مدى قوة العالم الاسلامى فى ذلك الوقت ، ولكن الذى حدث هو بعثرة تلك القوات اللازمة فى ساحة مرج دابق .

وما أحوجنا فى مثل هذه الأيام الى تحقيق وحدة اسلامية تشمل دول البحر الأحمر للحفاظ على استقلاله والحيلولة دون تحوله الى مركز من مراكز صراع القوى العالمية .

هذا وان اقتصرت مهمة الدفاع عن البحر الأحمر فى السنوات الأولى للقرن السادس عشر الميلادى على دولة المماليك ، وعدم تمكن القوى اليمنية من مشاركة الحملات المملوكية صد العدوان البرتغالى داخل قواعده فى المحيط الهندى ، فان تلك القوى ما لبثت أن صمدت بقوة فى وجه البوكرك الذى دخل البحر الأحمر عام ١٥١٣م ، وحاول فيها الاستيلاء على عدن وغيرها من مدن سواحل اليمن وحالت دون تنفيذ مآربه .

وفى المقابل وعلى السواحل الحبشية لم تستطع امارات الطراز الاسلامى مشاركة المماليك جهادهم البحرى ضد البرتغاليين بسبب مجاورتهم الأحباش الحلفاء التقليديين للبرتغاليين ، والذين ما لبثوا أن شنوا سلسلة من الهجمات العسكرية على بعضها البعض انتهت الى اضعاف كثير من هذه السلطنات واجبارها على الخضوع مرة أخرى للسيطرة فى وقت تعرضت فيه موانى الطراز الاسلامى للغارات البحرية البرتغالية ، مما أدى الى اضعاف قدراتهم وامكانياتهم التى أعاقتهم عن مشاركة المماليك جهادهم البحرى .

وعلى الرغم من أن بداية الاشتباكات العسكرية بين المماليك والبرتغاليين قد أدت الى اتحاد مسلمى الهند مع الحملة المصرية ، الا أن ذلك لم يجدى نفعا بسبب ترسخ أقدام البرتغاليين فى الهند ونجاحهم فى تأسيس مجموعة من القواعد العسكرية منحتهم حرية الحركة والملاحة ، وبالتالى سد مداخل الخليج العربى والبحر الأحمر التى حرمت من رؤية السفن المحملة ببضائع الهند والصين ، والواقع أن سيطرة البرتغاليين على تجارة المحيط الهندى لم تكن بالأمر الهين بالنسبة لهم بسبب مقاومة مسلمى الهند ، ولكن يجب أن لا ننسى كذلك مدى الاستفادة التى جناها البرتغاليون من جراء تفكك كلمة المسلمين هناك ، اضافة الى اتباعه سياسة فرق تسد بحيث نجح فى اقامة أول مركز له فى كوشين وكنانور التى كانتا على خلاف مع راجات

قاليقوط ، وهو ما ينطبق أيضا بالنسبة لسواحل شرق افريقيا عندما نجح البرتغاليون فى استغلال الخلافات بين الحكام هناك لاقامة قواعد لهم .

والى جانب تفرق كلمة المسلمين هناك فى المحيط الهندى مع بداية القرن السادس عشر الميلادى كان لتدفق الحملات البرتغالية أثر فعال فى انهيار عزيمة سكان المحيط الهندى فى سبيل مقاومة هذا الغازى ، فالبرتغاليون وقد اطمأنوا على سير أمورهم من خلال الحملات الأولى والثانية أدركوا مغزى تتابع حملاتهم التى أخذت فى تنفيذ أهداف صليبية على امتداد السواحل من شرق افريقية حتى الهند لدرجة أنها ألقت الرعب بين طوائف الملاحين الذين امتنعوا عن الخروج الى عرض البحر .

ان نظرة سريعة الى قادة الحملات البرتغالية أمثال فاسكودى جاما وكبرال والبوكرك توحى بأن الجميع قد تخرجوا من مدرسة صليبية واحدة ، وهى التى كان قد أسسها الأمير هنرى الملاح مع بداية القرن الخامس عشر الميلادى ، ويتراءى لنا ذلك من خلال الأعمال الوحشية والمذابح التى ارتكبت ضد مسلمى الهند والمدن الأخرى ، ووسائل القمع والتعذيب التى راح ضحيتها الآلاف هناك كما أشرنا لذلك فى فصول هذه الرسالة ، ولم تكن السيطرة البرتغالية على تجارة المحيط الهندى عملية مرتجلة وانما سارت منذ بدايتها وفق خطط معينة للوصول الى أهداف تمكن البرتغاليين من ورائها من الحاق أكبر الضرر بالموانى المصرية والشامية .

كان لتحول طرق التجارة عبر رأس الرجاء الصالح أثره الفعال فى ازدهار أمم وانهيار أمم ، والواقع انه كان ازدهارا لأوربا فاق ازدهار العالم الاسلامى قبيل تحول التجارة عبر رأس الرجاء الصالح ، ففى السابق كانت سلع الهند تأخذ طريقها عبر الخليج العربى والبحر الأحمر وما أن تصل

الى موانى الدولة المملوكية فى مصر والشام حتى تكون السلع قد بيعت بأضعاف سعرها فى مصدر جلبها ، وأصبح الفرق هنا أن البرتغاليين هم أول من تلقى أرباح وصول التجارة الى موانيهم ، ومن ثم قاموا بتوزيعها فى أوربا بأسعار مخفضة أقل كثيرا من أسعارها خلال العصر المماليكى ،

ولعل متابعة الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى العالم الاسلامى والعالم الغربى حال اكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح توضح لنا كيف انهارت أمة وازدهرت أخرى ، فمن المعروف أن القاهرة والاسكندرية ومدن البحر الأحمر والخليج العربى شهدت أروع أيامها قبيل تحول التجارة عن بلادهم ، خاصة مدينة القاهرة التى مازالت آثارها القديمة تشهد على روعة الأيام التى عاشتها مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، ولكن ما أن وصل البرتغاليون الى المحيط الهندى وأخذت سفنهم بالطواف حول رأس الرجاء الصالح حتى تغيرت موازين القوى وتدرت البضائع فى المدن والقرى والموانى ، وقل معها وصول السفن الايطالية الى موانى مصر والشام التى أخذت فى توجيه أنظارها الى لشبونة ، وعم الفقر والخراب الكثير من الطرق التجارية البرية التى عمت شهرتها الآفاق بما كانت تشتهر به من طرق معبدة وحراسة دائمة وخدمات متوفرة ، وتوقفت القوافل البرية التى كانت تروح وتغدوا بين الشرقين الأدنى والأقصى ، وانحصرت التجارة الداخلية فى نطاق ضيق وأصبحت لا تتعدى حد الاستهلاك ،

من هنا نرى أن نتائج الصراع بين الطرفين قد شمل كافة المقومات الأساسية لكيان أية أمة ، أى أن العالم العربى قد ضرب فى صناعاته وزراعته وفنونه ، وهذه جميعا كانت بالتالى ذات أثر فعال فى انهيار

النظم الادارية [(١)] ، فعلى نطاق الصناعة لم تعد مصر مثلا تنتج للأسواق الخارجية كثيرا بل تأخرت ، وأصبحت مقصورة على عدد من الصناعات الرائجة واقتصرت فى انتاجها على قدر حاجات أهلها وحكامها المماليك ، لهذا لا نستبعد القول أن سيطرة البرتغاليين على تجارة التوابل قد قلل من القوى الاقتصادية للمماليك لدرجة سهلت كثيرا على الأتراك العثمانيين غزوها فى ٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م ، كذلك كان لتحول التجارة الأثر الفعال فى وقف التطور والتقدم عند العرب ، اذ من المعروف أن العرب كانوا قد نجحوا نجاحا بالغا مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادى فى فنون الملاحة والنقل البحرى فى بحارهم الجنوبية ، وكان ذلك كفيلا بأن يقودهم نحو نهضة قوية .

وأخيرا كانت هناك الكارثة الكبرى التى حلت بعرب المشرق جميعا وهى أن بلادهم كانت بمثابة الجسر الذى عبرت عليه الدول الأوربية فيما بعد فى اندفاعها الى الهند وجنوب شرق آسيا .

وبالمقابل خرجت البرتغال بصفة خاصة ، وأوربا بصفة عامة من صراعها مع العالم الاسلامى بنتائج غيرت مجرى الأحداث فى أوربا وقادت خطواتها بنجاح خلال عصر النهضة ، وقياس الاستفادة فى حديثنا تنقسم الى شقين : أولا - البرتغال وما حظيت به باعتبارها المهيمن الأول على مصادر المواد الشرقية وصاحبة مراكز التوزيع فى أوربا ، ثانيا - ما حظيت به أوربا نتيجة انتقال السيطرة التجارية الى أيدى البرتغاليين فى غرب القارة الأوربية .

---

(١) ليلى الصباغ : الفتح العثمانى لسوريا ومطلع العهد العثمانى فيها ٣٦ .

دخل الأتراك العثمانيون القاهرة عام ١٥١٧ م ، وكان ذلك يمثل تحولا جديدا في تطور الأحداث التاريخية في القرن السادس عشر الميلادي داخل العالم العربي ، وعلى الرغم من كافة الأسباب التي قد تناقلها المؤرخون في تفسيرهم لأسباب تحول الأتراك من أوربا الى العالم العربي الا أننا لا نستطيع أن ننكر أن وصول الأتراك الى مصر والشام أمر كان لابد منه في هذه الظروف ذلك لأن الدولة العثمانية كانت قد هددت أوربا من ناحية الشرق ، وبوصول البرتغاليين للمحيط الهندي أصبح العالم الاسلامي كله مهددا من الناحية الجنوبية ، وكان على الدولة العثمانية ضرورة حماية هذا العالم ممن طرقوا أبوابه الجنوبية ، ولن نتكلف القول لتفسير ما حدث بين العثمانيين والمماليك فمجمل القول أن العالم الاسلامي كان يحتاج في تلك الفترة الى قوة تتبع بالحيوية والنشاط لترث دولة المماليك .

ومهما قيل عن وصف الفتح العثماني بأنه كان خاتمة للمصائب التي قضت على استقلال مصر حينئذ ، وأنه الحق بها أضرار سواء من الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية . الا أن هناك حقيقة هامة يجب الاعتراف بها وهي أن الأتراك عندما دخلوا العالم العربي دخلوه في وقت كان يجري فيه تغير اقتصادي كبير عندما تحطمت دعامة الكيان الاقتصادي للعرب بتحول طرق التجارة عبر رأس الرجاء الصالح مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي .

لم تتح المشاكل الدولية للعثمانيين الفرصة في سبيل الاتجاه بسرعة أكثر الى المحيط الهندي حيث المعاقل البرتغالية ، الا أنهم حرصوا في الوقت نفسه على جعل البحر الأحمر بحيرة اسلامية عن طريق تأمين مدخل باب المندب ، وتنفيذ أهدافهم على السواحل الشرقية والغربية للبحر ذاته ، والواقع أن انطلاق العثمانيين الى المحيط الهندي عقب دخولهم الى العالم

العربى كان مرتبطا بتحقيق أهداف معينة أولا : ان انطلاقهم لا يكون الا عقب تأمين القواعد اللازمة على السواحل الشرقية للبحر الأحمر كما حدث فى اليمن وعدن ، ثانيا : مواجهة خطر الأحباش على السواحل الغربية والذين عملوا على سرعة الاتصال بالبرتغاليين ، وهو ما أثار السلطان سليم عقب دخوله القاهرة ، فأرسل سنان باشا الذى نجح فى ضم سواكن وبذلك أصبحت أول قاعدة عثمانية على السواحل الغربية للبحر الأحمر لمراقبة الأحباش .

وهنا ملاحظة عامة يجب أن نشير اليها ، وهى أن العثمانيين وان كانوا قد واجهوا أخطارا عديدة من قبل الفرس والأوربيين عقب دخولهم القاهرة فقد تكفلت بهم قوات الدولة التى كانت على استعداد دائم للدفاع والتصدى ، ولكنها فى البحر الأحمر واجهت صعوبة بالغة تمثلت فى بقايا المماليك الذين حولوا سواحل اليمن الى مراكز لتصفية بعضهم البعض ، وما أن انتهت منهم حتى واجهت زعماء الأئمة الزيدية الذين اتخذوا من معاقلهم الجبلية فى الشمال وسيلة لازعاج العثمانيين داخل قواعدهم الساحلية ، لهذا لم يكن من الغريب أن توجه القيادة العثمانية الكثير من جهدها الى السواحل اليمنية فى سبيل مواجهة مشاكله ومتاعبه .

كان نجاح الدولة العثمانية فى تأمين البحر الأحمر عملية ضمنت لهم الاستقرار بداخله ، وأعطتهم القدرة على التحرك خارجه مما أفزع القيادات البرتغالية داخل مراكزها فى المحيط الهندى ، فأسرعوا محاولين القضاء عليها .

من هذا نرى أن تأمين البحر الأحمر كان خطوة ايجابية من قبل العثمانيين ، اذ على الرغم من المشاكل التى كانت تمر بها الدولة ومتاعبها

على سواحل اليمن الا انها تمكنت من تأمين البحر ذاته بالتعاون مع القوى الاسلامية الأخرى ، فعندما رفع الامام أحمد القرين راية الجهاد ضد الأحباش نشطت السواحل الشرقية للبحر الأحمر ممثلة فى القيادات العثمانية فى اليمن واشراف الحجاز فى سبيل مشاركة امارات الطراز معاركها ضد البرتغاليين والأحباش معا ، وتجلت صور الوحدة الاسلامية فى اجتماع فصائل المجاهدين من الحجاز واليمن والقوات النظامية العثمانية كما رأينا الى جانب اخوانهم من مسلمى الامارات ، هذا بخلاف المساعدات العسكرية التى تلقاها مسلمو الامارات دون مقابل ما ، الأمر الذى أدى الى الحاق هزائم شديدة بصفوف القوى الصليبية المتحالفة .

وكان بالامكان متابعة تلك الانتصارات وتحويل مملكة الحبشة الى أرض اسلامية لولاطبيعة العلاقات بين العثمانيين والامام والتى أوضحناها فى فصل سابق ، ولم تكف القواعد العثمانية فى جدة وسواكن وغيرها عن النشاط فى مراقبة السواحل الغربية للتدخل فى الوقت المناسب ، حتى انه اطلق على ميناء جدة اسم ولاية الحبش حيث جعلها العثمانيون باشوية أو ايالة ألحقوا بها بعض الموانى الواقعة على ساحل البحر الأحمر الغربى مثل سواكن ومصوع لتحقيق تلك الأغراض .

وان كان هناك دليل على نجاح الدولة العثمانية فى حماية البحر الأحمر وتأمينه ، وانها أضحت صاحبة الأمر فيه فهو نجاحها فى جلب أنظار الدول الأوربية الى البحر ذاته ، وتحويل الصراع الى مسألة دولية كما حدث من خلال المعارك التى دارت رحاها على السواحل الغربية بين الحلف الاسلامى الممثل فى دول الطراز الاسلامى بمؤازرة الدولة العثمانية واليمن والحجاز والحلف المسيحى الممثل فى الأحباش والبرتغاليين ، وعلى الرغم من النتائج التى وصلت اليها تلك المعارك فقد نجح العثمانيون فى الحفاظ

على البحر الأحمر ومراقبة السواحل الغربية ، وظل الصراع بينهم وبين البرتغاليين مسألة دولية حتى نهاية القرن السادس عشر بعد انضمام البابوية والاسبان .

كذلك قد رأينا كيف نجح العثمانيون فى تأليب الأحباش ضد ملوكهم عندما استغلوا فرصة المنازعات الدينية وتدخلوا فى سبيل نصرة فريق على آخر ، مما أدى الى نشوب الحروب الأهلية فى الحبشة ذاتها وبالتالى مد يد العون للخارجين على الأباطرة الأحباش الذين قضى بعضهم شطراً طويلا من حياته وهو يعمل على اخضاع الخارجين عليه دون جدوى ، وهذه الجهود جميعها أسفرت فى نهاية الأمر عن تحطيم خطة البرتغاليين والبابوية لربط الحبشة بالمذهب الكاثوليكى ، ونجاح العثمانيين فى ذلك يدحض القول القائل بأن الدولة العثمانية لم تعتمد فى سياستها الا على السيف .

وفى حديثنا عن العلاقات الحبشية البرتغالية وانهيارها يجب أن نشير الى ناحية مهمة وهى أن الأحباش وان اختلفت وجهات النظر بين ملوكهم ابتداء من جلاوديوس ونهاية بعهد سرسادنجل بخصوص مواقفهم من البعثات الكاثوليكية ، الا أنهم كانوا متفقين على عدم التمكين للمذهب الكاثوليكى فى بلادهم على الرغم من سماحهم للبعثات ذاتها بنشر المذهب الكاثوليكى ، وذلك لأنهم رأوا فى ذلك التحول التسليم بالتدخل الأوربى .

وقد أدى تطرف بعض رؤساء تلك البعثات الدينية ورغبتهم فى الحصول على منصب هام داخل البطريركية الحبشية تمهيدا للانتقال الى المركز البابوى فى روما الى تبرم الأحباش وحقدهم عليهم كما حدث بين برمودز وجلاوديوس فى صفحات سابقة .

من هنا نرى أن البرتغاليين لم يدركوا بعد فى ذلك الوقت النظرة الحبشية تجاه علاقتهم معهم ، فالأحباش مثلا أدركوا منذ البداية أهداف الغزو البرتغالى الصليبى ضد الأماكن المقدسة التى أصبحت العامل المشترك الذى يجمع الطرفين ببعضهما ، ومن هنا نظر الأحباش الى البرتغاليين على أنهم عامل مهم فى قلب موازين القوى والنزول فى الأراضى المقدسة وطرد المسلمين من سواحل الحبشة ، وبذلك أظهر الأحباش نياتهم تجاه المسلمين أمام البرتغاليين الذين ما أن نزلوا الأراضى الحبشية عام ١٥٤١ م وقاموا بالقضاء على حركة الامام القرين حتى ظهرت حقيقتهم أمام الأحباش .

لهذا لا نستبعد القول أن تلك العلاقات قد حملت بين طياتها منذ البداية عوامل انهيارها لعدم التوافق المذهبى بين الأحباش والبرتغاليين وقد نجحت الدولة العثمانية فى استغلال عدم التوافق هذا الى حد بعيد .

هذا وان كان العثمانيون فى صراعهم مع البرتغاليين قد نجحوا فى تأمين البحر الأحمر المجال الحيوى للنشاط البرتغالى فى سبيل اتمام حصارهم للعالم العربى عن طريق محاولاتهم الفاشلة للنزول فى سواحل الحجاز فليس معنى ذلك أن العثمانيين قد اقتصر نشاطهم داخل البحر الأحمر فقط ، وانما كان لهم نشاط فى بحار العرب الجنوبية وخاصة الخليج العربى عن طريق تلك الحملات التى خرجت ابتداء من حملة مصطفى بيرم ٩٣٩ هـ — ١٥٣٢ م وحتى نهاية القرن السادس عشر الميلادى .

وكما ذكرنا من قبل كانت حملة سليمان باشا الخادم تعد أول وأكبر حملة عثمانية أرسلت خارج البحر الأحمر لزعزعة البرتغاليين فى مراكزهم البحرية فى المحيط الهندى ، على الرغم من الظروف السيئة التى مرت بها فى

عدن وديو ، والواقع أننا لا نستطيع أن نصف تلك الحملات بأنها فاشلة من أساسها أو ان الدولة العثمانية قصرت فى ذلك الميدان وانما يرجع الفشل أساسا الى قادة بعض تلك الحملات الذين تم تعيينهم فى مراكز قيادية غير مؤهلين لها ، فعلى سبيل المثال تولى سليمان باشا الخادم فى عام ١٥٣٨ م قيادة أضخم حملة عثمانية الى الهند ، وكان من الممكن أن تأتى الحملة بثمارها لولا سوء تصرفات قائدها فى عدن وديو ، مما أدى الى فقدان تلك الشعوب ثقتهم بالدولة العثمانية .

ونحن لسنا مع الذين يحملون الدولة العثمانية وحدها نتائج الفشل فى صراع المسلمين مع البرتغاليين فى المحيط الهندى ، والرأى أن أباطرة المغول المسلمين فى الهند يحملون جزءا كبيرا من ذلك الفشل بسبب سياستهم ازاء القوى الأوربية المعادية التى أخذت تطرق أبواب الهند ، وسياستهم العامة التى يمكن أن توصف بأنها سياسة تذبذبت ما بين التفريط والتشدد حتى فات الأوان ، وكذلك عدم ادراكهم لظروف العصر من حيث التحول من البر الى البحر ، ولا نستطيع القول أكثر من ذلك ونحن نعالج موضوعنا هذا .

كان لفشل حملة سليمان باشا الخادم أثرها الفعال فى ازدياد اهتمام الدولة العثمانية بجعل بحار العرب الجنوبية نظيفة فى بعض الأوقات عن طريق حملات بحرية اتخذت من عدن قاعدة لانطلاقها ، ففى عام ٩٥٣ هـ — ١٥٤٦ م أبحرت أربع سفن عثمانية باتجاه البحار العربية الجنوبية حيث رست فى مسقط وشرعت فى قصف القلعة البرتغالية فأحدثت رعبا وفوضى ، وحاول الجنود النزول الى الشواطىء الا أن محاولاتهم تلك باءت بالفشل مما اضطرهم الى العودة الى عدن .

واصلت الدولة العثمانية حملاتها الى الهند فى الأعوام ١٥٥٢م ، ١٥٥٣م ، ١٥٥٤م ، ١٥٧٧م ، ١٥٨٥م ، وعلى الرغم من ذلك لم تستطع أى من الحملات السابقة تحقيق ما تصبو اليه الدولة فى سبيل ضرب المراكز البرتغالية داخل المحيط الهندى .

نخرج مما سبق انه الى جانب سوء الحظ الذى لازم بعض الحملات العثمانية السابقة فى طريقة اختيار القادة ، الا اننا لا ننسى أن هناك عوامل أخرى كانت تعيق الدولة العثمانية أثناء محاولاتها الخروج من البحر الأحمر الى بحار العرب الجنوبية ، ومن تلك العوامل انه نظرا لكون مينائى السويس والبصرة كانا من أهم القواعد البحرية للدولة العثمانية فى البحر الأحمر والخليج العربى ، فقد ترتب على ذلك صعوبة نقل المواد اللازمة لاعداد الأساطيل الى الموانى السابقة نظرا لطول المسافة والمشقة التى كانت تعانى منها القوافل التى كانت تتولى تلك العملية (١) ، وهذا بدوره ما يؤدى الى انتشار تلك الأخبار ووصولها الى البرتغاليين الذين يستعدون لها قبيل خروجها بفترة قد تكون طويلة ، اضافة الى هذا كان للبرتغاليين موانى وافرة ، وفيض من المواد اللازمة لأغراض البناء ، بعكس العثمانيين الذين لم تتعدى موانيهم الصالحة لاتخاذها قواعد بحرية سوى أربعة موانى .

ولما كان البرتغاليون يقيمون عند منبع ثروتهم فى الهند فقد كانوا مزودين أطيب الزاد بالموانى الحصينة والخشب والطعام وبارود المدافع بعكس العثمانيين الذين انحصرت موانيهم الممتازة فى أقصى نقطة سواء فى الخليج العربى أو البحر الأحمر .

---

(1) Stripling: The Ottoman Turks 95.

ومع تمركز البرتغاليين فى المحيط الهندى الذى كان مفتوحا أمام سفنهم للتجول أينما شاءت على امتداد سواحله ، كان من الطبيعى أن يكون ذلك بمثابة نقاط ارتكاز للسفن البرتغالية التى كان عليها فقط تحديد مسار خروجها من جوا Joa أو من القواعد الأخرى المتناثرة فى الخليج العربى وشرقى افريقية ، وهو ما لوحظ سابقا من خلال كثافة حملاتهم البحرية داخل البحر الأحمر عندما نجحت حملاتهم ودورياتهم فى اعتراض الطرق التجارية ، على امتداد السواحل الهندية الى الخليج العربى حتى شرقى افريقية اعتمادا على قواعد برية حصينة بامكانها الصمود فى وجه كافة الحملات البحرية العثمانية التى تأتى الى تلك الجهات على الرغم من ضآلتها بجانب الحملات البرتغالية .

اذن فان كان البرتغاليون قد نجحوا فى تأمين قواعدهم داخل المحيط الهندى التى كانت بمثابة قواعد الارتكاز ، فقد نجح العثمانيون فى القضاء على خطورتهم داخل البحر الأحمر ، وان نجح البرتغاليون فى ضم الهنادكة الى صفوفهم ، فان الحظ حالف العثمانيين فى تكوين جبهة اسلامية موحدة على شواطىء البحر الأحمر .

ومع محاولات الدولة العثمانية السابقة لاعادة الأمور الى نصابها فيما يختص بتجارة البحر الأحمر ، فقد كانت مدن الشام ومصر قد بدأت فى الانهيار الاقتصادى نتيجة قلة الوارد من البحر الأحمر الذى أصبحت أهميته تنبع من ناحية تأمينه ضد الغزو البرتغالى وحماية الأماكن المقدسة .

هذا وان كانت المحاولات السابقة لضرب المراكز البرتغالية فى معاقلها فى المحيط الهندى لم يحالفها الحظ فلا يعنى ذلك أن الدولة العثمانية قد ركزت جهودها فقط على تأمينه وحمايته ، وانما كان هناك الى جانب

محاولات تأمينه جهودا أخرى لحفر قناة تصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر ، وعلى الرغم من تعدد محاولات تنفيذ هذا المشروع الا أن جميعها لم يكتب لها النجاح ، ففى عصر السلطان سليمان القانونى فكر العثمانيون فى حفر القناة عام ١٥٢٩ م ، كذلك حاول سنان باشا فتح اليمن حفر هذه القناة عام ١٥٦٩ م لتسهيل أعماله فى البحر الأحمر ، الا انه فشل فى ذلك ، وأخيرا حاول مراد الثالث حفر القناة وخصص لذلك ١٠٫٠٠٠ عامل الا انه لم ينفذ من ذلك شيئا ، (١)

لم تكن بحار العرب الجنوبية هى المجال الوحيد الذى خاضته الدولة العثمانية فى سبيل محاربة البرتغاليين والقضاء على نفوذهم ، فالدولة العثمانية منذ لحظة دخولها العالم العربى حملت على عاتقها مهمة حماية المسلمين باعتبارها كانت أقوى دولة اسلامية فى ذلك الوقت ، وكانت طبيعة انتشار وزحف قواتها تملى عليها تلك المهام ، ولا أدل على ذلك من استعانة خير الدين باربروسا بالسلطان سليم العثمانى الذى كان لتوه قد ضم القاهرة الى أملاكه • فعقب استشهاد عروج وجنوح بعض أمراء تونس الى مهادنة الاسبان لم يجد خير الدين بدا من الاستعانة بأكبر دولة اسلامية عقب استقرار السلطان سليم بالقاهرة والذى أنعم عليه برتبة بيلر باى (بكلر بك) وأرسل له جيشا من ستة آلاف مقاتل لشد أزره ، وبذلك كان على العثمانيين اضافة الى مشاكلهم فى البحر الأحمر والمحيط الهندى حماية المسلمين فى الشمال الافريقى مما أدى الى تشتيت قواهم وتحويل جزء من القوات العثمانية الى غرب البحر الأبيض المتوسط •

---

(١) د • حسن عثمان : البحر الأحمر كطريق تجارى فى عهود البيزنطيين والعرب والمماليك ٧٥ ، ٧٦ •

واذا كان العثمانيون قد نجحوا نجاحا بالغا فى حماية البحر الأحمر عن طريق عدن ، فما هو الحال لو تمت سيطرتهم على سواحل المغرب الأقصى ، والواقع أن الأتراك العثمانيون قد سعوا الى ضم المغرب فى نطاق توحيد البلاد الاسلامية والوقوف بها صفا واحدا ضد الهجمات المسيحية ، ذلك ان استقرارهم فى قواعد بحرية تنتشر على طول سواحل المغرب الأقصى المطلة على المحيط الأطلسى يعنى فى حقيقة الأمر نجاح الأساطيل العثمانية فى اعتراض الطرق البحرية للبرتغال أو اسبانيا مع العالم الجديد والشرق الأقصى .

اذا من هنا نرى أن نجاح تلك الفكرة كان يعتمد أساسا على وصول العثمانيين الى تلك السواحل يشاركهم فى ذلك المجاهدون الذين عملوا سنوات طويلة تحت امرة أمراء البحر العظام أمثال خير الدين وأخيه عروج باربروسا .

وبوضوح تلك الفكرة لنا أن نتساءل ما هى حقيقة الأوضاع التى حالت دون تنفيذ تلك الفكرة .

الواقع أن السواحل المغربية بليت فى القرن الخامس عشر الميلادى بخطر صليبى جارف من قبل سكان شبه الجزيرة الأيبيرية أثناء محاولاتهم الاندفاع نحو ما يسمى بالكشوف الجغرافية كما رأينا ، ولادراكهم أهمية سواحل المغرب الأقصى فى سبيل الدفاع عن غربى أوربا المسيحية ضد خطر العثمانيين المسلمين فيما بعد ، وللتسرب نحو افريقيا لاستغلال خيراتها ولنشر المسيحية بها .

هذا الغزو وان كان فى بدايته كالسيل الجارف ، الا أن نفـــــوذ المستعمرين انحصر فى المدن الساحلية فقط نتيجة المقاومة الشديدة لسكان المدن الداخلية ، فى وقت سادت فيه الفتن والاضطرابات مدن المغـــرب الأقصى ، وأصبحت بذلك بلاد المغرب تتوزع فى ادارتها السياسية ما بين الطوائف الدينية والامارات وبقايا الدول السابقة ، اضافة الى اشـــتراك عوامل الطبيعة والتضاريس فى عزله عن بقية أقطار الشمال الافريقى .

اذن كان لابد من ظهور قوة أخرى تجمع شمل القوى لسكان المغـــرب الأقصى لمواجهة خطر الغزو البرتغالى والاسبانى معا على السواحل المغربية . كان ذلك فى وقت اندفع فيه المجاهدون من قواعدهم البحرية على السواحـــل الجزائرية والتونسية بمؤازرة الدولة العثمانية فى مهاجمة السواحل البرتغاليـــة والاسبانية كرد فعل لطرد المسلمين من اسبانيا والانتقام لما حل بمـــدن ساحل شمال افريقيــة من دمار نتيجة غارات أساطيل الدول الغربيـــة لأوربـــا .

وقد يثير هذا الموقف سؤالا وهو لماذا لم توجه الدولة العثمانيـــة قواتها ومجاهديها فى الجزائر نحو المغرب الأقصى لحماية المسلمين هنـــاك من الحركة الصليبية المنتشرة على موانيه ؟

ان كانت الدولة العثمانية قد رمت بأنظارها تجاه ضم المغرب الأقصـــى الى أملاكها ، فلم يكن من المتوقع أن يتساهل السعديون فى ذلـــك خاصة وان دولتهم كانت دولة فتية ناشئة .

وقد بدأت الأمور فى التوتر بين الطرفين عندما أخذت أنظار العثمانيين تتوجه نحو تلمسان ، وبالتالى نحو المغرب الأقصى اتماما لاتجاههم نحو

توحيد القوى الاسلامية تحت قيادة واحدة لمجابهة الأخطار المسيحية المتزايدة على بلاد المسلمين[١]، وفى الوقت نفسه كتب السلطان السعدى أبو عبد الله محمد الشيخ (٩٤٦ — ٩٦٤ هـ، ١٥٣٩ — ١٥٥٦م) الى باشا الجزائر واقترح عليه القيام بعمليات مشتركة لفتح وهران والمرسى الكبير، وبعث أيضا بهدايا الى طرغوث باشا يقترح عليه الدخول فى حرب ضد اسبانيا، وهذا بدوره أدخل الرعب على الاسبان والبرتغال وجعلهم يترقبون قيام تعاون بين القوتين الاسلاميتين ضد قواعدهم فى الجزائر والمغرب [٢].

لكن يبدوا أن السلطان محمد الشيخ استغل فرصة تلك الاتصالات ومن ثم قام بمهاجمة تلمسان وضمها الى ممتلكاته فى وقت كانت فيه القوات العثمانية بالجزائر تستعد لمهاجمة الاسبان فى ميناء وهران، وازاء تلك الضربة المفاجئة قام قادة الجزائر حسن باشا ابن خير الدين وحسن كورسو بمهاجمة تلمسان وطرد القوات السعدية منها التى تراجعت الى فاس [٣].

والواقع أن السعديين كانوا يرون فى ضم تلمسان عاملا قويا فى توطيد سيطرتهم على المغرب الشرقى لصد كل تدخل عثمانى فى المغرب، بعكس

---

(١) د٠ عبد الكريم كريم : المغرب فى عهد الدولة السعدية ٧٥ ٠
(٢) المرجع السابق ٧٥ ، ٧٦ ٠
(٣) الفشتالى ، أبى فارس : مناهل الصفا فى مآثر موالينا الشرفا ٣٠ ٠
دراسة وتحقيق : د٠ عبد الكريم كريم ٠
— د٠ عبد العزيز نوار : الشعوب الاسلامية ١٢١ ٠

الأتراك الذين كانوا يرون فى التمركز بتلمسان تدعيما لوجودهم بالجزائر وقاعدة حصينة لغزو المغرب لما تمثله شواطئه الشمالية والغربية من قواعد رئيسية لتهديد المواصلات البحرية للبرتغاليين والاسبان ولغزوهم فى عقر دارهم (١).

أما السعديون فعقب تراجعهم الى فاس قاموا بتحصينها لحمايتها وصد العثمانيين عنها ، وما ان وصلت الأخبار بذلك الى الجزائر حتى أرسلت الدولة العثمانية فى عام ٩٦١ هـ — ١٥٥٣ م أوامرها الى صالح ريس بيلر بك الجزائر لغزو مراكش عاصمة السعديين ، ونجحت القوات العثمانية فى دخول فاس وطرد السعديين منها (٢).

كان من نتيجة وصول القوات العثمانية الى فاس ازدياد فزع البرتغال والاسبان خاصة بعد مشاهدتهم للأساطيل العثمانية وهى تسيطر على بعض الموانى المغربية القريبة من مراكز احتلالهم ، وهذا بدوره ما أدى الى قيام الملك البرتغالى يوحنا الثالث بالاتصال بالامبراطور الاسبانى (شارلكان) وحثه على القيام بأعمال مشتركة على الأراضى المغربية للحيلولة دون وصول العثمانيين (٣).

بدأت الدولة العثمانية محاولات جديدة مع الدولة السعدية عام ٩٦٤ هـ — ١٥٥٦ م عندما أرسل السلطان سليمان القانونى (١٥٢٠ — ١٥٦٦م) رسالة الى سلطان الدولة السعدية يهنئه بما أحرزه من انتصارات ويطلب منه

---

(١) د ٠ عبدالكريم كريم : المغرب فى عهد الدولة السعدية ٧٧ ٠

(٢) د ٠ صلاح العقاد : المغرب العربى ٥٤ ٠

(٣) د ٠ عبدالكريم كريم : المغرب فى عهد الدولة السعدية ٨١ ٠

أن يدعو له على منابر المغرب ، فى محاولة لتكوين اتحاد كبير اسلامى ومجاهد يواجه الأخطار الخارجية [١] ، غير أن ذلك كله قوبل بالرفض من قبل السلطان السعدى محمد الشيخ الذى ما لبث أن أغتيل من قبل قادة الجزائر ٩٦٤ هـ — ١٥٥٧ م ، وهذا بدوره ما أدى الى ازدياد رغبة العثمانيين فى ضم المغرب اليهم عندما تحرك حسن باشا ابن خير الدين بقواته صوب فاس حيث التقى بالجيوش السعدية بقيادة السلطان عبد الله الغالب بالله ، وانجلت تلك المعركة عن هزيمة القوات العثمانية التى انسحبت الى قواعدها فى الجزائر ، وعلى الرغم من ذلك فقد تعودت الأساطيل العثمانية على التردد دائما على مدينتى حجر باديس وطنجة ، وغيرها من مدن المغرب الأقصى مما أثار الرعب على الشواطىء الاسبانية [٢] .

وبوفاة السلطان السعدى الغالب بالله وتولى ابنه محمد المتوكل على الله ، دخل المغرب الأقصى فى مرحلة حاسمة من تاريخه عقب الهدوء النسبى الذى ساد أراضيه منذ هزيمة القوات العثمانية السابقة ، ففى عام ٩٧٧ هـ — ١٥٦٩ م نجح أمراء البحر العظام فى طرد القوات الاسبانية من تونس ، وبذلك امتد النفوذ العثمانى من ليبيا حتى الجزائر ، وهذا بدوره ما دفع الدولة العثمانية للتفكير مرة أخرى فى بسط نفوذها على المغرب الأقصى منتهزة فرصة الخلافات التى نشبت بين أفراد الأسرة السعدية حيث تمكنت من طرد السلطان السابق ، وتولية عمه أبو مروان عبد الملك (٩٨٣ هـ — ١٥٧٦ م) .

---

(١) د . جلال يحيى : المغرب الكبير ج ٣ ٣٧ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ج ١ ٣١٩ .

ظلت العلاقات بين الطرفين هادئة تماما بسبب انصراف السلطان السعدي الجديد الى تثبيت دعائم حكمه ، ولم تسجل تلك السنوات أية محاولة للعثمانيين فى سبيل الوصول الى السواحل المغربية المطلة على المحيط الأطلسى ، خاصة عقب ورود أنباء عن استعدادات برتغالية لغزو المغرب فكان الأمر حينئذ يتطلب تعاونا تاما بين الطرفين (١).

نزل البرتغاليون الأراضى المغربية بحملة ضخمة بقيادة ملكهم سباستيان ونجح المغاربة فى الحاق الهزيمة بالبرتغال التى فقدت ملكها الشاب دون وريث ما فى معركة وادى المخازن (٩٨٦ هـ ــ ١٥٧٨ م) وبذلك النصر تمكن السعديون من دعم نفوذهم فى المغرب الأقصى .

وهنا نقطة هامة يجب أن نشير اليها ، وهى ان استراتيجية الفريقين المتصارعين (الدولة العثمانية ، الدولة السعدية) كانت تختلف كل الاختلاف من حيث مبدأ الاستقرار والبقاء ، فالأول كان سر بقائه القوة البحرية التى كان يبسط بها نفوذه فى غرب البحر الأبيض المتوسط ، لهذا لم ينظر العثمانيون الى الموقع البرى كنقطة هامة للدفاع ، خاصة اذا علمنا بقلة التهديد الأجنبى من البر ، أما الثانى فكان يرى ان البقاء والاستقرار يكمن فى تأمين مراكزه البرية ، لهذا لم يكن من الغريب أن يلجأ السعديون الى خطة خاصة من حيث توقيت المعركة بالهجوم على البرتغاليين ومهادنة الاسبانيين ، أو العكس (٢) ، وكان لذلك الانحراف تجاه مهادنة أعداء الدولة العثمانية أثره فى تعطيل الكثير من مشاريع العثمانيين الرامية الى حماية المسلمين فى شمال افريقية .

---

(١) عبد الحميد بن أبى زيان : دخول الأتراك العثمانيين الجزائر ١٢٢٠.
(٢) د. جلال يحيى : العالم العربى الحديث ٤٠ .

هذا وان بدا واضحا أن العثمانيين قد يمموا شطرا تجاه المغرب الأقصى فى سبيل نقل ميدان الجهاد ضد البرتغاليين قرب أراضيهم فى غرب أوربا ، فبدون شك ان المحاولات السابقة فى سبيل الوصول الى المغرب الأقصى ، كانت تعتمد فى تحركاتها على قواعد ثابتة تحميها شعوب اسلامية مؤيدة ، ونقصد بذلك الشريط الساحلى الممتد من ليبيا حتى نهاية حدود الجزائر مع المغرب الأقصى • وفى عام ٩٤١ هـ ـ ١٥٣٤ م وبينما كانت المعارك دائرة فى العراق بين الجيوش العثمانية والجيوش الصفوية ، أرسل السلطان سليمان القانونى قوة بحرية كبرى الى خير الدين باربروسا ساعدته فى فتح تونس [١] ، كان ذلك فى وقت أخذت فيه الترلمانات الحربية فى مصر فى اعداد حملة سليمان باشا الخادم المقرر خروجها فى ذلك الوقت الى المحيط الهندى ، وفى الوقت الذى غادر فيه سليمان باشا الخادم ميناء السويس الى الهند عام ١٥٣٨ م ، كان خير الدين باربروسا يغادر بوغاز الدردنيل الى جزر الأرخبيل لاخضاعها للسيادة العثمانية •

مما سبق نرى ان النجاح لم يحالف العثمانيين فى سبيل وضع حد للوجود البرتغالى داخل المحيط الهندى بسبب ارتباط الدولة أيضا بمهامها فى غرب البحر الأبيض المتوسط ، حيث أخذت الأساطيل العثمانية تترادف على تلك الجبهة •

كذلك نلاحظ أن العثمانيين الذين بذلوا جهودا كبيرة فى شمال افريقية ضد دول غرب أوربا وفى بحار العرب الجنوبية ضد البرتغاليين ، قد حالفهم التوفيق فى شمال افريقية أكثر منه فى البحار الجنوبية لعوامل عديدة منها

---

(١) د • نور الدين حاطوم : تاريخ عصر النهضة الأوربية ج ٣ ٤٦٥ •

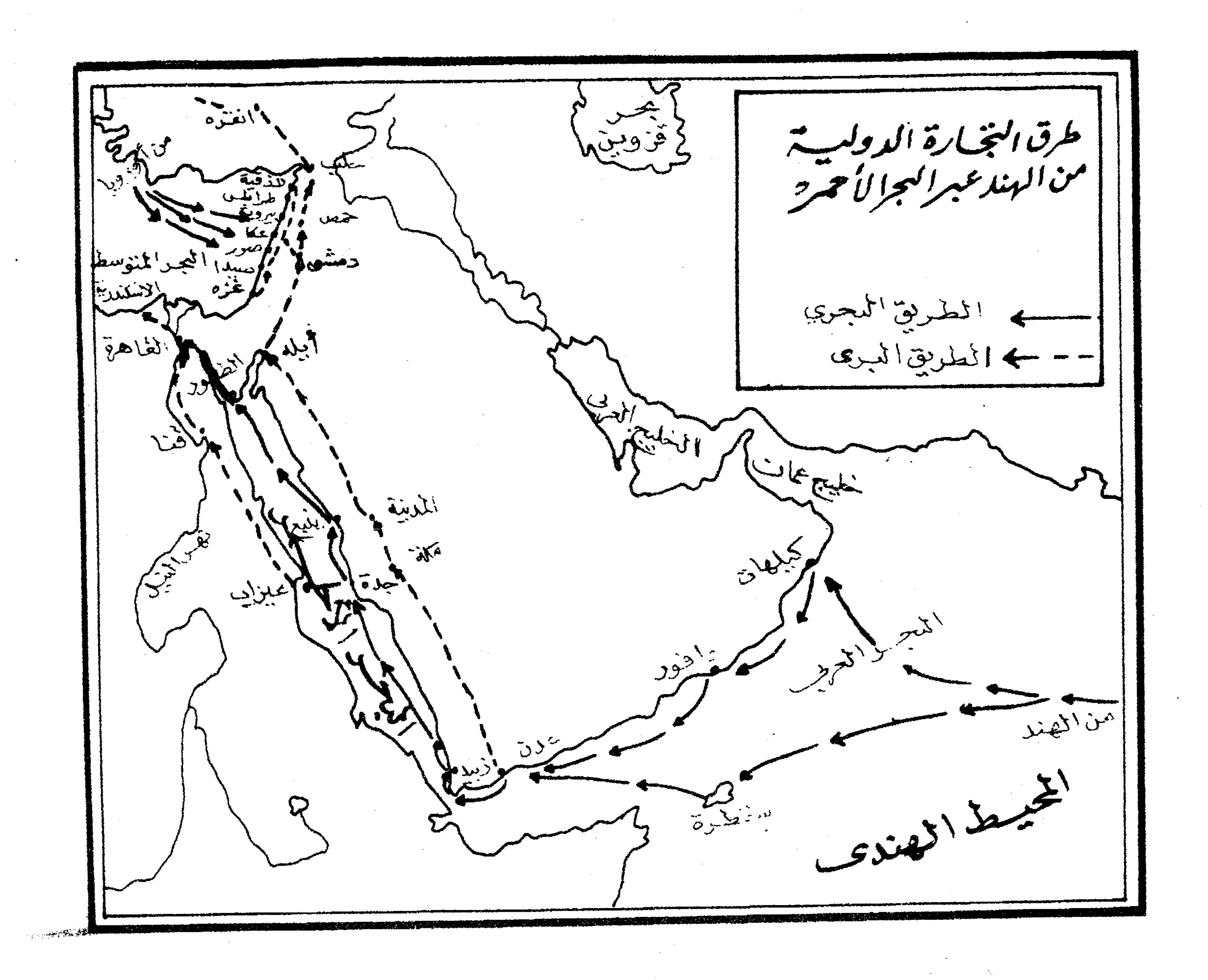
أولا : ان كافة الحروب البحرية التى خاضتها الدولة العثمانية كانت تتناسب وحرب البحار التى تدرب عليها المجاهدون العثمانيون وأتقنوها الى حد فاق حروبهم فى المحيط الهندى ، ثانيا : عدم وجود مقاومة مذهبية عنيفة فى شمال افريقية مثل التى واجهتهم فى بلاد اليمن ٠

ثالثا : امتازت جبهة الشمال الافريقى عن جبهة المحيط الهندى بقربها من المراكز الرئيسية للامدادات فى مصر وتركيا ، اضافة الى اطلاع المسئولين بصورة متتابعة على الأحداث والتطورات بعكس المحيط الهندى الذى لا تصل أخباره الا بعد فترة طويلة كما حدث عقب عودة سليمان باشا الخادم الذى أوهم المسئولين فى العاصمة بقضائه على الخطر البرتغالى وتقديمه لأسماء بعض القرى الصغيرة على انها مدنا كبيرة تم فتحها على يديه ٠

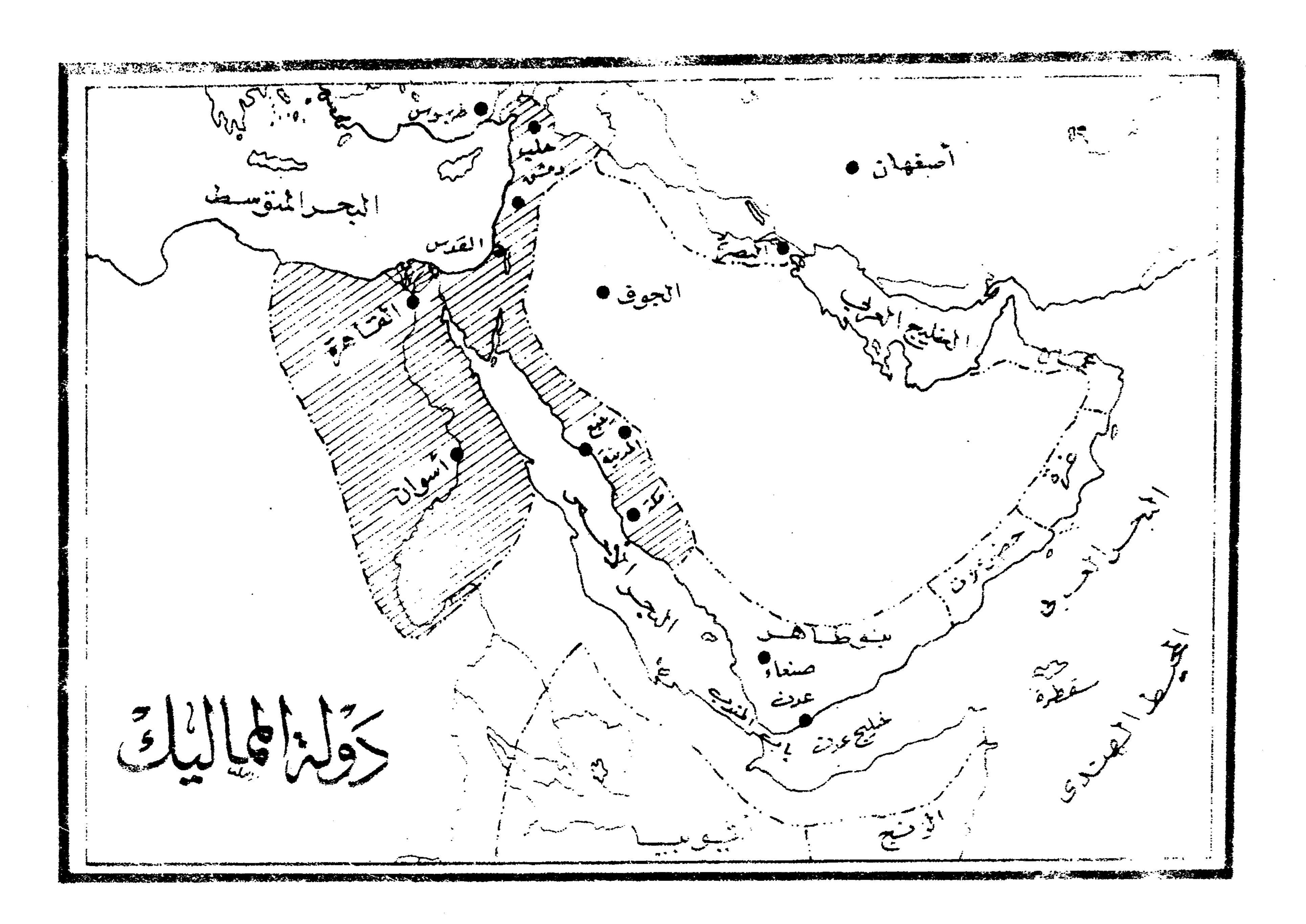
رابعا : كان للعثمانيين قواعد قوية فى شمال افريقية بالتعاون مع مسلمى تلك الجهات الذين بذلوا الكثير فى سبيل التعاون مع العثمانيين ، فلما كانت موقعة ليبانتو البحرية ضعف الأمل لدى الدولة العثمانية فى القضاء على الخطر البرتغالى فى المحيط الهندى عن طريق اغلاق الباب المتمثل فى الشاطئ الشمالى الغربى لافريقية ٠ وبذلك ختم الصراع بين المسلمين بقيادة الدولة العثمانية والبرتغاليين بنجاح المسلمين فى تأمين البحر الأحمر وحماية الأماكن المقدسة الاسلامية من الخطر الصليبى البرتغالى ، وجعل هذا البحر منطقة محرمة على غير المسلمين ، ولكن الجبهة الاسلامية لم تتمكن من تحويل ذلك البحر الى قاعدة ارتكاز للقضاء على الخطر البرتغالى فى المحيط الهندى ولا فى انقاذ تجارة الشرق مما كان سببا فيما بعد فى فتح مجال الاستعمار الأوربى على مصراعيه ٠

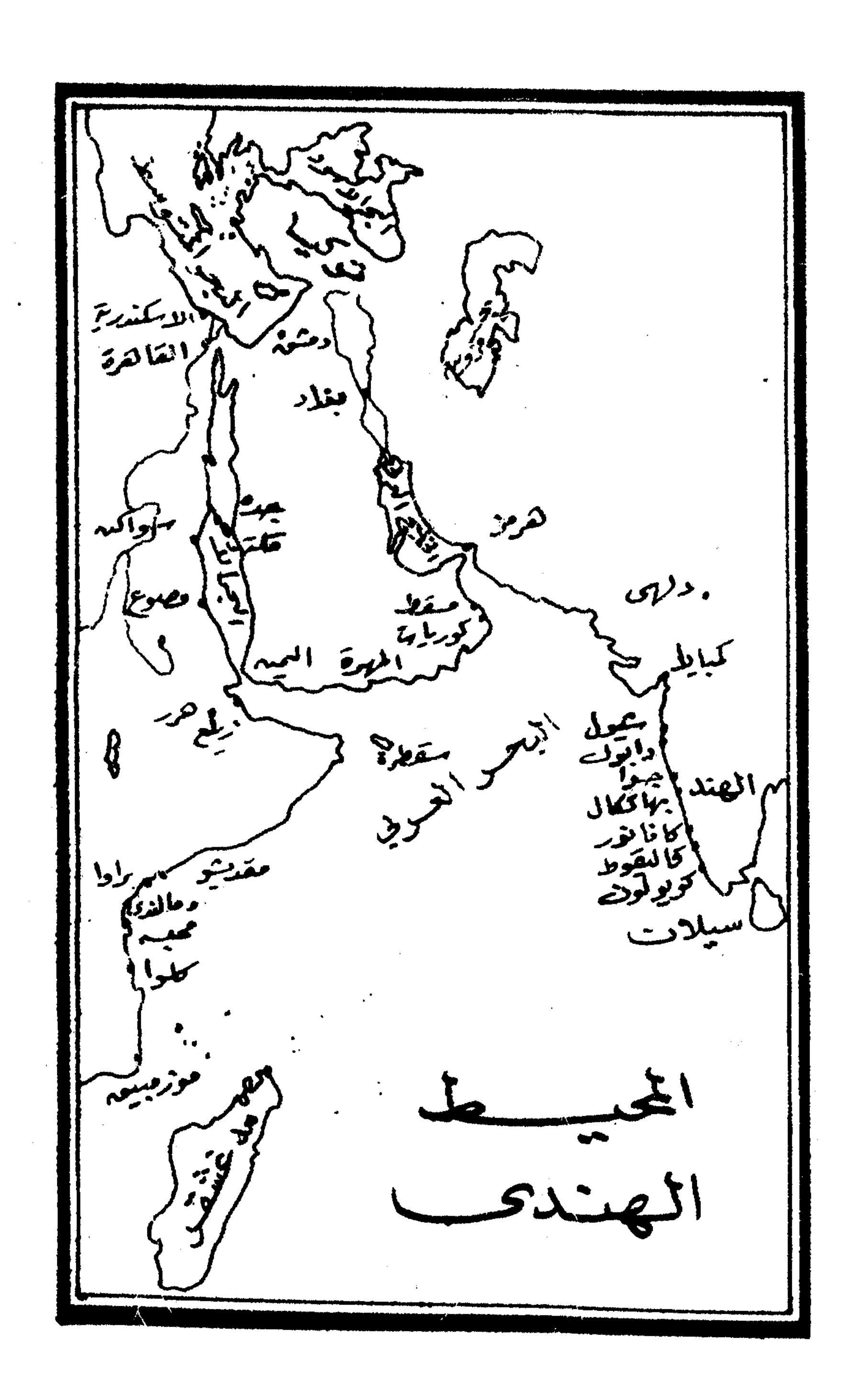
... ...

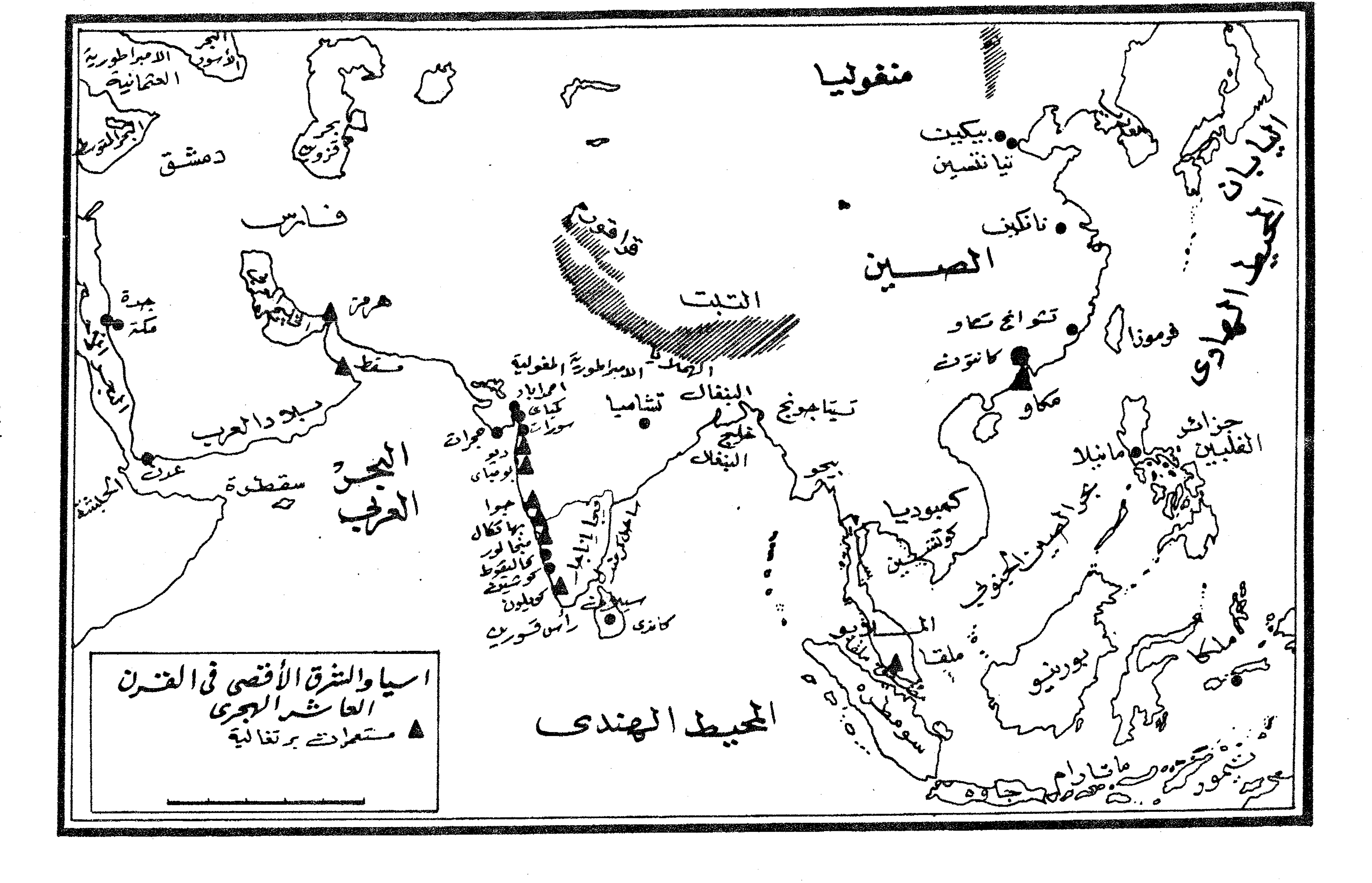
فهرس الخرائط

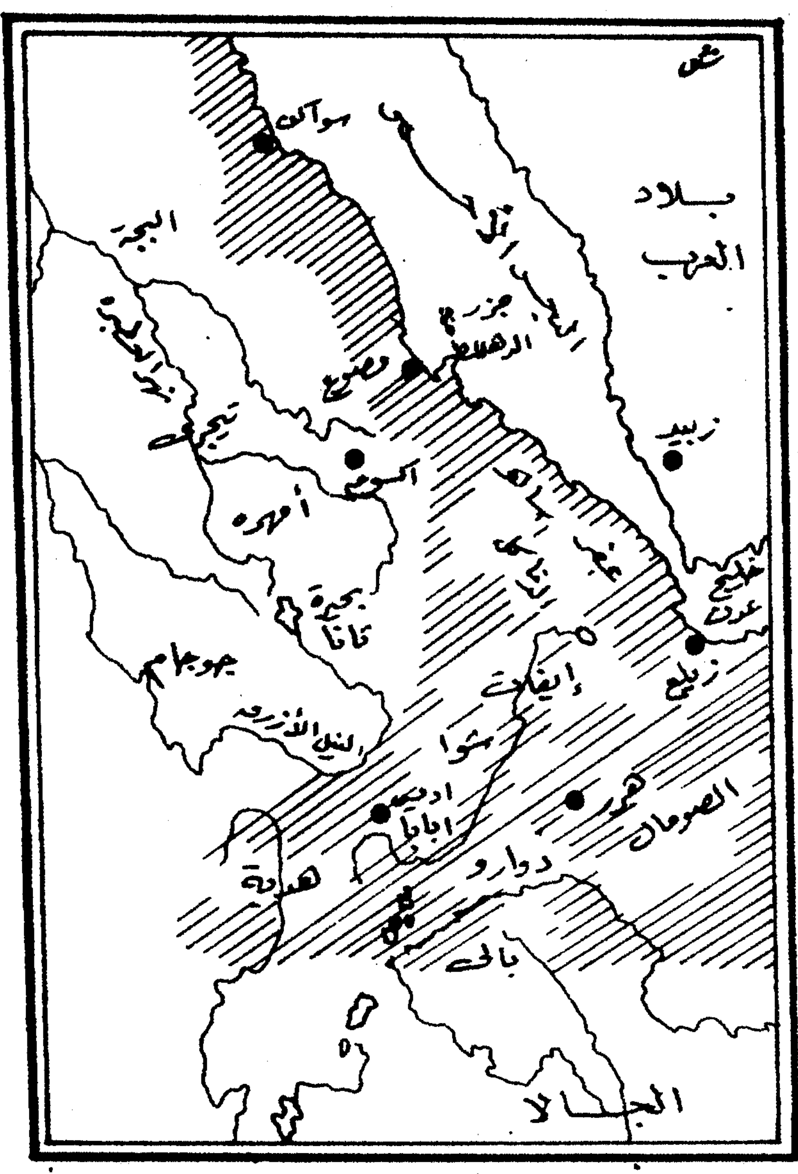


طرق التجارة الدولية
من الهند عبر البحر الأحمر
الطريق البحري
الطريق البري
بحر قزوين
الفترة
حلب
حمص
دمشق
اللاذقية
طرابلس
بيروت
عكا
صور
صيدا
غزة
البحر المتوسط
الإسكندرية
القاهرة
أيلة
الطور
قنا
نهر النيل
ينبع
المدينة
مكة
جدة
عيذاب
زبيد
عدن
ظفار
كيلهات
خليج عمان
الخليج العربي
البحر العربي
من الهند
سقطرة
المحيط الهندى

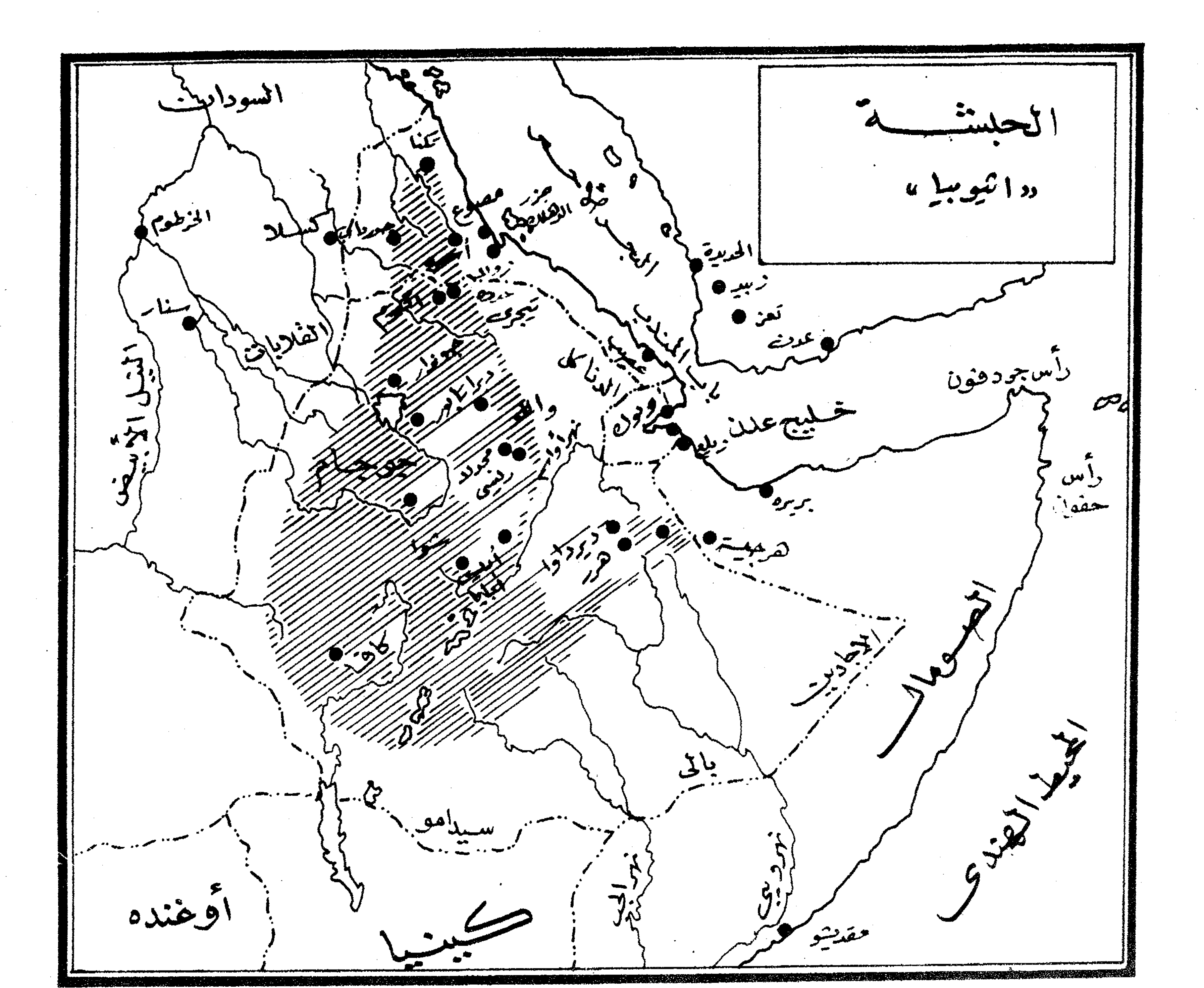

دولة المماليك
البحر المتوسط
طرسوس
حلب
دمشق
القدس
القاهرة
أسوان
الجوف
البصرة
أصفهان
الخليج العربي
ينبع
المدينة
مكة
البحر الأحمر
بنو طاهر
صنعاء
عدن
باب المندب
خليج عدن
حضرموت
عمان
البحر العربي
سقطرة
المحيط الهندي
الزنج
النوبة


الاسكندرية
القاهرة
دمشق
بغداد
هرمز
سواكن
مصوع
مسقط
كوريات
المهرة
اليمن
زيلع
هرر
سقطرة
البحر العربي
دلهي
كمبايا
الهند
جيول
دابول
جوا
كانانور
كاليقوط
كويلون
سيلان
مقديشو
براوا
مالندي
ممبسه
كلوا
موزمبيق
مدغشقر
المحيط
الهندى


اسيا والشرق الأقصى فى القرن العاشر الهجرى
مستعمرات برتغالية
منغوليا
بيكين
الصين
نانكين
التبت
قراقورم
تشوانج تشاو
فورموزا
كانتون
مكاو
جزائر الفلبين
مانيلا
بحر الصين الجنوبى
كمبوديا
كوشنشين
بورنيو
ملقا
سومطرة
جاوه
المحيط الهندى
المحيط الهادى
اليابان
البحر العربى
بلاد العرب
فارس
دمشق
هرمز
مسقط
عدن
سقطرة
الحبشة
جدة
مكة
الامبراطورية العثمانية
البحر الأسود
البحر المتوسط
بحر قزوين
الامبراطورية المغولية
البنغال
خليج البنغال
بيجو
ججرات
احمد اباد
كمباى
سورات
ديو
بومباى
جوا
منجالور
كاليكوت
كوشين
كولمون
راس قورين
سيلان
كاندى



سلطنات الطراز الإسلامي


الحبشة
«اثيوبيا»
السودان
الخرطوم
كسلا
سنار
القلابات
النيل الأبيض
البحر الأحمر
الحديدة
زبيد
تعز
عدن
باب المندب
خليج عدن
رأس جوردفون
رأس حفون
بربره
هرجيسه
الدناكل
مصوع
أسمرة
شوا
هرر
كافا
الصومال
الأجادين
بالي
سيدامو
المحيط الهندي
مقديشو
كينيا
أوغنده

بيان المصادر والمراجع

أولا — المخطوطات :

١ — ابن الديبع ، وجيه الدين عبد الرحمن بن علي (ت ٩٤٤ هـ)
قرة العيون بتاريخ اليمن الميمون
نسخة باريس ، رقم ٦٠٥٨ .

٢ — الامام ، أحمد بن محمد يعقوب (ت ١١٨٢ هـ)
السلاح والعدة في أخبار بندر جدة
المكتبة المركزية ، جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة ، مصور
تحت رقم ١١٢٦ ، بدون فهرست .

٣ — الديبع ، عبد الرحمن بن علي
قرة العيون في أخبار اليمن الميمون
مكتبة مركز البحث العلمي بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة
تحت رقم ٣٦٠ تاريخ / مجاميع .

٤ — الكبسي ، محمد بن اسماعيل
اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية
مكتبة كورسني بايطاليا ، تحت رقم ٣٦٢ .

٥ — باعلوي ، أحمد بن عبد الله ابن علوي شنبل
التاريخ الأكمل
مكتبة الدكتور عبد الله الحبيد الخاصة .

٦ — بن الوزير ، السيد عبد الله بن علي بن محمد بن عبد الاله (١٠٧٤ — ١١٤٧ هـ)
جامع المتون في أخبار اليمن الميمون
مكتبة مركز البحث العلمي بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة ،
مصور تحت رقم ٣٥٦ .

٧ — بن فهد المكي ، عبدالعزيز بن عمر بن محمد (ت ١١٢٩ هـ)
بلوغ القرى في ذيل اتحاف الورى بأخبار أم القرى
مكتبة مركز البحث العلمي بجامعة الملك عبدالعزيز بمكة المكرمة ،
مصور تحت رقم

٨ — عيسى بن لطف الله بن المطهر بن الامام شرف الدين يحيى (ت ١٠٤٨هـ)
روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح

• •• ••• •••

ثانيا: المصادر العربية :

١ - ابن اياس (محمد بن أحمد)
بدائع الزهور فى وقائع الدهور
تحقيق محمد مصطفى
الجزء الرابع : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط ٢، القاهرة ، ١٩٦٠م.
الجزء الخامس: دار احياء الكتب العربية ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٦١م.

٢ - أبى مخرمة (أبى محمد عبد الله الطيب)
تاريخ ثغر عدن
ليدن ١٩٣٦ م.

٣ - الحيمى (الحسن بن أحمد)
سيرة الحبشة
تحقيق د. مراد كامل ، القاهرة ، ١٩٧٢م.

٤ - الفشتالى (أبى فارس عبد العزيز)
مناهل الصفا فى مآثر موالينا الشرفا
مطبوعات وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية والثقافية ، الرباط.

٥ - القلقشندى (شهاب الدين أحمد)
صبح الأعشى فى صناعة الانشاء - الجزء الخامس ، القاهرة، ١٩٦٣م.

٦ - المقريزى (تقى الدين أبو العباس أحمد بن على)
الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام
مطبعة التأليف ، القاهرة ، ١٨٩٥م.

٧ – النهروالى (قطب الدين محمد بن أحمد)
البرق اليمانى فى الفتح العثمانى
الرياض ، ط ١ ، ١٣٨٧ هـ – ١٩٦٧م .

٨ – يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد
غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى – الجزء الثانى
تحقيق وتقديم : د . سعيد عاشور ، مراجعة : د . محمد مصطفى زيادة .
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨م .

... ...

ثالثا ـ رسائل جامعية (لم تطبع) :

١ ـ ابراهيم حسن
الامام أحمد بن ابراهيم القرين (الأشول)
رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة .

٢ ـ بدر السيد بدر النصار
رحلة الحسن بن أحمد الحيمى لشرق افريقية فى القرن السابع عشر وظروفها التاريخية .
رسالة دكتوراه ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥م.

٣ ـ شوقى حبيب
العلاقات التجارية بين مصر والدول الافريقية .
رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥م.

٤ ـ ليلى الصباغ
الفتح العثمانى لسوريا ومطلع العهد العثمانى فيها .
رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٠م .

٥ ـ محمد عبد الله النقيرة
انتشار الاسلام فى شرق افريقية ومناهضة الغرب له .
رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٣م.

٦ ـ مصطفى على أحمد السيوفى
تاريخ التجارة الخارجية فى مصر ابان الحكم العثمانى .
رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٢م.

... ...

رابعا ـ المراجع العربية :

١ ـ د · ابراهيم على طرخان
مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ·
مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠م·

٢ ـ د · ابراهيم على طرخان
الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة ·
مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الثامن ، ١٩٥٩م·

٣ ـ د · أحمد الخولى (بالاشتراك مع د · بديع جمعه)
تاريخ الصفويين وحضارتهم ـ الجزء الأول ·
دار الرائد العربى ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٧٦م·

٤ ـ د · أحمد السيد دراج
المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى)
دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٦١م·

٥ ـ أحمد توفيق المدنى
حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا
الشركة الوطنية للطباعة والنشر ، قسنطينة (الجزائر) ·

٦ ـ أحمد حسين
موسوعة تاريخ مصر ـ الجزء الثانى
مطبوعات دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٢م·

٧ ـ د · أحمد فؤاد متولى
الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته
دار النهضة العربية ، القاهرة ·

٨ ـ أحمد محمود الساداتى
تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم ـ الجزء الثانى .
مكتبة الآداب ، القاهرة .

٩ ـ ادوار بروى
تاريخ الحضارات العام ـ المجلد الثالث
ترجمة يوسف أسعد داغر ، فريد . م . داغر
بيروت ، ط ١ ، ١٩٦٥م .

١٠ ـ أرنست باركر
الحروب الصليبية
ترجمة د . السيد الباز العرينى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .

١١ ـ اسماعيل سرهنك
حقائق الأخبار عن دول البحار ـ الجزء الأول .
القاهرة ، ١٣١٤ هـ .

١٢ ـ أغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوفسكى
تاريخ الأدب الجغرافى العربى ـ القسم الثانى .
ترجمة صلاح الدين عثمان ، مراجعة ايغور بليايف
لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥م .

١٣ ـ د . السيد الباز العرينى
الفارس المملوكى
مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الخامس ، ١٩٥٦م .

١٤ ـ د . السيد رجب حراز
افريقية الشرقية والاستعمار الأوربى
دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨م .

١٥ ـ د٠ السيد رجب حراز
أرتريا الحديثة ١٥٥٧ ـ ١٩٤١م٠
معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٤م٠

١٦ ـ د٠ السيد جرب حراز
عصر النهضة
دار النهضة العربية ، القاهرة ٠

١٧ ـ د٠ السيد مصطفى سالم
الفتح العثمانى الأول لليمن
معهد البحوث والدراسات العربية ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٦٩م٠

١٨ ـ الشاطر بصيلى عبد الجليل
تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٢م٠

١٩ ـ أنور الجندى
الاسلام والغرب
دار الاعتصام ، القاهرة ٠

٢٠ ـ د٠ أنور عبد العليم
الملاحة وعلوم البحار عند العرب
المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٧٩م٠

٢١ ـ د٠ أنور عبد العليم
ابن ماجد الملاح
أعلام العرب ، العدد ٦٣ ، القاهرة ، ١٩٦٧م٠

٢٢ ـ أ٠ و٠ بوفيل
الممالك الاسلامية فى غرب افريقية وأثرها فى تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى٠
ترجمة ٠ زاهر رياض ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨م٠

٢٣ — باذل دافدسن
افريقيا تحت أضواء جديدة
ترجمة جمال أحمد ، دار الثقافة ، بيروت

٢٤ — توفيق سلطان اليوزبكى
تاريخ تجارة مصر البحرية فى العصر المماليكى
جامعة الموصل ، ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥م.

٢٥ — توماس . و . أرنولد
الدعوة الى الاسلام
ترجمة د . حسن ابراهيم حسن ، د . عبدالمجيد عابديـــن ،
اسماعيل النحراوى .
مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٠م.

٢٦ — جاستون فييت
القاهرة مدينة الفن والتجارة
ترجمة د . مصطفى العبادى ، مكتبة لبنان ، بيروت ٨، ١٩٦م.

٢٧ — جاكلين بيرين
اكتشاف جزيرة العرب
ترجمة قدرى القلعجى ، دارالكاتب العربى ، بيروت .

٢٨ — جان بول رو
الاسلام فى الغرب
ترجمة نجده هاجر ، سعيد الغز
المكتب التجارى للطباعة ، بيروت ، ١٩٦٠م.

٢٩ — د . جلال يحيى
العالم العربى الحديث (المدخل)
دار المعارف ، القاهرة .

٣٠ — د٠ جلال يحيى
الاستعمار والاستغلال والتخلف
الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥م٠

٣١ — د٠ جلال يحيى
المغرب الكبير — الجزء الثالث
الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦م٠

٣٢ — د٠ جمال زكريا قاسم
الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ٠
القاهرة ، ١٩٧٥م٠

٣٣ — د٠ جمال زكريا قاسم
استقرار العرب فى ساحل شرق افريقيا
حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس ، المجلد العاشر ، ١٩٦٧م

٣٤ — جميل خانكى
تاريخ البحرية المصرية
مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨م٠

٣٥ — جورج فضلو حورانى
العرب والملاحة فى المحيط الهندى
ترجمة د٠ السيد يعقوب بكر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ،
١٩٥٨م٠

٣٦ — جورج لوفران
تاريخ التجارة منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث ٠
ترجمة هاشم الحسينى ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ٠

٣٧ — جورج يعقوب
أثر الشرق فى الغرب خاصة فى العصور الوسطى
ترجمة د٠ فؤاد حسنين على ، لجنة البيان العربى ، القاهرة ،
١٩٤٦م٠

٣٨ ـ جى ٠ اج ٠ كرامز
الجغرافيا والتجارة
مقال ضمن كتاب تراث الاسلام ، ترجمة جرجيس فتح الله المحامى ،
بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٢م٠

٣٩ ـ جيان (ربان سفينة) ٠
وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقية الشرقية ٠
ترجمة يوسف كمال ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٢٧م٠

٤٠ ـ جيمس دفى
الاستعمار البرتغالى فى افريقية
ترجمة الدسوقى حسنين المراكبى
مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣م٠

٤١ ـ د٠ حسن أحمد محمود
الإسلام والثقافة العربية فى افريقية
دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٣م٠

٤٢ ـ د٠ حسن أحمد محمود
التهديد البرتغالى لسواحل جنوب الجزيرة العربية ومصادر دراسته
مجلة العرب ، الجزء السابع والثامن ، محرم وصفر ١٣٩٨ هـ ـ
١٩٧٨م٠

٤٣ ـ د٠ حسن عثمان
البحر الأحمر كطريق تجارى فى عهود البيزنطيين والعرب والمماليك
مقال ضمن كتاب رحلة كلية الآداب الى البحر الأحمر ، القاهرة ،
١٩٣٩م٠

٤٤ ـ د٠ حسين مؤنس
سفارة بدرو مارتير د أنجلاريا سفير الملكين الكاثوليكيين الـــى السلطان قنصوة الغورى (ديسمبر ١٥٠١ ـ فبراير ١٥٠٢ م)٠
مقال ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٧٠م٠

٤٥ ـ د٠ حسين مؤنس
رحلة الأندلس " حديث الفردوس المفقود "
الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٦٤م٠

٤٦ ـ حمدى السيد سالم
الصومال قديما وحديثا
وزارة الاستعلامات ، الجمهورية الصومالية

٤٧ ـ د٠ رأفت الشيخ (بالاشتراك مع د٠ محمود متولى)٠
افريقية فى العلاقات الدولية ٠
دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٢م٠

٤٨ ـ د٠ زاهر رياض
شمال افريقية فى العصر الحديث
مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٧م٠

٤٩ ـ د٠ زاهر رياض
تاريخ أثيوبيا
مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٦م٠

٥٠ ـ د٠ زاهر رياض
استعمار افريقية
الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥م٠

٥١ — د٠ زاهر رياض
الاسلام فى أثيوبيا فى العصور الوسطى
دار المعرفة ، القاهرة ، ١٩٦٤م٠

٥٢ — د٠ زاهر رياض
تاريخ غانــة الحديث
دار المعرفة ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٦١م٠

٥٣ — سبنسر ترمنجهام
الاسلام فى شرق افريقية
ترجمة محمد عاطف النواوى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ،
١٩٧٣م٠

٥٤ — ستانلى لينبول
سيرة القــاهرة
ترجمة د٠ حسن ابراهيم حسن ، د٠ على ابراهيم حســن ،
ادوار حليم ٠
مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥١م٠

٥٥ — د٠ سعاد ماهر
البحرية فى مصر الاسلامية وآثارها الباقية
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ٠

٥٦ — د٠ سعيد عبد الفتاح عاشور (بالاشتراك مع د٠ محمد أنيس) ٠
النهضات الأوربية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة ٠
القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٦٠م٠

٥٧ — د٠ سعيد عبد الفتاح عاشور
بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة ٠
مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الرابع عشر ،
١٩٦٨م٠

٥٨ ـ سونيا ٠ ى ٠ هـاو
في طلب التوابل
ترجمة محمد عزيز رفعت ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٧م٠

٥٩ ـ شارل ديل
البندقية جمهورية أرستقراطية
ترجمة د ٠ أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر
دار المعارف ، ١٩٤٧م٠

٦٠ ـ د ٠ شوقي الجمل
المغرب العربي الكبير في العصر الحديث
مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٧٧م٠

٦١ ـ د ٠ شوقي الجمل
تاريخ كشف افريقيـة
مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧١م٠

٦٢ ـ د ٠ صبحي لبيب
التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى
مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الرابـع ،
العدد الثاني ، ١٩٥٢م٠

٦٣ ـ د ٠ صلاح الدين الشامي
الموانى السودانية
مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٦١م٠

٦٤ ـ د ٠ صلاح العقـاد
المغرب العربي
مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٩م٠

٦٥ ـ د٠ صلاح العقـاد
التيارات السياسية فى الخليج العربى
مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٤م٠

٦٦ ـ د٠ صلاح العقـاد (بالاشتراك مع جمال زكريا قاسم)
زنجبـار
مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ٠

٦٧ ـ عبدالحميد بن أبى زيان بن اشنهو
دخول الأتراك العثمانيين الى الجزائر
الجزائر ، ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢م٠

٦٨ ـ د٠ عبد الحميد البطريق
من تاريخ اليمن الحديث
معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩م٠

٦٩ ـ د٠ عبد العزيز الشناوى
أوربا فى مطلع العصور الحديثة
دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩م٠

٧٠ ـ د٠ عبدالعزيز سليمان نوار
الشعوب الاسلامية
دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٣م٠

٧١ ـ عبد الكريم التواتى
مأساة انهيار الوجود العربى فى الأندلس
مكتبة الرشاد ، الدار البيضاء ٠

٧٢ ـ د٠ عبد الكريم كريم
المغرب فى عهد الدولة السعدية
الدار البيضاء ، ط ٢ ، ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨م٠

٧٣ — د. عبد المجيد عابدين
بين الحبشة والعرب
دار الفكر العربى ، القاهرة

٧٤ — عبد المنعم النمر
تاريخ الاسلام فى الهند
مكتبة دار العروبة ، القاهرة ، ١٩٥٩م.

٧٥ — د. عبد المنعم ماجد
العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى
مكتبة الجامعة العربية ، بيروت ، ١٩٦٦م.

٧٦ — د. عبد الرحمن زكى
الاسلام والمسلمون فى شرق افريقية
مطبعة يوسف ، القاهرة .

٧٧ — د. عبد الرحمن زكى
الجيش الاسلامى — الجزء الأول
مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٠م.

٧٨ — د. عزيز سوريال عطية
العلاقات بين الشرق والغرب
ترجمة د. فيليب صابر يوسف ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٧٢م.

٧٩ — د. على ابراهيم حسن
مصر فى العصور الوسطى
مكتبة النهضة المصرية ، ط ٥ ، القاهرة ، ١٩٦٤م.

٨٠ ـ على التاجر
أحمد بن ماجد .. دفاع وتقييم
مجموعة مقالات بمجلة العرب التى تصدر عن دار اليمامة بالرياض .
الأعداد : الجزء الثالث ، السنة الخامسة ، رمضان ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠م .
الجزء الرابع ، السنة الخامسة ، شوال ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠م .

٨١ ـ د . فاروق عثمان أباظة
عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ١٨٣٩ ـ ١٩١٨م .
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦م .

٨٢ ـ فتحى غيث
الاسلام والحبشة عبر التاريخ
مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .

٨٣ ـ قدرى القلعجى
الخليج العربى
دار الكاتب العربى ، بيروت ، ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥م .

٨٤ ـ قيصر أديب ا خولى
الاسلام فى الشرق الأقصى " وصوله وانتشاره وواقعه "
ترجمة د . نبيل صبحى ، دار العربية للطباعة والنشر ، بيروت .

٨٥ ـ ك . م . بانيكار
آسيا والسيطرة الغربية
ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٢م .

٨٦ ـ ك . ج . شينى
تاريخ العالم الغربى
ترجمة مجد الدين حفنى ناصف ، دار النهضة العربية ، القاهرة .

٨٧ ــ مانوراما موداك
الهند .. شعبها وأرضها
ترجمة محمد عبد الفتاح ابراهيم ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٤م .

٨٨ ــ محمد اسماعيل الندوى
تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية .
دار الفتح للطباعة والنشر ، ط ١ ، بيروت .

٨٩ ــ د . محمد المعتصم سيد
دول اسلامية فى شرق افريقيا
دراسات فى الاسلام يصدرها المجلس الأعلى للشئون الدينية ،
القاهرة ، ١٣٨٤ هـ ــ ١٩٦٤م .

٩٠ ــ د . محمد عبد اللطيف البحراوى
فتح العثمانيين عدن
مكتبة دار التراث ، ط ١ ، القاهرة ، ١٣٩٩ هـ ــ ١٩٧٩م .

٩١ ــ محمد عبد القادر بامطرف
الشهداء السبعة
دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٤م .

٩٢ ــ محمد عبد المنعم السيد الراقد
الغزو العثمانى لمصر ونتائجه على الوطن العربى .
مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية .

٩٣ ــ محمد عبد الله عنان
نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين
القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٦م .

٩٤ ــ محمد عبد الله عنان
ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى
القاهرة ، ١٩٤٨م .

٩٥ — محمد فريـد
تاريخ الدولة العلية العثمانية
دار الجيل ، بيروت ، ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧م .

٩٦ — محمد كرد علي
الاسلام والحضارة العربية — الجزء الأول
القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٨م .

٩٧ — د . محمد كمال الدسوقي
الدولة العثمانية والمسألة الشرقية
دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٦م .

٩٨ — د . محمد مصطفى زيادة
مصر والحروب الصليبية
من رسائل الثقافة الحربية رقم ٣٩ ، القاهرة ، ١٩٤٢م .

٩٩ — محمد ياسين الحموي
الملاح العربي أحمد بن ماجد
دمشق ، ١٩٤٧م .

١٠٠ — د . محمود رزق سليم
الأشرف قانصوه الغوري
مجموعة أعلام العرب ، عدد ٥٢ ، القاهرة .

١٠١ — محمود شـاكر
الكشوف الجغرافية .. دوافعها — حقيقتها
المكتب الاسلامي ، بيروت ، ١٣٩٣ هـ .

١٠٢ — محمود كامل المحامي
اليمن شماله وجنوبـه
بيروت ، ١٩٦٨م .

١٠٣ ــ د . نعيم زكى فهمى
طوق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب
القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٣م .

١٠٤ ــ نور الدين حاطوم
تاريخ عصر النهضة الأوربية ــ الجزء الثالث
دار الفكر الحديث ، بيروت ، ١٩٦٨م .

١٠٥ ــ هربرت فيشر
أصول التاريخ الأوربى الحديث
ترجمة د . زينب عصمت راشد ، د . أحمد عبد الرحيم مصطفى
دار المعارف ، القاهرة ، ط ٣ .

١٠٦ ــ يسرى الجوهرى
الفكر الجغرافى والكشوف الجغرافية
منشأة المعارف ، الاسكندرية .

١٠٧ ــ يوسف أحمد
الاسلام فى الحبشة .
القاهرة ، ١٩٣٥م .

... ...

خامسا : المراجع الغير العربية :

1. Alvarez, Father Francisco:
Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia During the years 1520 - 1527.
Translated from the portuguese and Edited by Lord Stanley of Alderley.
New York 1970.

2. Astley, Thomas:
Voyages and Trabels.
Four Volume, Great Britain 1968.

3. Berham, Margery:
The Government of Ethiopia.
London 1969.

4. The Cambridge History of Africa.
London 1977.

5. Coupland, R:
East Africa and its invaders.
Oxford 1961.

6. Diffie, Bailey & Winius, George:
Foundations of the portuguese Empire 1415 - 1580.
London 1977.

7. Doresse, Jean:
Ethiopia
Translated from the French by Elsa Coult.
London 1967.

8. Jones, A. H. M. & Monroe, Elizabeth:
A History of Ethiopia.
Oxford 1978.

9. Lanepool, Stanley:
A History of Egypt in the Middle Ages.
London 1968.

10. Livermore, H.V.:
Portugal and Brazil.
Oxford 1953.

11. Longrigg, Stephen H.:
A Short History of Eritrea.
U.S.A. 1974.

12. Lorimer, J.C.:
Gazetteer of the persian Gulf.
Holland 1970.

13. Miles, S.B.:
The Countries and Tribes of the persian Gulf.
London 1966.

14. Oaten, Edw Farley:
European Travellers in India.
New York 1971.

15. Pankhurst, Silvia:
Ethiopia A cultural History.

16. Pesce, Angelo.
Jiddah.
Itlaly 1974.

17. Playfair, Robert L.:
A History of Arabia Felix or Yemen.
London 1970.

18. Prestage, Edgar:
The Portuguese Pioneers.
London 1933.

19. Ley, Charles David:
Portuguese Voyages 1498 - 1663.
London 1972.

20. Serjeant, R.B.:
The portuguese off the South Arabian Coast.
Lebanon 1974.

21. Sousa, Manuel de Fariay:
The Portuguese Asia.
Translated into English by Cap John Stevens.
In Three Tomes.
London 1695.

22. Stephens, H. Morse.
Portugal.
London, T. Fisher Unwin 3 Edition, 1891.

23. Stripling, George Willam Frederick:
The Ottoman Turks and the Arabs 1511 - 1574.
U.S.A. 1942.

24. Trimingham, J. Spencer:
Islam in Ethiopia.
London 1976.

25. Ullendorff, Edward:
The Ethiopians.
Oxford 1960.

26. Villiers, Alan:
The Indian ocean.
London 1945.

.. .. ..